بسم الله الرحمن الرحيم



جمهورية السودان

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

دائرة العلوم الإسلامية

شعبة العقيدة

أفعال العباد بين الجبر والاختيار

دراسة تحليلية في العقيدة الإسلامية
على ضوء الكتاب والسنة

إعداد الطالب

محمد حسن رباح بخيت

إشراف

فضيلة الدكتور

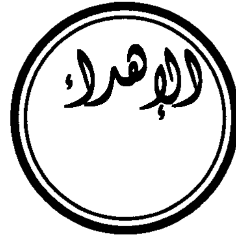
محجوب أحمد طه الكردي

مدير مركز الطالبات بالجامعة

قدمت هذه الرسالة لنيل درجة العالمية العليا (الدكتوراه)

في تخصص العقيدة

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



إلى والدي ووالدتي رمز العطاء

إلى إخـوتي وأخواتي الفضـلاء

إلى زوجتي وأولادي الأعزاء

محبة وتقـديـراً ووفـاء

محمد حسن


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

انطلاقاً من قوله تعالى :﴿...وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ...﴾ [1] .وهدي رسول الله ﷺ :[لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يشكُرُ النَّاسَ] [2].

وعرفاناً بالفضل لأهله ، أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أسهم أو ساعد في هذا البحث ، وأسدى إليّ نصيحة أو توجيهاً .

وأخص استاذي الكريم المشرف على هذه الرسالة فضيلة الدكتور / **محجوب أحمدطه الكردي** مدير مركز الطالبات بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية الذي منحني من فكره وجهده ووقته الكثير ، وجاد عليّ بنصائحه وتوجيهاته السديدة النافعة . فالله أسأل أن يمده بطول العمر وحسن العمل ، وأن يجزيه عني وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

كما وأتقدم بالشكر والتقدير لأستاذيّ الكريمين الفاضلين عضوي لجنة المناقشة فضيلة الأستاذ الدكتور : **محمدعثمان صالح** .مدير مركز أبحاث الإيمان العالمي وفضيلة الدكتور : **عبد الله عبد الحي** . عميد عمادة الطلاب بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ، لتفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة ليثرياها بتوجيهاتهما السديدة النافعة .

وأتوجه بالشكر والعرفان لجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والقائمين عليها وأخص فضيلة الأستاذ الدكتور/ **أحمدعلي الإمام** «حفظه الله» مدير الجامعة ، وفضيلة الدكتور **محمد الحسن فضل المولى** . عميد كلية الدراسات العليا والبحث العلمي لما وجدنا منهم من رعاية وحسن معاملة واحترام .

---

(١) سورة النمل الآية ٤٠ .

(٢) سنن أبي داود ج٤ ص ٢٥٦ ، كتاب الأدب ، باب في شكر المعروف حديث رقم ٤٨١١ .

وأتقدم بالشكر الجزيل لأساتذتي في جامعة أم درمان الإسلامية ، وأخص بالذكر الأخ الكريم والأستاذ الفاضل الدكتور / **شوقي بشير عبد المجيد** . رئيس قسم العقيدة بجامعة أم درمان الإسلامية .

وأترك عنان الشكر ليتوجه إلى الجامعة الإسلامية بغزة والقائمين عليها أكاديميين وإداريين ، وأخص بالذكر زملائي العاملين بكلية أصول الدين وفي مقدمتهم عميدها الدكتور / **أحمد يوسف أبو حلبيه** .

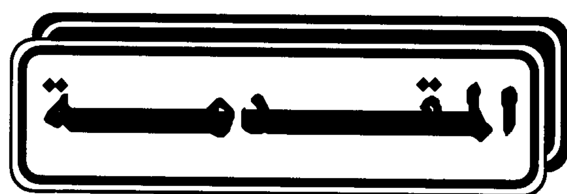
ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأخوين **أحمد وصلاح خضر** اللذين أشرفا على طباعة هذه الرسالة .

وأنني لأضرع إلى الله العلي القدير أن يتقبل مني هذا الجهد وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يمنّ عليّ بالقبول .

إنه نعم المولى ونعم النصير

والحمد لله رب العالمين

محمد حسن رباح بخيت


المقدمة

المقدمة

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾[1] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فصلوات الله وسلامه عليك يارسول الله وعلى آلك وأصحابك أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد :

فإن صلاح عقيدة الإنسان ، هو المنجي له في الدنيا والآخرة ، لأن العقيدة الصالحة تدفعه إلى مايرضي الله عز وجل ، وتحقيق منهجه على الأرض ، الذي به تنهض الأمة وتنال العزة والكرامة والمنعة ، وأما العقيدة الفاسدة فتؤدي بصاحبها إلى التهلكة في الدنيا والآخرة .

ولهذا ركز القرآن الكريم على أمر العقيدة تركيزاً شديداً ، فبين الحق وأمر باتباعه ، كما بين الباطل وأمر باجتنابه ، وهذا البحث يتناول مسألة هامة من مسائل العقيدة تتعلق بركن من أركان الإيمان ، ألا وهو القضاء والقدر .

سبب اختيار الموضوع :

يرجع سبب اختياري لهذا الموضوع إلى :

١ - دراستي لكثير من كتب العقيدة التي تحدثت عن أفعال العباد في باب القضاء والقدر ، ومسألة تخيير الإنسان وتسييره ، وخاصة كتاب شفاء العليل للإمام ابن القيم ومافيه من مناظرات بين أهل السنة والجبرية ، وأهل السنة والمعتزلة ، ومن ثم اطلاعي على كتاب شرح الأصول الخمسة وكتاب المغنى في أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبد الجبار ، ومافي هذه الكتب من أخطاء عقدية مما دفعني للتعرف على حقيقة هذه المسألة على ضوء الكتاب والسنة .

---

(١) سورة الكهف الآيات ١ - ٣ .

٢ - احتجاج كثير من الناس في زماننا هذا بالقدر على قصورهم ومعاصيهم ، وخاصة عند دعوتهم إلى دين الله عز وجل ومنهاجه معلنين أنهم مكرهون ومجبرون على ذلك ، فأردت أن أسهم في تبيان ذلك .

٣ - تحدث الفلاسفة والمتكلمون في مسألة أفعال العباد ، واستخدموا الأدلة النقلية والعقلية ليبرهن كل منهم على صحة رأيه ، فأردت معالجة ذلك وتقويمه لإظهار الحق وكشف الباطل .

٤ - عدم اطلاع الباحث - في حدود علمه - على رسالة وافية في هذا الموضوع ، بحيث تشرح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الموضوع .

أهمية الموضوع :

١ - تكمن أهمية الموضوع في أنه يعالج مسألة من صميم أصول العقيدة الإسلامة .

٢ - أن مسألة أفعال العباد ، ناقشتها الديانات السابقة والفلسفات القديمة ، ثم انتقلت بما فيها من أفكار منحرفة ومعتقدات باطلة إلى المسلمين ، فأخذ بها البعض ، وعمل على ترويجها .

٣ - ومما يزيد هذا البحث أهمية أنه يتصل كذلك بإرادة الله تعالى ، ذلك أن فهم هذا الموضوع بشمول يستلزم الحديث عن إرادة الله تعالى ومعرفة حقيقتها من حيث إنها إرادة كونية ، وإرادة شرعية ، ثم توضيح العلاقة بينها وبين إرادة الإنسان .

٤ - أنه يبرز ظاهرة الجبر التي أخذت تنتشر في عصرنا هذا ، حيث يحاول الكثير من الناس الاحتجاج بالقدر على المعائب والجرائم التي ترتكب ، والسكوت على ظلم الظالمين ، واجرام المفسدين . ثم ينقض البحث الآراء الجبرية ، ويرد على تلك الشبهات من خلال الأدلة الشرعية ، وتوضيح فهم السلف لمسألة أفعال العباد والذي استمدوه من القرآن الكريم والسنة النبوية .

منهج البحث :

١ - استقرأت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بأفعال العباد ، ثم استعنت بكتب التفسير وشروح الحديث المعتمدة على فهمها وتحليلها .

٢ - عرض الأقوال في مسائل الخلاف ، وتقويمها . مع اختيار قول السلف لموافقته كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

٣ - ترجمت لجملة من الأعلام الذين وردت إليهم الإشارة في ثنايا البحث .

٤ - عزو الآيات القرآني إلى سورها وأرقامها ، وتخريج الأحاديث النبوية .

٥ - ذيلت البحث بعدة فهارس كفهرس الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وفهرس الأعلام المترجم لهم وفهرس المصادر والمراجع ثم فهرس الموضوعات .

موضوعات البحث :

قسمت البحث إلى ثلاثة أبواب يسبقها مقدمة وتمهيد ويقفوها خاتمة ، ثم أتبعت ذلك بفهرس للآيات القرآنية ، وآخر للأحاديث النبوية ، وفهرساً للأعلام المترجم لهم ، وفهرساً للمراجع وفهرساً للمواضيع .

أما التمهيد :

فيتحدث عن تعريف الإيمان لغة واصطلاحاً ، حيث يظهر أقوال علماء اللغة فيه ، ثم التعريف الاصطلاحي للإيمان ، مع بيان وتوضيح الخلاف في التعريف الاصطلاحي بين أئمة المذاهب والفرق ، مع ترجيح مايوافق الكتاب والسنة .

كما ويتحدث التمهيد عن حقيقة الإيمان وعلاقته بالأعمال ، حيث يظهر موقف أهل السنة والجماعة ، مع التطرق إلى الموقف من زيادة الإيمان ، ونقصانه .

وأما الباب الأول : فهو بعنوان «الإرادة بين الخالق والمخلوق»

ويتكون من فصلين وأربعة مباحث .

الفصل الأول : بعنوان "إرادة الخالق وأفعاله" .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : بعنوان :«تعريف الإرادة وعلاقتها بالأفعال».

المبحث الثاني : بعنوان :«الإرادة والمشيئة الإلهية» .

الفصل الثاني : بعنوان "إرادة المخلوق وأفعاله" .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : «إرادة الإنسان وصلتها بإرادة الله تعالى» .

المبحث الثاني : «الاستطاعة والتكليف» .

الباب الثاني : بعنوان :«الهدى والضلال»

ويتكون من فصلين وأربعة مباحث :

الفصل الأول : بعنوان "الهدى : مفهومه ومراتبه وأسبابه"

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : «تعريف الهدى ومفهومه» .

المبحث الثاني : «مراتب الهدى وأسبابه» .

الفصل الثاني : بعنوان :"الضلال : مفهومه وأنواعه وأسبابه"

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : «تعريف الضلال ومفهومه» .

المبحث الثاني : «أنواع الضلال وأسبابه» .

الباب الثالث : بعنوان «أفعال العباد في القرآن والسنة»

ويتكون من فصلين وأربعة مباحث :

الفصل الأول : بعنوان :"أفعال العباد في القرآن الكريم"

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : «مناقشة أفعال العباد على ضوء القرآن الكريم»

المبحث الثاني : «موقف الجبرية والمعتزلة من آيات الأفعال والرد عليهم» .

الفصل الثاني : بعنوان "أفعال العباد في السنة النبوية" .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : مناقشة أفعال العباد على ضوء السنة النبوية» .

المبحث الثاني : «موقف الجبرية والمعتزلة من أحاديث الأفعال والرد عليهم» .

وأما الخاتمة : فعرضت فيها أهم ماتوصلت إليه من نتائج وتوصيات .

الفهارس :

واتماماً للبحث والفائدة المرجوة أتبعت الخاتمة بفهارس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والأعلام المترجم لهم ، والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

١ - فهرس الآيات القرآنية الكريمة : وقد أثبتها حسب ورودها في القرآن الكريم مع ذكر اسم السورة ورقم الآية ، وأرقام صفحات ورودها في البحث .

٢ - فهرس الآحاديث النبوية ، وقد رتبتها حسب الأحرف الهجائية .وذكرت أرقام الصفحات الواردة فيها .

٣ - فهرس الأعلام : وقد ذكرت الأعلام المترجم لهم ورتبتهم حسب الأحرب الهجائية ، ثم ذكرت الصفحة الوارد فيها ترجمة العلم .

٤ - فهرس المصادر والمراجع : وقد رتبتها حسب الأحرف الهجائية لأسماء الكتب .

٥ - فهرس الموضوعات :وذكرت فيه كل مسألة في البحث تمثل عنواناً ، ثم أشرت إلى الصفحة .

حاشية البحث :

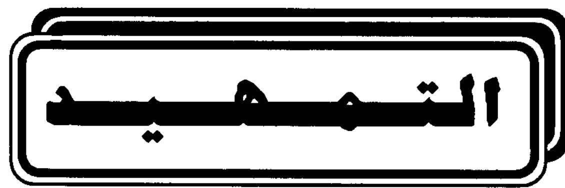
اهتممت بالحاشية كثيراً ويظهر ذلك فيما يلي :

١ - ذكرت فيها اسماء السور وأرقام الآيات التي وردت في البحث .

٢ - ذكرت مصادر الحديث النبوي الشريف ، والكتاب الذي جاء فيه إضافة إلى الباب والجزء والصفحة ورقم الحديث إن وجد .

٣ - إذا كان المقتطف بنصه ، أجعله بين علامتي تنصيص وأشير إليه في الحاشية بذكر المرجع والجزء والصفحة ، وإذا كان منقولاً بالمعنى فلا أحصره بين علامتي تنصيص ، وأكتفي بالإشارة إليه في الحاشية بذكر كلمة (انظر) ثم بذكر المرجع والجزء والصفحة .

٤ - ذكرت فيها بعض معاني الكلمات الصعبة .


التمهيد

التمهيد

يتحدث التمهيد عن نقطتين أساسيتين هما :

١ - تعريف الإيمان لغة واصطلاحاً :

أ) التعريف اللغوي للإيمان .

- مدلول التعريف عند العلماء .

ب) التعريف الاصطلاحي للإيمان .

- تعريف العلماء والفِرَق للإيمان .

- بيان التعريف الموافق للكتاب والسنة .

٢ - حقيقة الإيمان وعلاقته بالأعمال :

أ) أقوال أئمة المذاهب والفرق في مسمى الإيمان .

ب) علاقة الإيمان بالأعمال .

ج) القول الموافق للكتاب والسنة والرد على المخالفين

الإيمان لغة :

ورد الإيمان في اللغة بمعنى التصديق والخضوع والقبول،ففي القاموس المحيط :«وآمن به إيماناً صدقه ، والإيمان :الثِّقَةُ وإظهار الخضوع وقبول الشريعة»[(١)] وفي الصحاح :«والايمان التصديق»[(٢)] ،وفي لسان العرب : «وأما الإيمان فهو مصدر آمَنَ يُؤْمِنُ إيماناً فهو مُؤْمِنٌ ، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق» .[(٣)]

ووضح الإمام الطبري[(٤)] معنى الإيمان بقوله :«الإيمان عند العرب :التصديق ، فَيُدْعَى المصدق بالشيء قولاً مؤمناً به ، ويدعى المصدق قوله بفعله مؤمناً ، ومن ذلك قول الله عز وجل :﴿وَ مَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[(٥)] يعني وما أنت بمصدق لنا في قولنا » .[(٦)]

وأما في شرح المقاصد فقد ورد مايلي :«الإيمان لغة يعدى بالباء لاعتبار معنى الإقرار والاعتراف كقوله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ...﴾[(٧)] وباللام لاعتبار معنى الإذعان والقبول . ﴿... وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَاوَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[(٨)] [(٩)]

وأدخل بعض العلماء الخشية في مسمى الإيمان فهذا الإمام الطبري ينقل عن الربيع قوله : «يؤمنون يخشون»[(١٠)] . ففسر الإيمان بالخشية . ويقول أيضاً :«وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل»[(١١)] ، ويوضح الأمر أكثر عندما يحدد حقيقة

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي ج٤ ص ١٩٧ ، مادة أمن ، دار الفكر – بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م .

(٢) الصحاح للجوهري ج٥ ص ٢٠٧١ ، مادة أمن ط٢ ١٩٧٩م دار العلم للملايين – بيروت – لبنان .

(٣) لسان العرب لابن منظور ج١٣ ص ٢٣ مادة أمن . دار صادر – بيروت – لبنان .

(٤) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد بن كثير الطبري ، الإمام الجليل المجتهد صاحب التصانيف المشهورة ولد سنة ٢٢٤ هـ ، طوف الأقاليم في طلب العلم ثم استقر ببغداد وبقي إلى أن مات سنة ٣١٠ هـ . انظر : التفسير والمفسرون للذهبي ج١ ص ٢٠٥ ، ط٢ سنة ١٣٩٦ هـ دار الكتب الحديثة – القاهرة .

(٥) سورة يوسف الآية ١٧ .

(٦) جامع البيان للطبري ج١ ص ٢٧١ ط الرابعة سنة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٣م ، دار المعرفة للطباعة والنشر– بيروت

(٧) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٨) سورة يوسف الآية ١٧ .

(٩) شرح المقاصد للتفتازاني ج٥ ص ١٧٦ ط الأولى ١٤٠٩ سنة ١٩٨٩م ، عالم الكتب – بيروت .

(١٠) جامع البيان للطبري ج ١ ص ٧٨ .

(١١) المصدر السابق ج١ ص ٧٨ .

التصديق وهو كونه بالقول والاعتقاد والعمل فيقول : «وأشبه بصفة القوم أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً» .(١)

يتبين مما سبق أن الإيمان من ناحية اللغة يطلق على التصديق والخضوع والقبول والثقة بل وعلى الخشية أيضاً .

الإيمان اصطلاحاً :

حصل خلاف حول تعريف الإيمان من الناحية الاصطلاحية بين العلماء وأئمة المذاهب والفرق،وخاصة حول قضية العمل ودخوله في مسمى الإيمان ، فمنهم من أدخل العمل في مسمى الإيمان ، ومنهم من أخرجه . بل إن هناك من اعتبر الإيمان اعتقاداً بالقلب فقط ، ومنهم من اعتبره قولاً باللسان فقط .

أما معظم علماء السلف فعرفوا الإيمان بأنه «تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان»(٢) ، فأدخلوا العمل في مسمى الإيمان .

وأما الإمام أبو حنيفة(٣) فعرف الإيمان بقوله : «والإيمان هو الإقرار والتصديق»(٤) أي الإقرار باللسان والتصديق بالجنان ، ويلاحظ أنه أخرج العمل من مسمى الإيمان .

وذهبت الكرامية(٥) إلى:الإيمان «هو الإقرار باللسان فقط» .(٦)

وهذا القول معلوم فساده لمخالفته لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية .

---

(١) جامع البيان للطبري ج ١ ص ٧٨ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ ، ط٦ سنة ١٤٠٠هـ المكتب الاسلامي - بيروت .

(٣) أبوحنيفة النعمان بن ثابت الكوفي إمام الحنفية ، الفقيه المجتهد ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة قيل أصله من بلاد فارس ، ولد ونشأ بالكوفة ، كان يبيع الخز ، ويطلب العلم توفي سنة ١٥٠ هـ وله سبعون سنة . انظر : تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ج٢ ص ٣٠٣ ، وانظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ ص ٢١٥ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج٩ ص ٤ .

(٤) شرح الفقه الأكبر ص ١٢٤ ط ١ ، سنة ١٤٠٤ ، دار الكتاب - بيروت ، وانظر : الأصول والفروع لابن حزم ج١ ص ٩ .

(٥) الكرامية : من فرق المرجئة حيث عدهم أبو الحسن الأشعري من فرق المرجئة ، كما أن ابن تيمية قسم المرجئة إلى ثلاثة أصناف وعد الكرامية إحداها . ظهرت هذه الفرقة في بداية القرن الثالث الهجري بزعامة محمد بن كرام السجستاني ، مذهبهم في الإيمان هو الاقرار باللسان . انظر : مقالات الاسلاميين ج١ ص ٢١٤ ، وانظر : الايمان لابن تيمية ص ١٨٤ .

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ .

وأما الجهمية[1] فذهبت إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب[2] وهذا القول أظهر فساداً مما قبله.

رغم هذا الاختلاف في تعريف الإيمان ، إلا أن هناك أمور متفق عليها ، ولذلك يضع الامام ابن حجر العسقلاني النقاط على الحروف في ذلك بقوله : «والإيمان لغة التصديق وشرعاً تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه وهذا القدر متفق عليه »[3] ، ثم يبين حصول الخلاف في حقيقة الإيمان فيقول : «ثم وقع الاختلاف : هل يشترط مع ذلك مزيد أمر من جهة إبداء هذا التصديق باللسان المعبر عما في القلب ، إذ التصديق من أفعال القلوب ؟ أو من جهة العمل بما يصدق به من ذلك كفعل المأمورات وترك المنهيات» .[4]

ولذلك يلاحظ أن بعض العلماء ركزوا في تعريفهم للإيمان على العمل فهذا الامام ابن حزم[5] يعرفه بقوله :«وأوقعته الشريعة على الأعمال المأمور بها ، وعلى اجتناب المعاصي المنهي عنها »[6] كما ذكر البغدادي عن بعض العلماء في الإيمان القول:«إن الإيمان جميع الطاعات فرضها ونفلها »[7]. وتكلم ابن القيم [8] بوضوح عن العمل عند تعريفه للإيمان

---

(١) الجهمية : مؤسسها الجهم بن صفوان السمرقندي مولى بني راسب وهو من أهل خراسان تتلمذ على الجعد بن درهم ، والجهمية تطلق أحياناً بمعنى عامة ويقصد بهم نفاة الصفات عامة ، وتطلق أحياناً بمعنى خاص ويقصد بهم اتباع الجهم بن صفوان في آرائه وأهمها نفي الصفات والقول بالجبر ، والقول بفناء الجنة والنار . انظر : الفصل لابن حزم ج٥ ص ٧٣ ، وانظر : الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ١٣٥ ، وانظر : الفرق بين الفرق للبغدادي، ص ٢١١ ، وانظر : التبصير في الدين للإسفرايين ص ٦٣و ٦٤ .

(٢) الأصول والفروع لابن حزم ج١ ص ٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣.

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج١ ص ٤٦ مكتبة الرياض الحديثة – الرياض .

(٤) المصدر السابق ج١ ص ٤٦ .

(٥) ابن حزم هو علي بن سعيد بن حزم وكنيته أبو محمد ولد سنة ٣٨٤ هـ بقرطبة حيث عاش في بيت له سلطان وجاه في بداية حياته ، كان أول أمره شافعي المذهب ولكنه بعد ذلك أصبح من الظاهرية ،له عدد من المؤلفات التاريخيه والفقهية ، توفي سنة ٤٥٦هـ . انظر : لسان الميزان ج٤ ص ٢٢٩ . وانظر : وفيات الأعيان ج٣ ص ١٣ ص ١٧ ، وانظر : الأعلام ج٥ ص ٥٩ .

(٦) الأصول والفروع لابن حزم ج١ ص ٨ ط الأولى ١٤٠٤ هـ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٧) أصول الدين للبغدادي ص ٢٤٩ ، ط٣ سنة ١٤٠١ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

(٨) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية ، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولد في دمشق سنة ٦٩١ هـ سنة ١٢٩٢ وتوفي بها سنة ٧٥١ هـ سنة ١٣٥٠م سجن في قلعة دمشق مع ابن تيمية ، له كثير من المؤلفات . انظر : الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ج٣ ص ٤٠٠ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج٦ ص ٥٦ .

بقوله : «هو حقيقة مركبة من معرفة ماجاء به الرسول - ﷺ - علماً ، والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً ، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان ، وكماله في الحب في الله والبغض في الله ، والعطاء لله والمنع لله ، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده» .(١)

وهكذا يتضح تعريف الإيمان من حيث اللغة والاصطلاح ولكن بجانب ذلك لابد من تبيان موقف كل طائفة لمعرفة الحق من الباطل ، لبيان الصواب واتباعه ، ومعرفة الباطل واجتنابه .

حقيقة الإيمان وعلاقته بالأعمال :

اختلفت آراء العلماء ومعتقداتهم حول حقيقة الإيمان ، والعلاقة بينه وبين العمل ، فظهر هذا الخلاف على ألسنة الفرق والمذاهب والعلماء ، فمنهم من أصاب الحق ، ومنهم من حاد عنه ، وسيتضح ذلك من خلال دراسة هذه الآراء والأقوال وبيان الصواب والخطأ فيها .

أولاً : أهل السنة والجماعة :

وهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين من أهل القرون الاولى ، وأتباعهم وأئمة الدين ممن شُهِدَ له بالإمامة وعرف عظم شأنه في الدين وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف ، وكانوا لا يتكلمون في شئ من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقول ، وإذا أراد أحدهم معرفة شئ من الدين والكلام فيه ، نظر فيما قاله الله تعالى والرسول ﷺ، فمن القرآن الكريم والسنة المطهرة تعلموا ، وفيهما نظروا وتدبروا ، وبهما استدلوا واقتدوا ، ولذلك لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الاعتقاد كالأسماء والصفات والأفعال ، بل كانوا جميعاً على إثبات ومانطق به الكتاب والسنة ، فلم يسموها تأويلاً ، ولم يحرفوها عن مواضعها ، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها ، بل تلقوها بالقبول والتسليم والإيمان والتعظيم .(٢)

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ١٤٧ ط١ ، سنة ١٤٠٧هـ دار الريان للتراث - القاهرة .

(٢) انظر : مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ج١٣ ص٦٣، ط الأولى ١٣٩٨هـ مطابع الحرية - بيروت .

وانظر : لوامع الأنوار البهية محمد السفاريني ج١ص ٦ ،٢٠، ط٣ سنة ١٤١١هـ المكتب الإسلامي- بيروت

١ - قول جمهور العلماء في مسمى الإيمان :

ذهب معظم علماء السلف إلى أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح والأركان ، حيث أدرجوا الطاعات والأعمال تحت اسم الإيمان ، وهذه بعض أقوال الصحابة وعلماء السلف تثبت وتؤكد ذلك :

- قال الامام علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما : «لاينفع قول إلا بعمل ، ولا عمل إلا بقول ، ولا قول وعمل إلا بنية ، ولا بنية إلا بموافقة سنة» .[١]

- وقال الحسن[٢] رضي الله عنه:«الإيمان قول ، ولا قول إلا بعمل ، ولاقول وعمل إلا بنية ، ولا قول وعمل ونية إلا بسنة» .[٣]

- وقال الإمام مالك[٤] «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص» .[٥]

- وقال الإمام الشافعي[٦] : «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية» .[٧]

---

(١) الاعتقاد : للبيقهي ص ١٤٦ ، ط الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الشريعة للآجري ص ١٣١ ط الأولى سنة ١٤٠٣هـ ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

(٢) الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ولد سنة ٣هـ سنة ٦٢٤م وتوفي سنة ٥٠هـ سنة ٦٧٠م خامس الخلفاء الراشدين ، وثاني الأئمة الإثنى عشر عند الشيعة الإمامية ، ولد بالمدينة المنورة ، أمه فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - بايعه أهل العراق بعد مقتل أبيه ، ولكنه تنازل عن الخلافة لمعاوية حفاظاً على دماء المسملين ، أقام بعد ذلك في المدينة حتى توفي مسموماً حسب بعض الأقوال . انظر : الأعلام للزركلي ٢/٢١٣ ، وانظر : الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٣٠ ، دار المعرفة - بيروت .

(٣) الشريعة للآجري ص ١٣١ .

(٤) مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي من سادة أتباع التابعين ، وهو إمام دار الهجرة ،كان علماً من أعلام الحديث والفقه .وهو صاحب المذهب المعروف ولد سنة ٩٣ هـ ومات سنة ١٧٩ ، قال عنه الشافعي :«إذا ذكر العلماء فمالك النجم » انظر : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٥ ، وانظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ج٢ ص ٣٩٠ .

(٥) الرد على الزنادقة والجهمية للامام أحمد بن حنبل ص ١١٢ ، الناشر منشأة المعارف - الاسكندرية .

(٦) محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، إليه نسبت الشافعية ، ولد سنة ١٥٠ هـ في غزة بفلسطين ، انتقل إلى مكة وهو ابن سنتين ، زار بغداد ثم مصر . وبقي فيها حتى توفي سنة ٢٠٤هـ ، له تصانيف كثيرة أهما الأم والرسالة . انظر : تهذيب التهذيب ج٩ ص ٢٥ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج١ ص ٢٦ .

(٧) فتح الباري ج١ ص ٤٧ ، الاعتقاد للبيهقي ص ١٤٦ ، عون المعبود ج٢ ص ٤٥٠ .

- وقال الإمام أحمد[1] : «الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، الصلاة والزكاة والحج والبر كله من الإيمان ، والمعاصي تنقص الإيمان» .[2]

- وقال الإمام البخاري[3] : «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص» .[4]

كما أنه ترجم ذلك في جامعه الصحيح ، «كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ (بني الإسلام على خمس) ، وهو قول وفعل ويزيد وينقص» .[5]

وقال الإمام ابن تيمية[6] : «من أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية».[7]

هذه بعض أقوال علماء السلف التي تثبت أن الإيمان قول واعتقاد وعمل ، وعندهم الأدلة على ذلك وهي :

---

(١) أحمد بن حنبل الشيباني ولد سنة ١٦٤ هـ ببغداد حيث عاش وذاع اسمه . وهو أحد الأئمة الأربعة وصاحب المذهب المشهور ، كان إماماً في الحديث وفنونه ، والفقه وفنونه ، تعرض للمحنة فصبر توفي سنة ٢٤١ هـ وقد جاوز سبعاً وسبعين سنة . انظر : وفيات الأعيان ج١ ص ١٧ ، طبقات الحفاظ ص ١٨٩ ص ١٩٠ ، والطبقة الثامنة رقم ٤١٧ . وانظر : شذرات الذهب ج٢ ص ٩٦ ، وانظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ج٢ ص ٤٨٤ .

(٢) الرد على الزنادقة والجهمية ص ١١٢ . وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج٥ ص ٩٤٨ .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن ابراهيم البخاري ولد سنة ١٩٤ هـ ، إمام أهل الحديث في زمانه ، له صحيح البخاري الذي أجمع على صحته العلماء ، توفي سنة ٢٥٦ هـ وترك علماً نافعاً للمسلمين . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ، ج١١ ص ٢٤ .

(٤) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ج١ ص ٤٧ مكتبة الرياض الحديثة - الرياض .

(٥) صحيح البخاري ج١ ص ٧ كتاب الإيمان باب قول النبي بني الإسلام على خمس .

(٦) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام تقي الدين ابن تيمية ناصر السنة وقامع البدعة يلقب بشيخ الإسلام ، ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر ، ولد سنة ٦٦١ هـ ١٢٦٣م ، توفى في قلعة دمشق سنة ٧٢٨ هـ ١٣٢٩م . انظر : الدرر الكامنة ج١ ص ١٤٤ ، وانظر البداية والنهاية ج١٤ ص ١٣٥ ، وانظر : فوات الوفيات للكتبي ج١ ص ٧٤ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج١ ص ١٤٤ .

(٧) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيميمة ج٣ ص ١٥١ ، ط١ سنة ١٣٩٨هـ مطابع دار العربية - بيروت - لبنان .

١ - الأدلة على أنه قول باللسان : فهو قول الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ... ﴾[(١)] وقوله تعالى : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[(٢)] وقوله تعالى : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...﴾[(٣)] .

وأما من السنة النبوية فقول الرسول ﷺ : **[أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم]**[(٤)] فهذا الإيمان باللسان يجب النطق به .[(٥)]

٢ - الأدلة على أنه اعتقاد بالقلب : فهو قول الله تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(٦)] وقوله تعالى : ﴿... وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾[(٧)] . وقوله تعالى : ﴿... وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[(٨)] .

وأما من السنة النبوية فقول الرسول ﷺ **[يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه ،لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته]**[(٩)] .

فهذه الأدلة تثبت أن الإيمان لابد وأن يكون بالقلب أيضاً .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٤ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٤ .

(٤) صحيح مسلم ج١ ص ٥٣ كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، حديث رقم ٢١، صحيح البخاري ج٢ ص ١١٠ كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة .

(٥) انظر : الشريعة للآجري ص ١٢٠ . وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج٤ ص ٨٣٠ .

(٦) سورة النحل الآية ١٠٦ .

(٧) سورة الحجرات الآية ١٤ .

(٨) سورة الحجرات الآية ٧ .

(٩) سنن أبي داود ج٤ ص ٢٧٠ كتاب الآداب ، باب في الغيبة ، حديث رقم ٤٨٨٠ .

وأما الأدلة على أنه عمل بالجوارح : فهو قول الله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿... فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣) .كما أنه فرض الصيام على جميع البدن ، وفرض الجهاد بالبدن وبجميع الجوارح (٤).

وأما من السنة النبوية فقول الرسول - ﷺ - **[من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان]** . (٥)

إن هذه الأدلة تثبت أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، ولكن السلف لا يعنون بقولهم التصديق والعمل ، أن العمل جزء من الإيمان ، بحيث ينعدم الإيمان بإنعدام العمل ، لإجماعهم على أن العاصي بترك بعض الواجبات مؤمن ، فإضافة العمل إلى الإيمان بناء على هذا إضافة كمال ، فالمصدق بقلبه إذا لم يجمع إلى تصديقه العمل لا يستحق اسم مؤمن على الإطلاق ، بل التقييد بمؤمن عاص ، لأن اسم الشيء مطلقاً يقع على الكامل منه ، ولا يستعمل في الناقص ظاهراً إلا ويقيد . (٦)

---

(١) سورة البينة الآية ٥ .

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠ .

(٣) سورة الحج الآية ٧٧ .

(٤) انظر : الشريعة للآجري ص ١٢٠ ، وانظر : شرح اعتقاد أهل السنة ج٤ ص ٨٣٠ .

(٥) صحيح مسلم ج١ ص ٦٩ كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان حديث رقم ٤٩ ، جامع الأصول لابن الأثير ج١ ص ٣٢٥ .

(٦) انظر : فتح المنعم شرح صحيح مسلم ج١ ص ٣٧ ط٢ دار التراث العربي - القاهرة ، وانظر : العقيدة الطحاوية ص ٣٧٥ ، صدر الدين محمد بن أبي العز الحنفي ، الطبعة السادسة سنة ١٤٠٠ هـ ، المكتب الإسلامي - بيروت .

زيادة الإيمان ونقصانه عند الجمهور :

لقد تبين عند الحديث عن أقوال العلماء في مسمى الإيمان أنهم يقولون بزيادة الإيمان ونقصانه ، بل إن الإمام الغزالي[١] ذكر اتفاق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .[٢]

فعن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : «الإيمان يزيد وينقص» .[٣]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول : «هلموا نزدد إيماناً» فيذكرون الله عز وجل[٤] .كما ورد عن سفيان بن عيينة أنه قال :«الإيمان قول وعمل يزيد وينقص » .فقال له أخوه إبراهيم بن عيينه : يا أبامحمد تقول ينقص ؟ فقال : اسكت ياصبي ! بل ينقص حتى لا يبقى منه شئ »[٥] .ويبين الإمام علي بن ابي طالب رضي الله عنه حقيقة الزيادة بقوله : «إن الإيمان يبدأ لمظة في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة» .[٦]

إن هذه الأقوال توضح دون شك موقف السلف من زيادة الإيمان ونقصانه ، وأنه حقيقة يزداد وينقص يزداد بالطاعة وينقص بالمعصية .

واعتمد السلف في قولهم هذا على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ حيث قال تعالى في محكم التنزيل :﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ...﴾ [٧] وقوله تعالى : ﴿... لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ...﴾ [٨]وقوله تعالى : ﴿... وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ...﴾[٩] .وغيرها

---

(١) هومحمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد ،حجة الإسلام ، متصوف من علماء الكلام ، له نحو مائتي مصنف ، ينسب إلى صناعة الغزال ، وقيل نسبه إلى غزالة من قرى طوس ، ولد سنة ٤٥٠هـ ١٠٥٨م ، في الطابران بخراسان وتوفي بها سنة ٥٠٥ هـ ١١١١م . انظر وفيات الأعيان ج٤ ص ٢١٦ - ٢١٧ ، وانظر : شذرات الذهب ج٤ ص ١٠ ، وانظر : الاعلام للزركلي ج٧ ص ٢٢ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ج١ ص ١٢٠ ، وانظر : فتح الباري شرح البخاري ج١ ص ٤٦ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج٥ ص ٩٤٥ ، وانظر : الإيمان لابن تيمية ص ١٩٥ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٦ ، شرح اعتقاد أهل السنة ج٥ ص ٩٤١ .

(٥) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ج١ ص ١٢٢ ، وانظر : عون المعبود شرح سنن أبي داود ج٢ ص ٤٥٠ .

(٦) شرح اعتقاد أهل السنة ج٥ ص ٩٤١ .

(٧) سورة الفتح الآية ٤ .

(٨) سورة المدثر الآية ٣١ .

(٩) سورة الأنفال الآية ٢ .

من الآيات التي تصرح بزيادة الإيمان ، والزيادة المذكورة تفيد النقصان، فكل ماهو قابل للزيادة قابل للنقصان ، وهو ما أشار إليه الإمام أحمد بقوله :«إذا كان قبل زيارته تاماً ، فكيف يزيد التام ، فكما يزيد كذا ينقص» (١).

وأما السنة النبوية فذكرت الزيادة والنقصان في الإيمان ، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ :**[أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً]** (٢).

وكما ورد في حديث الشفاعة قوله ﷺ:**[... فأقول : يارب أمتي : أمتي . فيقال لي : انطلق . فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار . فأنطلق فأفعل]** (٣) .فهذا يدل على أن الإيمان ينمو ويكتمل كما أنه ينقص ويضمحل حتى يبقى كحبة خردل أو أدنى ، ويوضح ذلك أكثر ويبين حقيقة الزيادة والنقصان ، قول الرسول ﷺ:**[الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة . فأفضلها قول لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شبعة من الإيمان]** (٤) فهذا الحديث يبين ويوضح أن الإيمان له جوانب وشعب عديدة ، دنيا ووسطى وأعلي ، وفي ذلك إثبات للتفاضل بين المؤمنين ، والتباين في الدرجات ، كما أنه يشير إلى أن الإيمان قابل للزيادة والنقصان ، وقد سئل الإمام أحمد عن نقصان الإيمان فقال : «نقصانه قول النبي ﷺ: **[لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن]** (٥) (٦) . فأثبت من خلال هذا الحديث نقصان الإيمان، وعقب النووي على هذا الحديث بقوله:«وهذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه ، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان،وهذه من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله »(٧) .

---

(١) المسائل والرسائل للآحمدي ج١ ص ٩٠ ، ط١ سنة ١٤١٢هـ ، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٥ ص ٢٥٠ ، ط ٢ سنة ١٩٧٨م ، دار الفكر – بيروت .

(٣) صحيح مسلم ج١ ص ١٨٣ . كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة حديث ٣٢٦ ، صحيح البخاري ج١ ص ١٦ كتاب الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصانه .

(٤) صحيح مسلم ج١ ص ٦٣ كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان حديث ٥٨ .

(٥) صحيح مسلم ج١ ص ٧٦ كتاب الإيمان ، باب نقصان الإيمان بالمعاصي حديث رقم ١٠٠ .

(٦) المسائل والرسائل للآحمدي ج١ ص ٩٥ .

(٧) مسلم بشرح النووي ج٢ ص ٤١ ، المكتبة المصرية . القاهرة .

وقد ورد في السنة النبوية أن الإيمان يضعف بصورة واضحة حيث قال الرسول ﷺ : **[من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ،فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان]** .[1]

إن هذه الأحاديث وغيرها تثبت بلا أدنى شك أن الإيمان يزيد وينقص ومع وجود هذه الأدلة الصحيحة الصريحة فلا مجال لإنكار الزيادة أو النقصان في الإيمان .

٢ - قول الإمام أبي حنيفة في مسمى الإيمان :

يقول الإمام أبو حنيفة في تعريفه للإيمان «والإيمان هو الإقرار والتصديق»[2] والمقصود به هو الإقرار باللسان ، والتصديق بالقلب ، ويلاحظ من هذا التعريف أن الإمام أبا حنيفة قد استثنى العمل من مسمى الإيمان ، ويرجع ذلك لأدلة اعتمد عليها ، واستدل من خلالها على عدم دخول العمل في مسمى الإيمان ، ومجمل هذه الأدلة يتمثل في : أن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، وأن القلب هو موضع الإيمان ، وليس اللسان ، وأنه لو كان مركباً من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه ، كما استدل بعطف العمل على الإيمان،واعتبر العطف يقتضي المغايرة ، وإلى تفصيل هذه الأدلة والرد عليها :

أولاً : «إن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق ، قال تعالى خبراً عن يوسف :﴿ ... **وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا** ...﴾[3] أي بمصدق لنا ... فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى .[4]

ويرد على هذا الدليل بأنه لاشك في وجود الترادف بين الإيمان والتصديق ، ولكن يمتنع هذا الترادف من كل وجه ودليل ذلك « أن يُقال للمخبِر إذا صدَّق صدَّقه ، ولايقال : آمنه ولا آمن به ، بل يقال آمن له ، كما قال تعالى : ﴿**فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ**...﴾[5] . ففرق بين المعدى

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص ٦٩ كتاب الايمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان حديث رقم ٧٨ .

(٢) شرح كتاب الفقه الأكبر ص ١٢٤ ، وانظر : الأصول والفروع لابن حزم ج١ ص ٩ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ ، وانظر : النبوات لابن تيمية ص ١٣٣ ، وانظر : التعريفات للجرجاني ص ٤٠ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٧ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٩ .

(٥) سورة العنكبوت الآية ٢٦ .

بالباء والمعدى باللام ، فالأول للمخبَرية ، والثاني للمخبِر»[1] . كما وأن لفظ الإيمان لا يستعمل إلا في الخبر من الغائب ، فيقال لمن قال : طلعت الشمس صدقناه ، ولا يقال آمنا له . ويلاحظ أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق بل يقابله لفظ الكفر .[2]

فلا يصح هذا دليلاً على منع دخول العمل في مسمى الإيمان ، فكون ترادف التصديق للإيمان في اللغة لا يمنع دخول العمل في مسمى الإيمان، ويؤكد ذلك قول الرسول ﷺ :**[إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تَمنّى وتشتهي . والفرج يُصدق ذلك أو يُكذبه]** [3] فالرسول ﷺ يثبت في هذا الحديث التصديق بالأفعال .

ثانياً : واستدل بقوله تعالى :« ﴿... **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** ...﴾[4] يدل على أن القلب هو موضع الإيمان ، لا اللسان ، ولأنه لو كان مركباً من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه»[5] .

ويُرد على هذا الدليل بأن القول قسمان ، قول القلب ، وهو الاعتقاد،وقول اللسان ، وهو التكلم بكلمة الإسلام ، كما أن العمل قسمان : عمل القلب ، وهو النية والإخلاص ، وعمل الجوارح ، فإذا زالت هذه الأربعة ، زال الإيمان بكامله ، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء ، ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح ، عدم طاعة القلب ، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح حيث قال رسول الله ﷺ : **[إن في الجسد مضغة إذ صلحت صلح سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائرالجسد ألا وهي القلب]**[6] فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً ، والمقصود بذلك هو صلاح الأعمال .[7]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٠ ، وانظر : الإيمان لابن تيمية ص ٢٤٩

(٢) انظر : الإيمان لابن تيمية ص ٢٥٠ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٠ .

(٣) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٤٦ كتاب القدر . باب قُدّر على ابن آدم حظه من الزنى حديث رقم ٢٦٥٧ ، جامع الأصول لابن الأثير ج٢ ص ٣٧١ . ط ١٩٧٢م مكتبة دار البيان .

(٤) سورة النحل الآية ١٠٦ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٩ .

(٦) صحيح مسلم ج٣ ص ١٢٢٠ كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات حديث ١٥٩٩ .

(٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٤ .

وأما القول بزوال كله إذا زال جزئه «فإن أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت ، فمسلم ، ولكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء مجتمعة ، فيزول عنه الكمال فقط» [١]. ويؤكد ذلك أن الناس لا يتماثلون ، لا فيما وجب من الإيمان،ولا فيما يقع منهم .

ثالثاً: ومما استدل به هو «أن العمل قد عطف على الإيمان والعطف يقتضي المغايرة» [٢] .

ويُرد على هذا،بأنه لا شك أن الإيمان تارة يذكر مطلقاً عن العمل وعن الإسلام ، وتارة يقرنه بالعمل الصالح ، وتارة يقرن بالإسلام ، فالمطلق مستلزم للأعمال ، وأما إذا عطف عليه العمل الصالح ، فمعلوم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما [٣] . ومن ثم يقال ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم : ﴿... وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ...﴾ [٤] الإقرار بذلك،أو الإقرار والعمل ؟ فمن قال الإقرار فقط دون العمل فقد كفر . لأنه من المعلوم بالضرورة أن الله تعالى أراد الإقرار والعمل، ولأنه عندأهل العلم من قال إن الله تعالى لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة فقد كفر [٥] .

وبذلك يتبين أن الإيمان يستلزم العمل ، كما أن النصوص الشرعية من القرآن والسنة تشير بصورة واضحة إلى أن العمل داخل في مسمى الإيمان .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٤ .

(٢) شرح المصدر السابق ص ٣٨٩ ص ٣٨٠ .

(٣) انظر : نفس المصدرالسابق ص ٣٨٧ .

(٤) سورة البقرة الآية ٨٣ ، والآية ١١٠ .

(٥) انظر : الإيمان لابن تيمية ص ٣٣٤ ، وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج٤ ص ٨٥٠ .

زيادة الإيمان ونقصانه عند أبي حنيفة :

يرى الإمام أبو حنيفة أن الإيمان لايزيد ولاينقص ، وأن المؤمنين متساوون في إيمانهم حيث يقول : «وإيمان أهل السماء وأهل الأرض لا يزيد ولا ينقص ... والمؤمنون مستوون في الإيمان والتوحيد»(١) .

ويبرر رأيه هذا بأن زيادة الإيمان تؤدي إلى نقصان الكفر ، ونقصان الإيمان يؤدي إلى زيادة الكفر ، فيؤدي ذلك إلى أن يكون الشخص الواحد مؤمناً وكافراً فيقول «والإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأنه لا يتصور زيادة الإيمان إلا بنقصان الكفر ، ولايتصور نقصان الإيمان إلا بزيادة الكفر ، فكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد في حالة واحدة مؤمناً وكافراً ، وليس في إيمان المؤمن شك ، كما أنه ليس في كفر الكافر شك»(٢) .

وهذا القول ناتج عن رأيه بأن الإيمان هو التصديق ، فلا يتفاوت بالأعمال زادت أم نقصت ، ولكن الذي ذكره الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - يرده الشرع والعقل .

فأما من جهة الشرع فهناك نصوص قرآنية صريحة في زيادة الإيمان . ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿... وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ...﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿... وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ...﴾(٤) وقال : ﴿... لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً ...﴾(٥) وأما السنة النبوية فتصرح بذلك أيضاً ، حيث يقول الرسول ﷺ : **[الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان]**(٦) . وفي حديث آخر يرويه أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : **[يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان]**(٧) .

وأما العقل : فثبت أن هناك تفاوتاً بين إيمان الأنبياء ، وعامة الناس ، كما أن «إيمان

---

(١) شرح الفقه الأكبر ص ١٢٦ - ص ١٢٨ ط الأولى ١٩٨٤م دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) المصدرالسابق ص ١٢٧ - ص ١٢٨ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٢ .

(٤) سورة المدثر الآية ٣١ .

(٥) سورة الفتح الآية ٤ .

(٦) صحيح مسلم ج١ ص ٦٣ كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان حديث رقم ٥٨ .

(٧) صحيح البخاري ج١ ص ١٦ كتاب الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصانه .

الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا يعتريه الشبه»[1] ، ولايتأثر أمام جميع الفتن والأحوال بخلاف غيرهم .

ومع أن الإمام أبا حنيفة يؤكد أن الإيمان لا يزيد ولاينقص إلا أنه يرى أن الإيمان يزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق،حيث يقول: «ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق».[2]

وهذا القول حق ولكن كان الأفضل كما أنه أثبت زيادته ونقصانه من جهة اليقين والتصديق ، أن يثبت زيادته ونقصانه من جهة العمل أيضاً .

وقد أكد العلماء على زيادة الإيمان ونقصانه من جهة اليقين والتصديق، ولذلك يقول الإمام النووي:«إن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة،ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا يعتريهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم ... ولا يشك عاقل في أن نفس إيمان أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لا يساوي تصديق آحاد الناس»[3]،كما يقول ابن تيمية:«إن التصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت ، وأبعد عن الشك ، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه،بل إن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لايستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لايعمل به» .[4]

مما تقدم يتضح أن أبا حنيفة يرى أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان كما أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص من جهة العمل ، ولكنه يقول بزيادته ونقصانه من جهة اليقين والتصديق ، ولكن مع إخراجه العمل عن مسمى الإيمان ، إلا أنه يجعله سبباً للتفاضل بين المؤمنين حيث يقول «والمؤمنون مستوون في الإيمان والتوحيد ، متفاضلون في الأعمال» .[5]

---

(١) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ص ٥١، وانظر : شرح المقاصد ج ٥ ص ٢١٠ .

(٢) شرح الفقه الأكبر ص ١٢٦ .

(٣) مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٤٨ - ص ١٤٩ ، وانظر : تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ص ٥١ .
وانظر : فتح المنعم شرح مسلم ج ١ ص ٣٨ ، وانظر : عون المعبود شرح سنن أبي داود ج٢ ص ٤٣٧ .

(٤) الإيمان لابن تيمية ص ٢٠٢ (بتصرف) .

(٥) شرح الفقه الأكبر ص ١٢٨- ص ١٢٩ .

التوفيق بين قول الجمهور وقول الإمام أبي حنيفة :

تبين مماسبق من أقوال الإمام أبي حنيفة أنه يثبت الزيادة والنقصان في الإيمان من جهة اليقين والتصديق ، كما يقول بالتفاضل في الأعمال[1] ، بل يقول : «إن الأعمال لا تسمى إيماناً ولكنها شرائع الإيمان»[2] ولا يعارض في كون الإيمان الكامل هو ماصحبه العمل ، حيث إن التصديق هو أول الإيمان وأساسه[3] ، وهذا يعني أن الخلاف بين الجمهور وأبي حنيفة غير كبير بل هو خلاف لفظي،لا يترتب عليه فساد اعتقادي.حيث يقول شارح الطحاوية:«والخلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري ، فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءاً من الإيمان ... نزاع لفظي ، لايترتب عليه فساد اعتقاد».[4]

وبناء على ذلك حاول بعض العلماء التوفيق بين قول الجمهور وقول الإمام أبي حنيفة ، فالإمام الرازي يقول : «ووجه التوفيق أن ما يدل على أن الإيمان لا يتفاوت مصروفه إلى أصله ، ومايدل على أنه يتفاوت مصروفه إلى الكامل منه» .[5]

كما أن الجويني وقف نفس الموقف فقال:«ليس الخلاف بين الفريقين حقيقياً بل لفظياً ، ونفى الخلاف على الإطلاق لا يصح ، ووجه كون الخلاف لفظياً ، أن القول بأنه يزيد وينقص محمول على مابه كما له وهو الأعمال ، والقول بأنه لايزيد ولا ينقص محمول على أصله وهو التصديق»[6] .

ويؤكد هذا التوفيق ، اتفاق الجمهور وأبي حنيفة على عدم تكفير مرتكب الكبيرة خلافاً للخوارج ، وعدم الحكم عليه بالخلود في النار كما تفعل الخوارج والمعتزلة ، ولا يقولون بأنه لايضر مع الإيمان ذنب كما تقول المرجئة ، بل هو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه [7] ، كما اتفقوا على أنه «لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه أنه

---

(١) انظر : المصدر السابق ص ١٢٦ – ص ١٢٩ .

(٢) الفصل لابن حزم ٢٢٧/٣ .

(٣) انظر : فتح المنعم شرح صحيح مسلم ج١ ص٣٧ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤ .

(٥) شرح المقاصد للتفتازاني ج ٥ ص ٢١٢ ، ط١ سنة ١٤٠٩هـ عالم الكتب - بيروت .

(٦) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ص ٥١ ، ط١ سنة ١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية – بيروت .

(٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤ ، وانظر : الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ص ٣٤ ، وانظر : الإيمان لابن تيمية ص ٥٤ .

عاص لله ورسوله مستحق للوعيد» .[1]

وبهذا يتبين أن الخلاف بين الجمهور وأبي حنيفة خلاف لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد ، فهو ليس كالخلاف بين الجمهور والمرجئة[2] أو الخوارج أو المعتزلة ، ولكن في الحقيقة إن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب ، ولايحق لأحد أن يقول بخلاف ذلك .

ثانياً : الخوارج والمعتزلة :

١ - قول الخوارج : [3]

الإيمان عند الخوارج هو «المعرفة بالقلب ، والإقرار به باللسان ، والعمل بالجوارح»[4] وهذا القدر من التعريف متفق عليه بين أهل السنة والخوارج ، إلا أن الخوارج يرون أن الإيمان مركب من هذه الأمور الثلاثة ، إذا أخلّ المكلف بواحد منها ذهب إيمانه بالكلية ، لأن الإيمان ثابت لايزيد ولا ينقص ، فعلى مذهبهم لا يمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله ، لأن الإيمان لا يتبعض .[5]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٥ .

(٢) المرجئة : اشتقت من الارجاء وهو على معنيين : التأخير أو اعطاء الرجاء ، وكلاهما يصح إطلاقه على المرجئة ، فهم يؤخرون الأعمال عن الإيمان، ويغلوا في إثبات الوعد والرجاء وقالوا بأن الناس لا يتفاضلون في الإيمان ، وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحد ، وأن الإيمان لايزيد ولا ينقص ، وتنقسم المرجئة إلى اثنتى عشرة فرقة كما ذكر أبو الحسن الأشعري ، انظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٢١٣ ، وانظر : الفصل لابن حزم ج٥ ص ٧٣ . ط سنة ١٩٨٥م دارالجيل - بيروت .

(٣) الخوارج : هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب ، واعتبروا أنفسهم خارجين من أجل الدين ، وارتبطت نشأتهم بالأحداث التي قامت بين علي رضي الله عنه ومعارضيه ، وقد حملوا علياً علي التحكيم ، ثم اعتبروا التحكيم مخالفاً للشرع ومعصيه فحكموا بكفر علي رضي الله عنه ، وقالوا بكفر مرتكب الكبيرة وأنه مخلد في النار ، ويرى البغدادي أن الخوارج تنقسم إلى عشرين فرقة ، انظر : الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٧٢ ، ص ٧٣ ، وانظر: مقالات الإسلاميين ج١ ص ١٦٧ - ص ١٦٩ .

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج٣ ص ٢٢٧ ، وانظر : فتح المنعم شرح مسلم ج١ ص ٣٦ ، وانظر : المسائل والرسائل للآحمدي ج١ ص ٧٦ .

(٥) انظر : الفتاوي ، لابن تيمية ج٧ ص ٢٢٣ ، ص ٥١٠ ، وانظر : الفرقان بين الحق والباطل ص ٣٤ ، وانظر : المسائل والرسائل ج١ ص ٧٦ .

وهذا القول يعتبر باطلاً لأنه يخالف قول الرسول ﷺ: **[يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان]**(١) حيث أخبر أنه يتبعض ، ويبقى بعضه ، وأن ذاك من الإيمان ، فعلم أن بعض الإيمان يزول ويبقى بعضه .(٢) وهذا يثبت بطلان قول الخوارج ومن قال بقولهم . وبناء على قولهم الباطل اعتبروا «كل من ارتكب ذنباً فهو كافر» (٣)، بل أنهم اعتبروا الذنوب كلها كبائر حيث قال القاضي عبد الجبار(٤) عند حديثه عنهم:«وقد أنكرت الخوارج أن يكون في المعاصي صغيرة وحكمت بأن الكل كبيرة»(٥) . ويرجع سبب قولهم هذا «نظراً لعظمة من عُصِيَ» (٦)وبالتالي اعتبروا كل ذنب عظيم مهما صغر .

وهذا القول يعتبر مخالفاً لصريح القرآن الكريم الذي يثبت الصغائر والكبائر .حيث قال الله تعالى : ﴿... مَالِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ...﴾(٧) . وقال أيضاً : ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾(٨) .وهذا يدل على أن في المعاصي صغائر كما أن فيها كبائر ، كما يدل على بطلان قول الخوارج .

وأما اعتقادهم بأن كل من ارتكب ذنباً صغيراً أو كبيراً كافر ، فهذا مخالف لاعتقاد أهل السنة حيث يقولون : «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب مالم يستحله»(٩) أي يعتقد حله . لأن مقصد الخوارج من تكفير صاحب الذنب هو خروجه من الملة ، والحكم عليه بالخلود

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص ١٨٢ ، كتاب الإيمان،باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها،حديث رقم٣٢٥ ، الجامع الصحيح للترمذي ج٤ ص٧١٢ في صفة جهنم باب رقم ١٠ ، حديث رقم ٢٦٠١.

(٢) انظر : مجموع الفتاوي لابن تيمية ج٧ ص ٥١٧ .

(٣) أصول الدين للبغدادي ص ٢٤٩ ، وانظر : الإيمان لابن تيمية ص ١٩٣ .

(٤) هو القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن خليل الهمذاني ، بدأ حياته فقيهاً على مذهب الشافعي ثم انصرف إلى الكلام بعد أن وجد قلة الإقبال عليه ، تمسك بمبدأ الاعتزال بل كان شيخاً للاعتزال في زمانه ، له الكثير من المؤلفات ، توفي سنة ٤١٥ هـ بعد أن تجاوز التسعين من عمره . انظر : طبقات الشافعية للسبكي ج٣ ص ٣١٩ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج٣ ص ٢٧٣ ص ٢٧٤ .

(٥) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٦٣٢ .

(٦) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ج١ ص ٣٦٨ .

(٧) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٨) سورة القمر الآية ٥٣ .

(٩) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٥٥ .

في النار، فيقولون: «وكل كبيرة كفر يُخرج من الإيمان ويُدخل الكفر ، ويخلد في النار، قالوا لأنه لا يخلد في النار إلا الكفار» (١).

وهذا القول مخالف لصريح القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال السلف رضوان الله عليهم . حيث قال الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٢) وقال أيضاً : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) . وقال الرسول ﷺ : **[يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان]** (٤) .

كما عقب على قولهم الإمام ابن تيمية بقوله : «فإن هذا القول من البدع المشهورة ، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان» (٥) .

ولذلك قال الإمام الطحاوي مبيناً عقيدة السلف في هذه القضية: «وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون» (٦) .

وهكذا يتبين بطلان معتقدات الخوارج سواء قولهم بأن الإيمان ثابت لا يزيد ولا ينقص أو تكفيرهم مرتكب الكبيرة وقولهم بخلوده في النار ، رغم اتفاقهم مع السلف في إدخال العمل في مسمى الإيمان .

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ج١ ص ٣٦٨ ، وانظر : مقالات الإسلاميين للأشعري ج١ ص ٢٠٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٣) سورة الزمر الآية ٥٣ .

(٤) صحيح مسلم ج١ ص ١٨٢ ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها حديث رقم ٣٢٥ ، الجامع الصحيح للترمذي ج٤ ص ٧١٤ في صفة جهنم باب رقم ١٠ حديث ٢٥٩٨ .

(٥) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج٧ ص ٢٢٢ .

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤١٦ .

٢ - قول المعتزلة : [١]

لم يختلف المعتزلة عن الخوارج كثيراً في المعتقدات التي تتعلق بالإيمان حيث قالوا بأن الإيمان «هو المعرفة بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح»[٢] وهذا القدر من التعريف متفق عليه مع أهل السنة والخوارج،ولكن افترق المعتزلة عن السلف حين جعلوا الأعمال شرطاً في صحة الإيمان والسلف جعلوه شرطاً في كماله[٣] . وهذا أدى بهم إلى القول بأن الأعمال من الإيمان ، فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه ، لأن الإيمان لا يتبعض ، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيئ من الإيمان .[٤]

وأما بالنسبة لزيادة الإيمان ونقصانه فتقول به المعتزلة ، ولكن الزيادة والنقصان ، لها مفهوم آخر عندهم مخالف لمفهوم أهل السنة ، حيث يرون أن الإيمان يزيد وينقص من ناحية التكاليف فقط ، فالناس متفاوتون من حيث التكاليف ، فالفقير مثلاً يسقط عنه تكاليف الزكاة ، لأنه لا يجد حد النصاب حتى يزكي بعكس الغني ، لذا يرون أن الغني أكمل إيماناً بالنظر إلى زيادة التكليف في حقه على الغني ، وأما أن يكون العمل وسيلة لزيادة الإيمان ، والمعصية وسيلة لنقص الإيمان ، فهذا ماينكرونه بالجملة [٥]، لأنه من المقرر في قواعدهم وأصولهم أن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ، ولم يدخل في الكفر حيث قال

---

(١) المعتزلة : واضع أصولها هو واصل بن عطاء البصري وعمرو بن عبيد ، ويرجع سبب التسمية أن واصلاً كان تلميذاً للحسن البصري ، وظهرت في تلك الفترة مقولة الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة ، ومقولة المرجئة المضاد لها ، فجاء رجل إلى الحسن البصري في حلقته فقال : لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر فلا يضر مع الإيمان عندهم كبيرة كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ ففكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق بل هو منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة في المسجد فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسموا لذلك على الأرجح بالمعتزلة ، وقد بنوا أصول اعتقادهم على اصول خمسة وهي العدل والتوحيد والوعد الوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . انظر : الفرق بين الفرق للبغدادي ، ص ١١٧ ، وانظر : الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ٥١ .

(٢) الفصل لابن حزم ج٣ ص ٢٢٧ ، وانظر : فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج١ ص ٤٦ .

(٣) انظر : فتح الباري ج١ ص ٤٦ ، وانظر : بذل المجهود ج١٨ ص ٢٠٤ .

(٤) انظر : مجموع فتاوي ابن تيمية ج٧ ص ٥١٥ ، وانظر : الفرقان بين الحق والباطل ص ٣٤ .

(٥) انظر : متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ج١ ص ٣١٢ ص ٣١٣ . ط ١٩٦٩م دار التراث - القاهرة .

القاضي عبد الجبار «إن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمناً ولا كافراً وإنما يسمى فاسقاً[(١)]». ويلاحظ هنا أن المعتزلة خالفت المرجئة والخوارج في مرتكب الكبيرة ، ولذلك قال القاضي عبد الجبار «إنه لا يسمى مؤمناً خلاف مايقوله المرجئة ... وأنه لا يسمى كافراً على مايقوله الخوارج»[(٢)] ، وهذه القضية هي التي أدت بواصل بن عطاء لإعتزال مجلس الحسن البصري حين قال عن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين[(٣)] وهذا أحد أصول المعتزلة الخمسة .

ولكن المعتزلة رغم قولهم بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلتين ، منزلة الكفر ومنزلة الإيمان ، إلا أنهم يوافقون قول الخوارج في مصير مرتكب الكبيرة في أنه مخلد في النار ، فيقول القاضي عبد الجبار : «إن الفاسق يخلد في النار ويعذب فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين»[(٤)] ، ومعلوم مما سبق أن القاضي حكم بفسق مرتكب الكبيرة ، ثم حكم على الفاسق بالخلود في النار ، وهذا القول مخالف لقول أهل السنة الذين «لم يخرجوه من الإسلام ، ولم يحكموا عليه بخلود في النار، وإنما هو فاسق بكبيرته مؤمن بإيمانه وهو تحت مشيئة الله تعالى»[(٥)] ، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . كما أنه مخالف لصريح السنة النبوية الصحيحة حيث روى البخاري ومسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :**[أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، فقلت وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق]**[(٦)] وهكذا يتبين بطلان قول المعتزلة وماذلك إلا بسبب البعد عن كتاب الله وسنة رسوله .

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٧٠١ ط٢ سنة ١٤٠٨ هـ مكتبة وهبة – القاهرة .

(٢) المصدر السابق ص ٧٠١ .

(٣) انظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٦٣ ص ٣٦٨ ، وانظر : أصول الدين للبغدادي ص ٢٤٩ ، وانظر : فتح المنعم شرح صحيح مسلم ج١ ص ٣٦ .

(٤) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٦٦٦ .

(٥) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ج١ص٣٦٤ .

(٦) صحيح مسلم ج٢ ص ٦٩ ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً حديث ٩٤ ، صحيح البخاري ج٢ ص ٦٩ ، في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، وجامع الأصول لابن الأثير ج٩ ص ٣٦٣ رقم ٧٠٠٧ ط ١٩٧٢م ، مكتبة دار البيان .

الخلاف بين أهل السنة والخوارج والمعتزلة في حقيقة الإيمان :

اتضح مما سبق أن الخوارج والمعتزلة اتفقوا مع السلف في تعريف الإيمان من حيث ادخال العمل في مسمى الإيمان ، ولكن حدث خلاف بينهم من حيث زيادة الإيمان ونقصانه ، وحكم مرتكب الكبيرة .

وأما زيادة الإيمان ونقصانه فالخوارج يرون أن الإيمان ثابت لا يزيد ولا ينقص ، فعلى مذهبهم لا يمكن ذهاب بعضه ، وبقاء بعضه ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله ، لأن الإيمان لا يتبعض[1] . وقد سبق بيان بطلان قولهم ومخالفته للكتاب والسنة وسلف الأمة .

وأما المعتزلة فتقول بزيادة الإيمان ونقصانه ، ولكن الزيادة والنقصان تقوم على مفهوم آخر عندهم مخالف لمفهوم أهل السنة ، حيث يرون أنه يزيد وينقص من ناحية التكاليف الشرعية ، وأما أن يكون العمل وسيلة لزيادة الإيمان ، والمعصية وسيلة لنقصه فهذا تنكره المعتزلة[2] .بل إن عندهم من ترك الأعمال فقد ترك بعض الإيمان ،وإذا زال بعضه زال جميعه ، لأن الإيمان لا يتبعض ، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان .[3]

وأما أهل السنة فقالوا بزيادة الإيمان ونقصانه على الحقيقة لأن ذلك هو الموافق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وأما حكم مرتكب الكبيرة فيرى الخوارج أن من ارتكب ذنباً فهو كافر[4] ، بل اعتبروا الذنوب كلها كبائر ، حيث يقول القاضي عبد الجبار :«وقد أنكرت الخوارج أن يكون في المعاصي صغيرة وحكمت بأن الكل كبيرة»[5] وذلك «نظراً لعظمة من عُصِيَ»[6] وهذا دفعهم إلى الحكم على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار ، لأنه لا يخلد في النار إلا الكفار[7] .

وأقوالهم هذه سبق وتبين أنها مخالفة لكتاب الله تعالى ولسنة رسوله ﷺ ولأقوال سلف الأمة .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوي لابن تيمية ٢٢٣/٧ ، ٥١٠ ، الفرقان بين الحق والباطل ص ٣٤ ، والمسائل والرسائل ٧٦/١ .

(٢) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ٧٠١ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوي ٥١٥/٧ ، الفرقان بين الحق والباطل ص ٣٤ .

(٤) انظر : أصول الدين للبغدادي ص ٢٤٩ ، والإيمان لابن تيمية ص ١٩٣ .

(٥) شرح الأصول الخمسة ص ٦٣٢ ،

(٦) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٣٦٨/١ .

(٧) انظر : لوامع الأنوار البهية ٣٦٨/١ ، مقالات الإسلاميين ٢٠٤/١ .

ومرتكب الكبيرة عند المعتزلة في منزلة بين المنزلتين ، منزلة الكفر ومنزلة الإيمان ، حيث قال القاضي عبدالجبار : «إنه لايسمى مؤمناً خلاف مايقوله المرجئة ... وأنه لا يسمى كافراً على مايقوله الخوارج وإنما يسمى فاسقاً»[(١)] وهي القضية التي أدت بواصل بن عطاء أن يعتزل مجلس الحسن البصري ويعتبر مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين وهي أحد أصول المعتزلة .

ومع حكمهم على مرتكب الكبيرة بذلك مخالفين المرجئة والخوارج إلا أنهم اتفقوا مع الخوارج في حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة ، حيث اعتقدوا أنه مخلد في النار فيقول القاضي عبد الجبار:«إن الفاسق يخلد في النار ويعذب فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين»[(٢)] .

وقول المعتزلة هذا مخالف لقول السلف الذين لم يحكموا على مرتكب الكبيرة بكفر ولا بخلود في النار حيث إنهم : «لم يخرجوه من الإسلام ، ولم يحكموا عليه بخلود في النار ، إنما هو فاسق بكبيرته ، مؤمن بإيمانه وهو تحت مشيئة الله»[(٣)] إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه .

ثالثاً : الفرق الضالة وفساد اعتقادها :

١ - قول الكرامية في مسمى الإيمان :

زعمت هذه الفرقة بأن الإيمان إنما هو : الإقرار باللسان فقط ، دون عقد القلب وتصديقه حيث يقول محمد بن كرام السجستاني[(٤)] مؤسس هذه الفرقة : إن الإيمان «هو إقرار باللسان بالله تعالي ، وإن اعتقد الكفر بقلبه ، فإذا فعل ذلك فهو من أهل الجنة»[(٥)] ولذلك أنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً[(٦)] . وهذا الزعم أدى بهم إلى

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٧٠١ (بتصرف) .

(٢) المصدر السابق ص ٦٦٦ .

(٣) لوامع الأنوار البهية ١/٣٦٤ .

(٤) هو محمد بن كرام السجستاني من المتكلمين وشيخ الكرامية ، وقد ابتدع في المعبود أنه جسم لا كالأجسام سجن لبدعته بنيسأبور ثمانية أعوام ثم أفرج عنه ، ثم ذهب إلي الشام فحبس فيها ، توفي سنة ٢٥٥هـ .
انظر : لسان الميزان ٥/٣٥٣ ، وانظر : الفصل لابن حزم ٣/٢٢٧ ، الفرقبين الفرق ص ٢١٥ .

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٣/٢٢٧ ، الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ ، مقالات الإسلاميين ١/٢٠٥ .

(٦) انظر : مقالات للإسلاميين ١/٢٢٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ ، فتح الباري ١/٤٦ .

الاعتقاد بأن المنافقين مؤمنون كاملوا الإيمان حيث يقول البغدادي : «وزعم الكرامية أن المقر بالشهادتين مؤمن حقاً ، وإن اعتقد الكفر بالرسالة ، وزعموا أيضاً : أن المنافقين الذين انزل الله تعالى في تكفيرهم آيات كثيرة كانوا مؤمنين حقاً ، وأن إيمانهم كإيمان الأنبياء والملائكة»[١] ، بل أدى بهم ذلك أن «زعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة»[٢].

وهذا باطل لأن الأمة أجمعت على أن المنافقين كفار وإن أعلنوا الشهادتين بألسنتهم بدليل قول الله تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾[٣] . وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[٤] .

هذا قول الله سبحانه وتعالى في المنافقين ، وأما من دافع عنهم وأدخلهم في مسمى الإيمان كما فعلت الكرامية فهو لايخلو من أن يكون منافقاً ، ويدافع عن المنافقين تأييداً لهم، ، أو يكون جاهلاً لا يعلم مايقول ، فقاده الجهل إلى عناد الحق وترك قبول الصواب .

ورغم أن من أظهر الإيمان يعتبر عند الكرامية مؤمناً حقاً ،وإن كان منافقاً إلا أنه في الآخرة مخلد في النار لأنه آمن ظاهراً لا باطناً . وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية في حديثه عن الكرامية أنهم «يقولون المنافق مؤمن وهو مخلد في النار . لأنه آمن ظاهراً لا باطناً ، وإنما يدخل الجنة من آمن ظاهراً وباطناً ... ومن حكي عنهم أنهم يقولون المنافق يدخل الجنة فقد كذب عليهم»[٥].

هذا هو حال من أقر أو نطق بلسانه عند الكرامية سواء صدق بذلك قلبه أو لم يصدق، ولكن من صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه ، فإنه لا يتعلق به شيء من أحكام الإيمان لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ومن أضمر الإيمان وأظهر الكفر ، لا يكون مؤمناً ، ومن أضمر الإيمان،

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ ، انظر: مقالات الإسلاميين ٢٠٥/١ ، وانظر : الفصل ٧٤/٥ .

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري ٢٢٣/١ .

(٣) سورة التوبة الآية ٨٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٨ .

(٥) الإيمان لابن تيمية ص ١٢٦ ، وانظر : النبوات لابن تيمية ص ١٣٤ ، وانظر : المسائل والرسائل للأحمدي ج١ ص ٦٩ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣، وانظر : شرح المقاصد للتفتازاني ج٥ ص ١٧٨ .

ولم يتفق منه الإظهار والإقرار لم يستحق الجنة[1] ، وذلك لاخلاله بالكثير من الأعمال الشرعية .

هذه هي حقيقة الكرامية في مسمى الإيمان ، فهو قول باطل وفاسد ومخالف للحق ، ولذلك قال عنه الإمام ابن تيمية:«وإن قول الكرامية في الإيمان وإن كان باطلاً مبتدعاً لم يسبقهم إليه أحد »[2]، فهم لم يخرجوا الأعمال من مسمى الإيمان وحسب بل أخرجوا أيضاً الاعتقاد بالقلب،وهكذا تبين مافي هذا القول من الضلال والزيغ والإنحراف، عن الصواب .

٢ - قول المرجئة :

الإيمان عند المرجئة هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان ، ويتضح هذا من خلال أقوال زعماء فرق المرجئة حيث يقول يونس بن عَوْن النميري : «إن الإيمان في القلب واللسان وأنه هو المعرفة بالله تعالى ، والمحبة والخضوع له بالقلب والإقرار باللسان»[3] ، وذكر غسان المُرْجي أحد زعماء الغسانية من المرجئة «أن الإيمان هو الإقرار أو المحبة لله تعالى وتعظيمه».[4]

وقال بشر المريسي [5] الإيمان : «هو التصديق بالقلب واللسان جميعاً»[6] وقال ثوبان المُرْجي :«إن الإيمان هو الإقرار والمعرفة بالله وبرسوله وبكل مايجب في العقل فعله ، وماجاز في العقل أن لا يفعل فليست المعرفة به من الإيمان» .[7]

ويتضح من خلال أقوالهم أنهم أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان فقالوا : «الأعمال ليست من الإيمان»[8] لأنهم «ظنوا أن الإيمان شيئ واحد وأنه يستوي فيه جميع المكلفين ،

---

(١) انظر : الإيمان لابن تيمية ص ١٢٦ ، وانظر : المقاصد للتفتازاني ج٥ ص ١٧٨ .

(٢) الإيمان لابن تيمية ص ١٢٦ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظر : الملل والنحل ١/١٤٠ .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٠٣ .

(٥) هو بشر بن غياث المريسي مبتدع ضال زعيم المريسية من فرق المرجئة ، نفقه أول أمره على قاضي القضاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، وأتقن علم الكلام ، ثم قال بخلق القرآن مات وهو ابن السبعين ٢١٨ ، انظر : الفرق بين ص ٢٠٤ - ص ٢٠٥ .

(٦) الفرق بين الفرق ص ٢٠٥ ، مقالات الإسلاميين ١/٢٠٥ .

(٧) الفرق بين الفرق ص ٢٠٤ ، وانظر : الملل والنحل ١/١٤٢ ، وانظر : مقالات الإسلاميين ١/١٩٩ .

(٨) النبوات لابن تيمية ص ١٣٤ ، انظر : الإيمان لابن تيمية ص ١٧٢ ، وانظر : التفكير الفلسفي في الإسلام ص ١٤١ .

حيث قالوا : إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء»[1] ومعلوم بطلان هذا القول ، ومخالفته الصريحة للكتاب والسنة والعقل ، فكيف يستوي إيمان النبي والفاسق ؟ !! .

إن الإيمان يتفاضل من شخص إلى آخر ، فالرجل أول مايسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل فقط ، ثم بعد ذلك إذ جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها ، كما أن ما أوجبه الله تعالى على اتباع الأنبياء السابقين من الإيمان ، لم يوجبه على أمة محمد ﷺ ، وأوجب على أمة محمد ﷺ من الإيمان مالم يوجبه على غيرهم ، وإن الإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الإيمان الذي يجب بعد نزول جميعه ، وهذا يعني أن الناس لا يتساوى كلهم فيما أمروا به من الإيمان [2] .

والذي دفع المرجئة لإخراج الأعمال من مسمى الإيمان ، هو اعتقادهم أن الإيمان شيئ واحد ، فإذا أدخلوا الأعمال فيه . صارت جزءاً منه ، فإذا ذهبت ذهب بعضه ، وعندهم أن الإيمان شيئ واحد لا يتبعض ، فلا يذهب بعضه ويبقى بعضه وبالتالي فيلزم إخراج مرتكب الكبيرة من الإيمان ، وهذا مخالف لقولهم : «لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله كما لا ينفع مع الكفر طاعة»[3] وبناءً على هذا قالوا : «إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار»[4] .وهذا القول في حقيقته مخالف لقول رسول الله ﷺ:**[يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان]**[5] فهذا يدل على أنه يكون في النار من في قلبه إيمان ، كما يدل على أن الإيمان فيه تفاوت بين الناس وليس متساوياً ، فهذا الحديث يبطل أقوال المرجئة ومعتقداتهم في الإيمان .

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ص ٣٦ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٣٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٥٦ ص ٣٧٩ ، وانظر : تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٩٤ ، وانظر : التفكير الفلسفي في الإسلام ص ١٣٩ .

(٤) احياء علوم الدين للغزالي ج١ ص ١١٨ .

(٥) الجامع الصحيح للترمذي ج٤ ص ٧١٤ رقم ٢٥٩٨ ، في صفة جهنم باب رقم ١٠ ، جامع الأصول في أحاديث الرسول ج٩ ص ٣٥٧ .

٣ - قوله الجهمية :

قال الجهم بن صفوان[١] عند تعريفه للإيمان «إن الإيمان هو معرفة الله عز وجل بالقلب» .[٢]

وهذا القول يعتبر ظاهر الفساد والبطلان ، لأن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما السلام ، ولم يؤمنوا بهما ، قال الله تعالى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُم ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣] ، كما أن الله عز وجل أخبر في القرآن الكريم أن اليهود والنصارى ، يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، بل هو مذكور في الكتب المنزلة على رسلهم حيث قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ...﴾[٤] وقال أيضاً ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ...﴾[٥] ومع ذلك فهم عند الله كفار ، وبإجماع الأمة مشركون[٦] . ولكنهم عند الجهم مؤمنون حق الإيمان حيث قال «إن الإيمان هو معرفة الله عز وجل بالقلب ، وإن أظهر بلسانه اليهودية والنصرانية»[٧] ، بل إن إبليس عنده مؤمن كامل الإيمان بحسب معتقده هذا ، لأنه لم يجهل ربه ، بل هو عارف به حيث قال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٨] وقال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٩] .

---

(١) هو جهم بن صفوان الترمذي ابن محرز السمرقندي المبتدع ، رأس الجهمية ، أخذ كلامه عن الجعد بن درهم ، نفي صفات الله ، وقال بفناء الجنة والنار ، قتله نصر بن سيارسنة ١٢٨ هـ قال عنه الذهبي «الضال المبتدع رأس الجهمية ، هلك في زمان صغار التابعين ، وماعلمته روي شيئاً لكنه زرع شراً عظيماً» انظر : لسان الميزان ج٢ ص ١٧٩ ، وانظر : ميزان الاعتدال للذهبي ج١ ص ٤٢٦ ، وانظر : تاريخ الفرق الإسلامية للغزابي ص ٢٤ ص ٢٥ .

(٢) الأصول والفروع لابن حزم ج١ ص ٩ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ ، وانظر : مجموع فتاوي ابن تيمية ج٧ ص ٥١٠ .

(٣) سورة النمل الآية ١٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٦ ، الانعام الآية ٢٠ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٦) انظر: الأصول والفروع لابن حزم ج١ ص ١١ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣، ٣٧٤ .

(٧) الأصول والفروع لابن حزم ج١ ص ٩ .

(٨) سورة الحجر الآية ٣٦ .

(٩) سورة الحجر الآية ٣٩ .

وهكذا يتبين بطلان وفساد أقوال جهم لأنها مخالفة لنصوص القرآن الكريم الصريحة في تكفير كل من ابليس واليهود و النصارى .

ويرى الجهمية أن من عرف ربه بقلبه ثم جحد بلسانه لم يكن كافراً بجحوده هذا ، لأن المعرفة لاتزول وتذهب بالجحد ، فعلى مذهبهم الفاسد إن العبد إذا عرف ربه ، وعرف أنه الخالق فهو في غاية الإيمان ، وإن لم تعمل جوارحه ، وهذا كله مبني على قاعدتهم وهي «الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط ، والكفر هو الجهل به فقط» .(١)

أما بالنسبة للعمل فلا يعتبرونه من الإيمان ، بل قال الجهم:«الإيمان المعرفة بلا قول ولا عمل» (٢)، فالقول والعمل خارج عند الجهمية عن الإيمان.واحتجوا على ذلك بأن الإيمان هو التصديق في اللغة ، والعمل لا يسمى تصديقاً ، وإن الإيمان هو التوحيد ، والعمل لا يسمى توحيداً (٣). ولذلك كفر العلماء كل من قال بهذا القول(٤) لأنه مخالف لصريح النصوص الشرعية من الكتاب والسنة .

وقد زعمت الجهمية أن الإيمان واحد لا يتبعض ، ولا يتفاضل فيه أحد على أحد ، بل الكل متساو في الإيمان سواء كان نبياً أو صالحاً وتقياً أو من عامة الناس ، وفي ذلك يقول الجهم عند حديثه عن الإيمان «ولا يتفاضل أهله فيه ،فإيمان الأنبياء ، وإيمان الأمة على نمط واحد إذ المعارف لا تتفاضل» .(٥)

ويلاحظ هنا اتفاق كل من المرجئة والجهمية في القول بأن الإيمان شئ واحد لا يتعدد ، وأهله فيه سواء ، فالملائكة والأنبياء وأفسق الناس كلهم عندهم يتساوون في الإيمان . وقد تبين بطلان هذا القول بالكتاب والسنة والعقل عند الحديث عن زيادة الإيمان ونقصانه عند الإمام أبي حنيفة .

---

(١) الفرق بين لفرق ص ٢١١ ، وانظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣٣٨ . وانظر : الملل والنحل ج١ ص ٨٨ ، وانظر : الفرقان بين الحق والباطل ص ٣٩ .

(٢) معارج القبول ج٢ ص ٤١١ ، وانظر : الملل والنحل ج١ ص ٨٨ .

(٣) انظر : الأصول والفروع لابن حزم ج١ ص ٩ .

(٤) انظر : الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ص ٣٣ ، وانظر : المسائل والرسائل للأحمدي ج١ ص ٧٣ .

(٥) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ٨٨ . وانظر : مقالات الإسلاميين للأشعري ج١ ص ٢١٤ .

الباب الأول
الإرادة بين الخالق والمخلوق

الفصل الأول : إرادة الخالق وأفعاله

الفصل الثاني : إرادة المخلوق وأفعاله

الفصل الأول
إرادة الخالق وأفعاله

المبحث الأول : تعريف الإرادة وعلاقتها بالأفعال

المطلب الأول : تعريف الإرادة لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني : الإرادة وعلاقتها بالأفعال

المبحث الثاني : الإرادة والمشيئة الإلهية

المطلب الأول : الإرادة الكونية

المطلب الثاني : الإرادة الشرعية

المبحث الأول
تعريف الإرادة وعلاقتها بالأفعال

المطلب الأول : تعريف الإرادة لغة واصطلاحاً

أولاً الإرادة لغة :

يرى علماء اللغة أن الإرادة هي المشيئة ، وأصل الألف فيها الواو ، كقولك راوده : أي أراده على أن يفعل كذا ، إلاأن الواو سكنت فنقلت حركتها إلى ماقبلها ، فانقلب في الماضي ألفاً ، وفي المستقبل ياءً ، وسقطت في المصدر لمجاورتها الألف الساكنة ، وعوض عنها الهاء في آخره .(١)

وإلى جانب كون الإرادة يرادفها المشيئة ، ترد أيضاً بمعنى المحبة حيث ورد في المعجم الوسيط «وأراد الشيئ بمعنى شاءه وبمعنى أحبه وعني به»(٢) ، وقيل «الإرادة تكون محبة وغير محبة» (٣)، وكذلك وردت الإرادة بمعنى القصد ، ففي لسان العرب «إرادتي بهذا لك أي قصدى بهذا لك» .(٤)

مماسبق بيانه يتضح مايلي :

١ - إن ترادف الإرادة من الناحية اللغوية لمعنى المشيئة والمحبة يتفق مع تقسيم أهل السنة الإرادة إلى قسمين : كونية وهي التي ترادفها المشيئة ، والإرادة الشرعية وهي التي يرادفها المحبة .

٢ - لما كانت موضوعة في اللغة لتعيين مافيه غرض ، وهي في الأصل طلب الشيء، أو شوق الفاعل إلى الفعل ، إذا فعله كف الشوق وحصل المراد .(٥) فإن هذا الفعل يتعلق بالإرادة الإنسانية ، ولايتعلق بالله تعالى ولذلك يقول الإمام

---

(١) انظر: الصحاح للجوهري ج٢ ص ٤٧٨، وانظر :لسان العرب ج٣ ص ١٩١، وانظر:القاموس ج١ ص ٢٩٦

(٢) المعجم الوسيط ج١ ص ٣٩٤ ، بتصرف ، وانظر : لسان العرب ج٣ ص ١٩١ .

(٣) لسان العرب ج٣ ص ١٨٨ .

(٤) لسان العرب ج٣ ص ١٨٨ .

(٥) تهافت التهافت لابن رشد ج١ ص ٧٠ ، وانظر : شرح المقاصد للتفتازاني ج٢ ص ٣٣٧ .

الغزالي[١] «فالإرادة موضوعة في اللغة لتعيين مافيه غرض ولا غرض في حق الله ، وإنما المقصود المعنى دون اللفظ» .[٢]

ثانياً : الإرادة اصطلاحاً :

اتفق المسلمون على أن الله تعالى مريد[٣] ، ولكن حصل خلاف في تعريف الإرادة، ويرجع ذلك إلى الاختلاف في فهم حقيقة الإرادة ، إلى جانب إثبات أو نفي حقيقة هذه الصفة القائمة بذات الله سبحانه وتعالى .

يقول الإمام ابن حجر العسقلاني في تعريفه للإرادة:«إنه مريد بإرادة قديمة،هي صفة قائمة بذاته ، ويكون تعلقها بما يصح كونه مراراً» .[٤]

وأما الإمام الغزالي فيقول:«والإرادة صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله»[٥]،ويعقب على ذلك مؤكداً إثبات هذه الصفة بقوله:«ولولا أن هذا شأنها لوقع الاكتفاء بالقدرة،ولكن لما تساوت نسبة القدرة إلى الضدين ، ولم يكن بد من مخصص يخصص الشيء عن مثله ، فقيل للقديم، وراء القدرة - صفة من شأنها تخصيص الشيء عن مثله»[٦]،وهي صفة الإرادة.

والإمام فخر الدين الرازي عرف الإرادة بقوله:«الإرادة ماهية يجدها العاقل من نفسه ويدرك التفرقة البديهية بينها وبين علمه وقدرته» .[٧]

وعرفها ملا على القاري ، شارح الفقه الأكبر بقوله:«الإرادة من الصفات الذاتية وهي كالمشيئة صفة تخصص أحد طرفي الشيء من الفعل والترك بالوقوع في أحد الأوقات مع

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد ، حجة الإسلام ، متصوف ، من علماء الكلام له نحو مئتي مصنف . وينسب إلى صناعة الغزل ، وقيل نسبته إلى غزالة من قرى طوس ، ولد سنة ٤٥٠ هـ ١٠٥٨م في طابران بخراسان وتوفي بها سنة ٥٠٥ هـ . انظر : وفيات الأعيان ج٣ ص ٢١٦ ص ٢١٧ ، وانظر : شذرات الذهب ج٤ ص ١٠ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج٧ ص ٢٢ .

(٢) تهافت الفلاسفة للغزالي ص ١٠٣ ص ١٠٤ ، وانظر : تهافت التهافت لابن رشد ج١ ص ١٠٥ .

(٣) انظر : التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٧ ط طهران .

(٤) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج١٣ ص ٤٥٠ .

(٥) تهافت الفلاسفة للغزالي ص ١٠٢ .

(٦) المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٧) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٧ ط طهران .

استواء نسبة القدرة إلى جميع الممكنات»[١] .وأما النسفي والبيجوري فقالا بأنها :«صفة قديمة وجودية قائمة بذاته تعالى»[٢] .وقال السفاريني بأنها «صفة في الحي توجب تخصيص أحد المقدورين في أحد الأوقات بالوقوع على استواء نسبة القدرة إلى الكل»[٣] .

وذكر عن المتكلمين قولهم :«بأنها صفة قديمة شأنها تخصيص كل ممكن ببعض مايجوز عليه»[٤] والمفهوم من كونه مخصصاً مغاير للمفهوم من كونه مؤثراً،موجب التغاير بين القدرة والإرادة .[٥]

هذه الأقوال أثبتت الإرادة كصفة لله تعالى قديمة لها علاقة بمراد الله تعالى ، وجمعاً لتلك الأقوال ممكن أن تعرف الارادة بأنها «صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى شأنها تخصيص الممكنات ببعض مايجوز عليها ، من وجود وعدم ، وتكيف بقطع النظر عن أي مؤثر خارجي» .[٦]

وأما المعتزلة فقد نفوا الإرادة لنفي تعدد القدماء ، ولذلك قالوا بأنها محدثة ، لأنهم ظنوا أن القول بإرادة قديمة لله تعالى سيؤدي إلى تجويز التغير عليه ، لأن الموجودات تتعلق بالإرادة وهي متجددة متغيرة ، وقالوا لو كانت الإرادة قديمة لوقع التغير في ذات الله تعالى - حسب زعمهم- ولذلك يقول القاضي عبد الجبار :«واعلم أنه مريد عندنا بإرادة محدثة موجودة لا في محل» .[٧]

وهذا القول مردود وباطل لأن الإرادة القديمة توجب المراد اتفاقاً وأما الحادثة فلا توجبه اتفاقاً إذ لو كانت حادثة لاحتاجت إلى إرادة أخرى ولزم التسلسل[٨] ، ويرجع رأي المعتزلة

---

(١) شرح الفقه الأكبر ص ٣٠ .

(٢) شرح النسفية د. عبد الملك السعدي ص ٩٣ ، ط١ سنة ١٩٨٨م ، دار الأنبار ، بغداد ، تحقيق المقام للبيجوري ص ٤٨ ، ط ١٩٣٩م مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة .

(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ج١ ص ١٤٥ .

(٤) كفاية العوام محمد الفضالي ص ٤٨ ، وانظر : الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٤٦ ، وانظر : المواقف للإيجي ص ٢٩١ .

(٥) انظر : معالم أصول الدين للرازي ص ٦٠ ، ط ١٩٨٤م دار الكتاب العربي - بيروت .

(٦) كبرى اليقينيات الكونية د. البوطي ص ١٢٠ ، ط٢ سنة ١٤٠٢هـ دار الفكر - دمشق .

(٧) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٤٤٠ ، وانظر : المغنى للقاضي عبد الجبار ج٦ ص ١١١ ص ١٤٠ .

(٨) انظر : المواقف للإيجي ص ١٤٨ ، ص ٢٩١ ، مكتبة المتنبي - القاهرة .

في الإرادة الإلهيـة والحكم بحدوثها إلى أصل مذهبهم في الصفات وإنكارها ، لأن الله عندهم واحد في ذاته ، وصفاته هي عين ذاته ، فهو مريد بذاته لا بإرادة قديمة .

وقالت الجهيمة في تعريف الإرادة :«إن إرادة الله هي المراد» . [١]

وهذا القول باطل لأنه «ولو كانت الإرادة هي المراد لكان العلم هو المعلوم والقدرة هي المقدور عليه ، والعزة هي المعتز عليه وهذا فاسد جداً » . [٢]

أن إرادة الله تعالى صفة ذات قديمة ينفي بها عن الله تعالى أن يستكره على فعل من الأفعال ، كما ينفى عنه في العلم أن يجهل من الأشياء ، والقدرة أن يعجز عن شيء من الأشياء .

المطلب الثاني : الإرادة وعلاقتها بالأفعال :

إن أفعال الإرادة الإلهية تتمثل عموماً في الأمر والقضاء ، حيث إنها إرادة بالنسبة لذات الله سبحانه وتعالى ، ولكنها إرادة كونية ، وإرادة دينية ، ويترتب على ذلك القضاء أمر بالنسبة لنفاذ الإرادة في الكون والإنسان ، وأمر بالنسبة لاستمرار نفاذ المشيئة والإرادة الإلهية في السنن والنواميس الكونية والبشرية .

وإنه بدون التفريق بين الإرادة الكونية الجبرية ، والإرادة الدينية الابتلائية ، والأمر الكوني والأمر الديني ، وبين القضاء الكوني والقضاء الديني ، سيكون الأمر غامضاً ومتناقضاً ، ولكن إذا فُرِّق بين ماهو كوني قهري جبري ، حيث لا إرادة للإنسان فيه ولا اختيار ، وبين ماهو ديني اختياري ابتلائي ، سيتضح الأمر تماماً . فخطاب التكوين الذي «لا يطلب الله سبحانه فيه فعلاً من المخاطب بل هو الذي يكون مخاطباً ، ويخلقه بدون فعل المخاطب أو قدرة أو إرادة أو وجود له»[٣] لأنه يتعلق به ، ولكن ليس لأحد مخالفته أو الخروج عنه ، إلى جانب أنه لايوجد ملازمة بين خطاب التكوين وبين المحبة والرضا ، بل يدخل فيه الكفر والإيمان ، والسيئات والطاعات ، والمحبوب والمرضى ، والمكروه والمبغض ، وكل ذلك بمشيئته وقدرته وخلقه وتكوينه ، وقضائه وأمره الكونيين ، ولا سبيل لأحد إلى مخالفتها ، ولايخرج عنها مثقال ذرة[٤] ، فخطاب التكوين ، يختلف عن خطاب التكليف

---

(١) قاموس الشريعة للسعدي ج٤ ص ٣٣٢ . ط ١٩٨٣م وزارة التراث القومي – عمان .

(٢) المرجع السابق ج٤ ص ٣٣٣ .

(٣) مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ج٢ ص ٧٢ .

(٤) انظر : معارج القبول للحكمي ج١ ص ١٩٠ ص ١٩١ ،من مطبوعات دار الإفتاء بالرياض .

الذي يكون فيه الجانب الاختياري الابتلائي «الذي يطلب به من المأمور فعلاً أو تركاً يفعله بقدرة وإرادة» .[١]

وخطاب التكليف تتعلق به الإرادة الدينية ،وما يترتب عنها من أمر ديني وقضاء ديني حيث تكليف الإنسان ، لأنها في حدود اختياره وإرادته ، لأن الله تعالى شاء أن يكون هذا الإنسان له إرادة وحرية في الاختيار ، وقد ترتب على الإرادة الدينية والأمر الديني والقضاء الديني المحبة والرضا لأفعال ، أو الغضب والبغض وعدم الرضا وعدم المحبة لأفعال أخرى .

إن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالأفعال المرضية المحبوبة ، كما نهى عن الأفعال المبغوضة والمغضوبة ، التي لا يحبها ولا يرضاها وقد بين ذلك عن طريق الأنبياء والمرسلين حيث قال تعالى :﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ...﴾[٢] وقال أيضاً :﴿... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .[٣]

إن الحديث عن الإرادة وعلاقتها بالأفعال ، يرتبط بالحديث عن الإرادة وعلاقتها بالأمر والقضاء ، وبالتالي الخلق ، وعلاقة ذلك بالمحبة والرضا ، أو الكراهية والغضب ، وهذا سيتضح فيما يأتي :

أولاً : الإرادة والأمر :

الأمر في الاصطلاح:« هو قول القائل لمن دونه افعل »[٤]وقد اتفق علماء السلف على أن الأمر ينقسم إلى قسمين ، أمر كوني قدري ، وأمر شرعي ابتلائي تخييري .[٥]

١ - *الأمر الكوني :*

وهو الأمر الذي لا اختيار للإنسان فيه ، ولذلك يعبر عنه القرآن الكريم بكلمة «كن» الإلهية للشيء فيكون ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿... وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٦]. وهذا دلالة على كمال قدرته ، وعظم سلطانه ، وعلمه بما هو كائن قبل أن

---

(١) مجموع الرسائل الكبرى ج٢ ص ٧٢ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٤٨ ، الكهف الآية ٥٦ .

(٣) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ٣٧ . ط الثالثة ١٩٨٨م دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

(٥) انظر: شفاء العليل لابن القيم ص ٤٨، وانظر :معارج القبول ج١ ص ١٧٤، وانظر:شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٥.

(٦) سورة البقرة الآية ١١٧ .

يكون حيث إنه إذا حتم أمراً يقع هذا الأمر فوراً دون تردد على وفق ماأراد الله تعالى .[١]

فالإنسان في هذا الأمر مسير ، ولا يقع عليه في هذا الجانب تكليف لأنه خارج عن نطاق تكليفه ، وعلى هذا الأساس اعتبر أن الأمر الكوني ، ضمن الإرادة الكونية بل اعتبره بعض العلماء مرادفاً لها .[٢]

ويعتبر الأمر الكوني خاصاً بكيفية الخلق ونواميس المخلوقات ، وبه يتم العمل والفعل والتأثير للشيء ،أو للإنسان بمقتضى الخلق والطبع والجبلة،ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿... وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾[٣] .فهو الذي يسر صنعها ، وأقدر الإنسان على ذلك ،كما أنه خالق الأسباب التي أدت بهذه السفن لتجري على سطح الماء .

وقدجمع الله بين الخلق والأمر ، بعد أن ذكر خلقه للسموات والأرض في ستة أيام ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره فقال:﴿... أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤] ، فالأمر هنا أمر التدبير وإدارة شئون الخلق ، وترتيب وتنظيم الكون والحوادث ، وهذا هو الأمر الكوني الذي يتم الله به مايريد حتماً دون تأخر أو مخالفة . وذلك كقوله تعالى :﴿... وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[٥] أي كائناً موجوداً لا محالة [٦] ، فهو أمر واجب الحدوث ويستحيل تأخره .

ومما يؤكد ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿... لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ...﴾[٧] وقد تحقق هذا الأمر لقوله تعالى :﴿... وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٨] فأمر الله،هو غرق قوم نوح ، وقد وعد الله نوحاً عليه السلام بأنه مغرق

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص ١٦١ ، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٢ ص ٦٠ ، وانظر : زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ج١ ص ١١٩ ، وانظر : تفسير الماوردي ج١ ص ١٧٩ .

(٢) انظر : لوامع الأنوار البهية ص ٣٣٩ ،وانظر : الأسماء والصفات للبيهقي ص ١٣٧ .

(٣) سورة إبراهيم الاية ٣٢ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

(٥) سورة النساء الآية ٤٧ .

(٦) انظر : فتح القدير للشوكاني ج١ ص ٤٧٥ .

(٧) سورة هود الآية ٤٣ .

(٨) سورة هود الآية ٤٤ .

قومه لا محالة ، وقد أنجز ماوعد الله نوحاً عليه السلام من إهلاك قومه .[1]

وقوله تعالى :﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[2] وهنا خطاب لإبراهيم عليه السلام ألا يجادل في قوم لوط ، لأن قضاء الله وحكمه نافذ فيهم ، لأنه قد حقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين .[3]

وأما نفاذ هذا الأمر في الخلق سواء كان نافذاً بالسنن الكونية أم بخلافها فقوله تعالى : ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[4] ، أي كذلك الأمر حيث حكم ربك بمجيئ الغلام منك وإن لم يكن للنساء زوج ، لأن ذلك على الله سهل يسير ، ولأن مجيئه بهذه الصورة دلالة على قدرة الله العظيمة ، حيث إنه هو المتحكم بالأسباب والمسببات ، كما أن مجيئه أمر مفروغ منه حيث لا يتغير ولا يتبدل لأنه في سابق علم الله تعالى .

وأما بالنسبة لقوله تعالى:﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[5] فهناك خلاف بين العلماء بسبب ماورد من قراءات ، فأما على قراءة «أمَّرنا» بتشديد الميم أي جعلناهم أمراء مسلطين [6] ، ويكون المعنى أنه إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أي قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصي ، نُأمِّر المترفين عليها ، ومن المعلوم أن النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين هي الفسق فيحق عليها الدمار .

وأما على قراءة «أمَرنا» بالتخيف ، أي أمرنا مترفيها بالطاعة لأن الله تعالى لا يأمر إلا بها ، ولا يأمر بالفحشاء لقوله : ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ...﴾[7] فيأمر مترفيها

(١) انظر : تفسير الماوردي ج٢ ص ٤٧٣ ص ٣٧٤ ، ط الاولى ١٩٩٢م – دار الكتب العلمية – بيروت ، وانظر : الأساس في التفسير ، سعيد حوي ج٥ ص ٢٥٥٨ ، ط ٢ ١٩٨٩م دار السلام – القاهرة .

(٢) سورة هود الآية ٧٦ .

(٣) انظر : الأساس في التفسير ج٥ ص ٢٥٨٤ .

(٤) سورة مريم الآية ٢١ .

(٥) سورة الاسراء الآية ١٦ .

(٦) انظر : إملاء مامن به الرحمن للعكبري ج٢ ص ٨٩ ، ط الأولى ١٩٧٩م دار الكتب العلمية – بيروت ، وانظر : تفسير الماوردي ج٣ ص ٢٣٥ .

(٧) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

بالطاعة ، فإذا فسقوا عن أمره وتمردوا حق عليهم العذاب لارتكابهم الفواحش والسيئات فدمر تلك القرية تدميرا.(١)

والظاهر أن من قال بقراءة التخفيف في قوله تعالى ﴿أَمَرْنَا﴾ إعتبر الأمر بالطاعة فيكون الأمر تشريعياً ، ولكن هذا القول رواه ابن القيم بقوله : «ولا حاجة إلى تكلف تقدير (أمرنا مترفيها) بالطاعة فعصونا وفسقوا فيها ، بل الأمر هنا أمر تكوين وتقدير لا أمر تشريع». (٢)

ويؤكد قوله بعدد من الأدلة وهي :

اولاً : إن المستعمل في مثل هذا التركيب أن يكون مابعد الفاء هو المأمور به كما تقول أمرته فقام .

ثانياً: أن الأمر بالطاعة لا يخص المترفين ، فلا يصح حمل الآية عليه بل ، تسقط فائدة ذكر المترفين ، فإن جميع المبعوث إليهم مأمورون بالطاعة ، فلا يصح أن يكون أمر المترفين علة إهلاك جميعهم .

ثالثاً: إن هذا النسق والترتيب مقتضى ترتيب مابعد الفاء على ماقبلها ترتيب المسبب على سببه ، والمعلول على علته ، حيث نرى أن الفسق علة حق القول عليهم ، وحق القول عليهم علة لتدميرهم ، فهكذا الأمر سبب لفسقهم ومقتضى له ، وذلك هو أمر التكوين لا التشريع .

رابعاً : إن إرادته سبحانه لإهلاكم إنما كانت بعد معصيتهم ومخالفتهم لرسله . فقد تقدمت،فأراد الله إهلاكهم فعاقبهم بأن قدر عليهم الأعمال التي يتحتم معها هلاكهم . (٣)

والحقيقة أن الله تعالى عندما يرسل رسله إلى أي أمة من الأمم ، يرسلهم بأوامره الشرعية التي فيها التوجيهات الربانية ، ولكن قد يحصل عصيان وتمرد على هذه الأوامر ، وهنا يصدر الأمر الكوني الذي لا راد له بهلاكهم ، فيسلط الله مترفيها بالإمارة بأمر قدري، ، فيؤدي ذلك إلى أن يفسقوا فيها ويشتد طغيانهم فيحق عليهم العذاب والدمار الواقع لا

---

(١) انظر : تفسير المراغي ج٥ ص ٢٥ ص ٢٦ ، دار الفكر - القاهرة وانظر تفسير الماوردي ج٣ ص ٢٣٥ ،انظر : الأساس في التفسير ج٦ ص ٣٠٥٣ .

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ٤٨ ، ٣٨١ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ٤٨ .

محالة ، ومما يؤكد ذلك ورود قراءة «أَمَّرنا مترفيها» أي جعلناهم أمراء»[1] ، وكذلك قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ .[2]

٢ - الأمر الديني (الشرعي)

وهذا الأمر له علاقة بالإرادة الدينية المتضمنة للمحبة والرضا[3] ، وهو موجه من الله تعالى إلى البشر بقصد التكليف .

والأوامر الربانية للبشر هي الواجبات الشرعية التي يفرضها الله تعالى علي الناس، لأن الدين هو عبارة عن مجموعة أوامر ونواة ، ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...﴾[4] ، ومنه أيضاً أمر الله تعالى لإبليس بالسجود حيث قال ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ...﴾[5] . وبالتالي يتبين أن الأمر الديني التشريعي «هو توجيه وإرشاد ونصيحة من الله سبحانه للمأمور بفعل معين أو نهي معين مع كون المأمور في حالة يستطيع معها القيام بتنفيذ الفعل أو الترك بلا موانع لحدوث مايختاره» .[6]

وإذا اختار الإنسان أمراً مما جعل الله له فيه سلطة الاختيار ، فإن اختياره لذلك الأمر لا يعاند ولا يخالف إرادة الله تعالى في شيء ، لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يمنحه هذا الإختيار ، كما أنه لا يقتضي أن يكون الله تعالى راضياً عن كل مايختاره الإنسان ، ومما يؤكد الاختيار وعدم الإجبار في هذا الأمر الديني ، هو قول الله تعالى لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ...﴾[7] وهو سؤال استنكاري لفعل إبليس ، عندما رفض أمر الله تعالى له بالسجود لآدم ، فالله تعالى يعلم أنه قادر على السجود ، ولكن إرادته الحرة تجاه هذا الأمر منعته أن يسجد حيث الكبرياء والتعالي على آدم ، مما أدى إلى عصيان أمر الله تعالى .

---

(١) إملاء مامن به الرحمن ج٢ ص ٨٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٣ .

(٣) انظر : منهاج السنة النبوية ج٢ ص ٢٩ وانظر: مجموع الفتاوي ج٨ ص ١٨٩ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٩ .

(٥) سورة الأعراف الآية (١٢) .

(٦) القضاء والقدر في الإسلام د. فاروق دسوقي ج١ ص ٣٤٦ . دار الدعوة الاسكندرية .

(٧) سورة الأعراف الآية ١٢ .

وأمر الله تعالى الديني الشرعي لا يكون إلا في الخير حيث قال الله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...﴾(١) وقال : ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ...﴾(٢) ومع ذلك فإن الله تعالى لم يجبر الإنسان على هذه الأوامر بل جعله مخيراً في العمل بها ومن ثم الطاعة ، أوتركها ومن ثم المعصية .

وإن هذا الاختيار خاص بالإنس والجن حيث جعل الله لهم قدرة وإرادة حرة يختارون بها مايريدون من الأفعال ، وأما باقي المخلوقات فتطيع بلا إرادة أو اختيار كالجمادات ، من معادن وحجارة وكالنجوم ، فهذه تخضع للسنن التي سنها الله تعالى ، والخطط التي قدرها الله لها والتي تخضع لما يسمى بقوانين الطبيعة ، ومنها مايكون خضوعه بالغريزة كالحيوان ، ومنها مايكون بأصل الخلق والجبلة كالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون (٣). فيصدر الأمر أحياناً من الله تعالى فيكون نافذاً كونياً للسموات والأرض والملائكة ، ابتلاءاً للإنسان والجان ، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فالأمر هنا واحد ، ولكن بالنسبة للملائكة كوني ، حيث لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وبالنسبة لإبليس فهو تشريعي ابتلائي . ومن ثم فإن إبليس عندما فسق عن أمر ربه ، لم يخرج عن أمر ربه الكوني ، وإنما خرج وعصى الأمر الابتلائي بالسجود ،وهو بفعله هذا لم يفعل أمراً خارجاً عن إرادة الله الكونية،وإنما هو منسجم مع إرادته الكونية حيث أعطى إبليس الحرية التي تمكنه أن يفعل مايختار،فالله سبحانه وتعالى أراد بإرادة نافذة ، وأمر أمراً كونياً سابقاً على الأوامر الابتلائية في الزمان أن يكون الإنسان حراً وكذلك الجان،وأن يفعل الإنس والجن مايختارونه،حتى ولو كان معارضاً وخارجاً عن الأمر الابتلائي وكل ذلك لحكمة الابتلاء .(٥)

فإذا فعل الإنسان ماهو مخالف لأمر الله الابتلائي التشريعي فإنه بذلك يمارس الحرية ، وينفذ أمر الله تعالى الكوني الذي أصبح به مختاراً ، ولذلك فلا تعارض بين الأمر الابتلائي

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

(٣) انظر : نظام الإسلام محمد المبارك ص ٧٣ ص ٧٤ ، ط ٤ سنة ١٩٧٥م ، دار الفكر - بيروت .

(٤) سورة البقرة الآية ٣٤ .

(٥) انظر : القضاء والقدر في الإسلام ج١ ص ٣٥٨ .

الشرعي ، والأمر الكوني بل إن الأمر الشرعي يؤدي إلى الأمر الكوني حيث أن ما يختاره العبد حاصل وفق مشيئة الله تعالى .

وأما بالنسبة للأمر وعلاقته بالإرادة فقد يكون ملازماً لها وهو كل ما أراد الله وقوعه حيث أنه يقع لامحالة ، وربما لا تصحبه الإرادة قط ولا محبة المطلوب ، وهو أمر الاختيار للغير بالعزم على الطاعة مثل أمر الخليل عليه السلام بذبح إبنه ، ولا يقال إن تلك رؤيا ، لأن رؤيا الأنبياء حق ، ولأن ابنه قال ﴿... يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ...﴾(١) وهذا يدل على أن الله تعالى قد يأمر بما لايريد وقوعه ديناً حيث أنه أمر إبراهيم عليه السلام بالذبح ، وما أراد وقوعه ولا أحبه ، وإنما ابتلى خليله بالعزم كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٢) وهذا يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة .(٣)

وهناك أمر لا تصحبه إرادة الحصول ، ولكن تصحبه محبة المطلوب دون إرادة وقوعه من المأمور ، وذلك مثل أمر الكافر بالإيمان مع علم الله تعالى أنه لا يؤمن أبداً ، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿... وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ...﴾(٤) ، مع أن الانبعاث معه عليه السلام مأمور به ولكن كره من وجه آخر لامن الوجه المأمور به لأجله ، لأن خروجهم سيؤدي إلى شرور ومفاسد أعظم من مصلحة خروجهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ...﴾(٥) فاقتضت حكمة الله ورحمته بأمته أن أقعد المنافقين عن الخروج .(٦)

---

(١) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الصافات الآيات ١٠٣ - ١٠٥ .

(٣) انظر : التفسير الكبير للرازي ج ٢٦ ص ١٥٦ ط طهران . وانظر : إيثار الحق على الخلق لابن المرتضى ص ٢٧٢ دار الكتب العليمة - بيروت .

(٤) سورة التوبة الآية ٤٦ .

(٥) سورة التوبة الآية ٤٧ .

(٦) انظر : إيثار الحق على الخلق لابن المرتضي ص ٢٧٢ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨٥ .

ثانياً : الإرادة والقضاء :

والقضاء «هو عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ماهي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد»[(١)] وقيل «هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة ، والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها »[(٢)] وعرف بأنه «أرادة الله إيجاد الأشياء على وجه مخصوص ثم إيجادها فعلاً على وفق المراد» .[(٣)]

وينقسم القضاء إلى قسمين [(٤)]: قضاء كوني نافذ لايرد ، وقضاء شرعي تكليفي ، ولذلك يقرر ابن القيم أن الإنسان يعيش في هذا الوجود بين قضائين كوني وديني «فماكان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه ، وماكان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه» .[(٥)]

١ - *القضاء الكوني:*

هو بمعنى الأمر الكوني النافذ الذي لا يرد ودليله قوله تعالى : ﴿... وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٦)] ، أي إذا قدر أمراً وأراده فإنه لابد أن ينفذ بمجرد قوله تعالى له «كن» والقضاء الكوني لا اختيار للإنسان فيه ، ولذلك لا يقع عليه فيه تكليف لأنه يخرج عن نطاق تكليفه ، وعلى هذا الأساس يعتبر القضاء الكوني تابعاً للإرادة الكونية .

ويأتي القضاء الكوني بمعنى التحديد والتقدير كقوله تعالى:﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ...﴾[(٧)] أي قدر وحدد زمناً ، ولكن يوجد اختلاف

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٧٧ ، وانظر : مسألة القضاء والقدر ص ١٢ .

(٢) العقائد الإسلامية سيد سابق ص ٩٥ .

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص ٧٣٠ ، ط الثانية ١٩٧٩م دار القلم - دمشق .

(٤) ويأتي القضاء بمعان أخرى غير القضاء الكوني والقضاء الشرعي مثل أن يأتي بمعنى الحكم والقضاء بين المتخاصمين والمتنازعين مثل قوله تعالى (ثم لا يجدوا في أنفسم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) سورة النساء آية ٦٥ ، وأن يأتي بمعنى الإخبار والإعلام مثل قوله تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) سورة الحجر آية ٦٦ . وقوله : (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيرا) سورة الاسراء الآية ٤ ، انظر : الفصل لابن حزم ج٣ ص ٧٧ ، وانظر :القضاء والقدر في الإسلام ج١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ولكن المهم في هذه الدراسة هو القضاء الكوني والقضاء الشرعي.

(٥) شفاء العليل ص ٢٨٠ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٥ .

(٦) سورة البقرة الآية ١١٧ .

(٧) سورة الأنعام الآية ٢ .

في تفسير الأجل هنا حيث قيل : إن الأجل الأول مابين أن يخلق الإنسان إلى أن يموت ، والثاني مابين أن يموت إلى أن يبعث ، وقيل الأول مدة الدنيا ، والثاني عمر الإنسان إلى موته ، وقيل الأول قبض الأرواح في النوم ، والثاني قبض الروح عند الموت(١) . وإلى غير ذلك من أقوال ، المهم أنه هنا بمعنى حدد ، وهذا التحديد لا إرادة للإنسان فيه ، ولا يدخل في مجال تكليفه بل هو مجبر عليه غير مخير فيه ، لأنه لا أحد يخير في موعد موته أو موعد بعثه .

ويأتي أيضاً بمعنى الحتم ، أي قضاء حتمي كقوله تعالى :﴿... وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾(٢) أي قدراً مقدوراً وخلقاً مراداً له سبحانه وفعلاً نافذاً لامرد له (٣).

٢ القضاء الديني الشرعي :

وهو بمعنى الأمر التشريعي التكليفي وله علاقة بالإرادة الدينية ، ويمثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا...﴾(٤) أي أمر وشرع ، ولو كان القضاء هنا كونياً لما عبد غير الله تعالى ولما وقع العقوق من الأولاد ، ولكن هنا القضاء تشريعي تكليفي ، يطيع من أراد الطاعة باختياره ، ويعص من أراد المعصية باختياره أيضاً ، ولذلك يقول اين القيم «وينفرد القضاء الديني في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور» (٥).

ويتبادر إلى الموضوع مسألة تتعلق بموضوع القضاء ، وهو إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله ، فكيف ننكره ونكرهه ؟ والجواب عن هذا السؤال يتضح من خلال مايأتي :

أولاً : لم يرد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ أننا مأمورون بالرضى بكل

---

(١) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ٩٨ .

(٢) سورة مريم الآية ٢١ .

(٣) انظر : القضاء والقدر في الاسلام ج١ ص ٣٤٩ ، وانظر : فتح القدير ج٣ ص ٣٢٨ .

(٤) سورة الاسراء الآية ٢٣ .

(٥) شفاء العليل ص ٢٨٠ .

مايقضيه الله ويقدره ، بل من المقضي مايرضي به ، ومنه مايسخط ويمقت ، كما لايرضى به القاضي سبحانه لأقضيته ، بل إن هناك من الأعيان المقضية قد غضب عليها ومقتها ولعنها وذمها كإبليس مثلاً .[(١)]

ثانياً: القضاء له وجهان ، أحدهما : تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه ، فمن هذا الوجه يرضى به ، والثاني تعلقه بالعبد ونسبته إليه ، فمن هذا الوجه ينقسم إلى مايُرضى به ، وإلى مالا يُرضى به ، ومثال ذلك : قتل النفس بغير حق حيث أن له اعتباران : فمن حيث أنه قدره الله وقضاه وشاءه وكتبه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره ، يرضى به ، وأما من حيث أنه صدر من القاتل وقام بتنفيذه وأقدم عليه باختياره ، وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به .[(٢)]

ثالثاً : الإرادة والخلق :

إن الله تعالى الخالق المتفرد بالخلق والإيجاد ، فهو خالق كل شيء بلا استثناء ، فما من شيء وجد بعد أن لم يكن موجوداً إلا والله خالقه عن علم وإرادة ، فالله عز وجل هو الخالق وحده حيث قال في محكم التنزيل:﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ...﴾[(٣)] وقال تعالى :﴿ ... هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ .[(٤)]

إن تفرد الله عز وجل بالخلق أمر لاينكره إلا مكابر.فقد علم عقلاء الخلق أن هذا الكون بكل مافيه،خلقه خالق عظيم ومدبر حكيم، جل شأنه حيث قال سبحانه عن أمر الخلق: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(٥)].فبعد أن استعرض الله تعالى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وخلق الأنعام والكائنات الحية، وخلق مالم يعلمه الإنسان،ومالم يصل إليه علمه عقب بقوله :﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾

---

(١) انظر : مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ج٢ ص ٧٨ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨٧ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطاوية ص ٢٨٧ ، وانظر : المواقف للإيجي ص ٣٢٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .

(٤) سورة فاطر الآية ٣ .

(٥) سورة النحل الآية ١٥ – ١٧ .

أيجوز أن يسوي بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لا يخلق شيئاً ، لا كبيراً ولا صغيراً «وهذا نص جلي على إبطال أن يخلق أحد دون الله تعالى»[1] ومما يؤكد تفرد الله تعالى بالخلق قوله :﴿... أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2] فبعد أن استعرض الله تعالى مخلوقاته التي خلقها ، وجه خطابه لمن اتخذ من دون الله آلهة ، خطاب تهكم على القوم الذين يرون كل شيء من خلق الله تعالى ، ويرون أن هذه الآلهة المدعاة لم تخلق شيئاً ، وماهي بخالقه شيئاً إنما هي مخلوقة ، وبعد هذا كله يعبدونها ويدينون لها ، وذلك أسخف وأحط ماتصل إليه العقول إلى دركة من التفكير لأن الواجب عليهم توحيد وعبادة الخالق لا المخلوق[3].

وأما قول الله تعالى :﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4] . يقول فيه الإمام البخاري :«يعني السر والجهر من القول ، ففعل الله صفة الله ، والمفعول غيره من الخلق»[5] . وهذا يدل على أن السر والجهر الذي هو فعل الإنسان هو خلق الله تعالى .

وأما الأحاديث النبوية التي تثبت خلق الله سبحانه وتعالى لأفعال الإنسان :

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :**[يا أشج : إن فيك خلقين يحبهما الله الحلم والأناة» قال : يا رسول الله أنا أتخلق بهما ، أم الله جبلني عليهما ؟ قال : بل الله جبلك عليهما . قال الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله]**[6] .

فهذا الحديث يثبت أن أخلاق الإنسان هي خلق الله تعالى .

كما أن الله تعالى خالق كل عامل وعمله ، وكل متحرك وحركته ، وكل ساكن وسكونه ، ومامن ذرة في السماوات ولا في الأرض إلا وهو خالقها وخالق حركتها

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج٣ ص ٨٤ .

(٢) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن سيد قطب ج٤ ص ٢٠٥٣ ، وانظر : الاعتقاد للبيهقي ص ١١٣ .

(٤) سورة الملك الآية ١٣ - ١٤ .

(٥) خلق أفعال العباد للبخاري ص ١١٢ .

(٦) سنن أبي داود ج٤ ص ٣٧٥ ، كتاب الأدب باب في قبلة الجسد حديث رقم ٥٢٢٥ ، صحيح مسلم ج١ ص ٤٩ كتاب الايمان باب الأمر بالإيمن بالله حديث ١٨ ، خلق أفعال العباد للبخاري ص ٢٥ .

وسكونها ، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: **[إن الله تعالى صانع كل صانع وصنعته]** .(١)

وقد عقب الإمام البخاري على هذا الحديث بقوله «فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقه»(٢) . وقال أيضاً : «إن أفعال العباد مخلوقة ... حركاتهم وأصواتهم وأكسابهم وكتابتهم»(٣) . فكل أعمال الإنسان مخلوقة لله تعالى ويؤكد ذلك قوله تعالى :﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٤) على الرغم من وجود الخلاف حول هذه الآية بالنسبة للفظ «ما» ولذلك يقول ابن كثير مؤكداً على نتيجة ذلك «سواء كانت «ما» مصدرية أو بمعنى (الذي) فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله ، فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم ، وهذا باطل والآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولاتجب إلا للخالق وحده لاشريك له» .(٥)

فإن كان الله جل ثناؤه خالقاً لكل شيء ، فلا بد أن يكون هو الخالق للآثار التي تنجم عن الإرادات الحرة لمن خلق فيهم هذه الإرادات ، وذلك لأن هذه الآثار هي أيضاً ضمن الأشياء الموجودة في كونه تعالى ، والتي تتم بخلقه «**وللعباد مقدرة على أعمالهم ولهم مشيئة والله خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم وأقوالهم وأعمالهم**»(٦) ولذلك ينسب الفعل إلى الإنسان ، ولكن نسبة كسب وعمل لانسبة خلق ، لا سيما وأن إرادته الحرة مخلوقة ، ولذلك كان من الخطأ الواضح القول بأن الإنسان يخلق أفعال نفسه ، لأن الخلق إيجاد شيء من العدم ، والإنسان لم يوجد شيئاً من العدم ، وإنما ربط شيئاً موجوداً بشيء موجود ، بربط الأسباب بمسبباتها ، وفن المعلوم أن العلاقة بين الأسباب والمسببات هي من صنع الله تعالى وليس من صنع الإنسان(٧) ، والإنسان يمكن أن يصنع شيئاً من شيء موجود سابقاً ولكنه لا يخلقه خلقاً ابتداءً . وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في

---

(١) خلق أفعال العباد للبخاري ص ٢٥ ، الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ٧٠ .

(٢) خلق أفعال العباد للبخاري ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٤) سورة الصافات الآية ٩٦ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ج١ ١٤٥ .

(٦) معارج القبول ج٢ ص ٣٤٨ .

(٧) انظر : نظام الإسلام ص ٧٦ .

قوله :﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾(١) .

وعلى هذا يتبين أن مافي الكون أو الطبيعة من ضروب الإرتباط بين مايسمى بالأسباب ومسبباتها ، والعلل ومعلولاتها ، كلها مخلوقة لله تعالى «ولذلك لا يطلق على الله الخالق في العقيدة الإسلامية لفظ سبب ولا علة لأنه خالق الأسباب والعلل ومقدر سننها وقوانينها »(٢) كما أنه «لم يرد فعل الخلق منسوباً في القرآن إلى غير الله»(٣) وأما صيغة تخلقون فقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة منسوبة إلى الإنسان في قوله تعالى :﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ...﴾(٤) (٥)والمقصود بقوله : «تخلقون إفكا» تختلقون كذباً (٦) وقيل تكذبون كذباً ، على أن معنى تخلقون تكذبون(٧) . ويجوز أن يكون معناها تعملون وتنحتون ، أي تعملونها وتنحتونها للإفك والباطل (٨) .

وإلى جانب ذلك يظهر أن هناك شيئاً من التهكم عليهم ، فكيف يعبدون مايصنعون ويعملون بأيديهم ؟ !! والأصل أن يعبد الخالق لا المخلوق .

وأما بالنسبة للعلاقة بين الإرادة والخلق فيوضحها قوله تعالى :﴿... وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٩) .وقوله تعالى :﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(١٠) ، فالله سبحانه وتعالي يريد الشيء ثم يأمر به ثم يخلقه ، وهذا يبين العلاقة بين الإرادة والأمر والخلق «فالذي يقال له كن هو الذي يراد ، وهو حين يراد قبل أن يخلق ، له ثبوت وتميز في العلم والتقدير»(١١) .

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٧١ – ٧٣ .

(٢) نظام الاسلام ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٧ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ١٧ .

(٥) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٤٣ ، مادة خلق .

(٦) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل ج٣ ص ١١٤ .

(٧) فتح القدير للشوكاني ج٤ ص ١٩٧ .

(٨) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٤ ص ١٩٧ ، وانظر : التسهيل لعلوم التنزيل ج٣ ص ١١٤ وانظر : صفوة التفاسير ج٢ ص ٤٥٥ ، وانظر : مختصر تفسير الطبري ج٢ ص ١٦٧ .

(٩) سورة البقرة الآية ١١٧ .

(١٠) سورة النحل الآية ٤٠ .

(١١) تفسير القاسمي ج٢ ص ٢٣٨ .

رابعاً : الإرادة وعلاقتها بالمحبة والرضى والغضب والكراهة :

قسم علماء السلف صفات الله تعالى إلى قسمين صفات ذاتية ، وصفات فعلية ، ولعل الإمام أبا حنيفة أول من ذهب إلى هذا التقسيم ، وتبعه على ذلك من جاء بعده من السلف .(١)

وتعتبر المحبة والرضى والغضب والكراهة من صفات الله تعالى التي لها علاقة بالإرادة وبأفعال العباد ، وهذه الصفات من «الصفات الفعلية الخبرية التي تثبت بالكتاب والسنة فقط» (٢)، وقد وردت أدلة واضحة وصريحة في إثبات هذه الصفات لله تعالى ومن ذلك ماورد في :

- صفة المحبة قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٣) فهذه الآية تدل على أنهم إذا اتبعوا الرسول أحبهم الله ، وقد جزم بقوله «يحببكم الله» فجزمه جواباً للأمر ، وهو في معنى الشرط فتقديره إن تتبعوني يحببكم الله (٤). فمحبة الله تعالى لهم بعد اتباعهم للرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾(٥) وهنا تظهر هذه الصفة ، صفة المحبة «فالحب والرضى المتبادل وهو الصلة بينهم وبين ربهم ... وحب الله لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته لما وصف نفسه»(٦) كما أثبت الله تعالى حبه للمقسطين فقال:﴿... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٧) وهذا يدل «على أن المحبة بسبب هذه الأعمال ، وهي جزاء لها ،والجزاء إنما يكون بعد العمل»(٨) وفي المقابل نفي حبه للمختال المتكبر فقال :﴿... وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٩)

---

(١) انظر : شرح الفقه الأكبر ص ٢٥ ، وانظر : مناهج الإسلاميين للرقب ج٢ ص ٩٦٥ .

(٢) مناهج الإسلاميين ج٢ ص ٩٦٥ ،وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوي ج٦ ص ٢٢٥ ، وانظر : جامع الرسائل ج٢ ص ١٤ .

(٥) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٦) في ظلال القرآن سيد قطب ج٢ ص ٩١٨ ط السابعة سنة ١٩٧٨م دار الشروق - بيروت .

(٧) سورة الممتحنة الآية ٨ ، سورة المائدة الآية ٤٢.

(٨) الأسماء والصفات لابن تيمية ج١ ص ١٢٩ . ط الأولى سنة ١٩٨٨م دار الكتب العلمية - بيروت .

(٩) سورة الحديد الآية ٢٣ .

وأيضاً لا يحب المعتدين فقال : ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[١] . وهو سبحانه لا يحب المفسدين قال تعالى : ﴿... والله لا يحب المفسدين﴾[٢] .كما لايحب الفساد ، ﴿... والله لا يحب الفساد﴾[٣] . مع أنه يحدث بمشيئته وقضائه وقدره ، فهو سبحانه لا يحبه كوناً ولا ديناً مع أنه وقع بتقديره ، كما لا يحب إبليس وجنوده ، وفرعون وحزبه وهو ربهم وخالقهم ، وقد يحب الله أمراً ولكنه لم يرده كوناً ، ومثال ذلك ما أمر به إبراهيم الخليل عليه السلام ، حيث أمره الله تعالى بذبح ولده ، ولكن لم يرد وقوع ذلك كوناً .[٤]

وقد ورد في الحديث النبوي الشريف إثبات صفة المحبة لله تعالى حيث قال رسول الله ﷺ :[إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصة كما يجب أن تؤتى عزائمه] .[٥]

- وأما صفة الرضى فقد وردت في قوله تعالى :﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾[٦] فأثبت رضاه عن الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة كما أثبت رضاه للذين آمنوا بالله وباليوم الآخر ويحبون ويوالون الله ورسوله فقال تعالى: ﴿...رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ .[٧]

وفي المقابل أثبت الله تعالى عدم رضاه عن كثير من الأمور ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول...﴾[٨] .فقد أخبر سبحانه أنه لا يرضى مايبيتون من القول المتضمن بهت ورمي البريء وشهادة الزور ، وتبرئة الجاني ، وذلك ناتج عن ضعف الإيمان ونقصان اليقين حيث مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله ، فيحرصون بالطرق المباحة ، والمحرمة على عدم

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٠٥ .

(٤) انظر : القضاء والقدر للبيهقي ص ١٠٦ ، وانظر : مدارج السالكين ج١ ص ٢٥٣، وانظر : طريق الهجرتين لابن القيم ص ١٥٥ .

(٥) الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ٧٥ .

(٦) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٧) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٨) سورة النساء الآية ١٠٨ .

الفضيحة عند الناس ، ومع أن ذلك كله . بمشيئة الله تعالى،حيث أجمع المسلمون على أن ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، إلا أن الله تعالى لا يرضى عن ذلك .[1]

كما أثبت الله تعالى عدم رضاه عن الكفر ، ورضاه بالشكر له ، وذلك بتوحيده وإخلاص الدين له فقال :﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾[2] فالكفر والشكر واقعان بمشيئة الله وقدره ، وأحدهما محبوب له مرضي ، والآخر مبغوض له مسخوط .[3]

وقد ورد في السنة النبوية إثبات هذه الصفة حيث قال رسول الله ﷺ :**[أعوذ برضاك عن سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ،وبك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك]** .[4]

وأما مايتعلق بصفة الغضب فقد ثبتت بالكتاب والسنة حيث قال الله تعالى :﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[5] فثبت غضب الله تعالى على من يقتل مؤمناً متعمداً لما لهذه الجريمة من هول وفظاعة عند الله تعالى .

وفي حديث الله تعالى عن المنافقين والمشركين الظانين بأن الله يخذل المؤمنين ولا ينصرهم فقال :﴿... الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾ .[6]

وأما السنة النبوية فقول الرسول ﷺ في حديث الشفاعة :**[إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله]** .[7]

وأما صفة الكراهة فوردت في قوله تعالى:﴿... وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[8]. أثبت الله تعالى لنفسه صفة الكره وهي صفة من صفات الفعل .

---

(١) انظر : مدارج السالكين ج١ ص ٢٥٣ ، وانظر : تفسير كلام المنان للسعدي ج٢ ص ١٥٤ .

(٢) سورة الزمر الآية ٧ .

(٣) انظر : مدارج السالكين ج١ ص ٢٥٣ .

(٤) صحيح مسلم ج١ ص ٣٥٢ ، كتاب الصلاة باب مايقال في الركوع والسجود رقم ٤٨٦ .

(٥) سورة النساء الآية ٩٣ .

(٦) سورة الفتح الآية ٦ .

(٧) صحيح مسلم ج١ ص ١٨٥ كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها حديث رقم ١٩٤ .

(٨) سورة التوبة الآية ٤٦ .

بهذه الأدلة من الكتاب والسنة ثبتت هذه الصفات ، واتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله تعالى يُحِبُّ ويُحَبْ ، فهو سبحانه المستحق أن يكون له كمال المحبة دون سواه ، وهو سبحانه يحب ما أمر به ، ويحب عباده المؤمنين ، واتفقوا على أنه يرضى ويغضب ويكره[1].

ولكن مع ورودهذه الأدلة واتفاق السلف إلا أن البعض نفى أن يكون لله تعالى صفة محبة أو رضا أو غضب غير الإرادة ، بل يجعلون المحبة والرضى والغضب بمعنى الإرادة[2] . وهو قول من أثبت لله تعالى بعض الصفات وأنكر البعض الآخر .

واعتمدوا في نفيهم هذا على أن المحبة ميل القلب إلى مايلائم الطبع ، والله منزه عن ذلك ، وحينئذ فمحبة الله للعبد إرادة اللطف به والإحسان إليه ، ومحبة العبد لله هي محبة طاعة في أوامره ونواهيه ، والإعتناء بتحصيل مراضيه ، فمعنى يحب الله ، أي يحب طاعته أو يحب ثوابه وإحسانه وهذا مذهب جمهور المتكلمين[3] .

وأما بالنسبة لنفيهم الغضب على أن «الغضب غليان دم القلب لإرادة الانتقام والله منزه عن صفات المخلوقين»[4] .

ويُلاحظ هنا أنهم فروا من التشبيه فوقعوا في التعطيل والتحريف ، مع العلم أن موقف السلف أسلم وأحكم ، حيث أثبتوا هذه الصفات لله تعالى «من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ، بل آمنوا بمعناها المتبادر من ظاهرها ،وفوضوا العلم بكيفتها وكنهها إلى الله تعالى »[5] .

ومن المعلوم أن الله تعالى وصف نفسه بالمحبة ، ووصف عبده بالمحبة فقال :﴿... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ...﴾[6] كما وصف نفسه بالرضى ووصف صحابة رسوله ﷺ كذلك فقال :﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ...﴾[7] وكذلك وصف

---

(١) انظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٢٢٢ ، وانظر : الرسالة التدمرية ج٣ ص ١٧ ضمن مجموع الفتاوي .

(٢) انظر : منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٦٦ ، وانظر : محصل أفكار المتفوقين والمتأخرين ص ١٠٨ .

(٣) انظر : محصل افكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ١٠٨ ،وانظر: الرسالة التدمرية ج٣ ص ٢٦ ضمن مجموع الفتاوي ،وانظر :جامع الرسائل ج٢ ص ١٤ ، وانظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٢٢١ ص ٢٢٢ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوي ج٦ ص ١١٩ ، وانظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٢٢٢ .

(٥) مناهج الاسلاميين للرقب ج٢ ص ١٠٦ ، وانظر : شرح الطحاوية ص ١٢٨ ، وانظر : الايمان محمد نعيم ياسين ص ١٦ .

(٦) سورة المائدة الاية ٥٤ .

(٧) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

نفسه بالغضب فقال : ﴿... وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ...﴾[1] ووصف عبده بالغضب في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾[2] ومعلوم أنه ليس المحبة كالمحبة ، وليس الرضى كالرضى ، وليس الغضب كالغضب .[3]

والظاهر أن الذين عطلوا هذه الصفات لم يفهموا من «صفاته إلا ماهو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات ، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل ، مثلوا أولاً وعطلوا آخراً ، وهذا تشبيه وتمثيل»[4] ، مع أنهم يثبتون صفات أخري كالإرادة والكلام والسمع والحياة والقدرة والعلم والبصر ويجعلون ذلك كله حقيقة «فيقال له لا فرق بين مانفيته وبين ما أثبته ، بل القول في احدهما كالقول في الآخر»[5] . فإن قال : الإرادة التي نثبتها لله تعالى ليست مثل إرادة المخلوقين ، لأن له إرادة تليق به ، كما أن للمخلوق إرادة تليق به ، قيل له : وكذلك له محبة تليق به ، وللمخلوق محبة تليق به ، وله رضا وغضب وكراهة يليق به ، وللمخلوق رضا وغضب وكراهة تليق به .[6]

وأما القول بأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام «فيقال له : والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، فإن قلت : هذه إرادة المخلوق قيل لك : وهذا غضب المخلوق»[7] وكذلك المحبة والرضى والكراهة ونحو ذلك مما هو من خصائص المخلوقين ، لأن هناك مفارقة بين صفات الخالق وصفات المخلوقين ، حيث يشتركان في الاسم ، ويفترقان في الحقيقة «لأن حقيقة ذات الله ليست مثل ذاتنا ، فليس هو مماثلاً لنا ، لا لذاتنا ولا لأرواحنا ، وصفاته كذاته»[8] ، والنافي لهذه الصفات لا يحق له أن ينفي بغير دليل ،«لأن النافي عليه الدليل كما على المثبت ، والسمع قد دل عليه ، ولم يعارض ذلك معارض عقلي ولا سمعي ، فيجب إثبات ما أثبته الدليل ، السالم عن المعارض المقاوم» .[9]

---

(١) سورة الفتح الآية ٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٠ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوي ج٣ ص ١٣ ص ١٥ .

(٤) مجموع الفتاوي ج٥ ص ٢٧ .

(٥) الرسالة التدمرية ج٣ ص ١٧ ضمن مجموع الفتاوي .

(٦) انظر : الرسالة التدمرية ج٣ ص ١٧ضمن مجموع الفتاوي وانظر :لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٢٢٢ .

(٧) الرسالة التدمرية ج٣ ص ١٧ ص ١٨ . وانظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ٢٢٣ .

(٨) مجموع الفتاوي ، ج٦ ص ١١٩ .

(٩) الرسالة التدمرية ج٣ ص ١٩ ضمن مجموع الفتاوي .

وأما المعتزلة فلهم موقف آخر، حيث ينفون الصفات الثابتة لله تعالى بالكلية ، فيقولون بأنه «ليس له إرادة ولا كلام قائم به ، لأن هذه الصفات لا تقوم إلا بالمخلوقات»[1] . حيث اعتبروا أن «الله مريد بإرادة محدثة لا في محل»[2] .

وسبب قول المعتزلة هذا كما تقدم هو ماظنوه من أن القول بإرادة قديمة لله تعالى سيؤدي إلى تجويز التغير عليه لأن الموجودات تتعلق بالإرادة ، وهي متجددة متغيرة ، فلو كانت الإرادة قديمة لوقع التغير في ذات الله تعالى [3].

إن موقف المعتزلة من صفات الله تعالى مخالف للأدلة الصحيحة الصريحة الثابتة بالكتاب والسنة ، ولكن الذي أوقع المعتزلة في إنكار صفات الله وتعطيلها هو اعتمادهم على العقل في كل شئ وتقديمه على النقل ، وليس عندهم دليل شرعي واحد يؤيد قولهم .

فالصفات التي نفتها المعتزلة وغير المعتزلة هي صفات يتصف بها الله سبحانه وتعالي ، ولا تكون كصفات المخلوقين ، بل صفات تليق بذاته تعالى من غير تشبيه ولا تحريف ولاتعطيل ولا تكييف .

ولكن يتبادر إلى الذهن سؤال هو كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته ؟وهذا السؤال في الحقيقة يبين العلاقة بين الإرادة وهذه الصفات ،وهو الذي أدى إلى افتراق الناس فرقاً ، وأدى إلى تباين طرقهم ، وأقوالهم ، واختلافهم في فهم صفات الله تعالى وإثباتها .

ولمعرفة هذه المسألة وبيانها لابد من معرفة المراد الذي يقع عليه الحب أو البغض والكرهة، ويتحقق ذلك بمعرفة حقيقة المراد وهو نوعان : «مراد لنفسه ومراد لغيره» [4]وأما المراد لنفسه فهو «مطلوب محبوب لذاته ، ومافيه من الخير ، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد»[5] .

وأما المراد لغيره فقد «لا يكون مقصوداً لما يريد ، ولافيه مصلحة بالنسبة له بالنظر إلى

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص ١٨ .

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٤٤٠ .

(٣) انظر : حاشية شرح الأصول الخمسة ص ٤٤٠ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨٠ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨١ ، وانظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٩ .

ذاته ، وإن كان وسيلة إلى مقصودة ومراده ، فيجتمع فيه الأمران بغضه وإرادته ، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما »[1]، إن كل كائن في هذا الوجود هو بمشيئة الله وإرادته رضيه أم لم يرضاه ، أمر به أم لم يأمر به ، فالشرور والقبائح وإن كان لايحبها ويبغضها وينهي عنها ويغضب عن مرتكبها ، إلا أنها بمشيئة الله تعالى ،وكونها بمشيئته لايستلزم ذلك محبته ورضاه لكل ماشاءه وقدره [2] ، وفي ذلك يقول الإمام أبو حنيفة :« والطاعات كلها ماكانت واجبة إلا بأمر الله تعالى وبمحبته وبرضاه، وعلمه ومشيئته وقضاه وتقديره ، والمعاصي كلها بعلمه وقضائه وتقديره ومشيئته لا بمحبته ولا برضاه ولا بأمره »[3] .

ولكن محبة الله تعالى للشيء ورضاه به إنما يعلم بأمره على لسان رسوله ، لا بمجرد خلقه ، فالأفعال خلق خيرها وشرها ، وهو يحب خيرها ويأمر به ويثيب عليه ، ويبغض شرها وينهى عنه ويعاقب عليه وكلاهما خلقه[4] فهو سبحانه يكره الشيء ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره ، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه ، ومن ذلك أنه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات ،وهو سبب لشقاء كثير من العباد ، وهو الساعي لوقوع خلاف مايحبه الله ويرضاه ، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، كقدرته على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق ذات إبليس التي هي أخبث الذوات ، تقابلها ذات جبرائيل التي هي أشرف الذوات وأطهرها ، وكذلك خلق الليل والنهار ، والداء والدواء ، كما تظهر آثار أسمائه مثل القهار ، والمنتقم ، والعدل والحكيم ، والخبير ، وتظهر حقيقة العبودية لله تعالي المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، كعبودية الجهاد وعبودبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر والتوبة والاستغفار .[5]

مما سبق يتبين أن الله تعالى يريد الشيء خلقاً وكوناً ومشيئة ولا يحبه ولا يرضاه أمراً لأنه لا يأمر بالفحشاء ، ولايحب الفساد ، ولايرضى لعباده الكفر مع أن ذلك خلق الله كوناً ولكن يبغضه ولايرضاه شرعاً .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨١ ، لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٩ .

(٢) نظر : طريق الهجرتين ص ١٥٥ ، وانظر : منهاج السنة النبوية ص ٢٦٦ ، وانظر : الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٤٦ .

(٣) شرح الفقه الأكبر ص٨٣ ص ٨٤،وانظر : مدارج السالكين ج١ ص ٢٥٥ ،وانظر:الشريعة للآجري ص ١٥١

(٤) انظر : طريق الهجرتين لابن القيم ص ١٥٥ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨١ ، وانظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٤٠ .

المبحث الثاني
الإرادة والمشيئة الإلهية

ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية ذكر الإرادة والمشيئة الإلهية بكثرة وذلك كقوله تعالى: ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ...﴾(١) وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) .

وورد ذكر الإرادة في الحديث الشريف كقول الرسول ﷺ :**[من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين]** (٣) .

كما ورد لفظ المشيئة في القرآن والسنة وذلك كقوله تعالى : ﴿... وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(٤) . وقوله تعالى :﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٥) وقول الرسول ﷺ: **[المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان]** (٦) .

من خلال الآيات والأحاديث السابقة ورد لفظ الإرادة ولفظ المشيئة فما حقيقة هذين اللفظين هل هو الترادف ، أم شئ آخر ؟ .

ذهب بعض العلماء إلى أن الإرادة هي المشيئة ، فالإمام ابن تيمية يقول في الفتاوي : «فإن نفس الإرادة هي المشيئة»(٧) وقال في منهاج السنة :«وقد يراد بالإرادة المشيئة» (٨) .

وقال ابن حزم في الفصل :«والمشيئة هي الإرادة» (٩) .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٢) سورة النحل الآية ٤٠ .

(٣) صحيح البخاري ج١ ص ٢٦ كتاب العلم باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، صحيح مسلم ج٢ ص ٧١٨ ، كتاب الزكاة باب النهي عن المسألة .

(٤) سورة الأنعام الآية ١١٢ .

(٥) سورة التكوير الآية ٢٩ .

(٦) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٥٢ كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز رقم ٢٦٦٤ .

(٧) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج٦ ص ٢٤٤ .

(٨) منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٦٦ ، وانظر : شفاء العليل لابن القيم ص ٤٨ .

(٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج٢ ص ٣٦٤ .

وقال السفاريني «ويجب له تعالى صفة الإرادة ويراد بها المشيئة وهما عبارتان عن صفة في الحي» [(١)] .

وقال التفتازاني :«إرادته ومشيئته قد سبق أنهما عندنا عبارة عن معنى واحد» [(٢)] .

ولكن لا يعتبر الترادف في المشيئة والإرادة على إطلاقه حيث أن الإرادة كما سبقت الإشارة تنقسم عند أهل السنة إلى قسمين : إرادة كونية وإرادة دينية ، فالإرادة الكونية هي التي تتعلق بجميع الممكنات وهي التي ترادف المشيئة ، كالقول ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن «فلفظ المشيئة لم يرد إلا في الكوني كقوله تعالى :﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...﴾ [(٣)] [(٤)] .

ويقول الإمام ابن حجر العسقلاني في الإرادة الكونية:«إرادة قضاء وتقدير ... شاملة لجميع الكائنات محيطة بجيمع الحادثات طاعة ومعصية» [(٥)] .

وأما الإرادة الدينية فهي التي ترادف المحبة والرضا كقوله تعالى :﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ...﴾ [(٦)] [(٧)] .

وعليه فالترادف بين الإرادة والمشيئة الإلهية ليس على إطلاقه ، ذلك أن المشيئة ترادف الإرادة الكونية دون الإرادة الدينية .

المطلب الأول : الإرادة الكونية

من خلال النظر في آيات القرآن الكريم يتضح أن لفظ الإرادة منسوبة إلى الله تعالى في القرآن الكريم لها استعمالان ، أحدهما : بمعنى الإرادة الكونية ، والآخر بمعنى الإرادة الشرعية . وإنه بدون التفريق بين الإرادة الإلهية الكونية ، والإرادة الإلهية الشرعية سيكون الأمر غامضاً متناقضاً ، وأما بالتفريق بينهما سيكون الأمر واضحاً جلياً ، لأن الإرادة

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ج١ ص ١٤٥ .

(٢) شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ٥٦ .

(٣) سورة الإنسان الآية ٣٠ .

(٤) معارج القبول ج١ ص ١٩٠ .

(٥) فتح الباري للعسقلاني ج١٣ ص ٤٥٠.

(٦) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٧) انظر : منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٦٦ ، وانظر : لوامع الأنوار البهية للسفاريني ج١ ص ١٤٥ . وانظر : الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٩٢ .

الكونية تعمل في الجانب الجبري من الإنس والجن وباقي المخلوقات في الكون ، وأما الإرادة الشرعية فتعمل في الجانب الاختياري الابتلائي .

إن الإرادة الكونية هي التي ترادف المشيئة العامة والتي يتم بها الأمر الكوني والقضاء والقدر ، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1] وهذه إرادة الخلق التي يوجد بها الله الشيء بعد إذ كان عدماً حيث أنها مستلزمة لوقوع المراد فيقال فيها : «ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن»[2] .

إن إرادة الله الكونية لا مجال فيها لعصيان أحد ، ولا تتخلف بحال من الأحوال لأنها مناط نظام الكون ، وآية الربوبية ، وموجب الألوهية لله سبحانه وتعالى ، بخلاف الإرادة الشرعية التكليفية المتعلقة بأفعال العباد الاختيارية ، فإن الله تعالى أقدر العبد على امتثالها ورفضها ليبتليه [3].

وقد ذكر الله تعالى هذه الإرادة في مواطن كثيرة من القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى :﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ...﴾[4] وقوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ...﴾[5] وقوله تعالى : ﴿... وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[6] وقوله ﴿... فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ...﴾[7] وقوله تعالى :﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[8] .

وقد ذكر الإمام الشافعي أن ذكر المشيئة ورد في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً[9]وهي متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك بما يحب ويكره كله داخل تحت مشيئته ،

---

(١) سورة يس الآية ٨٢ .

(٢) مجموع الرسائل الكبرى ج٢ ص ٧٦، مجموع الفتاوى ج٨ ص ١٨٨،والأسماء الصفات للبيهقي ص ١٤١ .

(٣) انظر : عقيدة المؤمن أبوبكر الجزائري ص ٢٧٠ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٥) سورة هود الآية ٣٤ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(٧) سورة هود الآية ١٠٧ .

(٨) سورة الإنسان الآية ٣٠ .

(٩) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١٣ ص ٤٤٩ .

كما خلق إبليس وهو يبغضه ، وخلق الشياطين ، والكفار والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها ، فالمخلوقات كلها داخلة تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى «وأهل السنة يقولون إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً فهو لا يحبها ولايرضاها ، ولا يأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها ، وينهي عنها ، وهذا قول السلف قاطبة»(١) .

والإرادة الكونية هي التي تتعلق بالخلق والإيجاد وفي هذا يقول ابن تيمية :«والإرادة المتعلقة بالخلق هي المشيئة وهي الإرادة الكونية ، القدرية ... وهي كونه يريد أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة المتعلقة بفعله»(٢) .وهي شاملة لجميع الموجودات محيطة بجميع الحوادث والمخلوقات ، مستلزمة لوقوع المراد ، حيث أن كل حادث مراد لله تعالى حدوثه ، ولا يختص تعلق مشيئة الباري بصنف من الحوادث دون صنف ، بل هو تعالى مريد لوقوع جميع الحوادث خيرها وشرها نفعها وضرها (٣). لأنه تعالى خالق لهذا الكون ، وخالق كل شيء وربه ومالكه ، وهذا مستلزم لإرادة الله تعالى ومشيئته ، لأنه لو لم يمكن مريداً لذلك لكان مكرهاً ، ولو كان مكرهاً لما تأتي له ايجاد هذه العوالم ، والتصرف بها ، وتدبيرها ، ولكن الله تعالى له إرادة حيث أنه يريد ما أراده ولايريد مالم يرد ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ...﴾(٤) وقال أيضاً: ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ...﴾(٥) ولذلك يقول الإمام الغزالي «إنما وجد العالم حيث وجد ، وعلى الوصف الذي وجد ، وفي المكان الذي وجد ، بالإرادة»(٦) .

إن الإرادة تتعلق بالأمور الممكنة ، فهي لا تتعلق بالواجب ولا بالمستحيل ، فمثلاً وجود أي شخص من الناس وعدمه أمران ممكنان تختار الإرادة واحد منها ، وكون هذا الشخص متصفاً بصفة البياض أو السواد أو الصفرة مثلاً أمر تحدده الإردة ، وكون هذا الشخص يوجد

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٦ وانظر : شفاء العليل ص ٤٨، وانظر : منهاج السنة النبوية ج٢ ص ٢٩ .

(٢) منهاج السنة النبوية ج٢ ص ٢٩ – ص ٣١ .

(٣) انظر : شفاء العليل ص ٤٨ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٦ ، وانظر : الإرشاد للجويني ص ٢١١ ، المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي ص ١٢١ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٥) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٦) تهافت الفلاسفة للغزالي ص ١٠٢ .

في زمن ما دون غيره من الأزمنة ، هذا كله تخصصه وتحدده الإرادة الكونية [1] ، وهي التي لا تناقض فما بينها ولا تعارض ، فإذا تعلقت إرادته تعالى بشيء معين استحال أن تتعلق في الوقت نفسه بنقيض ذلك الشيء أو بضده ، بحيث يؤدي ذلك إلى جمع النقيضين أو الضدين في شيء واحد ، ووقت واحد ، وبناء على ذلك فلا يمكن أن يريد الله تعالى مثلاً حياة إنسان في اللحظة التي يريد فيها موته ، كما لا يمكن أن يريد الله تعالى أن يجعل الإنسان المكلف حر الإرادة أمام عمل من الأعمال في اللحظة التي يريد أن يجعله فيها مسلوب الإرادة أمام ذلك العمل نفسه ، وأما أن يريد أن يجعله مخيراً في دائرة أعماله وكسبه ، مجبراً فيما عدا ذلك ، فهو من الأمور المقبولة عقلاً التي لا تناقض بينها ولا تعارض ، وبذلك يحاسبه على ما أكتسبه في دائرة تخييره[2] دون حسابه على ماجبر عليه .

الإرادة الكونية والجبر :

إن الإنسان في مجال الإرادة الكونية مجبر ، حيث إنه يسير وفق نواميس وقوانين كونية لا اختيار له فيها ، ولا إرادة له مقابلها ، بل يجب عليه أن يسلم بها ، لأن المشيئة الإلهية لم تجعل له اختياراً في هذا الجانب ، حيث يتم الفعل حتماً في نطاقها وتابعاً لها ، فالذكاء أو الغباء ، والطول أو القصر ، والجمال أو القبح ، والغرائز والميول ، والحياة والموت وغير ذلك من هذه الموجودات التي لا اختيار للإنسان فيها ، ولا سبيل له في الخروج عنها ، فيستوي فيها الإنسان مع سائر الموجودات الأخرى من حيوانات وجمادات ونبات وأفلاك وحركات قسرية ووظائف آلية ، ليس للإنسان فيها إرادة أو اختيار «فهي تلك التي لا يناط بها تكليف الإنسان ، ولا إثابته ولا معاقبته ، وهي الإرادة التي كان بها القدر ونظامه ، والتي لا حق للإنسان أن ينظر إليها بغير عين الرضى والتسليم ، وإلا أصبح محارباً لله معارضاً لنظامه» [3] .

---

(١) انظر : كفاية العوام محمد الفضالي ص ٤٨ . وانظر : تبسيط العقائد الإسلامية حسن أيوب ص ٨٨ .

(٢) انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص ٧٥٤ ص ٧٥٥ .

(٣) عقيدة المؤمن للجزائري ص ٣٧٠ ، وانظر : القضاء والقدر في الإسلام ج١ ص ٢١٢ .

ويحدد هذه الإرادة قول الله تعالى :﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١) .يتضح من خلال هذه الآية عموم خلقه تعالى لسائر المخلوقات ونفوذ مشيئته بجميع الممكنات وانفراده باختيار من يختاره ويختص من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن ، وأن أحداً ليس له من الأمر والاختيار شيء (٢) . لأن هناك أموراً تحدث وتتم بمحض القدرة الإلهية العليا ، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها ، وهي تنفذ في الناس طوعاً أو كرهاً سواء شعربها الناس أو لم يشعروا(٣) .

إن الإرادة الكونية لا يتعلق فيها تكليف للإنسان لأنه فيها مجبر غير مخير ، فلا يوجه له فيما يختص بها أمر ولا نهي ، كما أنه لا عقوبة عليه ، لأن العقوبة لا تتم إلا على من له إرادة واختيار في الفعل ، فالله سبحانه وتعالى لا يحاسب ولا يعاقب على لون البشرة أو على طول القامة أو قصرها ، ناهيك عن حركة الكواكب والأفلاك في السماء ، لأن ذلك كله راجع إلى الإرادة الكونية التي لم يجعل الله تعالى للإنسان فيها اختياراً أو إرادة .

احتجاج الكفار والعصاة بالإرادة الكونية «المشيئة»

يحاول الكفار والعصاة في يوم القيامة ، أن يحتجوا بمشيئة الله تعالى على شركهم ومعاصيهم وأن الله لو لم يشأ لهم الشر والمعصية ، لما أشركوا ولا عصوا ، ولكن الله تعالى بين بطلان قولهم وفساده ، وأنه مبني على الظن والخرص ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾(٤) .إنه رد واضح وصريح على احتجاجهم ، حيث أنه احتجاج باطل غير مقبول ، وهو احتجاج متكرر عبر الأيام والأزمان ، ولذلك يذكر

---

(١) سورة القصص الآية ٦٨ .

(٢) انظر : تفسير كلام المنان ج٦ ص ٥٢ .

(٣) انظر : عقيدة المسلم محمد الغزالي ص ١٠٠ ، ط الرابعة سنة ١٩٨٤م دار الكتب الإسلامية – القاهرة .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

الله تعالى حجتهم في سورة النحل أيضاً بقوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(١) .وقال تعالى في سورة الزخرف : ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(٢) .

هذه هي طبيعة العصاة والمشركين ، عندما يواجهون بالحقيقة ، يهربون إلى ملاذهم الأخير الذي يحيلون عليه شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم «إنهم يقولون إنهم مجبورون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء»(٣) ،وظنوا أن هذا القول يخلصهم من الحجة التي ألزمهم بها رسول الله ﷺ ولكن بيّن الله تعالى بأن مثل ما كذب هؤلاء كذب الذين من قبلهم من المشركين أنبياء الله تعالى حتى أنزل الله بهم بأسه فأهلكهم ولم تنفعهم حجتهم ، فلو كانت حجة صحيحة لرفعت عنهم العقاب ، ولكن حل بهم العذاب لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه(٤) . ولذلك قال الله تعالى بعد بيان بطلان قول الذين أشركوا :﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٥) . فلما أبطل حجة المشركين ثبتت حجة الله تعالى : لِيُظهر الحق ويُبطل الباطل ، فلو شاء الله تعالى أن تكون الأنفس كلها مفطورة على سلوك سبيل الهداية والإيمان فقط ،لسلبها منحة الإختيار ، وجعلها مجبرة لا اختيار لها ، ولو كان الأمر كذلك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، لأن الله تعالى إذا جعلهم مجبرين غير مختارين ، فليس لهم إلا الإجبار على الهداية والإيمان والطاعة ، وفي هذا حجة بالغة ولكن حيث شاء الله لهم أن يكونوا مخيرين في دائرة التكليف التي خصصها لامتحانهم ، فلابد أن يختار قسم منهم بإرداته الحرة الإيمان ، وأن يختار قسم آخر منهم الكفر ، أو يختار قسم منهم الطاعة والقسم الآخر المعصية .

---

(١) سورة النحل الآية ٣٥ .

(٢) سورة الزخرف الاية ٢٠ .

(٣) في ظلال القرآن ج٢ ص ١٢٢٦ .

(٤) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ١٧٥ ، وانظر : التسهيل لعلوم التنزيل ج٢ ص ٢٤ ، وانظر : تفسير كلام المنان ج٢ ص ٤٩٥ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٤٩ .

ولذلك يظهر بطلان وفساد هذا الاحتجاج من عدة وجوه :

أولاً : إن الله عز وجل أذاق الكافرين الأول بأسه ، وانزل بهم عقابه مع احتجاجهم بالمشيئة ، فلو كانت حجتهم صحيحة لما حلت بهم العقوبة ، كما أنهم لو لم يكونوا مختارين لما ارتكبوا من الجرائم والآثام والكفر والشرك ، لما عذبهم الله تعالى لأنه عادل لا يظلم أحداً (١).

ثانياً : الذي يحتج بمشيئة الله وقدره على الكفر والمعصية لا يعدو أحد اثنين إما أن يكون مؤمنياً بوجود الله تعالى ، وإما أن يكون منكراً .

فإن كان مؤمناً بوجود الله تعالى ، لزمه الإعتقاد بعدل الله وتنزهه عن الظلم ، لأن الظلم نقص لا يليق بالخالق جل وعلا لأنه تجاوز الحد ، والله سبحانه لا يعتريه نقص بحال من الأحوال ، ولاشك في أن عقاب المكره على الفعل ظلم ، ولذلك قال رسول الله ﷺ :**[رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه]** (٢) فالاحتجاج بمشيئة الله وقدره على معصيته مع ظهور عقابه سبحانه للعصاة ، فيه نسبة الظلم إليه . وهو أمر يتنافى مع الإيمان بالله عز وجل .

وأما إن كان المحتج بالقدر منكراً لله تعالى فإن احتجاجه بالقدر تناقض لا يستحق الجواب (٣).

ثالثاً : إن مشيئة الله سبحانه وتعالى غيب لا يعلمه إلا الله ، وأنه لم يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه ، إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ليكيفوا انفسهم على حسبها ، كما أن المحتج بالمشيئة والقدر على كفره ومعصيته منقول على الله بغير علم ، لأنه كيف يصح منه أن يحتج بأن الله كتب عليه الكفر أو المعصية قبل صدور ذلك منه ، فهل إطلع على اللوح المحفوظ فقرأ مافيه حتى يعلم ماكتب الله عليه ؟ ! ! مع العلم أن الله خاطبه قبل المعصية بالامتناع عنها ، وأمره بطاعة ربه والتزام أمره (٤).

---

(١) انظر : تفسير كلام المنان للسعدي ج٢ ص ٤٩٥ ، وانظر : الإيمان محمد نعيم ياسين ص ١٠٣ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص ٢٤ ، فتح الباري ج٥ ص ١٦٠ ص ١٦١ .

(٣) انظر : الإيمان د. محمد نعيم ياسين ص ١٠٣ .

(٤) انظر : في ظلال القرآن ج٣ ص ١٢٢٧ ، وانظر : الإيمان د. محمد نعيم ياسين ص ١٠٣ .

رابعاً : إن صاحب الحجة الصحيحة لابد أن تكون حجته معتمدة على العلم والبرهان والدليل ، ولكن حجة الكفار والعصاة حجة مستندة على الظن والكذب الذي لا يغني من الحق شيئاً ، ولذلك رد الله عليهم ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ...**﴾ (١) ، التي لم تبق لأحد عذراً حيث اتفق عليها الأنبياء والمرسلون والكتب السماوية ، والفطرة المستقيمة والعقول الصحيحة ، والأخلاق القويمة «إنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته ، وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه فجعلوا مشيئته دليل رضاه فرد الله عليهم ذلك» (٢) .

خامساً : إن الله سبحانه وتعالى أعطى لكل مخلوق قدرة وإرادة ، يتمكن بها من فعل ماكلف به ، فما أوجب الله على أحد ، مالا يقدر على فعله ، ولا حرم على أحد مالايتمكن من تركه ، كما أنه لم يجبر العباد على أفعالهم بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم فإن شاؤوا فعلوا ، وإن شاءوا كفوا ، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا مكابر ،ومن هنا يظهر أن الاحتجاج بالمشيئة ظلم محض وعناد صرف(٣) . حيث قال تعالى :﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...**﴾(٤) .

سادساً : إن المحتجين على المعاصي بالمشيئة والقدر ، يتناقضون في ذلك ، فلو أساء إليهم مسيئ بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك واحتج بالمشيئة أو بالقدر لما قبلوا منه هذا الإحتجاج ، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب ، فكيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم . «وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر ، فقال وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره»(٥) .

وهذا حال كثير من المسلمين في أيامنا هذه حيث أن أحدهم يرتكب مايرتكب من المنكر والذنوب والمعاصي ، ويترك ما أمر الله تعالى به من صلاة وزكاة وغير ذلك فإن عوتب في ذلك احتج بمشيئة الله ، وأن الله لو شاء مافعل ، وأنه عبد لايخرج عن إرادة الله ومشيئته ، فهي كلمة حق أريد بها باطل ، ومانتج هذا القول إلا بعد أن فشا الفساد في عقائد الأمة بعد أن بَعُدَ الكثير عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، واتبع الظن والأهواء .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٩ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٤ .

(٣) انظر : تفسير كلام المنان للسعدي ج٢ ص ٤٩٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٥) شرح الفقه الأكبر ص ٦٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٤ .

المطلب الثاني : الإرادة الشرعية :

وهي الإرادة الإلهية التخييرية الابتلائية ، حيث أناط الله بها تكليف الإنسان ، وثوابه أو عقابه ، وأوجب عليه طاعتها ، وحرم عليه المعصية والخروج عنها ، كما أرسل لبيانها الرسل وأنزل لهم الكتب لبيانها وتفصيلها ، وهي جميع ما شرع الله لعبادة من عقائد وعبادات وأحكام وحدود وآداب ومحاسن وأخلاق ، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الإرادة الشرعية، ومن ذلك قول الله تعالى :﴿... فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾[1] فهو سبحانه وتعالى يريد بنا اليسر بتشريعه الإفطار لنا في المرض والسفر فهي إذاً إرادة تشريعية ، ولو كانت كونية لما حصل العسر لأحد منا .

وقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ...﴾[2] أي أن الله تعالى بتشريعه وأوامره ودينه التخييري الابتلائي لهم ، يريد لهم الآخرة ، وهذا المراد من الله تعالى للمؤمنين ، ولايمكن أن يكون مراداً كونياً نافذاً لأنه لو كان كذلك لما وقع الخطأ من المؤمنين وفعل خلاف الإرادة ، ونزول العتاب للنبي ﷺ ، فدل ذلك على أن الإردة تشريعية تخييرية .

وقوله تعالى :﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾[3] .

فالإرادة هنا هي إرادة تشريع ، حيث ذكر الله معها البيان والتوبة والتخفيف ، لأن إرادة تبين الأحكام الشرعية هي إرادة تكليف وتخيير ، كما أن إرادة التوبة ليست إرادة كونية نافذة عليهم بالتوبة ، لأن التوبة فعل اختياري يحاسب عليه المرء «ولكن ذلك يعني أن الله بدينه وتشريعيه يريد للعبد بإرادة تشريعية ابتلائية أن يتوب عليه»[4] .

ويؤكد ذلك أن الله تعالى ذكر إرادة التخفيف ، والمقصود به تخفيف التكليف والتشريع حتى يقوم بذلك الإنسان الضعيف وهذا يدل على أن الإرادة تشريعية تكليفية .

---

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

(٢) سورة الأنفال الاية ٦٧ .

(٣) سورة النساء الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) القضاء والقدر في الاسلام ج١ ص ٣٥٦ .

وقوله تعالى : ﴿... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ، وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١) والإرادة المذكورة هنا هي الإرادة الشرعية حيث ذكرت بعد حكم الوضوء والتيمم ، فالله لا يريد بما فرض من الوضوء والغسل والتيمم تضييقاً ، ولكن يريد بما فرض من الغسل والوضوء التطهير من الذنوب والخطايا (٢).

وقوله تعالى ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(٣) .وجاء هنا ذكر الإرادة الإلهية بعد أحكام شرعية موجهة لنساء النبي ﷺ فالله يريد بهذا التشريع وهذه الأوامر الإلهية التخييرية «أن يذهب عن أهل البيت الإثم والذنب المدنسات للأعراض الحاصلات بسبب ترك ما أمر الله به ، وفعل مانهي الله عنه»(٤) .

كما يطهرهم من الأرجاس والأدران تطهيراً كاملاً ، فالإرادة هنا إرادة تشريعية تكليفية تخييرية ابتلائية موجهة إلى آل بيت النبوة .

هذه بعض الآيات القرآنية التي تذكر الإرادة الشرعية التخييرية والتي يتضح من خلالها أنها تتعلق بالأوامر والنواهي والأحكام الشرعية والمعاملات والعبادات وغيرها ، وهذه الإرادة هي المتضمنة للمحبة والرضا(٥) .

لأن المحبة والرضا ليست هي الإرادة الشاملة لكل المخلوقات ، وفي ذلك يقول ابن تيمية:«إن المحبة والرضا ليست هي الإرادة الشاملة لكل المخلوقات»(٦) .لأن الله تعالى وإن كان يريد المعاصي قدراً فهو لا يحبها ولايرضاها ولايأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهي عنها ، وماوجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولارضاه ، ولا أمره الديني ، فلفظ المشيئة كوني ،ولفظ المحبة ديني شرعي (٧). فالكفر والفسوق والعصيان ليس مراداً لله سبحانه وتعالى على اعتبار الإرادة الدينية ، ولكنه مراد لله على اعتبار الإرادة الكونية «ومنه قول المسلمين هذا يفعل شيئاً لايريده الله

---

(١) سورة المائدة الاية ٦ .

(٢) انظر : صفوة التفاسير للصابوني ج١ ص ٢٢٩ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٤) فتح القدير للشوكاني ج٤ ص ٢٧٨ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٦ ، وانظر : المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي ص ١٢١ .

(٦) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ج١ ص ٢٦٧ .

(٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٦ ، وانظر : شفاء العليل ص ٤٨ .

إذا كان يفعل بعض الفواحش - أي أنه لا يحبه ولا يرضاه بل ينهي عنه ويكرهه»[1] ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه كما لاينهي إلا عما يكرهه ويأباه .

إن الله سبحانه هو الذي حدد مجال حركة الإرادة الإنسانية المختارة وسمح لهاأن تتحرك في هذا المجال اختياراً حراً ، فهي إذاً لا تتعارض ولا تتصادم كمالاتتنافى مع مشيئة الله المبتدية لها في القدر ، وإنما تتمشى معها وتتوافق في كونها حرة ، لأنها أياً ما اختارت فهو من قدر الله ومشيئته ، ولن يكون اختيارها مهما كان خارجاً عنه [2].

والإرادة الدينية الشرعية قد يقع مرادها ، وقد لا يقع لأنها أخذت معنى التخيير أمام الأمر الإلهي ، وهذا الإنسان المأمور ربما يطيع وربما يعصي هذا الأمر الشرعي ، لأن الله منح العبد القدرة والإرادة والاختيار ليبتليه مختبراً إياه ، أيستجيب لما أراد ربه منه ، أم يرفض الاستجابة ، وفي هذا قال الله تعالى :﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[3] فإرادة الله تعالى في خلق هذا الإنسان من نطفة أمشاج كان وراءها حكمة وقصد ولم تكن فلتة ، بل كان وراءها ابتلاء واختبار لهذا الكائن ، حيث زوده بالمعرفة والمدارك إلى جانب القدرة على اختيار الطريق الذي جاء به رسل الله - عليهم السلام - وبعد بيان الطريق ترك الله تعالى للإنسان مجال الاختيار مع تزويده بالسمع والبصر ، فهو على مفترق طرق إما أن يشكر وإما أن يكفر [4]، فإن شكر ، فشكره مستلزم العبادة والعمل ، الذي خلق العباد له ووعدوا على ذلك بجنة عرضها السموات والأرض ، وأما إن كفر فيستلزم ذلك فساده وعذابه في نار وقودها الناس والحجارة . لقوله تعالى :﴿فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[5] .

---

(١) مجموع الفتاوي ج٨ ص ١٣١، وانظر:شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٧، وانظر:معارج القبول ج١ ص ١٩١

(٢) انظر : القضاء والقدر في الاسلام ج٢ ص ٩ .

(٣) سورة الإنسان الآيات ٢ - ٣ .

(٤) انظر : في ظلال القرآن سيد قطب ج٦ ص ٣٧٨٠ .

(٥) سورة النازعات الآيات ٣٧ - ٤١ .

موقف المعتزلة من الإرادة الإلهية :

أجمعت فرق المعتزلة على نفي صفات الله تعالى وخاصة صفات العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام ، ويظهر ذلك من خلال مناظرتهم للأشاعرة ، وقد اكتفوا باطلاق كونه عالماً مريداً قادراً حياً سميعاً بصيراً متكلماً ، وهم بهذا مخالفون لسلف هذه الأمة الذين اتفقوا على اثبات صفات الله تعالى من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل .

لقد أجهد المعتزلة أنفسهم وعقولهم في سبيل اثبات مدعاهم بنفي هذه الصفات عن الله تعالى مع أنهم يثبتون الأسماء ، ولجأوا إلى التأويل فيما يشعر بإتصافه تعالى ، وكان غرضهم واضحاً من حيث أنهم تأثروا عموماً بمذاهب النصارى ، واليهود ، كما تأثروا بالفلاسفة الذين قالوا بوحدة الله من كل وجه [(١)] .

ومستند المعتزلة في إنكارهم لهذه الصفات هو تصورهم أن الشيء إذاكانت له صفات بعد كونه ذاتاً ، وكانت تلك الصفات قديمة ، والذات قديمة ، يؤدي ذلك إلى تعدد القديم ، فمن أثبت الصفات فإنما أثبت تعدد الإله ، وتعدد الإله باطل ، وفي هذا يقول الشهرستاني عنهم:«واعتزالهم يدور على أربع قواعد ، القاعدة الأولى القول بنفي صفات البارى تعالى من العلم والقدرة والإرادة والحياة ، وكانت هذه الحقائق في بدئها غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر ، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين . قال : ومن أثبت معنى صفة قديمة فقد أثبت إلهين» [(٢)] .

ولعل الذي دعا المعتزلة إلى هذا النمط من التفكير في الصفات هو حرصهم على التنزيه والتوحيد «فظنوا أن إثبات الصفات القديمة لله تعالى يؤول إلى التعدد وإلى التجسيم والتشبيه ، لأن معنى الوحدانية عندهم ،أن ذاته واحدة وليست مركبة من اجتماع أمور كثيرة ، لأن الإجتماع والتركيب محوج إلى المركب ، والاحتياج إمارة الإمكان ، والله تعالى واجب الوجود ومنزه عن الغير ، فحقيقته تعالى أحدية ضرورية لا كثرة فيها بوجه من الوجوه» [(٣)] .

---

(١) انظر : علاقة صفات الله بذاته د. راجح الكردي ص ٨٨ ط الأولى سنة ١٤٠٠ هـ دار العدوى – عمّان .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ٤٦ .

(٣) علاقة صفات الله بذاته ص ٩٤ ص ٩٥ (بتصرف) .

وفي الوقت الذي أراد فيه المعتزلة أن ينزهوا الله تعالى تنزيهاً مطلقاً وأعجبتهم فكرة الواحد من كل وجه ، الذي يجب أن ينزه عن الإتصاف بصفات زائدة محافظة على وحدته ، وسلموا في ذلك لفكرة التوحيد المطلق من كل وجه ، ولم يدروا أن هذه الفكرة كانت قائمة في أذهان من سبقهم من الفلاسفة ، وبقدر ماهي مبالغة في التنزيه بقد ماهي مبالغة في تعطيل وتجريد الألوهية عن حقيقتها ومعناها وفعاليتها من خلق وتدبير وتصريف ، وذلك بسبب عدم وضوح العلاقة بين الخالق والعالم في تصورهم .

وقد لجأ المعتزلة في علاج هذه المشكلة إلى العقل ، حيث حكموه فيما يستحيل أن يحكم فيه ، إذ جعلوه حكماً في قضية الألوهية وصلة الصفات بالذات ، وهذا المسلك جرد قضية الألوهية من صفاتها العاملة ، وأحالها إلى صورة ذهنية مجردة ، تخضع لمدركات العقل وتنزل على حكم منطقه [(١)]. وهذا دفع المعتزلة إلى أن «رفضوا أي نوع من أنواع الفصل أو التعدد بين صفات الله وبين ذاته ، لأن الله قديم ، وصفة القدم مثله في القدم ، فإذا كانت شيئاً غيره ، كان هناك قديمان أو أكثر ،وهو تعدد ينافي التوحيد» [(٢)].

إن تحكيم العقل عند المعتزلة وتقديمه على الشرع أدى بهم إلى نفي صفات الله تعالى وتعطيلها ،وهذا مصير من يحكم العقل ويقدمه على الشرع ،وخاصة العقل الذي امتلأ بالأفكار المخالفة للشرع ناهيك عن تفاوت عقول الناس في الفهم وتقلبها وتغيرها ، واتباعها الظن والهوى ولذلك يقول ابن تيمية:«ولهذا ردوا الإستدلال بما جاءت به الأنبياء والمرسلون في صفات الله تعالى ، وغير ذلك من الأمور التي أنبؤا بها ، وظن هؤلاء أن العقل يعارضها »[(٣)] ولكن العقل السليم الذي نشأ على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لا يختلف مع الشرع بأي حال من الأحوال .

لقد اتفق السلف على تنزيه الله تعالى ، وأنه ليس كمثله شيء ، مع إيمانهم بصفاته القديمة واثباتها «ولا يريدون بذلك أن ذاته العلية منقسمة إلى أجزاء وأبعاض ، وإنما يريدون أن هذه الألفاظ استعملت في معنى من المعاني لا يعلمها إلا الله ، وهي صفة من الصفات التي تليق بالذات العلية المنزهة عن كل مشابهة» [(٤)].

---

(١) انظر : علاقة صفات الله تعالى بذاته ص ١٠٣ .

(٢) المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية د. محمد عمارة ص ٥٦ ، ط الثانية ١٩٨٨م المؤسسة العربية – بيروت .

(٣) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١ ص ٣٢ ، ط الأولى سنة ١٤٠٥ دار الكتب العلمية – بيروت .

(٤) علاقة صفات الله تعالى بذاته ص ١٩١ ، وانظر : العقيدة الطحاوية ص ٢٤٢ .

إن منهج السلف هو الأسلم والأحكم ، حيث إنه واضح وصريح في إثبات ما أثبته الله لنفسه من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ، ومما يؤكد هذا المنهج ماذكر من أنه جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس ، فقال يا أبا عبد الله :﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(١) كيف استوى ؟ فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرحضاء(٢) ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وماأراك إلا مبتدعاً ، ثم أمر به أن يخرج » (٣).

مما لا شك فيه أن الفكر الذي توصل إليه المعتزلة مختلفين في نتائجه مع القرآن الكريم، هو نتيجة حتمية للمنهج الخاطئ الذي ساروا عليه،فبينما يجب أن يرجعوا للقرآن الكريم والسنة النبوية لمعرفة الإرادة الإلهية ، فإنهم رجعوا إلى عقولهم لا لمعرفة الإرادة الإنسانية التي بين جنوبهم ، بل أيضاً لمعرفة الإرادة الإلهية ، فإنهم إذا أرادوا معرفة الإرادة الإلهية عرفوا أولاً الإرادة الإنسانية ، ثم أثبتوا من أحكامها للإرادة الإلهية معرضين عن قوله تعالى :﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٤) ، ومرجعهم فيما يليق ، وفيما لا يليق هو العقل،الأمر الذي أدى بهم إلى القول ، بأن صفة الإرادة التي يتصف بها الله تعالى ليست قديمة «لأنها لا توجد ولا يتصف بها الباري سبحانه إلا عند إرادة وجود الفعل أو وجوده »(٥) ، كما تقدم قول القاضي عبد الجبار:«واعلم أنه مريد عندنا بإرادة محدثة لا في محل » (٦).

وقال ايضاً «اعلم أن القديم تعالى لابد من أن يكون مريداً لسائر مايفعله سوى الإرادة والكراهة ... لأن لا فائدة من إرادتها ، فإن مايصح حدوثه يصح أن يراد ويكره ، والإرادة والكراهة مما يصح حدوثها» (٧).

ويقول من خلال حديثه عن الإرادة بأنه ، «لا يجوز أن تكون حالة في ذاته تعالى ، وإلا

---

(١) سورة طه الآية ٥ .

(٢) الرحضاء : العرق إثر الحمى ، أو العرق يغسل الجلد لكثرته ، انظر : القاموس المحيط ج٢ ص ٣٣١ .

(٣) الاعتقاد للبيهقي ص ٤٣ ، مجموع الفتاوي ج٥ ص ٤١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣١٣ .

(٤) سورة الشورى الآية ١١ .

(٥) تاريخ الفرق الاسلامية د. علي الغرابي ص ١٦١ .

(٦) شرح الأصول الخمسة القاضي عبد الجبار ص ٤٤٠ ، وانظر : معالم أصول الدين للرازي ص ٦٣ .

(٧) شرح الأصول الخمسة ص ٤٥٦ .

كان يجب أن يكون محلاً للحوادث ، وذلك يقتضي تحيزه وكونه محدثاً وقد ثبت قدمه »[1] .

وقد رد القاضي عبد الجبار على من قال بأن الله تعالى مريد بإرادة قديمة بقوله:«لو كان القديم تعالى مريداً بإرادة قديمة ، لوجب أن تكون هذه الإرادة مثلاً لله تعالى ، لأن القدم صفة من صفات النفس ، والاشتراك فيها يوجب التماثل ... لأن الاشتراك في القدم يوجب الاشترك في سائر صفات النفس ، وقد عرف فساده »[2] .

وعلى هذا الأساس زعمت المعتزلة أن الله تعالى لم يكن مريداً في أزله ، ولكنه أحدث لنفسه فيما لايزال إرادات للكائنات التي يريدها ، فصار مريداً بتلك الإرادات الحادثة [3] .

مرة أخرى يؤكد على أن قول المعتزلة نابع من البعد عن كتاب الله وسنة رسوله ، وتقديم العقل على النقل «والواجب أن نثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي مانفته نصوصها من الألفاظ والمعاني »[4] لأن الألفاظ الشرعية صحيحة المعاني ، وسالمة من الاحتمالات الفاسدة ، فيجب أن لايعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولاإثباتاً ، لئلا يثبت معنى فاسد أوينفي معنى صحيح .

إن القول بحدوث الإرادة الإلهية انسلاخ من ربقة الاسلام لأن الإرادة لو كانت حادثة لافتقرت إلى إرادة لها ولزم التسلسل وهو محال ، وإن استغنت وهي حادثة مختصة عن مخصص ، لزم استغناء العالم بما فيه عن مريد مخصص .[5]

ويرد فخر الدين الرازي على قولهم بحدوث الإرادة الإلهية ، مبيناً أن هذ القول يؤدي إلى تساوي إرادة الخالق مع إرادة المخلوق ، وهذا محال فيقول : «إن تلك الإرادة إذا وجدت لافي محل ، وذات الله تعالى قابلة للصفة المريدية وسائر الأحياء يقبلون هذه المريدية ، فلم تكن تلك الإرادة بإيجاب المريدية لله تعالى أولى بإيجاب المريدية لغير الله تعالى،وعند هذا يلزم توافق جميع الأحياء في صفة المريدية وهو محال»[6] وبهذا يتضح أن الله تعالى له صفة الإرادة القديمة التي تليق بذات الله تعالى ، المنزهة عن كل مشابهة .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٤٧ .

(٣) انظر : العقيدة النظامية للجويني ص ٢٥ ، ط الأولى ١٣٩٨هـ مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٩ .

(٥) انظر : العقيدة النظامية للجويني ص ٢٥ ، وانظر : المحصل للرازي ص ١٨٣ ، وانظر : معالم أصول الدين للرازي ص ٦٣ .

(٦) معالم أصول الدين للرازي ص ٦٣ .

القبائح والمعاصي وعلاقتها بالإرادة الإلهية عند المعتزلة :

يتمسك المعتزلة بالقول أن الأرادة تتعلق بالمحاسن فقط ، ويشترط لها الرضا والمحبة ، ولذلك نفوا أن تكون القبائح والمعاصي داخلة ضمن إرادة الله . ولذلك يقول القاضي عبد الجبار: «إن إرادة القبيح قبيحة ، لأن المريد يلزم أن يكون عالماً بما يريد ، فإذا أراد القبيح عالماً بقبحه ، صارت هذه الإرادة قبيحة لا محالة ، وقد ثبت أنه لايفعل القبيح فهو إذن لايريده »[1] وبناءً على ذلك قالت المعتزلة إنه يمتنع على الله تعالى إرادة الشرور والقبائح والمعاصي حيث قالوا يريد مالايقع ، ويقع مالا يريد ، فزعموا أن الله تعالى أراد من الكافر الإيمان وإن لم يقع منه ، ولم يرد منه الكفر وإن وقع منه ، حتى زعموا أن أكثر مايقع من عبادة على خلاف مرادة ، تعالى الله عن ذلك، وقد بنو قولهم هذا على أن إرادة القبيح قبيحة ، والله تعالى منزه عن القبائح .[2]

لقد أجابهم الإمام الغزالي بقوله: «ومعلوم أن أكثر مايجري في العالم المعاصي ، فإذاً مايكرهه أكثر مما يريده ، فهو إلى العجز والقصور أقرب بزعمهم ، تعالى رب العالمين عن قول الظالمين »[3] .

كما يُقال لهم إذا لم يرد الله تعالى أن يكون الكفر في ملكه،فمن أكرهه وأجبره على أن يجعل في ملكه مالم يزل يريد أن لا يكون في ملكه على حد زعمكم ؟ فإنكم تصفون ربكم بأنه مجبر مغلوب على أن يملك مالم يزل يكره أن يكون في ملكه وسلطانه .تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .وهذه مناظرة وقعت بين القاضي عبد الجبار وأبي إسحاق الإسفراييني[4] تبين بطلان قول المعتزلة حيث دخل القاضي عبد الجبار الهمداني -أحد شيوخ المعتزلة -

---

(١) المجموع في المحيط بالتكليف القاضي عبد الجبار ج١ ص ٢٨٧ طبعة القاهرة .

(٢) انظر : الاقتصاد في الإعتقاد للغزالي ص ٧٠ ، وانظر : مدارج السالكين ج١ ص ٢٥٢ ، وانظر : شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ٥٧ ، وانظر : شرح المقاصد للتفتازاني ج٤ ص ٢٧٤ ص ٢٧٥ .

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص ٧٠ .

(٤) هو أبو اسحاق بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفراييني الملقب بركن الدين فقيه شافعي ومتكلم أصولي توفي بنيسابورسنة ٤١٨هـ . انظر : وفيات الأعيان ج١ ص ٨ ص ٩ ، وانظر : شذرات الذهب ج٣ ص ٢٠٩ ، وانظر : طبقات الشافعية ج٣ ص ١١١ ص ١١٤ .

على الصاحب ابن عباد[(١)] - وكان معتزلياً - وعنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني - أحد أئمة أهل السنة - فلما رأى الأستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء ، فقال الأستاذ فوراً : سبحان من لايقع في ملكه إلا مايشاء فقال القاضي : أيشاء ربنا أن يعصى ؟ قال الأستاذ : أيعصى ربنا قهراً ؟ فقال القاضي : أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى أحسن إليّ أم أساء ؟ فقال الأستاذ :إن منعك ماهو لك فقد أساء ، وإن منعكم ماهو له فهو يختص برحمته من يشاء ، فبهت القاضي وانصرف الحاضرون وهم يقولون والله ليس عن هذا جواب »[(٢)] .

ووقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد[(٣)] ، فقال : ياهؤلاء إن ناقتي سرقت فادعوا الله أن يردها عليّ ، فقال عمرو بن عبيد : اللهم إنك لم تُرِد أن تسرق ناقته فسرقت ، فارددها عليه ! فقال الأعرابي : لا حاجة لي في دعائك ؟ قال : ولم ؟ قال : أخاف كما أراد أن لاتسرق فسرقت ، أن يريد ردهافلا تُرد »[(٤)] .

واحتجت المعتزلة على قولهم بتعلق الإرادة بالمحاسن فقط بالقول : «لو كان تعالى مريداً لكفر الكافر وقد أمره بالإيمان ، فالأمر بخلاف مايريده يعد سفيهاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا »[(٥)] .

وهذا القول مردود عليهم لأن الآمر لا يقصد منه فقط تحقيق المأمور به بقدر ماهوامتحان لعبده ، هل يطيعه أم يعصيه ؟ بل قد يأمره ولا يريد منه الفعل ويحصل مقصوده أطاع أم عصى[(٦)] .

كما احتجوا بأنه «لو كان الكفر مراداً لله تعالى لكان واقعاً بقضائه والرضى بالقضاء

---

(١) هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني الملقب بالصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا ، معتزلي، ولد سنة ٣٢٦ هـ في الطالقات، وتوفي سنة ٣٨٥ بالري، انظر :الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٨٥، انظر :وفيات الأعيان لابن خلكان ج١ ص ٢٢٨ ترجمة رقم ٩٦ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٨ الحاشية ، لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٩ .

(٣) هو ابو عثمان عمرو بن عبيد بن باب البصري ، من أئمة المعتزلة وكان داعية إلى بدعته ، قيل عنه إنه كان زاهداً عابداً توفي في طريق مكة سنة ١٤٣ هـ وقيل سنة ١٤٤ ـ .انظر : تقريب التهذيب لابن حجر ج٢ ص ٧٤، وانظر : وفيات الأعيان ج٣ ص ١٣٠ ، وانظر : الأعلام ج٥ ص ٢٥٢

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٨ .

(٥) المواقف للإيجي ص ٣٢١ .

(٦) انظر : شرح المقاصد ج٤ ص ٢٧٨ ، وانظر : المواقف للإيجي ص ٣٢١ .

واجب ، فكان الرضى بالكفر واجباً ، واللازم باطلاً لأن الرضى بالكفر كفر» [1].

إن قول المعتزلة هذا غير صحيح ، لأن الواجب هو الرضى بالقضاء لا بالمقضي ، ولايوجد دليل يدل عى وجوب الرضى بالمقضي ، بل إن من المقضي مايُرضى به ، ومنه مايسخط ويمقت بل إن هناك من الأعيان المقضية قد غضب الله عليها ومقتها ولعنها وذمها كإبليس مثلاً ولو صح قول المعتزلة لوجب الرضى بموت الأنبياء [2].

هذا القول من المعتزلة .كما اتضح سابقاً نابع من الاعتماد الكلي على العقل وتحكيمه في أمور لا يقدر عليها دون العودة إلى الشرع ، مما أدى بهم ذلك إلى الدخول في متاهات مظلمة .

أما السلف الذين اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله فقد أثبتوا أن كل شيء يكون بمراد الله تعالى ، لأن المراد نوعان : مراد لنفسه : وهو مطلوب محبوب لذاته ومراد لغيره : قد لايكون في نفسه مقصوداً للمريد ، ولا فيه مصلحة بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده ،فهو مكروه له من حيث ذاته ، مراد له من حيث إفضاؤه إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران بغضه وإرادته من غير تنافي لاختلاف متعلقهما ، كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متناوله أن فيه شفاءه ، وقطع العضو المتآكل إذا علم في قطعة بقاء جسده .

فكما لا يمكن الطعن على من يتعاطى الدواء الكريه لما يترتب عليه من الشفاء بأنه بعيد عن الحكمة ، لايمكن تقبيح إرادة المعصية من العاصي ، والفسق من الفاسق ، والضلال من الضال ، لما يترتب عليه من الفوائد والحكم ، فإن إرادة القبيح ليست قبيحة على الإطلاق ، وإنما القبيح إرادته لذاته وجعله مقصداً وغاية ، وأما إرادته لمصلحة أرجح منه ، وقصده لحكمة قضت بذلك ، فليس بقبيح ويستحيل علي الله أن يريد القبيح لأنه قبيح [3].

فالمعتزلة بنفيهم أن تكون الشرور والمعاصي واقعة بإرادة الله تعالى ينطبق عليهم قول الرسول ﷺ :**[القدرية مجوس هذه الأمة]**[4] .

---

(١) المواقف للإيجي ص ٣٢٢ .

(٢) انظر : المواقف ص ٣٢٢ ، وانظر : مدارج السالكين ج١ ص ٢٥٢ ، وانظر : مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ج٢ ص ٧٨ ،وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨٧ .

(٣) انظر : الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٩١ ، وانظر : شرح المقاصد ج٤ ص ٢٧٨ .

(٤) سنن أبي داود ج٤ ص ٢٢٢ ، كتاب السنة ، باب في القدر حديث رقم ٤٦٩١ ، مسند الإمام أحمد ج٢ ص ٨٦ ج٥ ص ٤٠٧ .

ولا خفاء في أن المجوس هم الذين «ينسبون الخير إلى الله ، والشر إلى الشيطان ، وأن من لايفوض الأمور كلها إلى الله تعالى ، ويعترض لبعضها فينسبه إلى نفسه يكون هو المخاصم لله تعالى ، وأيضاً من يضيف القدر إلى نفسه ويدعي كونه الفاعل والمقدر ، أولى بإسم القدري ممن يضيفه إلى ربه»(١) وقد أجاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إجابة واضحة لمن قال إني أملك الخير والشر ، والطاعة والمعصية ، فقال له : «تملكها مع الله أو تملكها بدون الله ، فإن قلت أملكها مع الله فقد ادعيت أنك شريك الله ، وإن قلت : أملكها بدون الله ، فقد ادعيت أنك أنت الله» فتاب الرجل على يده (٢).

ولأنه «لو حصل مراد العبد ولم يحصل مراد الله تعالى لكان الله تعالى مغلوباً والعبد غالباً وهو محال» (٣)، حيث إن العقل الذي يحكمه المعتزلة يرفض ذلك ناهيك عن الشرع ، ويظهر ذلك جلياً من بعض مناظراتهم حيث حكي عن عمرو بن عبيد أنه قال : ما ألزمني أحد مثل ما ألزمني مجوسي كان معي في السفينة . فقلت له : لم لا تسلم ؟ فقال : لأن الله لم يرد اسلامي ، فإذا أراد الله اسلامي أسلمت . فقلت للمجوسي : إن الله تعالى يريد إسلامك ولكن الشيطان لايريد ! قال المجوسي :أراد الله وأراد الشيطان فكان ما أراد الشيطان ! هذا شيطان قوي !! فأنا أكون مع الشريك الأغلب»(٤) .

وهكذا يتضح بصورة واضحة بطلان قول المعتزلة في الإرادة الإلهية وضعف موقفهم إزاء النصوص الواضحة في الكتاب والسنة .

---

(١) شرح المقاصد للتفتازاني ج٤ ص ٢٦٧ ص ٢٦٨ ، (بتصرف) .

(٢) شرح المقاصد ج٤ ص ٢٦٩ ص ٢٧٠ .

(٣) معالم أصول الدين للرازي ص ٩٥ .

(٤) شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ٥٧ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٨ .

الفصل الثاني
إرادة المخلوق وأفعاله

المبحث الأول : إرادة الإنسان وصلتها بإرادة الله تعالى

المطلب الأول : الصلة بين الإرادة الإلهية الكونية والإرادة الإنسانية .

المطلب الثاني : علاقة الإرادة الإلهية الشرعية بالإرادة الإنسانية.

المبحث الثاني :الاستطاعة والتكليف

المطلب الأول : الاستطاعة .

المطلب الثاني : التكليف .

الفصل الثاني
إرادة المخلوق وأفعاله

الإرادة والمشيئة الإنسانية :

حصل خلاف بين العلماء في تعريف الإرادة الإنسانية وذلك نابع من فهم كل واحد منهم لهذه الإرادة الموجودة في الإنسان الذي ابتلاه الله بها . فعرفها الإمام الرازي بقوله :«ماهية يجدها العاقل من نفسه ويدرك التفرقة البديهية بينها وبين علمه وقدرته وألمه ولذته»(١) .

وقال الجرجاني عنها في التعريفات:«صفة توجب للحي حالاً يقع منه الفعل على وجه دون وجه» (٢) .

وقال الإيجي:«صفة مخصصة لأحد المقدورين» (٣) .

وعرفها التفتازاني بقوله:«صفة في الحي توجب تخصيص أحد المقدورين في أحد الأوقات بالوقوع مع استواء نسبة القدرة إلى الكل»(٤) .

وعرفها الأشاعرة بأنها:«صفة مخصصة لأحد طرفي المقدور بالوقوع»(٥) .

وأما المعتزلة فلهم تعريف آخر هو «أنها ميل ورغبة ، وشوق يحدث للإنسان نحو الفعل عندما يعتقد نفعه»(٦) وقيل:«ميل يعقب اعتقاد النفع»(٧) .

ويرد الإيجي على قول المعتزلة بقوله :«الإرادة عندنا غير مشروطه باعتقاد النفع أو بميل يتبعه ... فإن الهارب من السبع إذا عن له طريقان متساويان فإنه يختار أحدهما ولا يتوقف على ترجيح أحدهما النفع فيه،ولا على ميل يتبعه بل يرجح أحدهما بمجرد الإرادة ... ومعلوم أنه من دهشته لا يخطر بباله طلب مرجح ، وأنه لو لم يجد المرجح لم يتوقف متفكراً حتى يفترسه السبع» (٨) .

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٧ ط طهران .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٦ .

(٣) المواقف للإيجي ص ١٤٨ .

(٤) شرح المقاصد ص ٤١ ، لوامع الأنوار البهية ج١ ص ١٤٥ .

(٥) المواقف للايجي ص ١٤٨ .

(٦) فلسفة القدر في فكر المعتزلة ص ١٩٦ ط الأولى ١٩٨٥م دار التنوير لبنان .

(٧) المواقف للايجي ص ١٤٨ ، التعريفات للجرجاني ص ١٦ .

(٨) المواقف للايجي ص ١٤٩ .

ومن خلال التعريفات السابقة للإرادة يمكن تعريفها بأنها «**صفة تخصص أحد المقدورين في أحد الأوقات بالوقوع مع تساوي القدرة إلى كل الأفعال**» .

وقد وردت الأدلة الكثيرة التي تثبت الإرادة والمشيئة الإنسانية ومن ذلك قوله تعالى في إثبات الإرادة: ﴿... تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ...﴾(1) هذه الآية نزلت في قصة أسري بدر عندما أراد المسلمون الفداء ،فخاطبهم الله تعالى بأنهم يريدون الحياة الدنيا ومتاعها بما قبضوا من الفداء ،ولكن الله يريد لهم الدار الآخرة بما يحصل لهم بالإثخان في القتل(2) .

وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾(3) .أي من أراد المنفعة العاجلة في هذه الدنيا بأعماله عجل الله لذلك المريد فيها ، ولكن ذلك بقيدين الأول : يكون بحسب مشيئة الله تعالى لا مايشاؤه المريد ، لأن كثيراً من المريدين للعاجلة ، يريدون من الدنيا مالا ينالون ، ويتمنون مالا يصلون إليه .

والثاني : «لمن نريد» أي لمن نريد التعجيل له منهم على ما اقتضته المشيئة ، ولكن نهايته جهنم وبئس المصير ، ولكن من أراد بأعماله الآخرة وسعى له السعي اللائق بها ، فهذا سعيه عند الله مقبول غير مردود(4) .

ومنها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(5) .

هذه الآيات نزلت في منع إيذاء النبي ﷺ وكان قد تأذى من بعض زوجاته ، حيث سألنه شيئاً من عرض الدنيا وطلبن منه الزيادة في النفقة ، كما آذينه بغيرة بعضهن من بعض ،

---

(1) سورة الأنفال الآية ٦٧ .

(2) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ٢٨٢ وانظر : مختصر تفسير الطبري ج١ ص ٣١٢ .

(3) سورة الإسراء الايات ١٨ – ١٩ .

(4) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٣ ص ٢١٦ ص ٢١٧ ، وانظر : مختصر تفسير الطبري ج١ ص ٤٧٤ .

(5) سورة الأحزاب الآيات ٢٨ – ٢٩ .

فأنزل الله آية التخيير بين الدنيا وزينتها ، وبالتالي الطلاق ومفارقة الرسول ، أو إرادة الله ورسوله والآخرة وبالتالي الأجر العظيم [١] .

وقوله تعالى :﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾[٢] . لقد أراد الكفار الكيد بإبراهيم عليه السلام والمكر والحيلة، ولكن الله تعالى رد إرادتهم ومكرهم وكيدهم بمنع إحراق النار لإبراهيم عليه السلام فأنقذه مما أرادوا، وكذلك وردت آيات تتحدث عن مشيئة الإنسان ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٣] . وهنا يظهر بوضوح أن للإنسان مشيئة واختيار ، حيث بين الله تعالى قبل هذه الآيات واقع المجرمين وعدم خوفهم من الآخرة ، ثم بين أن القرآن الكريم تذكرة ، لمن تذكر ولكن هذا التذكر والاتعاظ مخير فيه الإنسان فمن شاء اتعظ وتذكر ومن شاء أعرض .

وقوله تعالى :﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[٤]. إن هذه السورة ، بما فيها من آيات تذكير وموعظة لمن يريد أن يتخذ إلى ربه طريقاً يتوسل به إليه ،وذلك بالإيمان والطاعة ،للوصول إلى ثوابه وجنته ، ولكن الأمر إلى الله تعالى والخير والشر بيده،لأن المشيئة في التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، فمشيئة العبد مجردة لا تأتي بخير ، ولا تدفع شراً،وإن كان الإنسان يؤجر ويثاب على المشيئة الصالحة ويؤجر على قصد الخير[٥] .

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً﴾[٦] ، وهذه الآية تظهر جلياً إرادة الإنسان ومشيئته في التقرب إلى الله تعالى ، فمن شاء عمل صالحاً لأن عمل الخير وعمل الصالح يقربه إلى الله تعالى ، وأما عمل الشر فإنه يباعده عنه .

وقال تعالى :﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٧] . أي أن هذه الآيات تذكرة لمن أراد أن يتذكر وموعظة ، حقها أن يتعظ بها ويقبلها ويعمل بموجبها ، ومن رغب فيها اتعظ

---

(١) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٤ ص ٢٧٥ ، وانظر : مختصر تفسير الطبري ج٢ ص ٢٠٦ .

(٢) سورة الصافات الآية ٩٨ .

(٣) سورة المدثر الآيات ٥٤ – ٥٥ .

(٤) سورة الإنسان الآيات ٢٩ – ٣٠ .

(٥) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٣٥٤ ص ٣٩٢ .

(٦) سورة النبأ الآية ٣٩ .

(٧) سورة عبس الآية ١١ -١٢ .

بها وحفظها ، وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها وأعرض ، فلا حاجة إلى الاهتمام به [1].

وهناك أدلة كثيرة غير مباشرة تثبت حرية اختيار الإنسان وإرادته ، ومنها قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] ، فهذه الآية فيها حث على العمل الذي أمر الله به ورسوله ﷺ حيث أن منفعة ذلك من ثواب في الدنيا وفي الآخرة ، يعود على الإنسان ، وأما من أساء فيعود عليه الضرر والعقاب في الدنيا والآخرة [3]. والله سبحانه وتعالى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وحيث إن الله تعالى أسند العمل الصالح والعمل السيئ إلى الإنسان ، فلو لم يكن الإنسان حراً ما أسند إليه الفعل ، وهذا يدل دلالة قاطعة على إرادة وحرية الإنسان .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقرر اختيار الإنسان وإرادته ، وهو إثبات الفعل له بقوله تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[4] أي أن الشرور التي تعرض للإنسان في ماله أو ولده أو بدنه أو مايحب إنما هي آتيه من آثار أعماله السيئة ومن نتائج اختياره وتصرفه . وأن مايعفوا الله عنه أكثر ، فإن الله لايظلم العباد ولكن أنفسهم يظلمون ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ...﴾[5] . والتعبير على هذا النحو يبرز بشاعة ما يكسب الناس ، وأثره المفسد المدمر للحياة كلها لو آخذهم الله به مؤاخذة سريعة [6].

ولكن الله تعالى يمهلهم ويؤجلهم ، إلى أجل محدود معلوم ، يحاسبهم فيه على أفعالهم وأعمالهم . وقد يكون ذلك في الدنيا لقوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[7] وهذا ناتج عن المفاسد والجرائم التي تحيط بالناس ، وهي من عملهم وكسبهم . فإثبات الكسب والأفعال للإنسان وإضافتها إليه يثبت إرادته وحريته في فعلها .

---

(١) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٣٨٣ .

(٢) سورة فصلت الآية ٤٦ .

(٣) انظر : تفسير كلام المنان للسعدي ج٦ ص ٥٨٦ ، وانظر : مختصر تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٦٧ .

(٤) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٥) سورة فاطر الآية ٤٥ .

(٦) انظر : في ظلال القرآن سيد قطب ج٥ ص ٢٩٥١ ، وانظر : تفسير كلام المنان للسعدي ج٦ ص ٦١٨ .

(٧) سورة الروم الآية ٤١ .

المبحث الأول
إرادة الإنسان وصلتها بإرادة الله تعالى

وهب الله جل ثناؤه الإنسان حرية التوجه و الاختيار ، دون قسر أو قهر . وهذا فضل من الله تعالى ومنة على الإنسان ميزه بها على كثير ممن خلق ، وكان من الممكن ألا يهبه حرية الإرادة و الاختيار .

ولكن إرادة الله تعالى تعلقت بأن يكون الإنسان مريداً ، فسرت إرادة الله تعالى إلى كل مايريد الإنسان ويختار من الأعمال ، ولا يمكن أن يقع أي تعارض بين إرادة الله تعالى وما يختاره الفرد عن طريق إرادته .

ذلك أنه لو فرضنا أن الله تعالى غير مريد لعمل قد اختاره الإنسان بالإرادة المخلوقة معنى ذلك أنه غيرمريد لتلك الإرادة التي وجهته إلى ذلك الفعل،وهذا مناقض لما ثبت من أن الله تعالى قد شاء له أن يكون مريداً ، وشاء أن يخلق فيه هذا السر ، فثبت بطلان الفرض بأن الله قد لايريد العمل الذي تختاره (١) .

وهذا الفرض يقول به المعتزلة ، وتبريره عندهم أن الإنسان هو الخالق لأفعاله دون أي علاقة للإرادة الإلهية ، لكونهم أنكروا وجود إرادة إلهية قديمة كصفة لله تعالى ، بل أثبتوا إرادة محدثة ، وأثبتوا هذه الإرادة قياساً على إرادة الإنسان التي يعتبرونها من المسلمات .

ومعنى إثبات إرادة إنسانية عند المعتزلة مستقلة عن إرادة الخالق ، هو أن يكون لهذا الإنسان ميل ورغبة في الفعل ، دون أن يكون ذلك الميل مخلوقاً لله سبحانه وتعالى ، أي أن يريد الإنسان باختياره ، وقد يكون مراده هذا مراداً لله ، وقد لا يكون كذلك،لأنه من الممكن أن تقع للإنسان إرادة ، وأن تحدث وتنفذ هذه الإرادة في الوقت الذي لايريد فيه الله هذه الإرادة وهذا المراد ، ولذلك فملك الله - حسب زعم المعتزلة - من الممكن أن يقع فيه مالايريد ،لأن تميز الإنسان بالإرادة إنما يتعلق - في نظرهم - بحالة مستقلة عن أي تأثير خارجي إلى حد ما(٢) .

---

(١) انظر : كبرى اليقينيات الكونية للبوطي ص ١٥٥ .

(٢) المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية د. محمد عمارة ص ٩١ ص ٩٢ ، وانظر : فلسفة القدر في فكر المعتزلة د. سميح دغيم . ص ١٩٥ .

ولذلك أنكر المعتزلة على السلف قولهم : ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار :«هذا غلط لأن ما ادعوه من الإجماع فيه لا أصل له ، وجماعة شيوخنا ينكرون ذلك ولا يجوزون إطلاقه ، كما لا يجوزون إطلاق القول بأن كل شئ بقضاء الله وقدره »(١) .

وقول المعتزلة هذا ناتج عن نفيهم صفة الإرادة الكونية القديمة والمشيئة الإلهية النافذة في الكون ، ومما لاشك فيه أن القرآن الكريم يثبت للذات الإلهية الإرادة والمشيئة ، كما يثبت الحرية للإنسان مدعمة بمقوماتها «يثبتهما متوازيتين ، إيجابيتين ومتناسقتين ، بلا تعارض ولا تضارب ولا صراع أو صدام»(٢) .

إن الله عز وجل عندما خلق الإنسان أقامه على نوعين من الحركة والتصرف :

أحدهما : كونه مسيراً لا اختيار له ولا إرادة فيستوي ، في ذلك مع سائر الموجودات من حيوانات وجمادات ونُبات وأفلاك ، حيث الحركة القسرية والوظائف الآلية التي ليس للإنسان فيها أي كسب أو مشيئة ،كحركة النمو وماتتبعه من قوة وشيب وضعف، وكالولادة والموت ، والانفعالات المختلفة من حب وكراهة وخوف وفزع وجوع وعطش ، وذلك كقول الرسول ﷺ لأشج عبد القيس : **["إن فيك لخلقين يحبهما الله الحِلْمُ والأناة" فقال : يارسول الله أنا أتخلق بهما ، أم الله جبلني عليهما ؟ قال : بل الله جبلك عليهما ، قال : الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله]**(٣) .

أما النوع الثاني : فالإنسان يتحرك فيه وفق إرادته واختياره .فالله جل شأنه لما ابتلى الإنسان في هذه الدنيا قضى بأن يهبه القدرة والإرادة والعلم وغير ذلك من القدرات والملكات التي تساعد الإنسان على آداء أعماله .

هذا بالنسبة لإرادة الإنسان ، ولكن عند النظر إلى الإرادة الإلهية المطلقة فقد تبين مما سبق أن هناك إرادة قدرية كونية وهي المشيئة ، وإرادة شرعية دينية ، وأن وضع الإنسان أمام

---

(١) المغنى في ابواب العدل والتوحيد ج٦ القسم الثاني ص ٢٨٣ ص ٢٨٤ ، وانظر : شرح الأصول الخمسة ص ٤٦٩ .

(٢) القضاء والقدرفي الإسلام ج١ ص ٢٢٣ .

(٣) صحيح مسلم ج١ ص٤٩ ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله ، حديث ١٨ ، سنن أبي داود ج٤ ص ٣٧٥ ، كتاب الأدب ، باب في قبلة الجسد ، حديث رقم ٥٢٢٥ ، خلق أفعال العباد للبخاري ص ٤٠ .

الإرادة الكونية ، يختلف عن وضعه أمام الإرادة الدينية الشرعية ، فالمشيئة الإلهية المطلقة تعني أنه لاشيء يحدث في هذا الكون إلا بأمر الله ومشيئته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] ولكن ذلك لا يعني عدم وجود الاختيار الحر لدى الإنسان ، أي أن المشيئة الإلهية لا تجبر العبد وتلزمه باختيار هذا الفعل دون ذلك ،وإن كان الفعل يتم حتماً في نطاقها وتابعاً لها وموافقاً ، لأن الإرادة الإنسانية ماظهرت وحلت بالإنسان إلا بمشيئة الله تعالى ، ولذلك إذا أريد بحث العلاقة بين الإردة الإلهية والإرادة الإنسانية ، فلابد من تفصيل ذلك ببحث العلاقة بين الإرادة الإلهية سواء كانت كونية أو شرعية وبين الإرادة الإنسانية .

المطلب الأول : الصلة بين الإرادة الإلهية الكونية والإرادة الإنسانية :

إن الإرادة الإلهية الكونية المطلقة تعني أن الله تعالى يعمل ويفعل مايشاء ، بلا عوائق أو موانع أو معارضة ، وإنما يأتي الخلق والفعل المراد له في اللحظة التي شاءها الله ، وبالكم والكيف المرادين له سبحانه ، وليس للإنسان فيه أدنى تصرف أو اختيار وهذا «فعل جبري لايحمل أي صفة خلقية ، ولا يحاسب عليه الإنسان ، وليس مسؤولاً عنه البتة»[2] ، لأن الله سبحانه وتعالى «إنما يعذب عبده على فعله الاختياري، والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري ، وغير الاختياري مستقر في الفطرة والعقول» [3].

ويمثل الإرادة الكونية ، مايهبه الله تعالى للإنسان من نعم ومخلوقات على هذه الأرض، حيث أن ذلك راجع إلى تقدير الله سبحانه ومشيئته وليس فيه أدنى نسبة من الاختيار الإنساني ، وإنما يجري ذلك على الإنسان ، بطريقة جبرية كتحديد الرزق والولد والأجل ، وغير ذلك مما لا اختيار للإنسان فيه حيث قال تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[4] . فهذه الأمور وغيرها ، تجري وتحدث دون أن يكون للإنسان أدنى تأثير عليها ، «ألسنا نشعر بأننا ولدنا دون إرادتنا وكبرنا دون إرادتنا ،

---

(١) سورة التكوير الآية ٢٩ ، الانسان الآية ٣٠ .

(٢) القضاء والقدر في الإسلام ج١ ص ٢٢٤ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٢ .

(٤) سورة لقمان الآية ٣٤ .

ووهبنا العقل دون أن يكون لإرادتنا تدخل في ذلك ، ومنحنا حرية الإرادة دون أن يكون لنا في ذلك إرادة ، ونحيا ونموت دون أن يكون لنا في ذلك إرادة »[1] .

وهذه الإرادة الكونيـة القدرية لا يكلف الله تعالى الإنسان بشيء منها ، لأنها فوق استطاعته ، وحدود إرادته فيها لاتتناول إلا الرضى بما يتم بالقضاء والقدر في جانب الطاعة ، أو السخط في جانب المعصية ، ولذلك علمنا الرسول ﷺ الرضى بالقضاء والقدر فقال : **[... وإن أصابك شيئ فلا تقل ، لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وماشاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان]**[2] .

إن شيئاً من هذا ليس محل مؤاخذة ولا محاسبة للإنسان ، لأن هذه الأمور لا قبل له بها ، ولاسبيل له إليها وفي هذا يساق قوله تعالى :﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3] ، فهذه الاية فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات ونفوذ مشيئته بجميع الممكنات ، بحيث لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئاً ، ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئاً ،أو يعدل أو يبدل ، وأنه هو الذي يختار من خلقه مايشاء ، ومن يشاء لما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ، ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصاً ولا حادثاً ولا حركة ولا قولاً ولا فعلاً ،لا في شأن نفسه ولا في شأن غيره ، ومرد الأمر كله إلى الله تعالى[4] .

فلا مجال هنا للإرادة الإنسانية أمام الإرادة الإلهية الكونية إلا الإيمان والتسليم بقضاء الله وقدره ، والصبر عند الابتلاء ، كما أنها لا تدخل في مجال التكليف ، لأنها لا تدخل في باب الأمر أو النهي، إلا في حدود الرضا بالقضاء والقدر ، والصبر على المصائب .

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص ٧٥١ .

(٢) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٥٢ كتاب القدر ، باب الأمر بالقوة والعجز حديث ٢٦٦٤ .

(٣) سورة القصص الآية ٦٨ .

(٤) انظر : في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٧٠٧ ، وانظر : تفسير كلام المنان للسعدي ج٦ ص ٥٢ .

المطلب الثاني : علاقة الإرادة الإلهية الشرعية بالإرادة الإنسانية :

قضت إرادة الله تعالى أن تجعل للإنسان إرادة حرة ليمتحن اختيارها ، وهذه الإرادة لاتتعارض ولا تتنافى مع الإرادة الإلهية، بل إنها قد نمت ووجدت بمشيئة الله سبحانه وتعالى، «فليس ثمة تعارض بين إرادتين حرتين إذا كانت إحداهما مطلقة والأخرى محدودة، تنحصر حريتها في الاختيار فقط .ومن ثم لا يمتنع عقلاً القول بانطواء الإرادة المحدودة تحت المشيئة المطلقة»[1] ،ولذلك قال تعالى : ﴿وَمَا تَشَآؤُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴾[2] .هذه الآية توضح بصريح العبارة أن الإنسان ماكان يتمتع بإرادة في كيانه يتجه بسرها إلى اختيار مايشاء من التصرفات والأعمال،لو لم يشأ الله عز وجل أن يجعل في كيانه هذا السر العظيم وهذا أمر واضح الثبوت يحس به كل إنسان [3] .وبناءً على وجود هذه الإرادة الحرة في الإنسان،جاء التكليف من الله تعالى،وصدرت الأوامر والنواهي،لاختبار الإنسان في إرادته،ليميز الله الخبيث من الطيب،فيظهر من يطيعه في أوامره أو نواهيه،ويظهر من يعصاه.

ومن الجدير ذكره ،أن هذه الأفعال الاختيارية التي يحاسب عليها الإنسان إنما تندرج جميعاً تحت نوعين متضادين للفعل الاختياري هما ، الكفر أو الإيمان أو أفعال الضلال وأفعال الهدى ، أو ثواب الدنيا وثواب الآخرة ، فالإنسان عندما يختار أي فعل اختياري لابد أن يختار أحد هذين النوعين .

ففي مجال الكفر والإيمان قال الله تعالى مبيناً حقيقة الاختيار عند الإنسان :﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ...﴾[4] لقد ظهر الحق وتبين الهدى من الضلال والرشد من الغي ، وصفات أهل السعادة وصفات أهل الشقاوة،وذلك بما بينه الله على لسان رسوله ﷺ ، وأعطى الله الإنسان مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر ، فمن آمن فقد وفق للصواب ، وأما من كفر فقد قامت عليه الحجة ، فضل الطريق من غير إكراه على الكفر لأنه له مشيئة واختيار .

وأما في مجال الهدى والضلال ، فرغم أنه بمشيئة الله تعالى إلا أنه يتم باختيار الإنسان للهدى أو للضلال ، حيث جعل الله تعالى الهدى لمن يريد الهدى من الناس ، وجعل

---

(١) القضاء والقدر في الإسلام ج١ ص ٢٣١ .

(٢) سورة التكوير الآية ٢٩ ، سورة الإنسان الآية ٣٠ .

(٣) انظر : كبرى اليقينيات الكونية للبوطي ص ١٥٩ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢٩ .

الضلال لمن يختار الضلال ، أى أن الله سبحانه تخييراً للعباد جعل إمداده لهم بالهدى أو بالضلال بناءً على اختيار العبد نفسه حيث قال :﴿... وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

أي أن الهدى الإلهي لايمد الله به إلا من يختار الإيمان ، كما أنه لايمنع الهدى إلا عن من يختار الكفر ، حيث قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].وهذا ناتج عن اختيارهم للكفر وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق نتيجة تكبرهم ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ، وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[3] ،فأثبت سبحانه وتعالى الصرف عن آياته للذين يتكبرون بإعراضهم عنها ، وكفرهم بها ،والإعراض من سبيل الرشاد ،واتباع سبيل الغي،أضف إلى ذلك أن الكبرياء لله وحده ، فالصرف هنا عقوبة لهم على أعمالهم بحيث لا ينتفعون بالآيات ولا يستجيبون لها

إن من عقد العزم من أول الطريق على معاندة الحق واتباع الهوى و الشهوات ، وصمم على ذلك ، فإن سنة الله تعالى قد جرت بالنسبة لهؤلاء أن يزج بهم في مزيد من الغواية والضلال ، وأن يبتليهم بمزيد من الانصراف عن آيات الله والمذكرين بها[4] ، حيث يقول الله تعالى :﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾[5] فلا يكون الإعراض إلا بعد التذكير ، ولا الضلال الابعد بيان طريق الهداية والتقوى ، قال تعالى :﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ...﴾[6]يعني أن الله تعالى إذا منّ على قوم بالهداية ، وأمرهم بسلوك الطريق

---

(١) سورة التغابن الآية ١١ .

(٢) سورة البقرة الايات ٦ – ٧ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٤٦ .

(٤) انظر : كبرى اليقينيات الكونية للبوطي ص ١٦٧ .

(٥) سورة الكهف الآية ٥٧ .

(٦) سورة التوبة الآية ١١٥ .

المستقيم ، فإنه تعالى يتم عليهم إحسانه،ويبين لهم جميع مايحتاجون إليه،فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم ، فإذا لم ينقادوا بعد هذا البيان عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على رفضهم للحق المبين(١).وهذا هو التفسير التطبيقي لقوله تعالى :﴿... فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ...﴾(٢)وقوله تعالى : ﴿... وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(٣) .

وأما في مجال إرادة الدنيا والآخرة فقوله تعالى :﴿... مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ...﴾(٤) وقوله تعالى :﴿... وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(٥) .فهذه الآيات تتحدث عن إرادة الإنسان الحرة حيث أنها وضعته أمام ضدين من الأفعال ، أحدهما يؤدي فعله إلى الحصول على الدنيا ، والآخر نتيجته الفوز بالآخرة ، ولكن ذلك كله ينطوي تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى مع كون المشيئة الإنسانية حرة ، فإرادة الإنسان مرتبطة دون شك بمشيئة الله تعالى ويوضح ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾(٦) .

فعلى الرغم من بيان هذه الآية للارتباط الوثيق بين إرادة العبد ، ومشيئة الرب سبحانه وتعالى إلا أن الخلاف حول ذلك قد حصل بين الجبرية والقدرية ، فقد حاول كل فريق أن يستدل بها على مذهبه وفي ذلك يقول الرازي :«واعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر(٧) والقدر»(٨) فالآية الأولى استدل بها المعتزلة وقالوا بأنها تؤيد مذهبهم ، واستدل الجبرية بالآية الثانية وقالوا بأنها تؤيد مذهبهم . والحقيقة أن الإنسان لا

---

(١) انظر : تفسير كلام المنان ج٣ ص ٣٠٧ .

(٢) سورة فاطر الآية ٨ .

(٣) سورة الرعد الآية ٣٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .

(٦) سورة الإنسان الآيات ٢٩ - ٣٠ .

(٧) الجبرية : من الجبر وهو إسناد فعل العبد إلى الله تعالى ، حيث يقولون بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال ، ويعتبر رائد هذا المذهب هو الجهم بن صفوان حيث يقول بأن الإنسان كالريشة المعلقة في الهواء إذا تحرك تحركت وإذا سكن سكنت ، وأن الله سبحانه قدر عليه أعمالاً لابد أن تصدر منه ، كما قالوا بنفي الصفات عن الله تعالى . انظر : الفرق بين الفرق ص ٢١١ ، وانظر : تاريخ الفرق الإسلامية ص ٢١ .

(٨) التفسير الكبير للرازي ج٣٠ ص ٢٦٢ ط طهران .

يشاء شيئاً إلا وهو مندرج بالضرورة تحت مشيئة الله تعالى وإرادته ، فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ، والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين ، طريق الهداية أو طريق الضلال ، فإذا اختار الطريق الأول ، ففي نطاق المشيئة الإلهية ، وإذا اختار الطريق الثاني ففي نطاقها أيضاً،لأن فعل مشيئة الإنسان صفة محدثة فلا بد لحدوثها من مشيئة أخرى وهي مشيئة الله تعالى التي أقرت وأوجدت مشيئة الإنسان ليعلم أن الله هو الفاعل ، وأن أصل كل شيء في الوجود ومرده يرجع إلى مشيئة الله تعالى(١) .

وذكر البوطي مثلاً تقريبياً- ولله المثل الأعلى - لبيان الإرادة الإنسانية إزاء إرادة الله تعالى فقال :«ولأضرب لك مثلاً يقرب إليك هذه الحقيقة : خادم عندك في الدار ، تريد أن تعلم مدى صدقه وأمانته في الخدمة والمعاملة ، ولكي تصل إلى بغيتك هذه تعطيه مبلغاً من المال ، وتبعثه إلى السوق لشراء بعض الحوائج ، وتفسح له المجال أن يتصرف كما يشاء دون أن تضع عليه رقيباً أو تضيق عليه السبيل ، فأنت بترتيبك هذا أردت أن يكون حراً فيما يفعل ويذر ، ولا يستجيب إلا لنداء ضميره ، وتفكيره الداخلي بحيث يتمتع بإرادة لا يشعر بها قسراً ، حتى تعلم بذلك طويته ، فإذا عاد وقد خان الأمانة فيما أعطيته من المال ، وما عاد به من المتاع ، فأنت في الواقع مريد لهذه النتيجة - مع ملاحظة الفرق وهو أن الله تعالى يعلم طوية العبد ويعلم مايختاره بمحض إرادته - وإذاعاد وقدحقق منتهى الأمانة بالتصرف كما يشاء إلا وأنت مريد أيضاً لهذه النتيجة ، إذ أنت لم ترد اطلاق يده بالتصرف كما يشاء إلا وأنت مريد لظهور نتيجة ذلك أياً كانت النتيجة تحبها وترضاها أم لا »(٢) .

ويعقب البوطي على ذلك بقوله :«إذا تبين لك هذا علمت أن مصير الإرادة الإنسانية في جنب إرادة الله ليست إلا كمصير إرادة الخادم في جنب إرادة سيده - ولله المثل الأعلى - فإرادتك المتعلقة بتصرفاتك الاختيارية منطوية تحت إرادة الله تعالى ولكن لا عن طريق القسر والإكراه ... وإنما عن طريق بث سر الإرادة والاختيار في كيانك» (٣) .

ووما يؤكد ذلك أن الإنسان كثيراً مايريد ويشتهي أشياء ،ولكن تقف في طريقة عقبات وموانع وصوارف تمنعه من تحقيق مايريد ويشتهي ، وهذا يجعل الإنسان يشعر بأنه وإن ملك الإرادة وملك تحريك قوته ، فإنه لا يملك نتائج مايريد لأن هذه النتائج إنما يتحكم بايجادها

---

(١) انظر : العقائد الإسلامية سيد سابق ص ١٠٥ ص ١٠٦ .

(٢) كبرى اليقينيات الكونية للبوطي ص ١٥٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥٦ .

قضاء الله وقدرته ، فقد يتفق القضاد والقدر مع إرداتنا التي توجه حركاتنا ، فنرى أن النتائج والآثار تحققت ، وقد يختلفان فيتحقق ما أراد الله ويخيب ما أردنا .

موقف الصحابة من الإرادة الإلهية وعلاقتها بالإرادة الإنسانية :

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ على علم ومعرفة واضحة بالإرادة الإنسانية وعلاقتها بالإرادة الإلهية إلا أن بعضهم كان الأمر عنده مبهماً وقت طاعون عمواس ، ونترك الحديث للإمام البخاري في صحيحه عن خروج عمر بن الخطاب رضي الله عنه والصحابة إلى بلاد الشام عند وقوع مرض الطاعون ، وخلافهم في هذه القضية . فعن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى بلاد الشام حتى إذا كان بِسَرْغَ(1) لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبره أن الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن عباس : فقال عمر ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا ، فقال بعضهم ، قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه ، وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولانرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال ارتفعوا عني ثم قال : ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني ثم قال ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء.فنادى عمر في الناس أني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه ، قال أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتا بقدر الله.قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته . فقال : إن عندي في هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :**[إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه]** . قال : فحمد الله عمر ثم انصرف»(2) .

---

(1) سَرْغ : مدينة افتتحها أبو عبيدة بن الجراح وهي بوادي تبوك ، وقيل واد بتبوك . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري للعسقلاني ج ١٠ ص ١٨٤ .

(2) صحيح البخاري ج٧ ص ٢١ كتاب الطب ، باب مايذكر في الطاعون .

إن هذا الحديث يوضح حقيقة الإختلاف بين الصحابة في قضية حرية الإرادة الإنسانية واختيارها ، فنلاحظ بعض الصحابة يشير على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بوجوب الذهاب إلى الشام ، رغم وجود مرض الطاعون ، ومن بينهم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه حتى قال عمر رضي الله عنه :«لو غيرك قالها ياأبا عبيدة» أي «أتعجب منك مع علمك وفضلك كيف تقول هذا ؟»[١] حيث ظن هؤلاء الصحابة أن الذهاب إلى الشام هو لتأدية الواجب ، وهو عبادة وجهاد ، فهو أمر الله التشريعي ، فيلزم الطاعة ، ولا يجب الفرار من قدر الله الذي هو في نظرهم أمره التشريعي بالجهاد ، فإرادة الله هي فيما أمر به ونهى عنه[٢] فاعتبروا أن هذا أمر ولا مجال للاختيار ، حيث كان تصور حتمية القدر وضرورة نفاذه بعيداً عن الاختيار والأخذ بالأسباب للنجاة من الخطر .

وأما الفريق الثاني وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا على معرفة تامة بالمشيئة الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانية ، الحادثة ، حيث رأوا عدم تلاشي الإرادة البشرية المختارة ،وانعدام الفاعلية الإنسانية بل كانوا يدركون أن للإنسان مجالاً للاختيار والعمل ، وكل ذلك بقدر الله ومشيئته،ومن ثم كان رأيهم في الرجوع مستنداً على أن الاختيار البشري لهذا الموقف دون ذاك هو في مشيئة الله الكونية لا محالة،وليس فراراً من القدر ولكنه فراراً إليه ، حيث أنه لايقع شيء في الكون إلا بالمشيئة الإلهية الكونية ، أما الأمر التشريعي فهو تخيير عندهم ، وليس معوقاً للاختيار الصحيح ، بل هادياً إليه ، وفي هذا يقول الإمام ابن حجر العسقلاني : «إن هجوم المرء على مايهلكه منهي عنه ، ولو فعله لكان من قدر الله ، وتجنبه مايؤذيه مشروع ، وقد يقدر الله وقوعه فيما فر منه ، فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله ، فهما مقامان : مقام التوكل ، ومقام التمسك بالأسباب ... ومحصل قول عمر «نفر من قدر الله إلى قدر الله» أنه أراد أنه لم يفر من قدر الله حقيقة ، وذلك أن الذي فر منه أمر خاف على نفسه منه فلم يهجم عليه ، والذي فر إليه أمر لا يخاف على نفسه منه إلا الأمر الذي لابد من وقوعه سواء كان ظاعناً أو مقيماً»[٣] .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١٠ ص ١٨٥ .

(٢) انظر : القضاء والقدر في الإسلام د. دسوقي ج٢ ص ١١ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١٠ ص ١٨٥.

لقد كان عمر رضي الله عنهبمعرفة تامة بالإرادة الإلهية وعلاقتها بالإرادة الإنسانية حيث ضرب مثلاً بالإبل والوادي ذي العدوتين ، أحدهما خصبة والأخرى جدبة ، وهذا يعني أن الاختيار البشري يتم بين شيئين متضادين أحدهما حسن والآخر قبيح ، ثم إن الاختيار الذي يتم بإرادة العبد نبوعاً من ذاته إنما هو بقدر الله ومشيئته ، أياً ماكان هذا الاختيار سواء الحسن أو القبيح .

وقد كان من فقه عمر رضي الله عنه أنه كان يعرف خطورة من يجحد حرية الإرادة الإنسانية ومسؤوليتها عن أفعالها ، ولهذا كان يعاقب من يعتذر بالقدر عما يرتكب من حرام .

فعندما جيئ له بسارق ، قال له عمر رضي الله عنه : ماحملك على السرقة ؟ فقال : قضاء الله وقدره ياأمير المؤمنين ، فأمر عمر بقطع يده ، ثم حسمت ، ثم جلده ثمانين جلدة وقال له : إنما قطعت يدك لسرقتك ، وإنما جلدتك لكذبك على الله تعالى[1] ، أي لاحتجاجك بالقضاء والقدر مع أنهما لايسلبان العبد الاختيار .

---

(١) موسوعة فقه عمر بن الخطاب د. محمد رواس قلعة جي ص ١٦٨ ص ١٦٩ ط الأولى سنة ١٤٠١هـ مكتبة الفلاح – الكويت .

المبحث الثاني
الاستطاعة والتكليف

إن حرية الإنسان تحتاج أن يكون لها إرادة واختيار ، وهذه هي الدعامة الأولى للحرية ، ولكنها لوحدها لا تكفي بل لابد من دعامة ثانية وهي الاستطاعة أو القدرة البشرية على تنفيذ الفعل الذي يختاره الإنسان ، بعبارة أخرى إن الاستطاعة هي المؤهل الثاني والشرط المهم بعد الإرادة لتحقيق الخلافة ولقيام حقيقة الابتلاء ، فالاستطاعة تنبثق من حقيقة الخلافة انبثاقاً مباشراً كالاختيار «حيث إن الخلافة تعني الحرية والمسؤولية ، والحرية مقوماتها الاختيار والاستطاعة والعلم» .[1]

لقد أثبت القرآن الكريم الاستطاعة للإنسان ، يفعل بها ويعمل بها ، ودليل وجودها لدى الإنسان هو ورود عدة آيات بها مادة «استطاع» ومشتقاتها منسوبة إلى الإنسان ، وإثبات الاستطاعة للإنسان يعني أنه لايجبر علي فعله ، بل عنده القدرة على الفعل أو الترك ، وهذا خلافاً للجبرية الذين نفوا استطاعة الإنسان على الفعل أو الترك ، حتى أنهم جعلوا الإنسان كالريشة في مهب الريح ، واعتقدوا أنه مجبر على أفعاله كلها ، فلا إرادة له ولا اختيار ولا استطاعة ، وهذا قول مخالف للكتاب والسنة ومخالف للمعقول .

إن الاستطاعة والإرادة وحرية الاختيار من مسوغات تفرد الإنسان وامتيازه عن كل ماعداه من المخلوقات ، وهي مدار التكليف الذي كلف به من تشريعات آمرة أو ناهية ، وهي مدار الأمانة التي حملها ، حيث إن كل فعل يقوم به الإنسان سواء كان بحركات جسدية أو نفسيه يتم ضرورة بالاستطاعة والقدرة التنفيذية الذاتية .

---

(١) القضاء والقدر في الإسلام د.فاروق دسوقي ج١ ص ٢٩٣ .

المطلب الأول : الاستطاعة :

الاستطاعة في اللغة : هي الإطاقة واستطاع أي أطاق ، ويقال إسطاع ويسطيع بحذف التاء استثقالاً لها مع الطاء [1].

وأما من الناحية الاصطلاحية فقد ورد عدة تعريفات منها :

«هي عرض يخلقه الله في الحيوان يفعل به الأفعال الاختيارية» [2].

وقيل : «هي صفة يخلقها الله تعالى عند قصد اكتساب الفعل بعد سلامة الأسباب والآلات» [3].

وقيل : «هي القدرة التامة التي يجب عندها صدور الفعل» [4] .

ويمكن اختيار تعريف للاستطاعة يجمع بين الأول والثاني ،وهو «أنها عرض يخلقه الله في الحيوان يفعل بها الأفعال الاختيارية بعد سلامة الأسباب والآلات» .

وألفاظ الاستطاعة والقدرة والطاقة والوسع والقوة متقاربة المعنى في اللغة [5] .

وقد وردت آيات قرآنية كثيرة تثبت للإنسان الاستطاعة وتتحدث عنها ،بل وتوجب الأعمال والأفعال بحسب الاستطاعة ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...﴾ [6] ومعنى الاستطاعة في هذه الآية ، هو التملك والتمكين من الحصول على الأسباب التي يتم بها الحج ، ومنها الزاد والراحلة ، حيث فسر الرسول ﷺ وسلم الاستطاعة بذلك ، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : مايوجب الحج ؟ قال :«الزاد والراحلة» [7] .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ج٣ ص ٦٠ ، وانظر : مختار الصحاح ص ٤٠٠ .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٩ .

(٣) شرح الفقه الأكبر ص ٨٧ ، شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ٦٠ .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٩ .

(٥) انظر : التعريفات للجرجاني ص ١٩ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٨٨ ، وانظر : شرح المقاصد للتفتازاني ج٢ ص ٣٤٨ .

(٦) سورة آل عمران الآية ٩٧ .

(٧) سنن الترمذي ج٣ ص ١٧٧ كتاب الحج باب في ايجاب الحج حديث ٨١٣ ، جامع الأصول لابن كثير ج٣ ص ٦ حديث رقم ١٢٦٨ .

وأيضاً «من جملة مايدخل في الاستطاعة دخولاً أولياً أن تكون الطريق إلى الحج آمنة بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله ... أما لو كانت غير آمنة فلا استطاعة»[(١)] .

وقوله تعالى ﴿... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[(٢)] أي لا أريدفيما أمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي [(٣)]. ويتضح من قول شعيب عليه السلام أن للإنسان إستطاعة تمكنه من الإصلاح .

وهذه آية أخرى تثبت الاستطاعة للإنس والجن صراحة وهي قوله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[(٤)] .وفي هذه الآية حصل خلاف بين المفسرين في حقيقة الأمر ، حيث قيل إن الخطاب موجه للإنس والجن يوم القيامة عند شدة العذاب وأهوال القيامة ، وقيل إن الخطاب موجه في الدنيا ، والمعنى إن استطعتم الخروج من قهر الله وقضائه عليكم فافعلوا ، وقيل إن المراد بالأمر هنا التعجيز حيث إنهم لا يقدرون على النفوذ إلا بقوة وليس لهم قوة [(٥)].

وقال تعالى :﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾[(٦)] ، فقد نص الله تعالى نصاً جلياً على أنهم ماكانوا يستطيعون السمع الذي أمروا به ، إلى جانب ذلك كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله تعالى ، فاستحقوا على ذلك جهنم ، لأنهم كانوا في ظاهر الأمر مستطيعين بصحة جوارحهم حيث كانوا يسمعون ويبصرون ولكنهم كفروا وأعرضوا .

كما قال تعالى ﴿... وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[(٧)] هذه الآية نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وذلك أنها كانت أرضاً بعيدة ، وكانت في شدة الحر وطيب الثمار والظلال ، فثقلت عليهم ،

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج١ ص ٣٦٣ .

(٢) سورة هود الآية ٨٨ .

(٣) انظر : صفوة التفاسير ج٢ ص ٢٩ .

(٤) سورة الرحمن الآية ٣٣ .

(٥) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل ج٤ ص ٨٥ ، وانظر : صفوة التفاسير ج٣ ص ٢٩٧ .

(٦) سورة الكهف الآيات ١٠٠ - ١٠١ .

(٧) سورة التوبة الآية ٤٢ .

وأخذوا يعتذرون بأعذار كاذبة غير مقبولة(١) ،وكان عذرهم عدم الاستطاعة ، ولكنهم في الحقيقة كانوا كاذبين حيث إن السفر - كما أخبر الله - لو كان لعرض دنيوي أو كان قريباً سهلاً لاتبعوا النبي ﷺ ولكن بعد المسافة أظهر كذبهم ونفاقهم .

ومن الأحاديث النبوية التي ذكرت الاستطاعة مارواه عمران بن حصين رضي الله عنه قال : كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال :**[صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً . فإن لم تستطع فعلى جنب]** (٢)وهذا يعطي دلالة على أن للإنسان استطاعة ، ولكن المراد بنفي الاستطاعة في الحديث «وجود المشقة الشديدة بالقيام ، أو خوف زيادة المرض أو الهلاك»(٣) فرخص الرسول ﷺ هذه الرخصة تخفيفاً ورحمة بهذه الأمة .

الاستطاعة والفعل :

رغم إثبات الاستطاعة للإنسان بالقرآن والسنة ، وإثبات الجميع لها إلا أنه حصل خلاف في وجود الاستطاعة هل تكون مع الفعل،أم قبل الفعل،أم قبل الفعل ومعه ، وفي هذا يقول ابن تيمية :«هناك تنازع في استطاعة العبد ، هل يجب أن تكون مع الفعل لاقبله ، أو يجب أن تكون متقدمة على الفعل ، أو يجب أن تكون معه وإن كانت متقدمة عليه ؟»(٤) وكل فريق يحاول أن يؤيد قوله ويدافع عنه ، وسيظهر ذلك عند مناقشة كل قول على حده .

أولاً : القائلون بوجوب وجود الاستطاعة مع الفعل

قال بهذا طائفة من أهل الكلام وبعض أهل السنة حيث اعتبروا أن الاستطاعة التي يكون الفعل بها لا تكون إلا مع الفعل لا تتقدمه البتة(٥)يقول الإمام أبو الحسن الأشعري(٦)

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ج٢ ص ٧٦ .

(٢) صحيح البخاري ، ج٢ ص ٤١ كتاب تقصير الصلاة ، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج٢ ص ٥٨٨ .

(٤) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٦٠ بتصرف ، وانظر:موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١ ص ٦٥

(٥) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج٣ ص ٣٣ ، وانظر : شرح المقاصد ج٢ ص ٣٥٤ .

(٦) أبو الحسن الأشعري : علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري صاحب المصنفات ، توفي سنة أربع وعشرين وثلاث مائة وله بضع وستون سنة ، كان في بداية أمره على مذهب الإعتزال ، ثم تركه وسلك طريق ابن كلاب ثم بعد ذلك إلى مذهب السلف ، وماجاء في كتابيه مقالات الإسلاميين ، والإبانة عن أصول الديانة يكفي للاستدلال على رجوعه إلى مذهب السلف ، حيث وافق في الإبانة السلف في كل ماعرضه من المسائل . انظر : طبقات الشافعية ج٣ ص ٣٥٢ ، وانظر : شذرات الذهب ج٢ ص ٣٠٣ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج٤ ص ٢٦٣ .

«إن الاستطاعة تحدث مع الفعل ،تنتفي بانتفائه فهي لا تسبق الفعل ولا تبقى بعده»[1] ويبرهن على قوله هذا «بأن الاستطاعة لا تبقى بعد الفعل لأنها ليست ذات المستطيع بل هي صفة له ، ومن ثم فلو جاز أن تسبق الفعل بوقت لجاز بأوقات حتى مائة عام ، ثم جاز أن تتقدم قبل حدوث الفعل ، وبذلك يحدث الفعل باستطاعة معدومة وهذا محال ، فليس إلا أن يحدث الفعل مع الاستطاعة في حال حدوثها»[2] .

كما قالت طائفة من أهل السنة بأن الاستطاعة والقدرة لا تكون إلا مع الفعل «لأن القدرة لا تصلح للضدين ، فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل ، وهي مستلزمة له ، لاتوجد بدونه»[3]. ولأن القدر لا تبقى زمانين فيمتنع وجودها قبل الفعل[4] .

وهذا الرأي يلزم منه «أن يكون كل عبد لم يفعل ما أمر به قد كلف مالا يطيقه إذ لم تكن عنده قدرة إلا مع الفعل»[5] وهذا يؤدي إلى مخالفة المعلوم من الدين بالضرورة ، فمثلاً أوجب الله تعالي الحج على المستطع «فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج ،ولم يعاقب أحد على ترك الحج،وهذا خلاف المعلوم بالإضرار من دين الإسلام»[6] .

لأن شرط الاستطاعة مع الفعل يسقط التكليف ،لعدم وجود الاستطاعة ، ويؤدي إلى عدم عصيان أحد بترك الحج،لأنه لا يكون واجباً على أحد،قبل الإحرام به وهذا غير صحيح .

كما أن الله تعالى أوجب التقوى بحسب الاستطاعة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ...﴾[7] فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى ، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى ، ولم يعاقب من لم يتق ، وهذا معلوم الفساد حيث إنه مخالف المعلوم بالإضرار من دين الإسلام[8] . وهكذا يتبين عدم موافقة هذا الرأى للصواب .

---

(١) اللمع للأشعري ص ٩٤ ، وانظر : مجموع الفتاوي ج٨ ص ٣٧١ .

(٢) اللمع للأشعري ص ٩٤ ،(بتصرف).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٠ ، وانظر : أصول الدين للرازي ص ٩٠

(٤) انظر : شرح الطحاوية ص ٤٩١ ، وانظر : شرح النسفية للسعدي ص ١١٢ – ١١٣ .

(٥) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٦٠ .

(٦) منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٧٣ ، وانظر : مجموع الفتاوي ج٨ ص ٢٧٤ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٨٩ ، وانظر : الفصل لابن حزم ج٣ ص ٤٣ .

(٧) سورة التغابن الآية ١٦ .

(٨) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٨٩، وانظر : منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٧٣ .

ثانياً : القائلون بوجوب وجود الاستطاعة قبل الفعل :

ذهب المعتزلة وطوائف من المرجئة ، إلى أن الاستطاعة التي يوجد بها الفعل ، يجب أن تتقدم على وجوده[1] ، ولذلك يقول القاضي عبد الجبار «إن القدرة متقدمة لمقدورها غير مقارنة له»[2] ثم بين المانع من مقارنة الاستطاعة والقدرة للفعل بقوله «لأنه يلزم على القول بمقارنتها للمقدور تكليف مالا يطاق وذلك قبيح ، ومن العدل أن لايفعل القبيح»[3] .

إن قول المعتزلة هذا غير صحيح وغير سليم ، لأن الكلام هنا لايليق في حق الله تعالى حيث أنه لا يسأل عما يفعل :﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[4] .

وليس مايستقبح من العبد يستقبح من الله تعالى ، لأنه جلت قدرته حكيم في كل أفعاله ، وله الحجة البالغة .

وتؤكد المعتزلة على عدم وجود استطاعة وقدرة مع الفعل حتى وإن كانت هذه الاستطاعة مساعدة من الله تعالى لعبده المؤمن ، وهذا بناء على أصلهم الفاسد وهو أن «إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء ، فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان بل هذابنفسه رجح الطاعة ، وهذا بنفسه رجح المعصية»[5] .

وهذا القول مخالف للحق حيث اتفق أهل السنة والجماعة على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر ، وأنه أعانه علي الطاعة ، إعانة لم يعن بها الكافر حيث قال تعالى :﴿...وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[6] .

ولكن المعتزلة ردت على هذه الاية بالقول «إن هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق - ولا يختص به أحد - وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق»[7] والحق أن الآية تقتضي أن هذا التحبيب والتزيين والإعانة خاص بالمؤمنين ودليل ذلك أن الله تعالى ختم الآية بالقول

---

(١) انظر : الفصل لابن حزم ج٣ ص ٣٤ ، وانظر : منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٧٣ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٣٩٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٩٠ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٠ .

(٦) سورة الحجرات الآية ٧ .

(٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٠ .

« أولئك هم الراشدون » ليبين أن هذه الإعانة للمؤمنين ، لأنه من المعلوم أن الكفار ليسوا راشدين ، ومما يزيد الأمر وضوحاً وبياناً قول الله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسلَامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وهكذا يتبين عدم موافقة رأي المعتزلة ومن قال بقولهم للصواب .

ثالثاً : القائلون بوجوب الاستطاعة قبل الفعل مع الفعل أيضاً :

وهذا هو قول الأئمة والجمهور وهو القول الموافق للحق حيث إن الاستطاعة تكون مع الفعل ، وقد تكون قبله ، وذلك كقدرة المأمور العاصي ، فإن تلك القدرة قد تكون مقدمة علي الفعل بحيث تكون لمن لم يطع[2] ويوضح هذا الحقيقة ابن تيمية بقوله : « والصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة أن الاستطاعة مقدمة على الفعل ، ومقارنة له أيضاً ، وتقارنه باستطاعة أخرى لا تصلح لغيره ، فالاستطاعة نوعان ، متقدمة صالحة للضدين ، ومقارنة لا تكون إلا مع الفعل حيث لايجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة ولا بإرادة معدومة كما لا يوجد بفاعل معدوم »[3] .

فالاستطاعة تتركب من أمرين :

١ - قدرة هي مناط الأمر والنهي ، وهذه قد تكون قبل الفعل ، ولا يجب أن تكون معه ، وهي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات وارتفاع الموانع ، ولكن كل ذلك لا يحقق الفعل إلا إذا أضفنا إرادة الفعل ،فَعُلِمَ أن الإرادة أيضاً محركة للاستطاعة ، ولكن لا يُقال إن الإرادة استطاعة، لأن العاجز عن الحركة مريد لها وهو غير مستطيع ،وقد عُلم ضرورة أن العاجز عن الحركة غير مستطيع للفعل لأنهما ضدان والضدان لا يجتمعان معاً[4] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٢) انظر : منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٧٣ ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٦٠ ، وانظر : الفصل ج٣ ص ٦٥ .

(٣) مجموع الفتاوي ج٨ ص ٣٧٢(بتصرف)، وانظر : منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٧٣ ، ج٢ ص ٢٢ ، وانظر : موافقة صحيح الصريح المعقول ج١ ص ٦٥ .

(٤) انظر : الفصل لابن حزم ج٣ ص ٤٢ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٨٨ .

وهذه الاستطاعة «هي الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي ، والثواب والعقاب وعليها يتكلم الفقهاء ، وهي الغالبة في عرف الناس»(١) ،وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ...﴾(٢) فأوجب الله تعالى الحج على المستطع ، كما أوجب التقوى بحسب الاستطاعة فقال :﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ...﴾(٣) ، كما أنه أوجب الإطعام على من لم يستطع الصيام فقال :﴿... فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ...﴾(٤) والمراد من ذلك استطاعة الأسباب والآلات والصحة والتمكن .

ومن ذلك أيضاً قول الرسول ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنه : **[صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب]** (٥).

وإنما نفى الاستطاعة لعدم سلامة الآلات والصحة ، فنفى استطاعة الفعل معها ، ومعلوم أن الحج والصيام والصلاة يجب على المستطع سواء فعل أو لم يفعل «فعلم أن هذه الاستطاعة لا يجب أن تكون مع الفعل»(٦) بل تسبق الفعل وعليها يكون مناط الأمر والنهي ، وتحصل للمطيع والعاصي وتبقى إلى حين الفعل .

٢ - الاستطاعة والقدرة التي تكون مع الفعل ، ويتحقق بها الفعل ، ولابد أن تكون مع الفعل،حيث لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة وهي القوة الواردة من الله تعالى بالعون والتوفيق أو الخذلان(٧). وعن هذه الاستطاعة يتحدث ابن تيمية بقوله «فهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة ... وهي الكونية التي هي القضاء والقدر وبها يتحقق وجود الفعل»(٨) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الاستطاعة المقارنة في كثير من آياته ومن ذلك قوله

---

(١) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج٨ ص ٣٧٣ .

(٢) سورة ال عمران الآية ٩٧ .

(٣) سورة التغابن الآية ١٦ .

(٤) سورة المجادلة الآية ٤ .

(٥) صحيح البخاري ج٢ ص ٤١ كتاب تقصير الصلاة ، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب .

(٦) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٦١ .

(٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٨٨ ، وانظر : الفصل لابن حزم ج٢ ص ٤٦ - ٤٨ ، وانظر : الإبانة للأشعري ص ١٠٩ .

(٨) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج٨ ص ٣٧٣ .

تعالى: ﴿... مَاكَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً ، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾[2] والمراد هنا نفي حقيقة القدرة والاستطاعة المقارنة للفعل، لا نفي الآلات والأسباب لأنها كانت ثابتة ولكن «نفوسهم لا تستطيع إرادته،وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه،وهذه حال من صده هواه أو رأيه الفاسد عن الاستماع إلى كتب الله المنزلة واتباعها،وقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك،وهذه الاستطاعة هي المقارنة للفعل الموجبة له»[3] .

وكذلك قول صاحب موسى عليه السلام :﴿... إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[4] وقوله ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[5] . والمراد منه حقيقة قدرة الصبر لا أسباب الصبر وآلاته . فإن تلك كانت ثابتة له حيث أنه عابه على ذلك ، ولا يلام من عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل ، وإنما يلام من امتنع من الفعل لاشتغاله بغير ما أمر به ، أو لعدم اشتغال الآلات بفعل ما أمر به[6] .

والحقيقة أن قول أهل السنة بوجود استطاعة أولى ،تتمثل بالآلات والأسباب كاليد السليمة والرجل الصحيحة يتقدمان البطش والمشي ، وكذلك الزاد والراحلة يتقدمان أفعال الحج ، وأن هناك استطاعة ثانية تكون مع الفعل ، ولايتم الفعل إلا بها ، وتتمثل بالإرادة والعون والتوفيق من الله تعالى أو الخذلان ، هو القول السليم الصحيح الموافق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ويؤكد ذلك أن الاستطاعة لو كانت سابقة على الفعل بصورة كلية للزم استغناء العبد عن الرب سبحانه وتعالى ، وهذا محال لأن صلة العبد بربه قوية وثيقة ، وإلا فلا معنى للعبودية ولا الربوبية ، كما أن الله أمرنا باللجوء إليه سبحانه في طلب المعونة على العبادة وعلى أعمالنا ، ولو كانت هذه المعونة موجودة قبل الفعل ، لكان الأمر بسؤال هذه المعونة لغواً ولا فائدة منه ، وهذا يعطي دلالة أخرى على صحة موقف السلف من حقيقة الاستطاعة .

---

(١) سورة هود الآية ٢٠ .

(٢) سورة الكهف الآية ١٠١ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ج١ ص ٦١.

(٤) سورة الكهف الآية ٦٧ .

(٥) سورة الكهف الآية ٧٥ .

(٦) انظر : شرح العقيدة الطحاية ص ٤٨٩ ص ٤٩٠ .

المطلب الثاني : التكليف :

حرص الإسلام على إبلاغ الإنسان الكمال المقدور له ، وهذا يكون بتكليفه بالأوامر والنواهي التي تحكم تصرفاته وأقواله وأفعاله وأفكاره وميوله وأخلاقه ، وهو أيضاً امتحان له ليتبين شكره من كفره وطيبه من خبثه . ويتناول هذا المطلب الكلام عن الاستطاعة الشرعية المشروطة ، والتكليف بما لا يطاق وفيما يلي توضيح ذلك :

أولاً : الاستطاعة الشرعية المشروطة :

تبين مما سبق أن هناك استطاعة تسبق الفعل ، ويتعلق بها الأمر والنهي ، وهي الاستطاعة الشرعية المشروطة ، ومن رحمة الله تعالى على عباده وعدله في التكاليف التي فرضها عليهم أنها بحسب استطاعتهم ، وطاقتهم فلم يكلف الله تعالى الإنسان بما ليس في مقدوره لقوله تعالى :﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ...﴾[1] .

كما أن هذه التكاليف تأخذ طابع اليسر، لأنها ميسرة لا عسر فيها ولا تكلف ولا تعقيد حيث تطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة ، «سماحة تؤدي معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاط الحياة الجادة ... مع الشعور الدائم برحمة الله وارادته اليسر لا العسر بعبادة المؤمنين»[2] قال الله تعالى :﴿... **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ...﴾[3] فالدين الإسلامي كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه محفوف برحمة الله تعالى على الإنسان :﴿... **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ...﴾[4]وقال :﴿... **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** ...﴾[5] ولذا جعل الشارع الاستطاعة المشروطة في الشرع هي «أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها ، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون مايتصور الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه»[6] فالمريض قد يستطيع القيام في الصلاة مع زيادة المرض وتأخر برئه ،أو يقدر على الحج مع حصول ضرر في بدنه أو ماله،أو يصوم وهو مريض أو مسافر فيؤدي ذلك إلى زيادة المرض أو زيادة التعب والمشقة، فهذا في الشرع غير

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ج١ ص ١٧٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٤) سورة الحج الآية ٧٨ .

(٥) سورة المائدة الآية ٦ .

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٢ .

مستطيع بسبب حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعاً،«فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل ، بل ينظر إلى لوازم ذلك ، فإن كان الفعل ممكناً مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية»[1] ، بل متى كان العبد قادراً، مع ضرر يلحقه، جعل كالعاجز في مواطن كثيرة من الشريعة ، كالتطهر بالماء ، والصيام في المرض ، والقيام في الصلاة ، وهنا نجد أن الشارع جعل الاستطاعة والإمكان مع عدم المفسدة الراجحة ،فإذا وجدت مفسدة راجحة ارتفعت الاستطاعة [2].وجازت بذلك الرخصة يقول تعالى :﴿... فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَر ...﴾[3] فهذه هي القاعدة الكبرى في تكاليف هذه العقيدة كلها ، فهي ميسرة لا عسر فيها ، وتوحي للقلب الذي يتذوقها، بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها، وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التي لاتكلف فيها ولا تعقيد ، سماحة تؤدي معها كل التكاليف ، وكل الفرائض ، وكل نشاط الحياة، الجادة مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر بعبادة المؤمنين[4] .

ولذلك كانت محبة الله تعالى للرخصة التي رخصها لعبادة المؤمنين ، في عبادتهم وطاعتهم كمحبته للعزيمة حيث قال رسول الله ﷺ :**[إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتي عزائمه]**[5] .

إن الفارق بين الاستطاعة المشروطة والاستطاعة المقارنة أن «الاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة»[6] وبالتالي يقع الفعل لأنه «إذا إجتمعت الإرادة الجازمة ، والقوة التامة لزم وجود الفعل»[7] وأما الاستطاعة المشروطة في التكليف فلا يشترط فيها الإرادة الجازمة حيث أن «الله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده»[8] فكثير من الأوامر الإلهية تحدث

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٢ ، وانظر : مجموع الفتاوي ج٨ ص ٤٣٩ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوي ج٨ ص ٤٣٩ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٤ .

(٤) انظر : في ظلال القرآن ج١ ص ١٧٢ .

(٥) الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ٧٥ ، مسند الإمام أحمد ج٢ ص ١٠٨ .

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٢ .

(٧) المصدر السابق ص ٤٩٣ .

(٨) نفس المصدر ص ٤٩٢ .

معصيتها ومخالفتها مع وجود القدرة على فعلها ، وذلك بسبب عدم وجود الإرادة الجازمة للفعل ، ولكن من المعلوم أن الله تعالى «لا يأمر بالفعل من لو أراده لعجز عنه»[١] وذلك لعدم وجود الاستطاعة الشرعية .

ثانياً : التكليف بما لا يطاق :

اتفق جماهير أهل السنة على عدم وقوع التكليف بما لايطاق في الشريعة وذلك للعجز عنه ،كتكليف الزمني بالمشي ، والأعمى بنقط المصحف والإنسان بالطيران ونحو ذلك ، لأنه غير مقدور للعبد ، كما تقدم قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا...﴾[٢] أي أن الله تعالى لا يأمر الإنسان ولا يكلفه فوق طاقته ، وإنما يكون الأمر والتكليف بحسب القدرة والطاقة[٣] .

يقول الإمام الجويني موضحاً :«وقد فهمنا بضرورات العقول من الشرع المنقول أنه عزت قدرته طالب عباده بما أخبر أنهم متمكنون من الوفاء به ، ولم يكلفهم إلا على مبلغ الطاقة والوسع في موارد الشرع»[٤] .

وأما بالنسبة لما لا يطاق بسبب الاشتغال بضده وذلك كاشتغال الكافر بالكفر وترك الإيمان ، فإن الكفر هو الذي صده عن الإيمان ، وكالقاعد في حال قعوده ، فإن اشتغاله بالقعود يمنعه أن يكون قائماً ، فالإرادة الجازمة لأحد الضدين تنافر إرادة الضد الآخر[٥] ، وهذا هو الذي تظهر فيه إرادة الإنسان ، وتظهر فيه حقيقة التكليف والاختيار لأن الله تعالى قد كلف الكافربالإيمان ، ولاشك أنه لو استطاع الإيمان لآمن ، إلا أن عدم استطاعته ليست ناشئة عن عجز منه ، بل بانشغاله عن الإيمان وإيثاره الكفر ، ولو كان عاجزاً لعجز عن الكفر لأن «العجز عن الشيء أنه يخرج عنه وعن ضده ، فلذلك استحال أن يعجز العاجز عن الشيء لتركه له ... لأن العجز عن الشيء عجز عن ضده»[٦] وبالتالي فتكليف الكافر

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦

(٣) انظر : منهاج السنة النبوية ج٢ ص ١٥ ، وانظر : العقيدة الطحاوية ص ٤٩٣ ، وانظر : المواقف للإيجي ص ٣٣١ ، وانظر : الفتاوي لابن تيمية ج١٨ ص ٣٠ .

(٤) العقيدة النظامية للجويني ص ٤٥ .

(٥) انظر : منهاج السنة النبوية ج٢ ص ١٥ . وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٣ .

(٦) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للأشعري ص ٩٩ ص ١٠٠ . مطبعة مصر سنة ١٩٥٥م .

بالإيمان ليس بقبيح عند أحد من العقلاء ،وليس تكليف بما لايطاق ، لأن عدم إيمان الكافر ناشئ عن اشتغاله بالكفر وليس ناشيء عن العجز عنه .

وقد اتفق أهل السنة - كما تقدم - على عدم وقوع التكليف في الشريعة على العاجز ، بل نجد أن الله تعالى وضع رخصاً للإنسان وذلك كي لا يكلفه إلا بقدر استطاعته ، ولكن إذاكانت القدرة موجودة ومنع تحقيق الفعل الاشتغال بضده ، فهذا ممكن أن يكلف فيه الإنسان ، لأن المانع هو الانشغال وليس العجز(١) .

وقد وقع خلاف بين أهل السنة والمعتزلة في جواز تكليف الله تعالى بما لايطاق ، حيث إن أهل السنة يجيزون ذلك ويذهبون إلى «تجويزه عقلاً ... فيجوز أن يكلف بما لا طاقة للعبد في إيجاده ، وإنما لم يفعل ذلك فضلاً منه ورحمة»(٢) وهذه بعض أقوال للعلماء تثبت ذلك :

قال الإمام الرازي : «قال أهل السنة لا يمتنع تكليف مالا يطاق» (٣).

وقال الإمام الغزالي :«إن لله تعالى أن يكلف العباد ما يطيقونه وما لا يطيقونه»(٤) .

وقال الإيجي : «تكليف ملا يطاق جائز عندنا ... لأنه لا يجب عليه شيء ولا يقبح منه شيء إذ يفعل مايشاء ويحكم مايريد ولا معقب لحكمه»(٥) .

وقد اعتمدوا على أدلة ومنها : قوله تعالى : ﴿... أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ ...﴾(٦) حيث أمر تعالى الملائكة أن يخبروه بأسماء المسميات من خلقه وهم لا يعلمونها .

وقوله تعالى :﴿... رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ...﴾(٧) ، حيث دفع المؤمنين من عباده أن يلجأوا إليه برفع مالا يحتملون وفي هذا يقول الإمام الرازي : «إن تكليف مالا يطاق جائز إذ لو لم يكن جائزاً لما حسن طلبه بالدعاء من الله تعالى»(٨) .كما ذكر عدة حجج

---

(١) انظر : مجموع الفتاوي لابن تيمية ٣٠/١٨ ، والعقيدة الطحاوية ص ٤٩٣ ، المواقف ص ٣٣١ ، منهاج السنة النبوية ١٥/٢ .

(٢) شرح النسفية للسعدي ص ١١٤ .

(٣) معالم أصول الدين للرازي ص ٩١ .

(٤) الإقتصاد في الإعتقاد للغزالي ص ١١٢ .

(٥) المواقف للإيجي ص ٣٣٠ .

(٦) سورة البقرة الآية ٣١ .

(٧) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٨) التفسير الكبير للرازي ج٧ ص ١٢٨ – ط بيروت .

تثبت إمكانية تكليف مالا يطاق ومن ذلك :

١ - إنه تعالى علم من بعض الكفار أنه يموت علي كفره ، فإن كلفه بالإيمان فقد كلفه بفعل الإيمان ، مقارناً للعلم بعدم الإيمان وهذا تكليف بالجمع بين الضدين . حيث قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)] وقال :﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)] .

٢ - أن الله تعالى كلف أبا لهب بالإيمان ، ومن الإيمان تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه ، ومما أخبر عنه أنه لايؤمن أبداً ، فيلزم أنه تعالى كلفه بأن يؤمن ، بأن لا يؤمن وهو جمع بين النقيضين . حيث قال تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[(٣)] .

والحق إن ماسبق ذكره من التكليف بما لايطاق ناتج عن الاشتغال بضده ، وليس ناتجاً من العجز عنه .

وذهب المعتزلة إلى عدم جواز التكليف بما لايطاق ، حيث قالوا إنه يقبح على الله تعالى عقلاً أن يكلف بما لا يطاق ، وأن تكليفه عبث لأنه يعلم أنه لاقدرة على تنفيذ ماكلف به[(٤)] .

إن قول المعتزلة هذا نتاج عن قياس أفعال الله تعالى على أفعال العباد ، وهذا دفعهم ليفروا من التشبيه إلى التعطيل ، وقولهم هذا باطل لأن الكلام هنا في حق الله تعالى حيث لا يسأل عما يفعل فقد قال تعالى :﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[(٥)] ويقول الإمام الغزالي في رده عليهم «وليس مايستقبح من العبد يستقبح من الله تعالى»[(٦)] .

وأما القول بأنه عبث ولا فائدة فيه ، فهو غير صحيح لأن فيه فائدة للعباد اطلع الله تعالى عليها ، لأنه ربما كلفه ذلك ليرى هل يأخذ بمقدمات ذلك الفعل ، وهل يتوجه ويعزم على فعله ، وهذا يكفي في الاختيار وإظهار الأمر والتكليف ، فهذا إبراهيم عليه السلام كلف بذبح إسماعيل عليه السلام ، وأخذ إبراهيم عليه السلام بالأسباب وعزم على

---

(١) سورة البقرة الآية ٦ .

(٢) سورة يس الآية ٧ .

(٣) سورة المسد الآية ١ .

(٤) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد ص ١١٢ ، وانظر : معالم أصول الدين للرازي ص ٩١ ، وانظر : المواقف ص ٣٣١ وانظر : التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ٤٥ - ط طهران .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .

(٦) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١١٣ .

الفعل ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[1] . نسخ الأمر قبل الامتثال والتنفيذ ، وفدي بذبح عظيم ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[2] ونجح إبراهيم واسماعيل عليهما السلام في اجتياز الامتحان[3] وهكذا يتبين أن هذا التكليف بما لا يطيق الإنسان ، لم يكن عبثاً ، بل فيه الفوائد العظيمة ، ومن ذلك الامتثال والاستجابة لأمر الله تعالى .

(١) سورة الصافات الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٠٧ .

(٣) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد ص ١١٣ .

الباب الثاني

الهدى والضلال

الفصل الأول : الهدى ، مفهومه ومراتبه وأسبابه

الفصل الثاني : الضلال ، مفهومه وأنواعه وأسبابه

الباب الثاني
الهدى والضلال

إن أفضل مايقدر الله لعبده وأجل مايقسمه له هو الهدى ، وأعظم مايبتليه به ويقدره عليه هو الضلال ، وقد اتفقت الرسل من أولهم إلى آخرهم ، والكتب المنزلة عليهم على أنه سبحانه وتعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وأنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلاهادي له ، وأن الهدى والضلال بيده سبحانه لا بيد العبد ، وأن العبد هو الضال أو المهتدي ، فالهداية والضلال خلقه سبحانه وقدره ،والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه .

لقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية أن الأعمال القائمة بالقلب والجوارح هي سبب الهداية والضلال . ذلك أن أعمال الطاعة في القلب والجوارح ، تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه ،والأثر لأثره ، وكذلك أفعال الضلال . فأعمال البر تثمر الهدى ، فإن العبد إذا آمن بالكتاب ، واهتدى به وقبل أوامره والتزم بها ، وصدق أخباره واتعظ من خلالها ، كان ذلك سبباً لهداية أخرى بعد هداية الإيمان ، فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ منه مابلغ ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد هداية ومادام في مزيد من التقوى قال الله تعالى : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ...﴾[1] وقال :﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2] .

إن الذين يختارهم الله لهذه الهداية ويمدهم بها هم المؤمنون ، وهذا يدل على أن الإيمان الذي هو عمل القلب سبب رئيسي لهذه الهداية حيث قال تعالى :﴿... وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [3] .

وأما الذين يمنعهم الله من الهداية ،ويضلهم، فهم الكافرون وأصحاب أعمال الفجور التي يبغضها الله،ويجازي عليها بالضلال والشقاء ،بسبب ما اتصفوا به من الكذب والكفر

(١) سور مريم الآية ٧٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢ .

(٣) سورة التغابن الآية ١١ .

والفجور حيث قال تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(1) فالختم والإضلال لم يقع بالكافرين ،إلا لكونهم اختاروا الكفر على الإيمان وقال تعالى :﴿... وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾(1) فالمعاصي بشتى مستوياتها سواء كانت كبائر أو صغائر سبب أساسي من أسباب الضلال .

وقد قسمت هذا الباب إلى فصلين :

الفصل الأول :ويتحدث عن الهدى ، مفهومه ومراتبه وأسبابه .

والفصل الثاني : ويتحدث عن الضلال ، مفهومه وأنواعه وأسبابه .

---

(1) سورة البقرة الآيات ٦ – ٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

الفصل الأول

الهدى

مفهومه ومراتبه وأسبابه

المبحث الأول : تعريف الهدى ومفهومه

المطلب الأول : الهدى لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني : مفهوم الهدى

المبحث الثاني : مراتب الهدى وأسبابه

المطلب الأول : مراتب الهدى

المطلب الثاني : أسباب الهدى

الفصل الأول
الهدى
مفهومه ومراتبه وأسبابه

المبحث الأول : تعريف الهدى و مفهومه

إن البحث في مفهوم الهدى يتضمن معرفة الهدى لغة واصطلاحاً ، ثم النظر في حقيقة هذا المفهوم ، والذي سيتبين من خلاله أن هناك خلافاً واضحاً حول حقيقة مفهوم الهدى ، لأن كل من أراد أن يبحث هذه القضية ، نظر إليها من جانب الإرادة الإلهية والموقف منها ، فمن جعل الإنسان مسيراً ومجبراً مطلقاً دون أن يكون له إرادة واختيار ، نظر إلى الهدى على أنه خلق الهداية في الإنسان جبراً دون أن يكون للإنسان كسب أو فعل ، وفي مقابل هذا القول وقفت المعتزلة حيث يرون أن الإنسان خالق لأفعاله ، وموجد مطلق لهذه الهداية ودفعهم ذلك إلى تأويل الآيات حسب مايوافق أراءهم ، وأما الموقف الصحيح الوسط في ذلك فهو منهج السلف ، المعتمد على الكتاب والسنة ، ولبه أن الله تعالى خالق لهذه الهداية ومقدر لها ولكن الإهتداء فعل العبد وكسبه .

المطلب الأول : الهدى لغة واصطلاحاً :

أولاً : الهدى لغة :

الهدى : بضم الهاء وفتح الدال ، الرشاد والدلالة ، ويأتي بمعنى الطاعة والورع[1] .

وهناك خلاف في أصل لفظ الهدى من الناحية اللغوية ، وظهر ذلك واضحاً في لسان العرب حيث قيل إن معناه في الأصل بيان الطريق ، حيث قال تعالى :﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾[2] ، أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، وقال تعالى :﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ...﴾[3] أي بينا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة فاستحبوا أي آثروا الضلالة على الهدى ،ويقال هديت له الطريق على معنى بينت له الطريق[4] .

---

(١) انظر : قاموس المحيط ج٤ ص ٤٠٣ مادة هدى ، وانظر : لسان العرب ج١٥ ص ٣٥٤ مادة هدى .

(٢) سورة الليل الآية ١٢ .

(٣) سورة فصلت الآية ١٧ .

(٤) انظر : لسان العرب ج١٥ ص ٣٥٤ مادة هدى .

وقيل إن معنى الهدى ،هو البيان والدلالة والدعوة إذا كان مقيداً مقروناً بما إليه هدى كقوله تعالى : ﴿اهْدِنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1] وقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] أي لتدعو ،وقوله تعالى :﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ...﴾[3] أي فدعوناهم [4].

وأما إذا أطلق فمعناه الفوز والنجاة كقوله تعالى :﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[6] ، وقوله تعالى ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[7] [8].

ويحدد ابن قتيبة حقيقة الهدى بقوله «وأصل هدى أرشد ، كقوله :﴿... عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[9] وقوله :﴿... وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[10] أي أرشدنا ، ثم يصير الإرشاد بمعان كقوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ...﴾[11] ، بينا لهم - أي إرشاد بالبيان ... ومنها إرشاد بالإلهام كقوله ﴿... الَّذِيَ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[12] ... أي ألهمه إتيان الأنثى ... ومنها إرشاد بالإمضاء كقوله ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[13] أي لا يمضيه ولاينفذه»[14] .

وهكذا يتبين أن لفظ الهدى له عدة معان لغوية حيث يأتي بمعنى الرشاد والدلالة والبيان والإلهام ، ولذلك نلاحظ أن العلماء جعلوا مراتب الهداية حسب معانيها في اللغة ودلالاتها في القرآن الكريم .

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٣) سورة فصلت الآية ١٧ .

(٤) الإرشاد للجويني ص ١٩٠ ، ط الأولى سنة ١٤٠٥هـ مؤسسة الكتب الثقافية - لبنان .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

(٦) سورة غافر الآية ٢٨ .

(٧) سورة المائدة الآية ١٠٨ .

(٨) انظر : قاموس الشريعة للسعدي ج٥ ص ٢٠٣ ص ٢٠٤ .

(٩) سورة القصص الآية ٢٢ .

(١٠) سورة ص الآية ٢٢ .

(١١) سورة فصلت الآية ١٧ .

(١٢) سورة طه الآية ٥٠ .

(١٣) سورة يوسف الآية ٥٢ .

(١٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٤ .

ثانياً : الهدى اصطلاحاً :

ورد في التعريفات للجرجاني أنه «الدلالة على مايوصل إلى المطلوب ، وقد يقال هو سلوك طريق يوصل إلى المطلوب»[1] .

وقيل «هو سلوك طريق يوصل إلى المطلوب»[2]، وقيل :«هو الدلالة الموصلة إلى البغية» [3] ، وقيل :«هو الدلالة المطلقة»[4] .

وقال ابن تيمية :«والهدى هو بيان ماينتفع به الناس ويحتاجون إليه»[5] .

المطلب الثاني : مفهوم الهدى

حصل خلاف واضح في فهم وتحديد مفهوم الهداية ،وذلك راجع إلى الموقف من الأعمال التي يقوم بها الإنسان ،وهل هو مجبر عليهامطلقاً كالريشة في مهب الريح ؟ وهو قول الجبرية ، أم هو مخيّر مطلق في كل أعماله وخالق لها وهوقول المعتزلة ، أم أنه مخير في أمور مسير في أخرى وهو قول السلف .

وفيما يلي بيان ذلك :

أولاً : مفهوم الهدى عند الجبرية :

ترى الجبرية أن الإنسان لا يوجد أفعاله ، وليس له ماينسب إليه من الأفعال شيء ، لأن هذا المذهب يقوم على نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى ، فالعبد لا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله مقسور عليها كالسعفة يحركها الريح العاصف ، وكالهاوي من أعلى إلى أسفل ، فلا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنمايخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب مايخلق في سائر الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات حيث يقال أثمرت الشجرة أو جرى الماء ، وطلعت الشمس وغربت ، والثواب والعقاب جبر والتكليف أيضاً كان جبراً [6]. فسلبوا بذلك العبد قدرته واختياره ،

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٢٥٦ .

(٢) الإسلام وثقافة الإنسان ص ٦٧ ، ط السابعة سنة ١٤٠١هـ دار الكتاب اللبناني – بيروت .

(٣) البخاري بشرح الكرماني ج١ ص ١٧٣ ط الثانية سنة ١٤٠١هـ دار احياء التراث العربي – بيروت .

(٤) المرجع السابق ج١ ص ١٧٣ .

(٥) النبوات لابن تيمية ص ١٥٢ .

(٦) انظر : تاريخ الجدل محمد أبو زهرة ص ١٧٩ ،وانظر : معارج القبول ج٦ ص ٣٥٤ .

وقالوا بأن الهدى هو خلق الهداية في الإنسان دون أن يكون له فعل أو إرادة تتعلق بذلك ، ويخلق مايوجب ذلك من قدرة وغيرها ، أو يحملهم على ذلك جبراً أو مايجري مجراه واستدلوا بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] [2] .بل إنهم قالوا «إن الهدى من الله للمؤمنين على معنى الدعاء والبيان ، وأن هداه للكافرين وغير ذلك من الترغيب والترهيب ليس بهدى ، بل هو إضلال ، وأنه فعل ذلك بهم ليكفروا لا ليؤمنوا »[3] .

إن قول الجبرية هذا لايصح من وجوه :

١ - إنه لا يصح من طريق اللغة ، لأنه لا يقال لمن حمل غيره على سلوك الطريق كرهاً ، أو جبراً أنه هداه إليه ، وإنما يقال في ذلك رده إلى الطريق المستقيم ، وحمله عليه واكرهه وجبره ، أما أن يقال أنه هداه إليه فغير معقول في اللغة[4] .

٢ - إن القول بالجبر يؤدي إلى بطلان الرسالة ، وبعثة الأنبياء ، وأنه يؤدي إلى بطلان التكليف أصلاً ، لأنه إذا حملهم على الهدى جبراً ، فلا معنى لأمره به وإقامة الدلالة عليه[5] .

٣ - إن قولهم هذا ، هو إنكار للإرادة والمشيئة الإنسانية ، الثابتة بالكتاب والسنة ، ومخالف أيضاً لإثبات العدل الإلهي .

ثانياً : مفهوم الهدى عند المعتزلة :

إن موقف المعتزلة من الهدى هو النقيض من موقف المجبرة ، حيث يرون الإنسان خالقاً لأفعاله ، ومن ثم يعتقدون أن الهداية بمعنى سلوك طريق الإيمان ، وهو فعل الإنسان ، وفي هذا يقول القاضي عبدالجبار :«إن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم، وأنهم المحدثون لها »[6] .

---

(١) سورة يونس الآية ٢٥ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ص ١٤٦ ط طهران ، وانظر : قاموس الشريعة ج٥ ص ٢١٢ .

(٣) قاموس الشريعة ج٥ ص ١٩١ ص ١٩٢ .

(٤) انظر: التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٤٦ ط طهران .

(٥) انظر : التفسير الكبير ج٢ ص ١٤٦ ط طهران ، وانظر : قاموس الشريعة ج٥ ص ٢١٢ .

(٦) شرح الأصول الخمسة ص ٣٣٢ ، وانظر : المعتزلة ومشكلة الحرية د. محمد عمارة ص ١٥٠ .

وموقف المعتزلة من الآيات التي تشير إلى هداية الله للإنسان ، هو رد هذا كله إلى المتشابه من القرآن ، وتأويله بما يقطع ببطلانه ، وخروجه عن حقيقته ، وعدم إرادة المتكلم له، كقول بعضهم المرادمن ذلك تسمية العبد مهتدياً ، فجلعوا هداه مجرد تسمية العبد بذلك ، وهذا مما يعلم قطعاً أنه لايصح[(١)] .

ولذلك تعدد مفهوم الهدى عند المعتزلة حسب ما أولوه على أقوال :

١ - أنه بمعنى الدلالة والبيان :

وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار : «والهدى بمعنى الدلالة كثير في الكتاب ، قال تعالى في وصف القرآن ﴿... هُدًى لِّلنَّاس ...﴾[(٢)] .﴿... وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)] .ولا يجوز أن يراد بذلك إلا كونه دلالة وبياناً»[(٤)] .ويقول أيضاً «إنه تعالى يهدي ، بمعنى الدلالة والبيان ، وذلك عام في كل مكلف لأنه كما عمهم بالتكليف ، فلابد أن يعمهم بما يدل عليه وإلا كان تكليفاً بما لا يمكن أن يفعل»[(٥)] . والمقصود بالبيان هنا هو بيان طريق الصواب [(٦)] .

والحقيقة أن الدلالة والبيان معنيان لغويان للهدى ، كما أنهما مرتبة من مراتب الهدى ، ولكن الخطأ في رأى المعتزلة أنهم يمنعون تدخل الإرادة والمشيئة الإلهية ، ولذلك فإن قولهم بأن الهدى بمعنى بيان طريق الصواب ، هو باطل وفاسد لأنه مبني علي أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، إلى جانب ذلك أن الله تعالى قال عن نبيه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ...﴾[(٧)] فلو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه ﷺ لأنه بين الطريق لمن أحب وأبغض كما دعا إلى الهداية جميع الأنام[(٨)] .

---

(١) انظر : شفاء العليل ص ٨٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٣ .

(٤) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ج١ ص ٦١ ، وانظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣٢٥ .

(٥) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ج١ ص ٦٤ ، وانظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣٢٤ .

(٦) انظر : شرح الفقه الأكبر ص ١٩٢ ، وانظر : العقيدة الطحاوية ص ١٥٥

(٧) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٨) انظر : شرح الفقه الأكبر ص ١٩٢ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٥ ص ١٥٦ .

٢ - أنه بمعنى التسمية والحكم

وقد نقل الأشعري عن المعتزلة قولهم :«إن الله هدى المؤمنين بأن سماهم مهتدين وحكم لهم بذلك»[١] ، كما نقل عنهم ابن القيم القول :«إن الله سماهم بذلك وعلمهم بعلامة يعرفهم بها الملائكة وأخبر عنهم بذلك»[٢] .

إن قول المعتزلة هذا غير صحيح ، لأنه جعل المراد من لفظ هدى في القرآن الكريم هو تسمية العبد مهتدياً ، فهذا مما يعلم قطعاً أنه لايصح حمل الآيات عليه ، لأنها لا تحمل ماذكروه البتة ، وليس في لغة من اللغات فضلاً عن أفصح اللغات واكملها ، هداه بمعنى سماه مهتدياً ، وهل يصح أن يقال علمه إذ سماه عالماً وفهمه إذ سماه فهماً ؟ وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى :﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ...﴾ [٣] .فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن الكريم من هذا :ليس عليك تسميتهم مهتدين ولكن الله يسمي من يشاء مهتدياً [٤] .

وأما قولهم بأن هدى بمعنى العلامة التي يُعَلَّم بها الناس لتعرفهم الملائكة . فهو قول مخالف لنصوص القرآن ومفاهيمه ، ففي أي لغة وأي لسان يدل قوله تعالى :﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ...﴾[٥] على معنى إنك لا تُعَلمه بعلامة ولكن الله هو الذي يُعَلمه بها ، وقوله تعالى : ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ...﴾[٦] من يعلمه الله بعلامة الضلال لم يعلمه غيره بعلامة الهدى ، ولذلك رد ابن القيم على أقوال المعتزلة وتحريفاتهم لنصوص القرآن بقوله :«لو نزل القرآن بلغة القدرية والجهمية وأهل البدع لأمكن حمله على ذلك ، أو كان الحق تبعاً لأهوائهم ،وكانت نصوصه تبعاً لبدع المبتدعين وآراء المتحيرين ، وأنت تجد جميع هذه الطوائف تنزل القرآن على مذهبها وبدعها وآرائها ، فالقرآن عند الجهمية جهمي ، وعند المعتزلة معتزلي وعند القدرية قدري ، وعند الرافضة رافضي ... وهل هذا إلا افتراء محض على القرآن واللغة»[٧] .

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري ج١ ص ٣٢٤ ، وانظر : شفاء العليل ص ٨٢ .

(٢) شفاء العليل ص ٨٣ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٢ .

(٤) انظر : شفاء العليل لابن القيم ص ٨٢ .

(٥) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٦) سورة الأعراف ١٨٦ .

(٧) شفاء العليل ص ٨٣ .

٣ - أن الهدى بمعنى الدعوة إلى الإيمان والطاعة [١].

ويبطل تأول المعتزلة هذا بوجوه :

(أ) اجماع الأمة على اختلاف الناس فيه فبعضهم مهدي ، وبعضهم ليس كذلك ، والدعوة تكون عامة للجميع ، لا إختلاف فيها[٢] .

(ب) إن العبد في دعائه يطلب من الله تعالى الهداية ، والدعاء بها نحو اللهم اهدنا الصراط المستقيم ، والدعوة حاصلة ، والطلب يكون لشيء غير حاصل ، إذاً فلا يتصور طلبها ، وهذا يبين عدم صحة هذا التأويل[٣] .

(ج) إن المهدى من صفات المدح ، وهذا مخالف لمن كان مدعواً فإنه لا يمدح[٤] هذا يدل على أن تأويل الهداية على معنى الدعوة لا يصح .

٤ - تأويلهم الهداية بمعنى «أخذ الإنسان إلى طريق الجنة أو مافي معناه كالفوز والنجاة» [٥].

إن تأويل المعتزلة بأن الهداية بمعنى هداية الإنسان وأخذه إلى الجنة يتفق مع مرتبة من مراتب الهداية ، ولكن ليس كل لفظ هداية ، يدل على أنه هداية أي الجنة ، لأن هناك آيات محددة تتحدث عن ذلك بصراحة مثل قوله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٦] ولذلك لا يحمل كل لفظ هدى على أنه هداية إلى الجنة .

٥ - أن الهداية عندهم بمعنى اللطف أو زيادة للألطاف ،وذلك ثواب يفعله الله بالمؤمنين في الدنيا[٧] .

والحقيقة أن المعتزلة لها مفهوم آخر يتعلق باللطف ، لابد من بحثه بوضوح ليتبين موقفهم وموقف السلف من هذه القضية .

---

(١) انظر : المواقف للايجي ص ٣١٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٣١٩ .

(٣) انظر : نفس المصدر السابق ص ٣١٩ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٣٢٠ .

(٥) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ج١ ص ٦٠ ص ٦٣ .

(٦) سورة يونس الآية ٩ .

(٧) انظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣٢٥ ، وانظر : التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٤٥ ط طهران .

اللطف عند المعتزلة :

يبدو مما سبق أن المعتزلة تعتبر الهداية بمعنى اللطف ، وأن اللطف هو كل ما يوصل الإنسان إلى الطاعة ويبعده عن المعصية ، حيث التيسير إلى فعل الخير والطاعة ومن ثم ترك الشر والمعصية ، وقد حدد القاضي عبد الجبار المقصود باللطف بقوله:«إن اللطف هو كل مايختار عنده المرء الواجب ، ويتجنب القبيح ، أو مايكون عنده أقرب إما إلى اختيار الواجب أو إلى ترك القبيح»(١) ويعتقد المعتزلة أن الله تعالى يريد المساعدة والنفع لعباده ، فبعثة الأنبياء للناس رشاد لهم وهدى نحو طريق الحق ، واللطف يُحمل على أنه عون وإنقاذ ، وبغيره يظلم الإنسان ، «ولما كان الله عادلاً في حكمه رؤوفاً بعباده ، ناظراً إلى مصلحتهم ، فإنه لايرضى لعباده الكفر ، ولايريد ظلماً للعالمين»(٢) . «فهو لم يدخر عنهم شيئاً مما يعلم أو يرى أنه إذا فعله أتو الطاعة والصلاح»(٣) .

ولكن اللطف عند المعتزلة لا يمكن أن يكون نوعاً من القسر الخارجي المفروض على الإنسان الفاعل ، بقدر ماهو تذكير بطاعة يعلم الله أن العبد يفعلها ، دون أن تخرج عن متناول قدرته ، إنه نوع من التوفيق لرد النفس عن تعمد فعل المعصية أو ترك الطاعة(٤) .

إن هذه المسألة تعد من أبرز مشاكل الخلاف بين المعتزلة ، ويظهر هذا الخلاف واضحاً من قول القاضي عبد الجبار:«اعلم أن المخالف في هذه المسألة هم الجبرية ، وبشر بن المعتمر(٥) وأصحابه البغداديين»(٦) .

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٥١٩ ، وانظر : فلسفة القدر في فكر المعتزلة ص ١١٣ ، وانظر العقل والحرية ص ٣٦٠ .

(٢) المختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار ص ٢٠٧ ، وانظر : المغنى في أبواب العدل والتوحيد ج٣ ص ٧١ ص ٥١٤ .

(٣) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ١٠٧ .

(٤) انظر : فلسفة القدر في فكر المعتزلة ص ١٣٣ .

(٥) أبو سهل بشر بن المعتمر البغدادي من رؤساء معتزلة بغداد ، تنسب إليه فرقة البشرية ، مات ببغداد سنة ٢١٠ هـ ، انظر : الفرق بين الفرق ص ١٥٦ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج٢ ص ٢٨ .

(٦) شرح الأصول الخمسة ص ٥١٩ .

وسبب الخلاف يرجع إلى آرائهم حول وجوب اللطف أو عدم وجوبه ، وقد تمسكت الجبائية[1] والقاضي عبد الجبار بفكرة الوجوب ، وتعلقوا بها لأنه لا سبيل في رأيهم إلى هداية الناس إلا باللطف الإلهي ، على أن لا يؤدي ذلك إلى حد نفي الفعل عن الإنسان ، لئلا يقعوا فيما ناقشوا فيه غيرهم فأدى ذلك بمن أوجب اللطف على الله تعالى ، أن لا يذهبوا إلى أبعد من القول بأنه «زيادة في تمكين المكلف أو إزاحة علته»[2] . وكل ذلك لا يخرج الفعل عن كونه اختياراً ، «لأن اللطف لا يرجع به إلا إلى مايختار المرء عنده فعلاً أو تركاً ، أو يكون أقرب عنده إلى اختياره»[3] .

ووجه إيراد كل هذا هو تبيان أن القول باللطف لا يُسقط المسؤولية عن الفاعل ، ولايخرج الفعل عن كونه مقدوراً له ، وهذا حدا بالجبائي إلى تخفيف وطأة القول باللطف ، لأن الله تعالى - حسب قوله - «يقدر أن يفعل بالعباد مالو فعله بهم إزدادوا طاعة فيزيدهم ثواباً ، وليس فعل ذلك واجباً عليه ، ولا إذا تركه كان عابثاً في الاستدعاء لهم إلى الإيمان»[4] .

ومع إثبات الجبائي القدرة لله على الفعل إلا أنه يقول :«لا لطف عند الله سبحانه يوصف بالقدرة على أن يفعله بمن علم أنه لايؤمن فيؤمن عنده ، وقد فعل الله بعبادة ماهو أصلح لهم في دينهم»[5] . ثم يذكر موضحاً «وليس في مقدوره - تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - لطف لو فعل بالكفار لآمنوا جميعاً ، وإلا لكان تركه بخلاً وسفهاً»[6] .

ويوجب هذا الفريق اللطف على الله تعالى في الواجبات والنوافل حيث يقول القاضي عبد الجبار :«فإنه تعالى كما كلفنا الواجبات فقد كلفنا النوافل أيضاً ، فكان يجب عليه

---

(١) أتباع أبي علي الجبائي الذي أضل أهل خوزستان ، وكانت المعتزلة البصرية في زمانه على مذهبه ، خالفت إجماع المسلمين وكفرت برب العالمين ،وزعمت أن الله تعالى مطيعاً لعبده ، ولو جاز أن يكون الله مطيعاً لعبده لجاز أن يكون خاضعاً له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، انظر : الفرق بين الفرق ص ١٨٣ ، وانظر : الملل والنحل ج ١ ص ١١٨ ، الأعلام ج٤ ص١٣٠ ص١٣١ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ص٥٢٠ .

(٣) المصدر السابق ٥١٩ ص ٥٢٠ .

(٤) مقالات الإسلاميين للأشعري ج١ ص ٣١٤ .

(٥) المصدر السابق ج١ ص ٣١٤ .

(٦) لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٢٩ .

اللطف سواء كان لطفاً في فريضة أو في نافلة»[1] .

غير أن بشر بن المعتمر لايرى مبدأ الوجوب الذي يلزم الله الهداية ، ففي رأيه أن الفعل الإلهي ، فعل اختياري ، لذلك فإن منح اللطف متوقف على الله تعالى يمنحه باختياره لمن يشاء من عباده ، وأنه غير ملزم بمنح اللطف أصلاً[2] . والدلالة التي استند إليها بِشْر في إسقاط مبدأ الوجوب على الله تعالى هو «أن اللطف لو وجب علي الله تعالى لكان لا يوجد في العالم عاص لأنه مامن مكلف إلا وفي مقدور الله تعالى من الألطاف مالو فعل به لاختار الواجب وتجنب القبيح ، فلما وجد من المكلفين من عصى الله تعالى ،ومن أطاعه تبينا أن ذلك اللطف لا يجب على الله تعالى»[3] وقد أسس بشر فهمه للطف علي أساس أن الله تعالى ذات كاملة ، فهو لا يفعل لعباده إلا ماهو أصلح لهم في دينهم ، ويطبق عدله على من يستحقه[4] .

موقف السلف من اللطف

والسلف رضوان الله عليهم يثبتوت اللطف لله تعالى ، لأن اللطيف من أسماء الله تعالى الحسنى[5] واللطف هو قوة النفوذ إلى بواطن الأشياء ، وخفيات الأمور مهماكانت دقيقة ، ومعنى أن الله لطيف ، أن عليم بخفيات الأمور ودقائقها فلا تخفي عليه خافية ، فيعود إلى صفة العلم[6] .ومن معاني اللطيف أيضاً أنه الذي يلطف بعبده ووليه ، فيسوق إليه البر والإحسان ، من حيث لا يشعر ، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب ، حيث قال تعالى :﴿... إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[7] .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٥٢١ .

(٢) انظر : العقل والحرية د. عبد الستار الراوي ص٣٦١ . ط الأولى سنة ١٤٠٠هـ المؤسسة العربية – بيروت .

(٣) شرح الأصول الخمسة ٥٢٠ ، وانظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣١٣ .

(٤) انظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣١٣ ، وانظر : العقل والحرية ص ٣٦١ .

(٥) انظر : معارج القبول ج١ ص ٧٢ ، ص ٧٥ وانظر : فتح المجيد ص ٤٤٦ ، وانظر : تيسير العزيز الحميد ص ٥٧٦ .

(٦) انظر : مجموع الفتاوي ج١٦ ص ٦٠ ، وانظر : فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٢٦٢ ، وانظر : تفسير كلام المنان ج٧ ص ٤٣٥ ، وانظر : العقيدة الاسلامية للميداني ١٧٠ .

(٧) سورة يوسف الآية ١٠٠ .

وقال : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] وقال أيضاً ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[2] .

ولذلك فإن اسم اللطيف من أسماء الله الحسنى التي تعود - بوجه عام - إلى معنى تحقيق صفة العلم لله تعالى مع فروق الدلالة ، لأن اللطف أحياناً يأتي بمعنى التوفيق[3] وأسماء الله تعالى هي «أسماء ونعوت دالة على صفات كماله»[4] .

والذي عليه أهل السنة والجماعة ، هو إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ علي مايليق بجلاله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[5] ، لأن الكلام في الصفات فرع من الكلام في الذات ، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقية لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين ، فله صفات حقيقية ، لاتشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به نبيه ﷺ ، أو تأوله على غير ماظهر من معناه ، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى :﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[6] [7] .

وأما قول المعتزلة بوجوب اللطف على الله تعالى فهذا عائد إلى قولهم بالصلاح والأصلح وقولهم بالحسن والقبيح فيما يتعلق بالله تعالى ، وسيظهر بطلان هذا القول عند الحديث عنه وبالتالي بطلان القول بالوجوب على الله تعالى .

---

(١) سورة الملك الآية ١٤ .

(٢) سورة الشورى الآية ١٩ .

(٣) انظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٨ ، وانظر : العقيدة الإسلامية وأسسها ص ١٦٩ .

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ١٠ ، وانظر : الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٤٤ .

(٥) سورة الشورى الآية ١١ .

(٦) سورة النساء الآية ١١٥ .

(٧) انظر : التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص ٧ ، وانظر : تيسير العزيز الحميد ص ٥٨٠ ، وانظر : المسائل والرسائل ج١ ص ٢٧٨ ص ٢٧٩ .

الصلاح والأصلح عند المعتزلة

ذهب المعتزلة إلى القول بأنه يجب على الله تعالى فعل الأصلح لعباده في الدين والدنيا ، وذلك لأن ترك الأصلح بخل وسفه ،وهما محالات على الله تعالى، إلى جانب كونه عادلاً ، فهو لن يفعل إلا ماهو أصلح لعباده ،وهو قد خلق العالم لغرض وحكمة وغاية ، لأن العمل دون غاية تبرره أو حكمة يتوجه إليها ، ويستهدفها يصبح عبثاً[1] ،«ولما كان الله تعالى حكيماً عادلاً،فإنه خلق كل شئ لصلاح الإنسان وصلاح عالمه»[2].وهذا هو موقف المعتزلة من هذه القضية بصورة عامة ،ولكنهم اختلفوا بينهم في حقيقته وكيفية الصلاح والأصلح،«فالبغداديون أوجبوا على الله فعل الأصلح للإنسان في دينه ودنياه.وأن يفعل الله أقصى مايقدر عليه في استصلاح عباده،وإلا كان بخيلاً ظالماً»[3] ، تعالى الله عما يقولون .

وأما البصريون فقد قالوا بوجوب الأصلح في الدين ، وأن الله لا يفعل بالعباد كلهم إلا ماهو أصلح لهم في دينهم ، وأدعى لهم إلى العمل بما أمرهم به ، وأنه لا يدخر عنهم شيئاً يعلم أنهم يحتاجون إليه في أداء ماكلفهم، أداءه، إذا فعل بهم أتوا بالطاعة التي يستحقون عليها ثوابه الذي وعدهم[4] . وبناء على ذلك فإن القاضي عبد الجبار لم يتقبل فكرة الوجوب البغدادية في الأصلح ، لأن الصلاح والأصلح في رأيه لا وجوب فيها إن لم يتعلقا بالدين[5] .

وبهذا يتبين أن المعتزلة توجب على الله تعالى الأصلح ، سواء كان في الدين اتفاقاً بينهم ، أو مايتعلق بالدنيا على الخلاف الوارد بينهم ، ولقول المعتزلة هذا لوازم فاسدة تدل على فساده ، ومخالفة شرع الله تعالى ، حيث إن الصلاح والأصلح عندهم مبني على قاعدة الحسن والقبح العقليين ومن ذلك :

---

(١) انظر : المجموع في المحيط بالتكليف ج١ ص ١٢٠ ، وانظر : شرح النسفية للسعدي ص ١٢٣ .

(٢) المغنى للقاضي عبد الجبار ج١٤ ص ١٨ ص ١٩ .

(٣) العقل والحرية ص ٣٠٩ ، وانظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٢٩، وانظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣١٣ .

(٤) انظر : مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣١٣ ، وانظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٢٩ .

(٥) انظر : المغنى للقاضي عبد الجبار ج١٤ ص ٢٣ ص ٢٤ ، وانظر : العقل والحرية ص ٣٥٩ .

(٦) انظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم ج٢ ص ٥٢ .

١ - إن القربات من النوافل صلاح فلو كان الصلاح واجباً - حسب قولهم - لوجبت وجوب الفرائض(٦) .

٢ - إن عدم خلق إبليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع ، وقدخلقه الباري جل شأنه ، وأيضاً إنظاره وتمكينه وتمكين جنوده وجريانهم في ابن آدم مجرى الدم في العروق يخالف ماقالوا(١) .

٣ - إن مَنْ علم الله تعالى أنه إذا بلغ مِن الأطفال يختار الإيمان والعمل الصالح ، أن لا يمته طفلاً ، لأن الأصلح في حقه أن يحييه حتى يبلغ ويؤمن ويعمل صالحاً ، فينال بذلك الدرجات العالية ، وهذا لا يستطيع المعتزلة الإجابة عليه ،حيث ألزم أبو الحسن الأشعري، الجبائي عندما سأله عن ثلاثة أخوة ، أمات الله أحدهم صغيراً ، وأحيا الآخرين ، فاختار أحدهما الإيمان والآخر الكفر ، فرفع الله درجة المؤمن البالغ على أخيه الصغير في الجنة بعمله . فقال أخوه الصغير : يارب لم لا بلغتني منزلة أخي ؟ فقال : إنه عاش وعمل عملاً استحق به هذه المنزلة . فقال : يارب فهلا أحييتني حتى أعمل مثل عمله فأبلغ منزلته ؟ فقال : كان الأصلح لك أن توفيتك صغيراً ، لأني علمت أنك إن بلغت اخترت الكفر فكان الأصلح في حقك أن أمتك صغيراً . قال الأشعري : فإن قال الثاني يارب لم لم تمتني صغيراً لئلا أعصي فلا أدخل النار ، ماذا يقول الرب ؟ فبهت الجبائي ولم يجبه بشيء (٢) .

٤ - وجرياً مع كلام المعتزلة في الرد عليهم ، يقول ابن القيم :«إذا أوجبتم على الله تعالى رعاية الصلاح والأصلح في أفعاله ، فيجب أن توجبوا على العبد رعاية الصلاح والأصلح أيضاً في أفعاله ، حتى يصح اعتبار الغائب بالشاهد ، فإذا لم يجب علينا رعياتهما بالإتفاق بحسب المقدور ، بطل ذلك في الغائب ولا يصح تفريقكم بين الغائب والشاهد ، بالتعب والنصب الذي يلحق الشاهد دون الغائب ، لأن ذلك لو كان فارقاً في محل الإلزام لكان فارقاً في محل الصلاح ،فإن ثبت الفرق في صفته ومقداره ثبت في أصله، وإن بطل الفرق ثبت الإلزام المذكور،وهو بطلان وجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى»(٣) .

---

(١) انظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٠ ، وانظر : مفتاح دار السعادة ج٢ ص ٥٣ .

(٢) انظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٠ ص ٣٣١ ، وانظر : مفتاح دار السعادة ج٢ ص ٥٣ ، وانظر : ايثار الحق على الخلق ص ٢٣٢ .

(٣) مفتاح دار السعادة ج٢ ص ٥٢ (بتصرف) .

٥ - ومن أعظم ماوقع فيه المعتزلة قولهم : إنه ليس في مقدور الله تعالى لطف لو فعله تعالى بالكفار لآمنوا ، وقد التزم المعتزلة هذا اللازم ، وبنوه على أصلهم المفاسد أنه يجب على الله تعالى أن يفعل في كل عبد ماهو الأصلح له ، فلو كان في مقدوره فعل يؤمن العبد عنده لوجب عليه أن يفعله به ، والقرآن من أوله إلى آخره يرد هذا القول ويكذبه حيث قال الله تعالى: ﴿... وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] وقال : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ...﴾[2] وقال ﴿وَلَو شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ...﴾[3] [4].

٦ - ويُرد عليهم أيضاً في مسألة قولهم بالوجوب على الله تعالى «بأن الايجاب والتحريم يقتضي سؤال الموجب المحرم ، لمن أوجب عليه وحرم ، هل فعل مقتضي ذلك أم لا ؟ وهذا محال في حق من لايسأل عما يفعل وإنما يعقل في حق المخلوقين وأنهم يسألون ... فإنكم إذا زعمتم أن في العقل حاكماً يُحسِّن وُيقبِّح ويوجب ويحرم ويتقاضى الثواب والعقاب لم تكن الحاجة إلى البعثة ضرورية لامكان الاستغناء عنها بهذا الحاكم»[5] . وهذا مخالف للشرع والعقل والواقع .

٧ - يَلزم القائلون بوجوب الأصلح أن يوجبوا على الله عز وجل أن يميت كل من علم من الأطفال أنه لو بَلَغَ لكَفَرَ وعاند ، فإن موته هو الأصلح بلا ريب ، أو أن يجحدوا علمه سبحانه بما سيكون قبل أن يكون ، حيث لا خلاص لهم عن أحد هذين الإلزامين ، إلا بالتزام مذهب أهل السنة والجماعة ، من أن أفعال الله تعالى لا تدخل تحت مجالات عقولهم القاصرة ، ولا تقاس بأفعالهم الخاسرة ، بل أفعاله تعالى لاتشبه أفعال خلقه ولا صفاته صفاتهم ، ولا ذاته ذواتهم إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[6] . والحقيقة إن قول المعتزلة هذ مبني على قاعدة تحسين العقل وتقبيحه ، الأمر الذي أدى بهم إلى القول بالوجوب على الله تعالى .

---

(١) سورة النحل الآية ٩ .

(٢) سورة ، يونس الآية ٩٩ .

(٣) سورة السجدة الاية ١٣ .

(٤) انظر : مفتاح دار السعادة ج٢ ص ٥٥ .

(٥) المصدر السابق ج٢ ص ٥٥ .

(٦) انظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٢ ص ٣٣٣ ، وانظر : مفتاح دار السعادة ج٢ ص ٥٤ ص ٥٥ .

الحسن والقبيح عند المعتزلة :

اعتبر المعتزلة أن للأشياء حسناً وقبحاً عقليين منبعثين من ذات الشيء حيث قالوا :« والفعل حسن أو قبيح في نفسه »[(١)] وذكروا مثالاً على ذلك بحسن الصدق وقبح الكذب واعتبروا أنهما صفتان ذاتيتان للحسن والقبيح[(٢)] ، وأن العقل وحده يحكم في الأشياء ، ويعرف حكم الله فيها ، والشرع كاشف ومبين فقط ، وليس له أن يعكس القضية ، لأن دورة الكشف والبيان ، وليس تحويل الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً ، لأن القبيح أقرّ وثبت العقل قبحه ،والحسن أقر وثبت العقل حسنه ، على هذا الأساس أخذ المعتزلة يتأولون كل ماورد في القرآن من تذكير دائب بالعقل باعتباره ضابطاً ومعياراً للحقيقة الدينية ، وبذلك يكون العقل مدركاً لما في الأشياء من حسن وقبح ،ويكون التحسين والتقبيح العقليان مدخلاً أساسياً للشرائع السمعية والنبوات بصدقها وينفي عنها كل دخيل[(٣)] .

وترتب على هذا أن أصبح التحسين والتقبيح العقليان في إطار الحكمة محوراً لأصول الاعتزال الخمسة في تفسيرهم للقرآن ومايتعلق به من دراسات فلسفية وأدبيه وبلاغية ، فالعدل القائم على التحسين والتقبيح مبني على مباحث التوحيد ومعرفة الصانع وكونه حكيماً[(٤)] .

ويرى ابن الجوزي[(٥)] أن المعتزلة أخذت قضية التحسين والتقبيح العقلي من الخوارج حيث أنهم سبقوا في ذلك حيث يقول «ومن رأى هؤلاء - الخوارج - أحدث المعتزلة في التحسين والتقبيح إلى العقل ، وأن العدل مايقتضيه»[(٦)] .

وقد أفضت هذه القضية بالمعتزلة إلى القول بالوجوب علي الله تعالى ، وذلك أن

---

(١) المواقف للإيجي ص ٣٢٣ ، وانظر : المستصفى للغزالي ج١ ص ٥٦ .

(٢) انظر : المستصفى للغزالي ج١ ص ٥٦ ، وانظر : تاريخ المذاهب الإسلامية محمد أبو زهرة القسم الأول ص ١٣٠ .

(٣) انظر : الإرشاد للجويني ص ٢٥٨ ، وانظر : المواقف ص ٣٢٣ ، وانظر : مفهوم العدل ص ١٥٩ص ١٦١ .

(٤) انظر : مفهوم العدل في تفسير المعتزلة ص ١٦١ .

(٥) جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن به الجوزي البغدادي ، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث والوعظ ولد سنة ٥٠٨هـ وتوفي سنة ٥٩٧هـ انظر : وفيات الأعيان ج٣ ص ١٤١ ، ١٤٢ ، وانظر : شذرات الذهب ج٤ ص ٢٣٩ .

(٦) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٩٤ .

الوجوب عندهم لا ينفصل عن الحسن ، فينبغي أن يكن كل ماذكر في القرآن من أفعاله وأوامره ونواهيه حسنة لا قبح فيها ،وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار : «قد ثبت في مقدور القديم تعالى من الحسن مايستغنى به عن القبح ، فيجب أن لا يختار القبيح ، لأن من استغنى بالحسن عن القبيح ، لايختار القبيح بحال»[1] وهذا القول ناتج عن قياسهم أفعال الله تعالى على أفعال العبد حيث أوجبوا على الله تعالى مايوجبون على العبد .

وبناءً على ذلك مضى المعتزلة يتأولون آيات القرآن طبقاً لما خلصوا إليه من قولهم بالتحسين والتقبيح العقلي ، من أن الآية التي تنزه الله عن كل قبيح محكمة ، وأن ماخالفها متشابه يجب صرف ظاهره إلى المحكمات من معاني التنزيه[2] .

الرد على موقف المعتزلة من التحسين والتقبيح :

إن الحسن والقبيح من مخلوقات الله سبحانه وتعالى ، فالله هو الخالق لمعنى الحسن ، ولمعنى القبح ، وهو الرابط بين المخلوقات وبين معانيها ، فالأشياء في أصلها خالية من صبغة الحسن أو القبح ، والنفع أو الضرر ، ثم أن الله تعالى صبغ بعض الأشياء بهذه الصبغة ، وبعضها الآخر بتلك ، وبذلك يصدق القول بأن الله خالق القبيح أو الضار ، لأنه عندما ركب في الأشياء خصائص معينة ، أو ساقها إلى نتائج ذات تأثير معين تخالف مصالح الناس فاشمئزوا منها ، فمعنى ذلك أنه خلق القبيح ضمن ماخلق ، وليس ذلك من صفات النقص التي نزه الله نفسه عنها ، لأن من صفات الكمال الثابتة لله تعالى أن يخلق مايشاء دون أن يصدر عن ذلك شيء[3] .

كما وأن الله تعالى هو الخالق للحسن وهو أمر اعتباري ، وليس ذاتي ، فحسن الصدق مثلاً إما أن يكون منبعثاً من أنه يجر إلى فوائد مختلفة تتحقق للصادق ، وإما من حيث أنه يثاب عليه يوم القيامة ، وإما من حيث أن النفوس جبلت على احترام الصادق والاشمئزاز من الكاذب ، وكلها بواعث خارجة عن ذات الصدق نفسه ، وهذا يعني أن الله تعالى كان ولايزال قادراً على تحويل النفوس وطبائعها فلا تتعلق بحب الصدق ، ولا تشمئز منه[4].

ولذلك يقول الإيجي :«لا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها ، وليس ذلك عائداً إلى

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٣١٦ .

(٢) انظر: العقيدة النظامية للجويني ص ٤٦ ، وانظر: مفهوم العدل ص ١٦٨ ص ١٧١ .

(٣) انظر: كبرى التقنيات الكونية ص ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١٥٠ .

أمر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع ، بل الشرع هو المثبت له والمبين ، ولو عكس القضية فحسن ماقبحه ، وقبح ماحسنه لم يكن ممتنعاً وانقلب الأمر»[1] .

فالحسن أو القبيح ليس متأصلاً بالطبع بحيث لا يمكن الانفكاك عنه،وإنما هو معنى استتبع حكماً من أحكام الله عز وجل فكان مانسميه نحن بالحسن أو القبيح،ولو شاء الله تعالى لعكس الأمر فجعل الحسن قبيحاً، والقبيح حسناً،ومادام الكل بخلق الله تعالى وحكمه .

إن قول المعتزلة بأن القبح وصف ذاتي ، تحكم بما لا يعقل ، فالكذب مثلاً كيف يكون قبحه ذاتياً ، ولو كان فيه عصمة دم نبي بإخفاء مكانه عن ظالم يقصد قتله ، لكان حسناً بل واجباً يعصي بتركه[2] .

بل إن الرسول ﷺ أباح الكذب في ثلاث خصال فقال:**[لا يحل الكذب إلا في ثلاث خصال : رجل كذب امرأته ليرضيها ، ورجل كذب في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، ورجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما]**[3] .

وأما استدلال المعتزلة باتفاق العقلاء على تحسين الحسن وتقبيح القبيح ، فهو استدلال غير صحيح لأنه «في الملحدة من لا يعتقد قبح هذه الأشياء ولا حسن نقائضها فكيف يدعى اتفاق العقلاء»[4]، حيث أن الأفعال تنقسم إلى مايوافق غرض الفاعل وإلى مايخالفه ، فالموافق يسمى حسناً والمخالف يسمى قبيحاً ، وإذا كان الفعل موافقا لشخص ، ومخالفاً لآخر ، فهو حسن في حق من وافقه ، قبيح في حق من خالفه ، حتى أن قتل الملك يكون حسناً في حق أعدائه قبيحاً في حق أوليائه[5] .

ولذلك يقول الإمام الغزالي:«فبهذا يتبين على القطع أن الحسن والقبح عبارتان ... عن أمرين اضافيين يختلفان بالإضافة عن صفات الذوات التي لا تختلف بالإضافة»[6] .

والحق هو أن الحسن ماحسنه الشرع وأثنى عليه ، وأثنى على فاعله ، لأن جميع الأفعال

---

(١) المواقف للإيجي ص ٣٢٣ .

(٢) انظر : المستصفى للغزالي ج١ ص ٥٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد ج٦ ص ٤٥٤ ، وجامع الأصول لابن الأثير ج١٠ ص ٦٠٣ حديث ٨١٩٦ .

(٤) المستصفى للغزالي ج١ ص ٥٨ .

(٥) انظر: المستصفى ج١ ص ٥٦،وانظر : الاقتصاد في الاعتقاد ص١٠٤،وانظر:مجموع الفتاوي ج٨ ص ٩٠ .

(٦) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٠٤ .

التي أوجبها الله تعلى وندب إليها ، هي نافعة لفاعليها ومصلحة لهم ، فيكون فعل الله تعالى حسناً في كل حال سواء خالف الغرض أو وافقه ، ويكون المأمور به شرعاً ندباً كان أو إيجاباً حسناً ، وأما القبيح فهو مانهى عنه الشرع ، لأن جميع الأفعال التي نهى عنها هي ضارة لفاعليها ومفسدة لهم[1] .

بالإضافة إلى ماذكر يمكن إيراد أدلة أخرى تؤكد بطلان قولهم وهي كالتالي :

١ - إنه لا أحد ينكر اشتهار القضايا الحسنة بين الخلق ، وكونها محمودة مشهورة ، وأنّ مستندها راجع إلى التزام الشرائع الإلهية ، وأنه لا معنى للتحسين والتقبيح إلا باعتبار جلب المنافع ودفع المضار . وهذا إنما يعقل ثبوته في حق من يصح عليه النفع والضرر ، فلما كان الله تعالى متعالياً عن ذلك امتنع ثبوت التحسين والتقبيح في حقه[2] .

٢ - كما أنه في العادة يستقبح الظلم والكذب ، والمعتزلة «لا يتحاشون عن تقبيح فعل الله تعالى إذا خالف غرضهم»[3]، ومستندهم في ذلك هو «قياس الغائب على الشاهد»[4] أي قياس أفعال الله تعالى على أفعال الإنسان ، وهذا من أفسد القياس وأعظمه بطلاناً ، فإنه تعالى ليس كمثله شيئ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ومما يؤكد بطلان هذا القياس هو أن السيد لو ترك عبيده وإماءه يقتل بعضهم بعضاً ، ويسيئ بعضهم إلى بعض ، ويفسد بعضهم بعضاً ، وهو مطلع عليهم وقادر على منعهم لقبح منه ، وقد فعل الله تعالى ذلك بعباده ولم يقبح منه، بل هو حسن منه غير قبيح ، فكيف يصح قياس أفعاله على أفعال العباد[5] .

٣ - إن الفعل الصادر عن الله تعالى ، إما أن يكون وجوده وعدمه بالنسبة إليه على السوية أو لا يكون ، فإن كان الأول فقد بطل الحسن والقبح ، وإن كان الثاني لزم كونه تعالى ناقصاً بذاته مستكملاً بذلك الفعل -حاشاه جلت قدرته -وذلك في حق الله تعالى محال[6] .

---

(١) انظر : المستصفى ج١ ص ٥٦ ، وانظر : الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٠٥ ، وانظر : مجموع الفتاوي لابن تيمية ج٨ ص ٩٠ .

(٢) انظر : معالم أصول الدين للرازي ص ٩٣ .

(٣) المستصفى للغزالي ج١ ص ٥٦ .

(٤) المصدر السابق ج١ ص ٦١ .

(٥) انظر : مفتاح دار السعادة ج٢ ص ٥٢ ، وانظر : المستصفى للغزالي ج١ ص ٦١ .

(٦) معالم أصول الدين للرازي ص ٩٣ (بتصرف) .

٤ - علم الله سبحانه وتعالى من الكفار والفساق ، أنهم يكفرون ويفسقون ، فكان صدور الإيمان والطاعة منهم محالاً ، ثم إنه أمرهم بالإيمان والطاعة ، وهذا الأمر لا يفيدهم إلا استحقاق العقاب،فثبت أن توقيف أفعال الله تعالى وأحكامه على الحسن والقبح باطل(١) .

وبذلك يتبين أنه لايصح اثبات التحسين والتقبيح في حق الله تعالى لأنه هو الخالق للحسن والقبيح إلى جانب أنه لايصح قياس أفعال الله تعالى على أفعال العباد .

وبطلان القول بالتحسين والتقبيح في حق الله تعالى ، يؤدي إلى رد قول المعتزلة بالوجوب في حق الله تعالى ، حيث قالوا يجب على الله فعل الأصلح ، وفي هذا يقول الرازي :«لايجب علي الله تعالى شيء ... والأصلح في الدنيا لنا أن الحكم لايثبت إلا بالشرع ولا حاكم على الشرع فلا يجب عليه شيء»(٢) وأن الله تعالى ليس مجبوراً في خلقه وفي حكمه على أي شيء ، وأن الذي دفع المعتزلة للقول بالوجوب هو قولهم بضرورة اتباعه للأصلح والأفضل ، وتجنبه عن الفاسد والقبيح ، ومن المعلوم أن الذي جعل الصالح صالحاً والفاسد فاسداً والقبيح قبيحاً هو الله عز وجل «وأنه لا شيء يسمى بالنظر لذاته حسناً أو قبيحاً ، وأن الأمور كلها بالنسبة إلى الله في بدء الخلق سواء»(٣) .

فالوجوب في حق الله تعالى غير معقول على الإطلاق لأنه«كيف يعلم أنه سبحانه يجب عليه أن يمدح ويذم ويثيب ويعاقب على الفعل بمجرد العقل، وهل ذلك إلا مغيب عنا؟ !! وفيم نعرف أنه رضى عن فاعل وسخط على فاعلها ، وأنه يثيب هذا ويعاقب هذا ولم يخبر عنه بذلك مخبر صادق»(٤) .

ويرجع انحراف المعتزلة في هذه القضية إلى قياس أفعال الله تعالى على أفعال عباده ، وهذا مرجعه مخالفة طريق السلف في فهم قضايا العقيدة ، إلى جانب ذلك تحكيم العقل في كل شيء حتى جعلوه أساس بحثهم ، فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل ، فما قبله أقروه ، ومالم يقبله رفضوه ، ومن ذلك هذا القياس الذي هو أفسد القياس وأعظمه بطلاناً ، فإنه تعالى كما أنه ليس كمثله شيء في ذاته وفي صفاته ، كذلك ليس كمثله شيء في أفعاله .

---

(١) المصدر السابق ص ٩٣ ص ٩٤ (بتصرف) .

(٢) محصل أفكار المتقدمين للرازي ص ٢٠٤ .

(٣) كبرى اليقينيات الكبرى للبوطي ص ١٥١ .

(٤) مفتاح دارالسعادة ج٢ ص ٥٢ .

فكيف يقاس على خلقه في أفعاله فيحسن منه مايحسن منهم،بل ويوجبون عليه فعل هذا الحسن ، ويقبح منه مايقبح منهم،بل ويوجبون عليه عدم فعل ذلك ، والكل يرى كثيراً من الأفعال تقبح منا وهي حسنة منه تعالى ، كإيلام الأطفال والحيوان ، وإهلاك من لو أهلكناه نحن لقبح منا من الأموال والأنفس ، وهو منه مستحسن غير مستقبح ، ومثال ذلك أن ترك إنقاذ الغرقى والهلكى قبيحاً منا ، وهو إذا أغرقهم وأهلكهم لم يكن قبيحاً منه [١] .

ومن الأدلة الواضحة في رد قول المعتزلة وقطع حجتهم حديث رسول الله ﷺ الذي يرد فيه على قولهم بالأصلح وبالوجوب على الله تعالى وهو: **[... لو أن الله تعالى عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ...]** [٢] .

وبهذا يتبين بطلان قول المعتزلة بأن الفعل حسن أو قبيح في نفسه ، والذي يؤدي بدوره إلى بطلان قولهم بالحسن والقبح في حق الله تعالى .

ثالثاً : المفهوم الحق للهدى

إن الله تعالى قد أقام حجته على خلقه بإنزال القرآن الكريم فيه الهدى والبينات والأدلة والبراهين الواضحات حيث قال :﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ...﴾[٣] فأنزله هادياً للناس ، حيث يهديهم إلى صراط العزيز الحميد الذي له ما في السموات ومافي الأرض بما فيه من الخير والأمر والبينات والدلالات والبراهين الهادية المبينة للحق ، وإلى جانب ذلك جعله فارقاً بين الحق والباطل ، والخير والشر، لأن :«الهدى التام لا يكون إلا مع الفرقان فلهذا قال أولاً:هدى للناس ثم قال وبينات من الهدى والفرقان»[٤] .

كما أرسل الله تعالى رسوله الخاتم ﷺ من أجل تبليغ دعوته للعالمين ، وأيده بآيات بينات ، وجعل في ذلك هداية لخلقه كما هو خير لهم في دنياهم وأخراهم ، وهدايته هذه هي

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم ج٢ ص ٥٢ .

(٢) مسندة الإمام أحمد بن حنبل ج٥ ص ١٨٢ ص ١٨٥ ص ١٨٩ ، سنن أبي داود ج٤ ص ٢٢٥ كتاب السنة، باب في القدر حديث رقم ٤٦٩٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٤) النبوات لابن تيمية ص ١٥٢ .

هداية التكليف التي يقبلها أو يرفضها ، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1] .وهداية التكليف هذه «لم يجعلها الله سبحانه ضمن الدائرة التي تسيطر على الإنسان ، وإنما جعلها ضمن الدائرة التي يسيطر هو عليها »[2] ، لأنه يهتدي إليها بفكره وإدراكه وإرادته .

فالهداية في هذه الحالة ،ليست من تأثير نظام الكون، أو الحياة التي يجبر الإنسان فيها على الهداية ، ولا من الأفعال التي ليست في مقدور الإنسان فعلها، ويؤكد ذلك قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ...﴾[3] أي اختاروا الكفر على الإيمان ، والعمى على البيان ، والمعصية على الطاعة ، وهذا يدل على حرية الاختيار ،وقال أيضاً ﴿... قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[4] .

ولهذا كان الهدى من الإنسان نفسه ،لأن ذلك فعل من أفعاله الاختيارية ، وعلى ذلك يحاسب : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[5] .ولا يحاسب سبحانه وتعالى الإنسان على فعل ليس من أفعاله الاختيارية ، حيث قال رسول الله ﷺ **[رفع أعن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه]**[6] .

وهذا الوجه من الهداية ، يصح إضافته أي الرسل ، وإلى كل داع إلى دين الله عز وجل لأنه يقوم على إبانة الحق والدعاء إليه ،وإقامة الأدلة عليه ، وهذا تأويل قول الله تعالى في رسول الله ﷺ ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[7] أي تدعو إليه[8] .

وأما ماورد من الآيات التي تدل على نسبة الهداية إلى الله تعالى ، وتعليق الهداية

---

(١) سورة طه الآية ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) مسألة القضاء والقدر ص ١٦٦ .

(٣) سورة فصلت الآية ١٧ .

(٤) سورة يونس الآية ١٠٨ .

(٥) سورة فصلت الآية ٤٦ .

(٦) الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص ٢٤ .

(٧) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٨) انظر : أصول الدين للبغدادي ص ١٤٠ .

على المشيئة الإلهية ،كقوله تعالى :﴿... ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ...﴾[1] وقوله : ﴿... وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] وقوله ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ...﴾[3] إن ذلك يعني أن الله تعالى هو الذي أوجد الهداية ، لأنه «فعال لما يريد ، فلو لم يرد خلقها في العبد لما وجدت أصلاً شأن بقية الأفعال إذ أنها تقع بإرادته»[4] . بمعنى أنه هو الخالق للهداية وهو الذي منحها للعباد ، وأقدرهم عليها ، وجعلها قائمة بهم ، مضافة إليهم ، فهو واضع الأسباب والمسببات ، ولايعني ذلك أنه أجبر الإنسان على الهداية كما «أنه لايهدي أحد جبراً عنه سبحانه»[5] فالله فاعل حقيقة والعبد منفعل حقيقة ، والله تعالى هادحقيقة ،والعبد مهتد حقيقة ، ولهذا أضاف تعالى كلاً من الفعلين إلى من قام به فقال عز وجل :﴿... مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ...﴾[6] فإضافة الهداية إلى الله تعالى حقيقة ، وإضافة الإهتداء إلى العبد حقيقة ، «وكما أن الهادي تعالى ليس هو عين المهتدي ، فكذلك ليست الهداية هي عين الإهتداء»[7] .

ولذلك فمن أضاف الفعل والانفعال كلاهما إلى المخلوق فقد خالف الحق وكفر ، لأنه أخرج أفعال العباد من قدرة الباري وجعلهم مستقلين بها مستغنين عنه ، وهذا طعن في ربوبية المعبود وملكوته ونسبته إلى المعجز ، ووصفه بما لايستحق الإلهية ولا يتصف بها ، وجعل العبد مستقلاً بأفعاله خالقاً لها ، فيؤدي ذلك إلى إثبات خالق مع الله تعالى[8] .

ومن أضافهما كليهما - الفعل والانفعال - إلى الله تعالى فقد خالف الحق وكفر ، وهذا قول الجبرية ، حيث نفوا عن العبد قدرته واختياره ، وزعموا أنه كالسعفة يحركها الريح العاصف ، وكالهاوي من أعلى إلى أسفل ، ولذلك نسبوا إلى الله تعالى الظلم والعبث،

---

(١) سورة الزمر الآية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

(٣) سورة فاطر الآية ٨ .

(٤) شرح النسفية للسعدي ص ١٢٢ ، انظر : شرح الفقه الأكبر ص ١٩١ ، وانظر : أصول الدين للبغدادي ص ١٤٠ ، وانظر : معارج القبول ج٢ ص ٣٥٠ .

(٥) مسألة القضاء والقدر ص ١٦٨ ، وانظر : العقائد الإسلامية ص ١٠٦ .

(٦) سورة الكهف الآية ١٧ .

(٧) معارج القبول ج٢ ص ٣٥٠ .

(٨) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ٣٥٠ ، ٣٦١ .

ومالا يليق به ، كما طعنوا في عدله وشرعه ، لأنه - حسب زعمهم - عندما كلف عباده بالطاعات ونهاهم عن المعاصي ، كلفهم بما لاطاقة لهم به ، فهو كتكليف المقعد بالمشي والأعمى بنقط المصحف ، وأن تعذيبه إياهم على معصيتهم إياه هو تعذيب لهم على فعله لا على أفعالهم [١].

وأما «من أضاف الفعل إلى الله حقيقة ، والانفعال إلى المخلوق حقيقة كما أضافها الله تعالى فهو المؤمن حقيقة»[٢] ، لأنه ثبت في كثير من الآيات أن الإنسان هو الذي يقوم بعمل الهداية وتنسب إليه ، وبالتالي تكون نسبة الهداية إلى مشيئة الله تعالى وإرادته ، على معنى أنها لم تجر جبراً عن الله تعالى ، لأنه هو الخالق لها حقيقة ، والعبد كاسب ، حيث أن القرآن الكريم يوافق بعضه بعضاً .

ولكن هناك هداية التوفيق من الله تعالى بالألطاف المشروطة بالإيمان [٣]،حيث جعلها الله تعالى لمن يريد ويختار الهدى ، أي أن الله تعالى تخييراً للعباد ، جعل امداده لهم بالهدى ، بناء على اختيارهم حيث قال تعالى :﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[٤] وقال : ﴿... وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[٥] وقال : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ...﴾ [٦].

فهداية الله تعالى للناس بمعنى توفيقهم للعمل الصالح إنما هو ثمرة لجهاد أنفسهم وتمسكهم بمنهاج الله المستقيم ، والإئتمار بما أمر والانتهاء عما نهى عنه ، فالهداية نتائج لمقدمات ، فهناك أسباب توصل إلى الهداية ، والهداية هذه إنما هي ثمار العمل الصالح الذي يقدمه الإنسان ، فيؤدي ذلك إلى التوفيق الذي هو «إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده مايصلح به العبد ، بأن يجعله قادراً على فعل مايرضيه،مريداً له محباً له مؤثراً له على غيره ، ويبغض إليه مايسخطه ويكرهه وهذا مجرد فعله والعبد محل له»[٧] .

---

(١) انظر : معارج القبول ج٢ ص ٣٥٠ ص ٣٥٤ .

(٢) المرجع السابق ج٢ ص ٣٥٠ .

(٣) انظر : التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٤٥ ، وانظر : الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٧٤ .

(٤) سورة محمد الآية ١٧ .

(٥) سورة الرعد الآية ٢٧ .

(٦) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٧) لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٧ .

ولابن القيم في هذا كلام شافٍ، حيث يقول :«قد أجمع العارفون بالله أن التوفيق أن لا يكلك إلى نفسك ، والخذلان أن يخلي بينك وبينها ، فالعباد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه ، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له ، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه ، فإن وفقه فبفضله ورحمته ، وإن خذله فبعدله وحكمته»[1] .

غير أن هناك آيات تتحدث عن الهداية بما يفهم من ظاهرها التعارض بين قوله تعالى ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] وبين قوله :﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ...﴾[3] .

والحقيقة أن فهم معنى الهداية في كل آية، يبين التوافق والانسجام بين كلا الآيتين ، حيث أن الهداية المثبتة للرسول ﷺ في الآية الأولى هي بمعنى الدلالة والبيان والدعوة ، وإقامة الأدلة والبراهين وعلى هذا الوجه «يصح إضافة الهداية إلى الرسل ، وإلى كل داع إلى دين الله عز وجل ، لأنهم مرشدون إليه»[4] .

وأما الهداية التي نفاها القرآن عن الرسول ﷺ وأثبتها لله تعالى ، فهي هداية التوفيق والإعانة والإلهام والثبات والحمل على الخير[5] .

وفي هذا يقول عبد القاهر البغدادي[6] ، «فالهداية التي أثبتها الله تعالى للرسول ﷺ عن طريق البيان والدعوة ، والهداية التي نفاها عنه من جهة شرح الصدور وقبولها للحق»[7] وهذه الهداية نفاها الله تعالى عن كل ماسواه وأثبتها لنفسه ، وذلك لأن الفضل كل الفضل له سبحانه وتعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ...﴾[8] .

---

(١) لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٣٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٣) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٤) أصول الدين للبغدادي ص ١٤٠ ، وانظر : الإرشاد للجويني ص ١٩٠ .

(٥) انظر : أصول الدين للبغدادي ص ١٤٠ ، وانظر : شفاء العليل ص ٨٠ .

(٦) هو عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفرائيني الفقيه الشافعي أحد الأئمة في الأصول والفروع كان ماهراً في فنون كثيرة من العلوم توفي سنة ٤٢٩ هـ ١٠٣٧ م . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص ٤٤ .

(٧) أصول الدين للبغدادي ص ١٤١ ، وانظر : شفاء العليل ص ٨٠ .

(٨) سورة النحل الآية ٥٣ .

المبحث الثاني
مراتب الهدى وأسبابه

المطلب الأول : مراتب الهدى :

إن أفضل مايقدر الله لعبده ، وأجل مايقسمه له الهداية الدينية ، فهي الهداية النافعة للإنسان في الدنيا والآخرة ، فكل أعمال الناس تابعة لهدى الله إياهم ،كما قال سبحانه وتعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[1] ومعنى الهدى هنا أشمل من الهداية الدينية الخاصة ، فالهدى له مراتب أربعة من فهمها استطاع أن يعي ويعرف معنى الهدى في القرآن الكريم ، ويوفق بين الآيات التي وردت في القرآن الكريم بشأنه ، وهذه المراتب هي :

المرتبة الأولى : الهدى العام :

وهي هداية كل نفس إلى مصالح معاشها ومايقيمها ، وهذه المرتبة أعم المراتب ، لأنها مشتركة بين المخلوقات جميعاً ، حيث تعم الإنسان المؤمن والكافر، كما تعم الحيوان من حيث الهداية إلى جلب ماينفع ودفع مايضر ، وهداية الأعضاء إلى وظائفها ، وهداية المشاعر والحواس والعقول[2] . وهذا الهدى مذكور في قوله تعالى ﴿... الَّذِيَ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [3] أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره ، وأعطى كل شيء شكله وهيأته ، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ، ثم هداه إلى ماخلقه له من الأعمال ، فالجماد له هداية حيث سخر لما خلق له ، كما أن لكل نوع من الحيوانات هداية تليق به ، وإن اختلفت أنواعها وصورها ، ولذلك يقول ابن القيم :«فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزاءه بحيث لم يحصل بينهما تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال ، فالخلق : الإيجاد والتسوية ، اتقانه وإحسان خلقه»[4] ، ولذلك نلاحظ أن كل عضو له هداية تليق به ، فهدى الرجلين للمشي ، واليدين للبطش والعمل ، واللسان للكلام ، والأذن للسمع ،والعين لكشف المرئيات ، والمعدة لهضم الطعام والقلب لدفع الدم في الأوردة ، وكل عضو لما خلق له .

---

(١) سورة الأعلى الآيات ١ - ٢ - ٣ .

(٢) انظر : شفاء العليل ص ٦٥ ، وانظر : الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٧٤ .

(٣) سورة طه الآية ٥٠ .

(٤) شفاء العليل ص ٦٥ ، وانظر : بدائع الفوائد لابن القيم ج٢ ص ٣٥ .

كما هدى الزوجين من كل حيوان إلى التزاوج والتناسل وتربية الولد ، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه ، والتشكي من الآلام بالبكاء ، كما هدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية ، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها تأوى إلى بيوتها ، كما وهداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء ، وحمايتها والدفاع عنها ،وهداها إلى أن تجني أطيب مافي المراعي ثم تعود إلى بيوتها لتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه ، فيه علاج وشفاء للناس ، وأيضاً مايلاحظ من هداية العنكبوت في نسيج بيته ووضع شباكه لاصطياد فريسته بطريقة عجيبة [(١)] .

فهذه الهداية أعم المراتب وأشملها ، حيث أنها تتعلق بجميع مخلوقات الله سبحانه وتعالى فهي هداية عامة .

المرتبة الثانية : هداية الإرشاد والبيان :

إن هذه المرتبة من الهداية،أخص من الهداية العامة لأنها خاصة بالمكلفين،حيث أن دورها هو الدلالة والبيان والإرشاد ،والتعريف بنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك ، حيث قال تعالى:﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[(٢)]وقال:﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[(٣)]

وهذه الهداية عامة للمؤمن والكافر والمطيع والعاصي ولكنها سبب وشرط «وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب ، بل قد يتخلف عنه المقتضى إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع»[(٤)] ،ولهذا لا ينبغي الهدى معها لأنها غير موجبه للهداية لكونها عامة للمؤمن والكافر والمطيع والعاصي ،كقوله تعالى :﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُم فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ...**﴾[(٥)] أي بين لهم وأرشدهم فلم يهتدوا باستحبابهم الكفر على الإيمان لسوء اختيارهم .

وعلى هذا الوجه ، يصح إضافة هذه الهداية إلى الرسل وإلى كل داع إلى دين الله عز وجل ، لأنهم مرشدون إليه ، وهذا تأويل قول الله عز وجل في رسول الله ﷺ

---

(١) انظر : بدائع الفوائد ص ٣٦ ، وانظر : شفاء العليل ص ٦٧ ، وانظر : تفصيل النشأتين للأصفهاني ص ٦١ ص ٦٢ .

(٢) سورة البلد الآية ١٠ .

(٣) سورة الإنسان الآية ٣ .

(٤) شفاء العليل ص ٧٩ ، وانظر : بدائع الفوائد ج٢ ص ٣٧ ، وانظر : شرح المقاصد ج٤ ص ٣١٠ .

(٥) سورة فصلت الآية ١٧ .

﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَاطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[1] أي تدعو وتبين وترشد[2] .

فدور النبي ﷺ في هذه الهداية هو توضيح الحق وتمييزه عن الباطل بأدلته وشواهده ،ثم الدعوة والإرشاد إليه ، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه ، التي لا يعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصولها إليه ، حيث قال تعالى :﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ...﴾[3] فهذا الإضلال عقوبة منه لهم حين بين لهم ، فلم يقبلوا مابينه لهم ولم يعملوا به ، فعاقبهم - عدلاً - بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان الذي لم يمنعه عن أحد .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية ،وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله تعالى وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه ، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة ، إلى التفكر في آياته المشهودة ، ويحضهم على التفكر في هذه وهذه ، وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل [4].

ويؤكد ذلك قول الله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[5] .

المرتبة الثالثة : هداية التوفيق والإلهام :

وهذه المرتبة أخص من هداية الإرشاد والبيان لكونها مستلزمة الاهتداء ، فلا تخلف عنها ، وهذه المرتبة تستلزم أمرين «أحدهما فعل الرب تعالى وهو الهدى ،والثاني فعل العبد وهو الاهتداء ، وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبد المهتدي»[6] ولذلك قال الله تعالى ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ ...﴾[7] ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام ، فإن لم يحصل فعل الله تعالى وهو الهداية ، لم يحصل فعل العبد وهو الاهتداء ، ولذلك قال تعالى : ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ...﴾[8] وهذا صريح في أن هذا

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٢) انظر : أصول الدين للبغدادي ص ١٤٠ .

(٣) سورة التوبة الآية ١١٥ .

(٤) انظر : تهذيب مدارج السالكين ص ٤٧ص ٤٨ ، وانظر : تيسير العزيز الحميد ص ٤٥٩ ص ٤٦٠ .

(٥) سورة ابراهيم الاية ٤ .

(٦) شفاء العليل لابن القيم ص ٨٠ .

(٧) سورة الإسراء الآية ٩٧ .

(٨) سورة النحل الآية ٣٧ .

الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه ولا إلى أحد غير الله تعالى لأنه خصه لنفسه[1] ، ومنعه عن غيره ولذلك قال الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ...﴾[2] ، مع مكانته عند الله تعالى ، بكونه أفضل الخلق وأقربهم من الله، وأعظمهم جاهاً عنده ، إلا أنه لم يقدر على هداية عمه أبي طالب هداية التوفيق .

والمتدبر لآيات القرآن الكريم المتعلقة بالهداية يجد أن الله تعالى خص بهداية التوفيق من هو أهل له ، من حيث إنابته إلى ربه ، وأخذه الأسباب ، لمعرفة الحق والإيمان به ، والاهتداء بهديه ، والالتزام بأمره ،والانتهاء بنهيه ، قال تعالى :﴿... وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [3]. وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[4] فهم بدأوا بالاهتداء فكافأهم الله تعالى بزيادة الهدى ، وكافأهم زيادة على ذلك – وهذا من فضله سبحانه وتعالى وكرمه – بما هو أعمق وأكمل وهو التقوى ، وهي حالة في القلب تجعل الإنسان أبداً واجفاً من هيبة الله تعلى وشاعراً برقابته خائفاً من غضبه ، متطلعاً إلى رضاه ، متحرجاً من أن يراه الله على هيئة أوحالة لايرضاها ، هذه الحساسية المرهفة هي التقوى ، وهي مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده حين يهتدوا هم ، ويرغبون في الوصول إلى رضى الله تعالى[5] . ولذلك يقول تعالى :﴿... وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[6] .

فالإنابة إلى الله تعالى هي التي جعلتهم أهلاً للتوفيق والاهتداء ، لأن قلوبهم مستعدة لذلك بل تسعى وتطلب ، ويشير الله إلى هذه الحقيقة بقوله :﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[7] .فقد علق سبحانه وتعالى هدايته بالجهاد ، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس ، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان ،

---

(١) انظر : شفاء العيل ص ٨٠ ص ٨١ ، وانظر : بدائع الفوائد ج٢ ص ٣٧ ، وانظر : أصول الدين للبغدادي ص ١٤١ ،وانظر : شرح المقاصد ج٤ ص ٣١٠ ، وانظر : تهذيب مدارج السالكين ص ٤٨ .

(٢) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٣) سورة الحج الآية ٥٤ .

(٤) سورة محمد الآية ١٧ .

(٥) انظر : في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٢٩٤ .

(٦) سورة الرعد الآية ٢٧ .

(٧) سورة العنكبوت الاية ٦٩ .

وجهاد الدنيا بمجاهدة أعداء الدين ابتغاء مرضاة الله تعالى ، فمن جاهد هذه الأربعة في الله تعالى هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته [١] .

وفي ذلك يقول الجنيد[٢] : «والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر، إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً ، فمن نُصِرَ عليها ، نُصِرَ على عدوه ، ومن نُصِرَت عليه نُصِرَ عليه عدو» [٣] .

وهذه المرتبة من مراتب الهدى تُنكرها المعتزلة ، وتؤول الآيات المتعلقة بهذه المرتبة ، لتوافق الآراء التي تقول بها ، فأحياناً يقولون بمعنى التسمية ،حيث يجعلونها من متشابه القرآن ،فيقولون إنها بمعنى تسمية العبد مهتدياً ، وهذا نابع من قولهم إن العبد هو الذي يهدي نفسه ،وينكرون أن يكون الله تعالى هو الفاعل ، ولذلك يبين ابن القيم بطلان قولهم هذا بقوله «وليس في لغة أمة من الأمم فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها ، هداه بمعنى سماه مهتدياً، ... وهل فهم أحد قط من قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ...﴾[٤] ، لا تسميه مهتدياً ولكن الله يسميه بهذا الإسم ، وهل فهم أحد من قول الداعي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٥] اللهم سمني مهتدياً ؟ وهذا من جناية القدرية على القرآن» [٦] .

كما وأن قول الرسول ﷺ فيما يرونه عن ربه جل وعلا حجة عليهم حيث قال : [... **ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم** ...][٧] حيث أمر العباد أن يسألوه الهداية ويطلبوها منه سبحانه وتعالى .

---

(١) انظر : الفوائد لابن القيم ص ٨١ ، وانظر : صفوة التفاسير ج٢ ص ٤٦٨ ، وانظر : مختصر تفسير الطبري ج٢ ص ١٧٦ .

(٢) الجنيد بن محمد بن جنيد البغدادي أبو القاسم ، صوفي من العلماء بالدين ، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد ، قال عنه ابن الأثير في وصفه : امام الدنيا في زمانه وعده العلماء شيخ مذهب التصوف السني لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ، ومن كلامه «طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدي به ، توفي سنة ٢٩٧هـ ، انظر : الاعلام للزركلي ج٢ ص ١٤١ ، وفيات الأعيان ج١ ص ١١٧ .

(٣) الفوائد لابن القيم ص٨١ .

(٤) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٥) سورة الفاتحة الآية ٦ .

(٦) شفاء العليل لابن القيم ص ٨٢ .

(٧) صحيح مسلم ج٤ ص ١٩٩٤ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم حديث ٢٥٧٧ ، جامع الأصول ج١١ ص ٤ حديث ٨٤٦٦ .

المرتبة الرابعة : الهدى إلى الجنة أو إلى النار يوم القيامة :

فالهداية إلى الجنة ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿...وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1] فالمقصود بالهداية هنا بعد أن قتلوا في سبيل الله هو الهداية إلى الجنة[2] .لم لا والشهيد يرى مقعده من الجنة فور استشهاده ، ولعل تعريف الله تعالى الجنة للشهداء في سبيله من الهداية المستمرة لهم حتى دخول الجنة ودار النعيم السرمدي ، بحيث يعرف كل واحد منهم منزله ويهتدي إليه .

كما ذُكرت الهداية في قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ...﴾[3] .فبسبب مامعهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب وهو الهداية ، فيهديهم في الدار الدنيا إلى الصراط المستقيم ، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم ، ولهذا قال (تجري من تحتها الأنهار) [4].

وفي حديثه عن أهل الجنة قال تعالى :﴿... تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ...﴾[5] تعتبر هذه الآية ، دليلاً على هداية المؤمنين إلى الجنة ، حيث أنهم يقولون هذا القول بعد دخولهم الجنة ، ويعتبروا أن هذا من هداية الله تعالى لهم حيث مَنَّ عليهم وأوحى إلى قلوبهم فآمنت به وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار[6] .

وأما الهداية إلى النار فتظهر واضحة في قوله تعالى :﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَاكَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[7] أي احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون ، والأمر علي

---

(١) سورة محمد الآيات ٤ – ٥ – ٦ .

(٢) انظر : التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٤٦ ط طهران ، وانظر : شفاء العليل ص ٨٤ .

(٣) سورة يونس الآية ٩ .

(٤) انظر : تفسير كلام المنان ج٣ ص ٣٢٩ ، وانظر : فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ٤٢٦ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

(٦) انظر : بدائع الفوائد ج٢ ص ٣٧ ، وانظر : تفسير كلام المنان ج٣ ص ٣٠ ، وانظر : شرح المقاصد ج٤ ص ٣١٠ .

(٧) سورة الصافات الآية ٢٢-٢٣

مافيه من لهجة جازمة فيه تهكم واضح في قوله «فاهدوهم إلى صراط الجحيم» فما أعجبها من هداية خير منها الضلال ، وإنها الرد المكافئ على ماكان منهم من ضلال عن الهدى القويم ، وإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا وليرشدوا إلى طريق الجحيم[1] .

وتظهر أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً...﴾[2] إن كفر هؤلاء وظلمهم أدى بهم أن قطعوا على أنفسهم كل طريق للمغفرة ، وليس لهم هداية إلا طريق جهنم ، ولذلك يقول ابن حزم : «وهذا نص جلي ، وبيان جلي أن الدلالة لهم على طريق جهنم يحملون إليها ، فهذا هو الهدى لهم إلى تلك الطريق ، ونفى عنهم في الآخرة هدى إلى شيء من الطرق إلا طريق جهنم»[3]. ولذلك يتحسر أهل النار عندما يرون مقعدهم في الجنة الذي حرموا منه ، ويشكر أهل الجنة عندما يرون مقعدهم من النار وقد نجوا منها،حيث يقول الرسول ﷺ: **[كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني فتكن عليه حسرة ، وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هداني فيكون له شكرا]**[4] . فالهداية إلى الجنة أو إلى النار هي النهاية لكل إنسان بحسب ماقدم في حياته الدنيا ، فإما أن تكون نهايته إلى الجنة فيهديه الله إليها ، وإما أن تكون نهايته النار فيهديه الله لها .

المطلب الثاني : أسباب الهدى :

أ - أسباب الهداية العامة :

الهدى نعمة عظمى من الله تعالي ينعمها على من يصطفي من عباده . ولهذا الهدى أسباب من أخذ بها استحقه ، ومن أعرض عنها خسره ، ذلك لأن النتائج تبع لما اتخذ من أسباب . ومن هذه الأسباب الموصلة إلى الهداية العامة مايلي :

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٩٨٦ ، وانظر : تفسير كلام المنان ج٦ ص ٣٧١ .

(٢) سورة النساء الآية ١٦٨ .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج٣ ص ٦٥ - ٦٦ .

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤٣٥/٢ كتاب التفسير ، تفسير سورة الزمر دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .

أولاً : سلامة الفطرة :

فطر الله تعالى الناس على الاعتقاد بربوبيته ، وأنه خالق العباد جل ثناؤه ، كما أودع في قلوبهم هذا الميل الفطري للاعتراف به سبحانه وتعالى ، لقوله :﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[1] وقال تعالى :﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] .

إن الفطرة هي إقامة الإنسان وجهه لدين الله تعالى حنيفاً ،دون التفات عن ذلك ، وإنها الإنابة إلى الله تعالى وتوحيده ونفي الشرك ، وبقدر اجتماع هذه المعاني في الإنسان تكون سلامة الفطر ، يقول الإمام القرطبي[3] :«إن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ، ودين الإسلام هو الدين الحق»[4] .

فاخلاص القصد لله تعالى وبذل الوسع لدينه جل وعلا ، المتضمن حبه وعبادته سبحانه وتعالى من لوازم فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولو تُرِكَ الإنسان على فطرته هذه دون أن ترد عليه المبادئ والأفكار والمعتقدات والأخلاق الفاسدة ، لما مال عن الحق ، ولا اختار غير الإيمان بالله تعالى واتباع الإسلام، ولكن تتغير هذه الفطرة ، وتفسد بسبب مايغزوها من مبادئ وأفكار قال رسول الله ﷺ:**[مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جماء هل تسحون بها من جدعاء]**[5] .وعامة السلف يرون أن المراد بالفطرة في هذا الحديث ، الإسلام[6] ، بمعناه العام الذي هو الخضوع لأمر الله .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي ، كان معروفاً بورعه وزهده وعلمه ، له العديد من المصنفات العلمية ، منها الجامع لأحكام القرآن توفي رحمه الله في شوال سنة ٦٧١ هـ . انظر : التفسير والمفسرون ٤٥٧/٢.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٤٩/٣ .

(٥) صحيح مسلم ٢٠٤٧/٤ كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة حديث رقم ٢٦٥٨ .

(٦) انظر : فتح الباري ٢٤٨/٣ ، ٥١٢/٨ .

ولو كانت الفطرة شيء غير الإسلام لكان الرسول ﷺ قد ذكر الإسلام من جملة الأديان التي ذكرها .

وقد قال الإمام ابن تيمية في ذلك :«فالصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهي فطرة الإسلام ، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال :﴿... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى ...﴾[1] وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة ... ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل ، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، ولكن سلامة القلب ، وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلماً»[2] .

فهذه الفطرة يكون فيها القلب على حاله الأكمل، والروح على حالتها المثلى حيث خلو القلب من الأمراض واشتغاله بالتوحيد ، والروح عارفة بالله تعالى مقرة له بالعبودية ، ولكن قد يعترض هذه الفطرة صوارف الأهواء والشهوات ، ومفاسد تجعلها تحيد عن الحق فيترتب على ذلك الانحراف والغفلة ، ولذلك جاءت الرسالات السماوية والإسلام لرد الإنسان إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

فالفطرة إن بقيت سليمة ، لا ينطفئ نورها أبداً ولكنه قد يغيب أو يخبو عند فترات ضعف الضمير أو غيبته ، ولكن سرعان مايشتعل نورها مضيئاً للإنسان ظلمات المعصية والغفلة ، خاصة حصول مايسمى بوخز الضمير ، وإحساسه بالألم والندم عند ارتكاب بعض الجرائم [3] .

وهكذا يتضح أن بقاء الفطرة موحدة نقية - غير كافرة ولا ملوثة - سبب من أسباب هداية الإنسان إلى الطريق المستقيم .

ثانياً الإيمان :

تبين فيما سبق[4] أن الإيمان هو التصديق ، وأنه قول واعتقاد وعمل . وقد ورد العديد من الآيات القرآنية التي توضح أن الإيمان سبب للهداية ومن ذلك قول الله

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٢) مجموع الفتاوي لابن تيمية ٤/٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٣) انظر : في علم الأخلاق د. محمد الجليند ص ١ مطبعة التقدم - القاهرة

(٤) انظر : ص ٣ - ٤ من هذا البحث .

تعالى : ﴿... وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ...﴾(1) وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ...﴾ (2) أي بسبب مامعهم من الإيمان يثيبهم الله حسن الثواب وهو الهداية ، فيهديهم في الدار الدنيا إلى الصراط المستقيم ،وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم ، فقد سبق التوضيح أن الهداية إلى منزل المسلم في الجنة، ، مرتبة من مراتب الهداية .

وكذلك قوله تعالى ﴿... فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(3) .فالهداية هنا للذين آمنوا لما في قلوبهم من صفاء ورغبة في الوصول إلى الحق ، لأن المؤمن هو الذي يصدق الحق الذي يأتيه عن طريق رسل الله تعالى ، ويحرص على الالتزام به ، وقد مدح الله تعالى أبابكر رضي الله عنه لتصديقه القوي للنبي ﷺ فقال تعالى :﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(4) (5) .

وأما المكذب ، الجاحد لما جاءه من حق من عند الله تعالى ، فهو بعيد عن الهداية الربانية ، ذلك أنه أنكر ماجهل من دين الله تعالى ، وكان الأولى به أن يتثبت طالباً الحجة والبرهان ، بدلاً من أن يعادي الحق الذي جهله ولم يعلمه . قال تعالى :﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدقِ إِذجَاءَهُ أَلَيسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلكَافِرِينَ﴾(6) .

والآيات التي توضح كفر المكذبين كثيرة . قال تعالى :﴿وَيلٌ يَومَئِذٍ لِّلمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَومِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾(7) وقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾(8) فهذا المكذب بيوم الدين ، وهو أحد أركان الإيمان الستة ،حرم من الإيمان بسبب إنكاره يوم القيامة ، ولا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بجميع أركان الإيمان ، على الوجه الذي دل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . حيث قال الله تعالى مبيناً هذه الأركان

---

(1) سورة التغابن الآية ١١ .

(2) سورة يونس الآية ٩ .

(3) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

(4) سورة الزمر الآية ٣٣ .

(5) انظر : التفسير الكبير ج٢٥ ص ٢٤٣ .

(6) سورة الزمر الآية ٣٢ .

(7) سورة المطففين الآيات ١٠ - ١٢ .

(8) سورة الإنشقاق الآية ٢٢ .

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ،وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(١) .

وفي حديث جبريل عليه السلام عندما سئل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال ﷺ عن الإيمان : [... **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره** ...] (٢) .

ومن حجد شيئاً من هذه الأركان خرج عن دائرة الإيمان وخالف سبب الهداية ، فضل وصار من الكافرين حيث قال تعالى :﴿... وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(٣) ، وقال تعالى :﴿... وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(٤) .

إن الإنسان مخلوق من مخلوقات الله تعالى ،وصلاح حياته مرهون بمعرفة الحق واتباعه ، وفساد حياته نتيجة محتومة لجهله بالحق وتمرده عليه وإن عرفه . ولما كان الله تعالى هو الحق ، ومنه الحق ، وأمره وتدبيره هو الحق ، فإن سبب فساد الحياة البشرية ، يرجع إلى الكفر بالخالق ، وبما أنزل من الحق ، وسبب صلاح الحياة كلها هو الإيمان بالله تعالى وبما نزل منه ، ولذلك قال تعالى :﴿... فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾(٥) .

هذه هي النتيجة الواضحة لاتباع الحق هداية في الدنيا وسعادة في الآخرة ، ولا يتبع الحق فيهتدي إلا من آمن بالله تعالى ، واستشعر وجوده وصفاته وعظمته سبحانه ، وأما من أعرض عن الحق واتبع الهوى وسبل الضلال ، فإن معيشته في الدنيا ضيقة شديدة ، وفي الآخرة العمى والضلال ، وإن واقع المسلمين اليوم ومافيه من شدة وصعوبة ومذلة إلا بسبب الإعراض عن ذكر الله تعالى .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٢) صحيح مسلم ٣٦/١ . كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان و الإسلام والاحسان رقم ٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٨ .

(٤) سورة النساء الآية ١٣٦ .

(٥) سورة طه الايات ١٢٣ - ١٢٦ .

إن من رحمة الله تعالي على عباده ،أن أرسل لهم الرسل لبيان حقيقة الإيمان ، لأن الإنسان لوحده دون بيان لا يستطيع أن يتعرف على أركان الإيمان بصورة واضحة مفصلة ، كما أن إرسال الرسل حجة على العباد حيث قال تعالى :﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(١) .

ثالثاً : التأمل والتفكر :

إن من أسباب الهداية التي وهبها الله تعالى للإنسان، التأمل والتفكر، الذي يهدي إلى معرفة الله وإفراده بالوحدانية ، فالذي يستخدم ملكاته العقلية ، ويميز بها الحق من الباطل والخير من الشر ، أفضل بكثير من ذلك الإنسان الذي عطل قدراته الفكرية ، وهبط بعقله إلى مستوى الحيوان الذي حرم من نعمة العقل ، قال الله تعالى : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(٢) .

وقد وردت آيات قرآنية كثيرة تحض على إعمال العقل والتأمل والتفكر في مخلوقات الله تعالى ، ذلك لأن هذا التعقل يعرف الانسان بربه ، ويعرفه بمغزى وجوده في هذه الدنيا ، وأنه ماخلق إلا لعبادة الله تعالى ، ومن هذه الآيات الدالة على أهمية التفكر قوله تعالى في مدح أولى الألباب:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٣) .

وقال تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَابِصَاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٤) .

ومما ورد أيضاً ، قول الله تعالى :﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(٥) .

إنها دعوة للنظر والتفكر والتأمل في هذه المخلوقات التي خلقها الله تعالى ، إذ توحي إلى

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الرعد الآية ١٩ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٠ – ١٩١ .

(٤) سورة سبأ الآية ٤٦ .

(٥) سورة الغاشية الآيات ١٧ – ٢٠ .

قدرة خالقها ، فالإبل خلقت على هذا النحو المناسب للصحراء ، ومع ضخامتها وقوتها ذللها الله تعالى للإنسان بحيث يقودها الصغير فتنقاد ، وتلك السماء التي رفعها الله تعالى بغير عمد، وزينها بالنجوم فالنظرة الواعية المفكرة تكفي لمعرفة الله تعالى والاهتداء إلى الحق ، وأنه تعالى هو الخالق للجبال والأرض والكون . ولذلك عقب الله تعالى في كثير من الآيات بالدعوة إلى التفكر فقال :﴿... كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وقال تعالى ﴿... وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] وقال تعالى ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3] .

فالإنسان إذا نظر بعقله إلى الحقائق الكونية بتفكير حر وعقل مجرد ، فلابد أن يصل في نهاية المطاف إلى معرفة الله تعالى ، ومن ثم الإقرار بوحدانيته والهداية إلى الصواب ، ولذلك ذكر عن أبي الدرداء -رضي الله عنه - أنه قال «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[4] .

ومع ورود الآيات الحاضة على التفكر والتعقل ، فقد ذم الله تعالى الذين لم ينظروا إلى الحقائق الثابتة بعين عقولهم ،ولم يتأملوا في خلق السموات والأرض ، ووصفهم بأنهم كالأنعام بل أضل . حيث قال تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[5] وقال تعالى : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[6] .فقد حكم الله تعالى عليهم بأنهم أضل من الأنعام وأنهم شر الدواب ، لكونهم زودوا بعقول تفضلهم عليها ، ولكنهم جحدوا هذا التفضيل ، بعدم إعمال عقولهم . فكانوا أدنى منزلة من الأنعام ،وأقل قيمة .

وهذا الإهمال لعقولهم حرمهم من نعمة الهداية في الدنيا ، وبالتالي يكون ذلك سبباً لعذاب الآخرة حيث يقول الله تعالى عن الكافرين :﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[7] .

---

(١) سورة يونس الآية ٢٤ .

(٢) سورة الحشر الآية ٢١ .

(٣) سورة الرعد الآية ٤ .

(٤) مختصر منهاج القاصدين ص ٣٦٧ .

(٥) سورة الفرقان الآية ٤٤ .

(٦) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

(٧) سورة الملك الآية ١٠ .

إن خطاب القرآن الكريم للعقل والعقلاء في مجال التفكر، راجع إلى أن العقل عليه مدار التكليف ، فإذا ذهب العقل ذهب التكليف ،لأن الله تعالى إذا أخذ ماوهب أسقط ما أوجب لقول الرسول ﷺ : **[رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل]**(١) .

فالشريعة الإسلامية تعد الإنسان مكلفاً إذا كان مدركاً مختاراً ، فإذا انعدم أحد هذين العنصرين ارتفع التكليف عن الإنسان ، ومعنى الإدراك في المكلف أن يكون متمتعاً بقواه العقلية ، فإن فقد عقله بعاهة أو مرض عارض ،أو جنون فَقَدْ فَقَدَ الإدراك(٢) .

والعقل كما هومعلوم أهم وسيلة للبحث وتلقي الحقائق ومواجهتها ، وقد جعل الله تعالى حرية التفكير كمقوم أساسي لإثبات إنسانيته ، كما زوده بنوازع فطرية تدعوه إلى البحث والنظر والتفكير والاستدلال ، من أجل الهداية والوصول إلى الحق .

إن الإسلام دين العقل ، فهو يخاطب العقل بقضاياه ومقرارته ، بمعنى أنه يصحح فهم النظر ، ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق ، ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة .

ويخاطب القرآن الكريم العقل ، بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقراراته،فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المد لولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن ، أو عدم التسليم بها فهو كافر، وليس هو حكماً في صحتها أو بطلانها، وليس مأذوناً له في قبولها أو رفضها . لأنه لو كان له أن يقبلها أو يرفضها بعد إدراك مدلولها ما استحق العقاب من الله تعالى على الكفر بعد البيان ،فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله وما المقصود بها والمراد منها(٣) .

إن الله تعالى جعل مع العقل الشرع ، ليتبين الإنسان الحق لأن ذلك :﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾(٤) ،حيث إن الله تعالى يعلم أن العقل الذي وهبه للإنسان أداة قاصرة بذاتها

---

(١) سنن الترمذي ٤٣٨/٢ كتاب الحدود باب ماجاء فيمن لا يجب عليه حد رقم ١٤٢٣ ، وسنن أبي داود ١٤١/٤ كتاب الحدود ، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً رقم ٤٤٠٣ .

(٢) انظر : التشريع الجنائي في الإسلام عبد القادر عودة ٥٨٤/١ . دار الكتاب العربي – بيروت.

(٣) انظر : في ظلال القرآن ج٢ ص ٨٠٦ ص ٨٠٧ .

(٤) سورة غافر الآية ٥٤ .

عن الوصول إلى الهدى ، فشاءت رحمته وشاءت حكمته أن يبعث للناس الرسل ،وألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ، حيث قال ﴿...وَمَاكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1] .

ولكن حيث يستقل العقل البشري بنفسه بعيداً عن الوحي ، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف وسوء الرؤية ،وسوء التقدير والتدبير وذلك بسبب ماركب في الكيان البشري من شهوات وأهواء ، ونزوات، لابد لها من ضابط ، وهذا الضابط لا يمكن أن يكون العقل البشري وحده ، بل لابد من وجود الوحي والرسالة ،لتقويم مسار العقل عند اعوجاجه .

والذين يزعمون أن العقل البشري درجة من الأصالة في الصواب كدرجة الوحي باعتبار أن كليهما - العقل والوحي - من صنع الله ، فلابد أن يتطابقا ، هؤلاء إنما يستندون إلى تقريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر ، ولم يقل بها الله سبحانه ، وهو قول المعتزلة الذين حكموا العقل في الأشياء ، واعتمدوا عليه اعتماداً مطلقاً ، حيث رأوا أن العقل يغني عن الوحي ، وإنما يقولون في هذه القضية ، غير ما يقول الله تعالى ، فالله قد جعل حجته على الناس الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة عقلهم البشري ولا حتى فطرتهم، بما فيها من معرفة رب واحد والإيمان به ،لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف ، وأنه لا عاصم لعقل ولا فطرة إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي [2].

وهكذا تبين مكان التفكر والتأمل والعقل في الإسلام ، وأن ذلك هو سبب من أسباب هداية الإنسان إلى طريق الحق والصواب ، طريق القرآن والإسلام .

رابعاً : صدق النية والإرادة :

لقد حث القرآن الكريم والسنة النبوية على صدق النية والإرادة والقصد ، وعلى أن يكون الإنسان مخلصاً في عمله لله تعالى ، لما لذلك من أثر في قبول العمل والهداية إلى الحق ، حيث قال تعالى :﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[3] ، فالله سبحانه تعالى أمر بإخلاص العبادة

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن سيد قطب ١٠٩٧/٢ - ١٠٩٨ ، وانظر : تاريخ المذاهب الإسلامية الامام محمد ابو زهرة ١٣٠/١ .

(٣) سورة البينة الاية ٥ .

له ، العبادة المتمثلة في كل عمل يقوم به الإنسان متقرباً إلى الله تعالى به من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك .

كما روى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال **[إنما الأعمال بالنية ،وإنما لامرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ،ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه]** [1] .

يوضح الحديث أن قبول العمل مداره إخلاص النية ،«فإن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة ، وقد تكون نيته مباحة فيكون العمل مباحاً ، فلا يحصل له ثواب ولا عقاب ، فالعمل في نفسه صلاحه وفساده وإباحته، بحسب النية الحاملة عليه المقتضية لوجوده ، وثواب العامل وعقابه وسلامته ، بحسب النية التي صار بها العمل صالحاً أو فاسداً أو مباحاً»[2] .

وقد فهم السلف حقيقة صدق الإرادة والقصد ، فنادوا بإخلاص النية ، فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- يقول :«أفضل الأعمال أداء ماافترض الله تعالى ،والورع عما حرم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى»[3] .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال :«لاينفع قول إلا بعمل ، ولاينفع قول ولاعمل إلا بنية ، ولاينفع قول ولاعمل ولانية إلا بما وافق سنة»[4] .

فالعمل لابد فيه من موافقة الكتاب والسنة لقول الرسول ﷺ: **[من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد]** [5].

إن النية شديدة التقلب صعبة المعالجة ، فعن سفيان الثوري أنه قال «ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي لأنها تنقلب علي»[6] .

ويقول الإمام الغزالي «الإنسان فيه خطر عظيم ، لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي ، وذلك مما يخفي غاية الخفاء

---

(١) صحيح مسلم ١٥١٥/٣ كتاب الإمارة باب ،إنما الأعمال بالنية ،حديث رقم ١٩٠٧ .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ١٤ .

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٣٥٠ ، جامع العلوم والحكم ص ١٧ .

(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٦ .

(٥) صحيح مسلم ١٣٤٤/٣ كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور حديث ١٧١٨ .

(٦) جامع العلوم والحكم ص ١٦ .

، فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص ، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه ، وإن بالغ في الاحتياط » [١].

ولذلك أثنى الله تعالى على أصحاب الإرادة المستقيمة والنية الصادقة بقوله :﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾[٢] .أي يريدون طاعته ، ويخصلون فيها ، ويتوجهون إلى الله تعالى لا إلى غيره ، وخص الغداة والعشي بالذكر - وهما أول النهار وآخره - لأن الشغل الدنيوي غالب فيها على الناس ، ومن كان وقت الشغل مقبلاً على العبادة فهو في أوقات الفراغ من الشغل أعمل ، أو لعله أراد أنهم يدعون ربهم في كل الأوقات وعبر عن الكل بالبداية والنهاية [٣].

إن الإرادة الخيرة والنية الصادقة تتجه بأعمالها إلى الآخرة حيث قال تعالى :﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٤] أي من كانت ارداته متجهة إلى ثواب الدار الآخرة ، وعمل لها عملها اللائق بها، المناسب لها ، وكان هذا العمل المعبرور قائماً على الإيمان واليقين ، فذلك هو الفائز السعيد ، وقد حدث ذلك بالفعل فهذا ، عمرو بن الجموح رضي الله عنه كان رجلاً أعرجاً ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون المشاهد مع رسول الله ﷺ فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال إن بني يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك ، فو الله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال رسول الله ﷺ أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك ، وقال لبنيه ماعليكم أن لاتمنعوه لعل الله يرزقه شهادة ، فخرج معه فقتل يوم أحد ، وقيل إنه أخذ سلاحه وولى فلما أقبل على القبلة قال : اللهم أرزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي خائباً. وفيه قال رسول الله ﷺ:**[والذي نفسي بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح ولقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته]**[٥] .لقد صدق النية مع الله تعالى فصدقه الله .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣٧٤/٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٢ .

(٣) انظر : موسوعة أخلاق القرآن ٢٢/٤ .

(٤) سورة الاسراء الآية ١٩ .

(٥) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس ١٧/٢ - ١٨ ، كتاب المغازي للواقدي ٢٦٤/١ - ٢٦٥ .

وورد في سنن النسائي " **أن رجلاً من الأعراب جاء فآمن بالنبي ﷺ ثم قال أهاجر معكم ، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه فكانت غزاة غنم النبي ﷺ فيها شيئاً فَقَسَّمَ وَقَسَم له ، فقال ماهذا ؟ فقال قسمته لك ، قال : ماعلى هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمي هاهنا ، وأشار بيده إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة . فقال إن تصدق الله يصدقك ، فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به النبي ﷺ محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار . فقال النبي ﷺ أهو هو ؟ قالوا نعم . قال صدق الله فصدقه ثم كفن في جبة النبي ﷺثم قدمه فصلى عليه فكان ماظهر من صلاته :اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً وأنا شهيد على ذلك**"(١) .

وروى مسلم في صحيحه عن جابر يقول : **[قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أين أنا يارسول الله إن قتلت ؟ قال : في الجنة . فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قتل]**(٢) . وروى أيضاً عن البراء - رضي الله عنه - قال : جاء رجل من بني النبيت - قبيلة من الأنصار - فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وإنك عبده ورسوله . ثم تقدم فقاتل حتى قتل . فقال النبي ﷺ :**[عَمِلَ هذا يسيراً وأُجِرَ كثيراً]**(٣) .

هذه أمثلة مضيئة في تاريخ الأمة الإسلامية ، تدل بوضوح على حقيقة صدق النية والإرادة ، واستجابة الله تعالى لهذا الصدق بهدايتهم إلى الجنة . إنهم قدوة لمن أراد العزة والشهادة ، والجهاد في سبيل الله تعالى .

إن النية والإرادة تعظم العمل أو تصغره حيث قال عبد الله بن المبارك «رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية»(٤). ولذلك فإن الله تعالى لا ينظر إلى صورة الإنسان أو جسده أو لونه، ولكن ينظر إلى نيته وعمله حيث قال الرسول ﷺ :**[إن الله لاينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم]**(٥) .وبين الرسول ﷺ مركز صلاح

---

(١) سنن النسائي ٢/ ٦٠ -٦١ كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهداء .

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٩ كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد حديث رقم ١٨٩٩ .

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٩ كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد حديث رقم ١٩٠٠ .

(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٧ .

(٥) صحيح مسلم ٤/ ١٩٨٧ كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم حديث رقم ٢٥٦٤ .

الإنسان أو فساده وهو القلب فقال : **[إن في الجسد مضغة إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسد كله ألا وهي القلب]** [(١)] .

وعدم النية الصالحة في العمل تفسده ، فقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ: **[من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله]** [(٢)] ، فمن ابتغى بعمله وجه الله تعالى أثابه الله تعالى على ذلك . ولكن من قصد بعمله الرياء والشهرة ، ولم يقصد وجه الله تعالى ، فسد عمله ، وسئل عنه وعوقب عليه ،ويدل على ذلك مارواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول **[إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه ، رجل استشهد فأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نعمه فَعَرَفَها . قال فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ . . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن . فَأُتِيَ به فَعَرفَه نعمة فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال كذبت . ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم . وقرأت القرآن ليقال قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله . فَأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال كذبت . ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه . ثم ألقي في النار]** [(٣)] .

وهكذا يتبين أثر صدق النية والإرادة في قبول العمل ، وحصول الهداية ، وبعدم وجود النية الصادقة يحرم الإنسان من الهداية ومن قبول العمل .

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٢٢٠ ، كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات حديث رقم ١٥٩٩ .

(٢) صحيح مسلم ٣/١٥١٣ ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، حديث رقم ١٩٠٤ .

(٣) صحيح مسلم ٣/١٥١٤ ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار حديث رقم ١٩٠٥ .

خامساً : الخلو من الموانع العائقة :

وهذه الموانع تتمثل في الكفر والشرك والنفاق والظلم واتباع الهوى والفسق والمعصية ، ذكر القرآن الكريم في كثير من آيات أن هذه موانع تصد عن الهداية وفيما يلي نذكر بعض هذه الآيات :

أما مانع الكفر فقد ورد فيه قوله تعالى :﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٢) وقوله تعالى :﴿... كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٣).

ومانع الشرك ودر فيه قوله تعالى : ﴿... وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(٤) . وقوله تعالى :﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾(٥) .

ومانع النفاق ، جاء فيه قوله تعالى :﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾(٦) .وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(٧) .

ومانع الظلم جاء فيه قوله تعالى :﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٨) .وقوله تعالى :﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٩) .وقوله تعالى :﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾(١٠) .

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٧ .

(٣) سورة غافر الآية ٧٤ .

(٤) سورة النساء الآية ١١٦ .

(٥) سورة الأحقاف الآية ٥ .

(٦) سورة النساء الاية ٨٨ .

(٧) سورة التوبة الآية ٦٨.

(٨) سورة آل عمران الآية ٨٦ .

(٩) سورة الأحقاف الآية ١٠ .

(١٠) سورة نوح الآية ٢٤ .

وأما مانع اتباع الهوى ، ففيه قوله تعالى :﴿... فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[1] .وقوله تعالى :﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] .

وأما مانع الفسق فقد ورد فيه قوله تعالى :﴿... وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[4] .وقوله تعالى : ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[5] .

وأما المعصية فقد ورد قوله تعالى ﴿... وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[6] .

هذه موانع وحواجز تمنع الإنسان من الهداية ، ومن أراد الهداية فلابد له من إزالة هذه الموانع العائقة للهداية ،وهذه الموانع للهداية من جهة أخرى هي أسباب للضلال ، ولذلك سيتم شرحها في مبحث قادم .

سادساً : عدم الإستجابة لأعداء هدى الله :

إن من أسباب الهداية عدم الاستجابة لأعداء هدى الله تعالى من الإنس والجن ، الذين يزينون للإنسان الباطل ليبعدوه عن الحق ، ويعلنون العداء للأنبياء وأتباعهم من المؤمنين حيث قال تعالى :﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[7] .

---

(١) سورة ص الآية ٢٦ .

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦ .

(٤) سورة المائدة الآية ١٠٨ .

(٥) سورة المنافقون الآية ٦ .

(٦) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

(٧) سورة الأنعام الآية ١١٣ .

ولذلك حذر الله تعالى من اتباع خطوات الشياطين فقال :﴿... وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) .قال الإمام ابن كثير معقباً :«كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان ... إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة،وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً »(٢) .

إن أول كيد كادة الشيطان للإنسان هو مافعله مع آدم وحواء عليهما السلام ، حيث أقسم الأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما ، وأنه يريد لهما الخلود في الجنة ،ليأكلا من الشجرة ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٣) .

قال الامام ابن القيم مبيناً خبث الشيطان ومكره: «علم عدو الله أنهما إن أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما ، فإنها معصية ، والمعصية تهتك ستر مابين الله وبين العبد ، فلما عصيا إنهتك ذلك الستر ، فبدت لهما سوآتهما ، فالمعصية تبدي السوأة الظاهرة والباطنة ... فإن الله أنزل لباسين ، لباساً ظاهراً يواري العورة ويسترها ، ولباساً باطناً من التقوى ، يجمل العبد ويستره ، فإذا زال عنه هذا اللباس ، انكشفت عورته الباطنة ، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع مايسترها »(٤) .

لم يتوقف ابليس اللعين عن مكره وخداعه ،وتربصه بابن آدم بعد مافعل مافعل ، بل أقسم ليقعدن لهم في طريق الحق ليحرفهم عنها، حيث ذكر الله تعالى على لسانه :﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(٥) . والمقصود أنه توعد بأن

(١) سورة البقرة الآية ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣) سورة الأعراف الآيات ٢٠ - ٢٢ .

(٤) اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ١/١٢٠ ، دار ابن زيدون - بيروت .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٦- ١٧ .

يقعد على طريق الحق ليحرف العباد عنه وعن دين الله وكتبه ويشككهم في آخرتهم فيكذبون بالبعث والجنة والنار ، وذلك بترغيبهم في الدنيا وتزيينها لهم .

قال الإمام ابن القيم :«السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير ، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه ، وتارة على شماله ، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه ، فأي سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له ، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه ، أو يعيقه ،ويبطئه ، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له وخادماً ومعيناً وممنياً ، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك»(١) .

ويلاحظ أن الشيطان بعد أن أعلن التزيين والإضلال للعباد علم ،أن من اعتصم بالله تعالى وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله ، لأن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص ، وإنما يكون له الغواية والسلطان على من تولاه ، وأشرك مع الله تعالى ، ولهذا استثنى من تأثيره عباد الله المخلصين يقول تعالى :﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(٢) وقال تعالى :﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾(٣) فنفى الله تعالى سلطان الشيطان وتسلطه على أهل التوحيد والإخلاص ، وأثبت سلطانه وتسلطه على من تولاه وأشرك بالله تعالى .وتسلطه عليهم بالإغواء والإضلال بحيث يدفعهم إلى الكفر والشرك ، ولايدعهم يتركونه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَي الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾(٤) قال ابن عباس رضي الله عنه « تغريهم أغراء»(٥) .

ولا يعني ذلك أن الشيطان يترك المؤمنين والصالحين ، بل إنه يحاول دائماً أغواءهم

---

(١) اغاثة اللهفان ١١٣/١ .

(٢) سورة الحجر الآيات ٣٩ – ٤٢ .

(٣) سورة النحل الآية ٩٩ – ١٠٠ .

(٤) سورة مريم الآية ٨٣ .

(٥) اغاثة اللهفان لابن القيم ١٠٨/١ .

وخاصة أن مداخله كثيرة لقول الرسول ﷺ: **[إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم]**(١) ، فإنه أحرص مايكون على الإنسان عندما يهم بفعل الخير والطاعات ، فيعمل بكل استطاعته لصرفه عنها حيث قال الرسول ﷺ :**[أن أحدكم إذا قام يصلي جاءه الشيطان فلبس عليه حتى لا يدري كم صلى . فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس]** (٢) .

وفي مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال **[إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرافه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك . فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول ، فعصاه وهاجر .ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : تقاتل فتقتل ، فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ قال : فعصاه فجاهد]**(٣) .

إن مثل قلب الإنسان كمثل حصن ، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ويملكه ويستولى عليه ، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه ، ولايقدر على حراسة أبوابه من لايعرفها ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله ، ومداخله الحسد والحرص والغضب والشهوة(٤) ، وغير ذلك من المعاصي .

ولذلك فالحفاظ على القلب وعلاجه من الشيطان ، لا يتم إلا بالاستعاذة الدائمة بالله تعالى من شياطين الإنس والجن ، حيث قال تعالى :﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٥) وقال أيضاً :﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٦) .

وقد كان الرسول ﷺ يتسعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويدل على ذلك مارواه أبو داود

---

(١) صحيح مسلم ١٧١٢/٤ كتاب السلام ، باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خالياً بإمرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانه حديث ٢١٧٤ .

(٢) صحيح مسلم ٣٩٨/١ ، كتاب المساجد ، باب السهو في الصلاة والسجود له حديث ٣٨٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٨٣/٣ .

(٤) انظر : منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص ١٤٣ -١٤٤ ، مكتبة الهدى الاسلامي – كفر الدوار .

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .

(٦) سورة النحل الآية ٩٨ .

من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك قالت :**[جلس رسول الله ﷺ وكشف عن وجهه وقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ...]**[(١)] .

وكان السلف يحرصون على الاستعاذة بالله من كيد الشيطان الرجيم . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل[(٢)] :«سمعت أبي إذ قرأ استعاذ ، يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم»[(٣)] .

والأمر لا يقتصر فقط على شياطين الجن ، بل إن شيطان الإنس لا يقل خطورة عن شيطان الجن ، بل قد يكون أخطر على المؤمنين من شيطان الجن . قال تعالى موضحاً خطر صاحب السوء ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾[(٤)] .

ولذلك فإنه لا يصلح للصحبة كل إنسان ، فهناك صاحب السوء ، وصاحب الخير، أما صاحب الخير فيساعد على الهداية ويدفع وساوس الشيطان ،وأما صاحب السوء فهو مساعد للشيطان أو بصوره أوضح هو شيطان الإنس ،وقد بين الرسول ﷺ هذه الحقيقة بقوله **[مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيئ أصابك من ريحه . ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه]**[(٥)] وهذا تحذير من رسول الله ﷺ من مصاحبة الفاجر ، بل إنه أمر بصحبة المؤمن حيث قال ﷺ :**[لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي]**[(٦)] .وقال أيضاً :**[الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالِل]**[(٧)] وإنّ الإنسان يحشر يوم القيامة مع من صاحب ومن أحب ، فعن أنس بن مالك أن

---

(١) سنن أبي داود ٢٠٦/١ ، كتاب الصلاة ، باب من لم يجهر بالبسملة حديث ٧٨٥ .

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، قيل إنه لم يكن في الدنيا أحد أرى عن أبيه منه ، لأنه سمع منه المسند . وهو ثلاثون ألفاً والتفسير ، ولد سنة ٢١٣ هـ وتوفي سنة ٢٩٠ هـ ، انظر : تهذيب التهذيب ١٤١/٥ – ١٥٣ .

(٣) اغاثة اللهفان ١٠٣/١ .

(٤) سورة الفرقان الآيات ٢٧ – ٢٩ .

(٥) سنن أبي داود ٢٦٠/٤ ، كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس حديث رقم ٤٨٢٩ .

(٦) سنن ابي داود ٢٦٠/٤– ٢٦١ ، كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس حديث ٤٨٣٢ .

(٧) سنن أبي داود ٢٦١/٤ ، كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس ، حديث ٤٨٣٣ .

أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ **[ما أعددت لها ؟]** قال : حب الله ورسوله قال : **[أنت مع من أحببت]**(١) .

لقد فهم صحابة رسول الله ﷺ هذه المعاني فأوصوا بها حيث قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :«عليك بإخوان الصدق تَعِش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك مايقليك - يبغضك - منه ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من يخشى الله ، ولاتصاحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى»(٢) .

إن شياطين الإنس والجن يزينون للإنسان ، ويوردونه الموارد التي يخيل إليه أن فيها منفعته ثم يوصلونه إلى هلاكه ،ثم يتخلون عنه ومن ذلك مافعل الشيطان مع المشركين في بدر ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٣) حيث إنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك ، وقال : أنا جار لكم من بني كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء ، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت ، لنصر رسوله فر عنهم وأسلمهم للموت(٤) .

كما أنه يوقع الإنسان في الكفر أو الزنا والسرقة أو القتل ثم يتخلي عنه للضلال والهلاك حيث قال الله تعالى عنه : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(٥) وهذا السياق لا يختص بالذي ذُكِرت عنه القصة - وهي قصة الراهب الذي أضله الشيطان فزنى بالمرأة التي إئتمن عليها ، ثم قتلها وولدها بأمرمن الشيطان ، ثم دل أهلها عليه ، وكشف أمره لهم ، ثم أمره بالسجود له ، فلما فعل فر عنه وتركه - بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر ،

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٣٢/٤ ، كتاب البر والصلة ، باب المرء مع من أحب، حديث رقم ٢٦٣٩ .

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٩٣ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١١٦/١ - ١١٧ .

(٥) سورة الحشر الآية ١٦ .

لينصره ويقضي حاجته ، فإنه يتبرأ من ويسلمه ، كما يتبرأ منه أوليائه في النار[1] .

وهذا حوار يبين حقيقة موقف شياطين الإنس والجن من أتباعهم يوم القيامة، وكيف يتبرأون منهم ، قال الله تعالى :﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] .

سابعاً : الرغبة الجادة في معرفة الحق والتزامه :

إن الرغبة في معرفة الحق والتزامه ، سبب من أسباب الهداية ، ولذلك يلاحظ أن كثيراً ممن بحثوا عن الحق وتعرفوا عليه اهتدوا وآمنوا . ويدل على ذلك قصة الرجل الذي قتل مائة نفسه وكان يبحث عن توبة .

يروي مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ، أن نبي الله ﷺ قال **[كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً . فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب . فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً . فهل له من توبة ؟ فقال : لا فقتله . فكمل المائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالم . فقال : إنه قتل مائة نفس . فهل له من توبة ؟ فقال : نعم . ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا . فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم . ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك في صورة آدمي . فجعلوه بينهم . فقال قيسوا ما بين الأرضين . فإلى أيتهما كان أدنى . فهو له . فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد . فقبضته ملائكة الرحمة]**[3] .

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١١٧ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢١ – ٢٢ .

(٣) صحيح مسلم ج٤ ص ٢١١٨ ، كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل ، حديث رقم ٢٧٦٦ .

لقد اهتدى هذا الرجل بسبب بحثه الجاد لمعرفة الحق بسؤاله العلماء ، وتوبته الصادقة التي أوصلته بعد موته إلى ملائكة الرحمة ، رغم أنه لم يعمل خيراً قط، إلا أنه عزم على معرفة الحق وتوجه بالتوبة الصادقة إلى الله تعالى .

وموقف آخر يدل على ذلك وهو قصة إسلام سلمان الفارسي(١) .رضي الله عنه حيث يرويها الحاكم في مستدركه بتفصيلاتها مبيناً أنه علم الحق عن طريق راهب ، أخبره أن نبياً سيظهر واسمه أحمد ، وأمره باتباعه قائلاً له :«ياسلمان إن الله عز وجل سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد ... يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم ، وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب ، فأما أنا : فإني شيخ كبير ولا أحسبني أدركه ، فان أدركته أنت فصدقه واتبعه قال :قلت وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه.قال اتركه فإن الحق فيما يأمر به ... »(٢) .

وتنقل سلمان رضي الله عنه بين البلاد حتى لقي قوماً فأخذوه وباعوه لإمرأة من الأنصار ، وعندما علم برسول الله ﷺ في المدينة أراد أن يتأكد مما قال له الراهب ، فتبين له أن الرسول ﷺ لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية ورأى الخاتم من ناحية كتفه الأيسر فأعلن اسلامه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله(٣) . لقد علم سلمان رضي الله عنه الحق وبحث عنه وآمن به فكان ذلك سبباً لهدايته .

وأما إسلام عمر بن الخطاب ، فتتمثل قصته في أنه عندما علم بإسلام أخته وزوجها ، ذهب إلى بيتها وضربها فشجها بسبب إسلامها ، وأمام إصرارها على الحق ، رأى صحيفة معها ، فطلب قراءتها ، وكانت فيها آيات من كتاب الله تعالى ، فطلبت منه أن يتطهر قبل لمسها ، فعندما قرأها علم أن الإسلام هو الحق فأسلم وآمن (٤) .

---

(١) سلمان الفارسي أبو عبد الله . صحابي جليل ، يقال له سلمان الخير ، أصله من أصبهان ، أول مشاهده الخندق ، مات سنة أربع وثلاثين هجرية ، يقال بلغ ثلاثمائة سنة ، انظر : تقريب التهذيب ص ٢٤٦ ترجمة رقم ٢٤٧٧ .

(٢) المستدرك للحاكم ج٣ ص ٦٠١ ص ٦٠٢ كتاب معرفة الصحابة، قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٣) انظر : المصدر السابق ج٣ ص ٦٠٢ ، كتاب معرفة الصحابة ، قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٤) انظر : فتح الباري ج٧ ص ١٧٦ ، وانظر : خاتم النبيين محمد أبوزهرة ج١ ص ٤٥٠ .

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ يبحثون عن الحق لاتباعه ويسألون عن الباطل لاجتنابه ، ومن الأمثلة على ذلك مارواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : **[كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، مخافة أن يدركني ، فقلت يارسول الله : إنا كنافي جاهلية وشر فجاء الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا من شر ؟ قال نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن ، قلت ومادخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر ، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال نعم ، دعاه على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت فما تأمرني إن ادركني ذلك ، قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك]** (١) .

ونختم بهذا الموقف الذي يبين من عرف الحق فاتبعه ، ومن عرف الحق فأعرض عنه والأول هو موقف الأنصار والثاني موقف اليهود من دعوة الإسلام ، فأما الأنصار فدخلوا في الإسلام أفواجاً ، وأما اليهود فأعرض اكثرهم عن الحق ، ولكن كيف عرف الأنصار الإسلام ، ودعوة النبي الجديد محمد ﷺ لأول مرة ؟ .

إنهم عرفوا ذلك عن طريق اليهود حيث أنه كلما وقع شيء بين العرب واليهود ، «هدد اليهود العرب بأن نبياً قد آن أوان بعثته ، سيكونون من أتباعه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم» (٢) .كان هذا القول من اليهود بداية معرفة الحق من قبل الأنصار ، فعند عرض الرسول ﷺ عليهم الإسلام ورأوا مافيه من خير ، تذاكروا قول اليهود فيما بينهم حيث قال بعضه لبعض :« ياقوم تعلمون والله إنه النبي الذي تَوَعدكُم به يهود فلا يسبقنكم إليه» (٣) .

وفي المقابل نجد أن أكثر اليهود الذين عرفوا الحق ، وكانوا يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم كما قال تعالى :﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤) .ولكنهم مع معرفتهم للحق ، إلا أنهم أعرضوا عنه وكفروا برسول الله ﷺ .

---

(١) فتح الباري ٣٥/١٣ ، كتاب الفتن ، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ، سنن أبي داود ٩٣/٤ ، كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها حديث رقم ٤٢٤٤ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ١٢٦ ، ط السابعة ١٩٧٨م دار الفكر - بيروت .

(٣) خاتم النبيين محمد أبوزهرة ٥٩٢/١ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

فالأصل في الإنسان أن يتبع الحق وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ويترك الباطل ، والتعصب والهوى ، الذي يؤدي إلى الضلال والهلاك ، حيث قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1] . إنه التعصب الأعمى ، والهوى المضل عن الحق المودي إلى الباطل يقول تعالى :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[2] .

ب - أسباب الهداية الخاصة :

لمزيد من الإهتداء ، هناك بعض الأسباب إذا أخذ بها المسلم توصله إلى الإزدياد من الهدى ، ومن هذه الوسائل الاستقامة والتقوى والمجاهدة .

أولاً : الاستقامة :

ذكر الله تعالى الاستقامة وحض عليها في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم ، وكلمة الاستقامة تفيد معنى الاعتدال والاستواء حيث يقال استقام له لأمر أي اعتدل[3] .

والاستقامة في لغة القرآن هي الإقامة على الإسلام ، والدوام على هدى الله عز وجل ، والاستجابة لأوامره ، والانتهاء عن محارمه . وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الاستقامة بقوله :«استقاموا بطاعة الله ولم يروغوا روغان الثعلب»[4] وقال سفيان الثوري «عملوا على وفاق ماقالوا »[5] وقال الفضيل بن عياض :«زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية»[6] ، وقيل معنى الاستقامة إخلاص العمل لله والإقامة على طاعته[7] .

قال الإمام ابن تيمية :«الاستقامة كلمة جامعة أخذة بمجامع الدين ، وهي القيام بين

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٠ .

(٢) سورة الحج الآية ٦٢ .

(٣) انظر : الصحاح للجرهري ٢٠١٧/٥ مادة قوم .

(٤) فتح القدير للشوكاني ٥١٧/٤ .

(٥) المرجع السابق ٥١٥/٤ .

(٦) نفس المرجع ٥١٥/٤ .

(٧) انظر : نفس المرجع ٥١٥/٤ .

يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد ، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات»[1] .

وأساس الاستقامة ، الاهتداء إلى طريق الله تعالى والإيمان به ، فالمؤمن المستقيم ثابت على طريق الوحدانية ، دائم في إخلاص العبادة لربه، حيث قال تعالى :﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] .

واتباع الطريق المستقيم هو الموصل للحق ، وأما الطرق الملتوية والمتفرقة فهي طرق الشيطان التي تؤدي بصاحبها إلى الضلال والهلاك ،ولذلك فسر أبو بكر الصديق رضي الله عنه الاستقامة بقوله :«الاستقامة ألا تشرك بالله شيئاً»[3] .

إن خير دليل إلى طريق الاستقامة هو القرآن الكريم الذي يقول في شأنه الله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾[4] فكتاب الله تعالى يهدي إلى الحالة التي هي أقوم الحالات وأعدل الطرق ، وهي طريق الإيمان بالله وبرسله والعمل بطاعته ، ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُم أَن يَسْتَقِيمَ﴾[5] .

إن تحقيق أمر الاستقامة بما يعنيه معناها أمر صعب ، ولذلك كان ثواب من قام بها عظيم من الله تعالى .حيث قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[6] فهذه الآيات بينت مفتاح الطريق إلى الاستقامة وهو الاعتراف لله بالربوبية ، وأنه وحده لا شريك له ، ثم استقاموا على التوحيد ولم يلتفتوا لغيره ، والتزموا الصراط المستقيم ، فثوابهم عظيم حيث أن الملائكة تتنزل عليهم ، لتخبرهم أن شأنهم عدم الخوف والحزن حيث

---

(١) موسوعة أخلاق القرآ د. أحمد الشرباصي ١٦٥/١ ط الأولى سنة ١٤٠١هـ دار الرائد العربي – بيروت .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .

(٣) فتح القدير للشوكاني ٥١٧/٤ ، موسوعة أخلاق القرآن ١٦٦/١ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٩ .

(٥) سورة التكوير الآية ٢٧ – ٢٨ .

(٦) سورة فصلت الآية ٣٠-٣١ .

قال عطاء :«لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولاتحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم»[1] وتخبرهم هذه الملائكة بالولاية الإلهية «ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب ونجا من كل مخافة»[2] .

كما أن الاستقامة عامل مهم في الهداية إلى الجنة حيث أن الملائكة تبشر من استقام بدخول الجنة وأن لهم فيها ما يشتهون .

لقد أمر الله تعالى النبي ﷺ بالاستقامة حيث قال تعالى:﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ...﴾[3] فاستجاب الرسول ﷺ لهذا الأمر أفضل استجابة فكان هو المثل الأعلى في الاستقامة في قوله وعمله ، وفي ظاهره وباطنه ، وبعد أن أظهر القدوة الحسنة في الاستقامة ، أمر أتباعه وحثهم عليها حيث روت السنة النبوية أن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يارسول الله قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : «قل آمنت بالله فاستقم»[4] .

فطبق الصحابة رضوان الله عليهم الاستقامة التي أمرهم الله تعالى بها ورسوله ﷺ خير تطبيق فكانوا القدوة لمن جاء بعدهم .

ثانياً : التقوى :

التقوى سبب آخر من أسباب ومثبتات الهداية ، وقد أراد الله تعالى فيها إحكام العلاقة بين الإنسان وخالقه ، وبين الإنسان والخلق ، ولذلك من الملاحظ أن هذه الكلمة ومشتقاتها تذكر غالباً في آيات القرآن الكريم الأخلاقية والاجتماعية ، والمراد بها أن يتقي الإنسان مايغضب ربه ، ومافيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره ، فتقوى العبد لله تعالى أن يجعل بينه وبين مايخشاه وقاية تقية منه ، ولذلك هي «امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه بفعل كل مأمور به، وترك كل منهي عنه حسب الطاقة»[5] .

وقد تحدث الصحابة عن التقوى والمتقين فبينوا حقيقة ذلك ،فهذا معاذ بن جبل رضي

(١) فتح القدير للشوكاني ٥١٥/٤ .

(٢) المرجع السابق ٥١٥/٤ .

(٣) سورة الشورى الآية ١٥ .

(٤) صحيح مسلم ٦٥/١ كتاب الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام رقم ٣٨ .

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج١ ص ٢٤٦ .

الله عنه عندما سئل عن المتقين قال :«قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله تعالى»[1]. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه :«المتقون الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك مايعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به»[2] .

وأما أبو الدرداء[3] رضي الله عنه عندما سئل عن التقوى قال :«تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض مايرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً ، يكون حجاباً بينه وبين الحرام ، فإن الله قد بين للعباد الذين يصيرهم إليه فقال :﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[4] . فلا تحقرون شيئاً من الخير ولا شيئاً من الشر أن تتقيه»[5]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن التقوى أيضاً :«أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، وأن يُشكر فلا يُكفر»[6] .

وسئل أبو هريرة رضي الله عنه عن كيفية التقوى فقال : «أرأيت إن مشيت على أرض ذات شوك ماذا كنتَ تصنع ؟ قال : أتوقى واتحذر ، قال هكذا أبداً فكن»[7] ، وورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأله أبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى ، قال فما عملت ؟ قال شمرت واجتهدت ،قال فذلك التقوى»[8] .

ولذلك فالتقوى في أصل معناها «جعل النفس في وقاية ، ولاتجعل النفس في وقاية إلا بالنسبة لما يخاف ، فخوف الله أصلها ، والخوف يستدعي العلم بالمخوف ،ومن هنا كان الذي يعلم الله هو الذي يخشاه ، وكان الذي يخشاه هو الذي يتقيه»[9] .

والمتقون هم الذين يقون أنفسهم عذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة ، وذلك بالوقوف

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٦٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٣) هو عويمر بن عامر ، يقال عويمر بن قيس بن زيد ، وقيل عويمر بن ثعلبة بن عامر أبو الدرداء الأنصاري الخزرجي من أفاضل الصحابة وحكمائهم وفقهائهم تأخر إسلامه فلم يشهد بدراً وشهد أحداً ومابعدها من المشاهد توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه . انظر :الإصابة في تمييز الصحابة ج٣ ص ٤٥ .

(٤) سورة الزلزلة الآيات ٧ – ٨ .

(٥) جامع العلوم والحكم ص ١٦٨ .

(٦) فتح القدير للشوكاني ج١ ص ٣٦٨ ، دليل الفالحين ج١ ص ٣٤٨ ، جامع العلوم والحكم ص ١٦٨ .

(٧) دليل الفالحين ج١ ص ٢٤٦ الحاشية .

(٨) في ظلال القرآن ج١ ص ٣٩ .

(٩) روح الدين الاسلامي عفيف طبارة ص ٢١١ .

عند حدوده ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه وهو سبحانه لا يأمر إلا بما فيه خير للإنسانية ولا ينهي إلا عما يضرها .

عني القرآن الكريم بالتقوى عناية كبرى وأكثر من توجيه النفوس إليها ، بل هو في حد ذاته هدى وموعظة للمتقين لكونهم يهتدون ويتعظون به حيث قال الله تعالى :﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١) . وقال : ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٢).أي دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل ، وأهل السعادة من أهل الشقاء ، فلابد إذاً لمن يريد أن يكون من المهتدين أن يأتي الله بقلب سليم خالص يخشى الله ويتقيه .

وقد حض الله المؤمنين على التقوى بقوله :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣) .وهي التقوى التي تحق لله تعالى ، وهي أن لا يترك العبد شيئاً مما يلزمه فعله ، ولا يفعل شيئاً مما يلزمه تركه ، ويبذل في ذلك جهده ومستطاعه ، وحصل خلاف حول هذه الآية هل هي منسوخة أم لا ؟ فعلق القرطبي عليها بقوله:«ذكر المفسرون أنها لما نزلت هذه الآية قالوا يارسول الله من يقوي على هذا ؟ وشق عليهم ذلك فأنزل الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ...﴾(٤) فنسخت هذه الآية»(٥) واعتمدوا في ترجيح النسخ على أن المراد بقوله «حق تقاته» هو القيام بجميع مايستحقه الله تعالى من طاعة واجتناب معصيته . وهذا أمر يعجز الخلائق فكيف بالواحد ؟ فوجب أن تكون مسنوخة وأن يعلق الأمر بالاستطاعة (٦).

وقيل إن قوله تعالى:«اتقوا الله حق تقاته» مبين بقوله «فاتقوا الله ما استطعتم» والمعنى اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم .أي بقدر استطاعتكم ، وهذا أصوب لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى(٧) ويؤيد هذا القول ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) سورة البقرة الآية ٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

(٤) سورة التغابن الآية ١٦ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص ١٥٧ ، فتح القدير للشوكاني ج١ ص ٣٦٧ .

(٦) انظر : دليل الفالحين ج١ ص ٢٤٨ .

(٧) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص ١٥٧ ، انظر : فتح القدير ج١ ص ٣٦٧ ، وانظر : دليل الفالحين ج١ ص ٢٤٨ .

حيث قال «في قوله «حق تقاته» لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا يأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم»(١).

هذا الرأي هو الراجح لأن فيه الجمع بين الآيات ، فالإنسان مأمور أن يفعل قدر استطاعته ، في المأمورات والفضائل ،وأما المحظورات فلابد من اجتنابها بالكلية وهنا لا بد من التقوى حق تقاته ويؤكد ذلك قول الرسول ﷺ **[إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه]**(٢) .

وللتقوى ثلاث مراتب :

الأولى : التوقي عن العذاب المخلد في النار ، بالتبري عن الشرك وعليه قول الله تعالى : ﴿... وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ...﴾ (٣).

الثانية: التجنب عن كل مايؤثم من فعل،وترك حتى الصغائر ، وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ...﴾(٤) .

الثالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ، ويتبتل إليه بكل كيانه ، وهو التقى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٥) على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى (٦).

ولمكانة التقوى وفضلها عند الله تعالى نجد أن الرسول ﷺ كان يطلبها دائماً في دعائه حيث يقول **[اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى]**(٧) كما أنه أمرنا بالتقوى ، فقال :**[إتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن]**(٨) .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج١ ص ٣٦٨ .

(٢) صحيح مسلم ج٢ ص ٩٧٥ كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر حديث ١٣٣٧ .

(٣) سورة الفتح الآية ٢٦ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٩٦ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

(٦) انظر : دليل الفالحين ج١ ص ٢٤٧ ، انظر : المستخلص في تزكية الأنفس سعيد حوي ص ٣٤٣ ، ص ٣٤٤ .

(٧) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٨٧ كتاب الذكر باب التعوذ من شر ماعمل حديث رقم ٢٧٢١ .

(٨) سنن الترمذي ج٤ ص ٣٥٥ كتاب البر والصلة باب ماجاء في معاشرة الناس حديث رقم ١٩٨٧.

ثالثاً : المجاهدة :

إن من أسباب الهداية ، المجاهدة ، سواء كانت متمثلة في جهاد النفس من الشيطان أو جهاد أهل الفسوق والعصيان ، أو جهاد الكفار والمرتدين ، فكلها تدخل في نطاق الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ، حيث قال :﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١) . فأسند الله تعالى لنفسه الهداية والسبل ، للإشارة إلى «أنه تعالى يتولى الهداية بنفسه للمجاهدين فيه ، وأنه ينعم عليهم بكمال النعمة والجزاء»(٢) .

فالذين جاهدوا في الله تعالى ليصلوا إليه ويتصلوا به ، والذين احتملوا إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا ، والذي صبروا على فتنة النفس ، وعلى فتنة الناس والأعداء ، الذين حملوا أعباءها وساروافي ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب ، أولئك لن يتركهم الله تعالى وحدهم ولن يضيع إيمانهم بل سينظر إليهم من عليائه ، فيرضى عنهم ،وينظر إلى صبرهم وإحسانهم وجهادهم فيهديهم (٣).

والحقيقة إن الجهاد أقسام، فهناك جهاد النفس ، بإبعادها عن الشهوات والوقوع في المحرمات والصبر على الإبتلاءات ، لقول الرسول ﷺ **[المجاهد من جاهد نفسه في الله]**(٤) وإنما كان هذا هو المجاهد ، لأن الهداية إلى السبل ، والتي منها القتال في سبيل الله ، لا تكون بلا مجاهدة ، ومن ثم فالقتال نفسه لايكون قتالاً مقبولاً إلا بعد هداية ، ولا هداية إلا بعد مجاهدة(٥). ولهذا كان لابد إذا أراد الإنسان أن يتغلب على عدوه ، أن يتغلب أولاً على نفسه وهو اه، حتى إذا دعا داعي الجهاد لملاقاة العدو المعتدي على كرامته ووطنه كان بطلاً جسوراً في مواجهة الأعداد . وفي ذلك يقول الجنيد :«والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً ، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوه ، ومن نُصِرَت عليه نُصِرَ عليه عدوه»(٦) .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج١ ص ٣٠٢ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ص ٢٧٥٢ .

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ص ١٨٥ ، جامع الأصول لابن الأثير ج٩ ص ٤٧٠ حديث رقم ٧١٦٨ .

(٥) انظر : تربيتنا الروحية سعيد حوي ص ١٥١ .

(٦) الفوائد لابن القيم ص ٨١ .

فجهاد الأعداء وهو قسم من أقسام الجهاد ، لايكون ناجحاً إلا إذا سبقه جهاد النفس ، لأن الإنسان إذا لم يستطع مواجهة نفسه وكبح جماحها وهواها فكيف سيقدر على مواجهة عدوه ؟ !! .

وهناك الجهاد باللسان لبيان شرائع الإسلام ، ودحض الأباطيل المفتراة على الإسلام ، والجهاد بالمال بانفاقه في وجوه البر ، ولاسيما على المجاهدين في سبيل الله لمقاتلة الأعداء ، وفي ذلك يقول الله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١) وقال رسول الله ﷺ :**[جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم]**(٢) .

وهناك جهاد في خدمة وبر الوالدين حيث جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال :**[أحي والداك ؟ قال نعم . قال : ففيهما فجاهد]**(٣) .

إن المسلم لا ينفك عن الجهاد في سبيل الله تعالى أبداً ،فهو في جهاد دائم ، حيث يجاهد نفسه ليحملها على الطاعة ، وعلى بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى ، كما يجاهد بلسانه وقلمه ليبين معاني الإسلام ويرد على افتراءات المبطلين ، كما يجهاد في جميع أحواله ، في الرخاء والشدة ، وفي القوة والضعف ، وفي الغنى والفقر ، وذلك كله في جميع أحواله يوصل إلى الهداية ، التي طريقها ليس هيناً سهلاً ، بل محفوفة بالمكاره والصعاب ، وعلى قدر المشقة يأتي الأجر ، وعلى قدر المشقة في المجاهدة تأتي الهداية .

---

(١) سورة الصف الآيات ١٠ - ١١ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج٣ ص ١٢٤ ص ١٥٣ ص ٢٥١ .

(٣) صحيح البخاري ج٤ ص ١٨ كتاب الجهاد باب الجهاد بإذن الأبوين ، صحيح مسلم ج٤ ص ١٩٧٥ ، كتاب البر والصلة باب بر الوالدين حديث ٢٥٤٩ .

الفصل الثاني
الضلال
مفهومه و أنواعه و أسبابه

المبحث الأول : تعريف الضلال ومفهومه .

المطلب الأول : الضلال لغة واصطلاحاً .

المطلب الثاني : مفهوم الضلال .

المبحث الثاني :أنواع الضلال وأسبابه .

المطلب الأول : أنواع الضلال .

المطلب الثاني : أسباب الضلال .

المبحث الأول
تعريف الضلال ومفهومه

كما اتضح في مناقشة الهدى ، فإن البحث في مفهوم الضلال يتضمن كذلك معرفة الضلال لغة واصطلاحاً ثم النظر في حقيقة هذا المفهوم ، والذي سيتبين من خلاله أن هناك خلافاً واضحا حول حقيقة مفهوم الضلال ، لأن كل من أراد أن يبحث هذه القضية نظر إليها من جانب الإرادة الإلهية والموقف منها ، فمن اعتبر الإنسان مسيراً ومجبراً مطلقاً ، دون أن يكون له إرادة واختيار ، نظر إلى الضلال على أنه خلق الضلال في الإنسان جبراً ، دون أن يكون للإنسان كسب أو فعل ، وفي مقابل هذا القول ، وقفت المعتزلة حيث يرون أن الإنسان خالق لأفعاله وموجد لها ، دون أن يكون لإرادة الله وقدره أثر فيها ، وهذا دفعهم إلى تأويل الآيات التي تتعلق بالضلال حسب مايوافق آراءهم وأهواءهم .

أما المنهج الصحيح السليم في مفهوم الضلال ، فهو منهج السلف المعتمد على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، حيث يتبين أن الله تعالى خالق لهذا الضلال ومقدر له ، ولكن الضلال ناتج عن فعل العبد وكسبه .

المطلب الأول : الضلال لغة واصطلاحاً :

أولاً الضلال لغة :

ورد في لسان العرب أن «الضلال والضلالة ، ضد الهُدى والرَّشاد »[1] . وجاءت كلمة الضلال في اللغة على عدة معان :

---

(١) لسان العرب ج٣ ص٢٦٠١ مادة ضلل ، وانظر: القاموس ج٤ ص ٥ . مادة ضلل .

١ - بمعنى ضاع وهلك : حيث قال تعالى ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...﴾[١] وقال : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[٢] أي في هلاك[٣] .
«وضل الشيئ يضل ضلالاً . ضاع»[٤] .

٢ - بمعنى الحكم والتسمية : فيقال أضله فلان أي سماه ضالاً وتضليل الرجل أن تنسبه إلى الضلال[٥] .

٣ - وبمعنى الوجدان : فيقال : أضللت فلاناً أي وجدته ضالاً ، كما قالوا أجبنته أي وجدته جباناً ، وابخلته أي وجدته بخيلاً ، وأحمدته أي وجدته محموداً[٦] .

٤ - وبمعنى الإغواء عن الحق : كما ورد في قوله تعالى :﴿... فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[٧] وقال تعالى : ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ...﴾[٨] . وقال :﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾[٩] .فهذا هو الإضلال بمعنى الأغواء عن الحق ،والحمل على الضلال والدخول فيه[١٠] .

٥ - وبمعنى البطلان : حيث قال تعالى : ﴿... أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[١١] ، وقال أيضاً ﴿... وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[١٢] أي لايبطلها[١٣] .

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٤ .

(٢) سورة القمر الآية ٤٧ .

(٣) لسان العرب ج٣ ص ٢٦٠٣ مادة ضلل ، وانظر : مختار الصحاح ص ٣٨٣ ، وانظر : قاموس الشريعة ج٥ ص ٢٠٥ .

(٤) القاموس المحيط ج٤ ص ٥ ، وانظر : لسان العرب ج٣ ص ٢٦٠٣ مادة ضلل .

(٥) انظر : أساس البلاغة للزمخشري ص ٣٧١ ، وانظر : لسان العرب ج٣ ص ٢٦٠٣ ، وانظر : مختار الصحاح ص ٣٨٣ .

(٦) انظر : لسان العرب ج٣ ص ٢٦٠٢ مادة ضلل .

(٧) سورة الأحزاب الآية ٦٧ .

(٨) سورة الفرقان الآية ٢٩ .

(٩) سورة الفرقان الآية ٤٢ .

(١٠) انظر : لسان العرب ج٣ ص ٢٦٠٢ .

(١١) سورة محمد الآية ١ .

(١٢) سورة محمد الآية ٤ .

(٧) انظر : لسان العرب ج٣ ص ٢٦٠٢ ، وانظر : مختار الصحاح ص ٣٨٣ ، وانظر : قاموس الشريعة ج٥ ص ٢٠٦ .

٦ - ويأتي الضلال بمعنى النسيان : حيث ورد في لسان العرب:«والضلال النسيان وفي التنزيل العزيز:﴿... مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ...﴾[1] . أي تغيب عن حفظها أو يغيب حفظها عنها ... إن تنس إحداهما تذكرها الأخرى الذاكرة»[2] .

٧ - ويأتي الضلال بمعنى الإندثار والتفرق «وضل الرجلُ : مات وصار تراباً فضل فلم يتبين شيء من خلقه ، وفي التنزيل العزيز:﴿... أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ...﴾[3] معناه أإذا متنا وصرنا تراباً وعظاماً فضللنا في الأرض ، فلم يتبين شيء من خلقنا » [4].

٨ - ويأتي بمعنى الدفن والتغييب : ففي لسان العرب «وأضللته دفنته ... وأُضِلَ الميت إذا دفن» [5] وفي موطن آخر من لسان العرب « أضللت الشيء إذا غيبته ، وأضللت الميت دفنته»[6] .

يتبين مما سبق أن الضلال من الناحية اللغوية يأتي على عدة معان ، وهذه المعاني تكون بحسب موقع اللفظ من العبارة التي ورد فيها حيث يأتي على معنى ضاع وهلك أو حكم وسمى ،أو الوجدان،أو أُغوي عن الحق ، أو أبطل أو نسي ، أو اندثر وتفرق أو دُفِنَ وتغيب .

ثانياً : الضلال اصطلاحاً :

ورد في كتاب التعريفات للجرجاني عن الضلال أنه «فقدان مايوصل إلى المطلوب»[7]

وقيل هو «سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب»[8] .

وورد تعريف آخر هو «الإنحراف عن الإسلام»[9]

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٢) لسان العرب ج٣ ص ٢٦٠٢ .

(٣) سورة السجدة الآية ١٠ .

(٤) لسان العرب ج٣ ص ٢٦٠٤ .

(٥) المصدر السابق ج٣ ص ٢٦٤٠ .

(٦) نفس المصدر ج٣ ص ٢٦٠١ .

(٧) التعريفات للجرجاني ص ١٣٨ .

(٨) المصدر السابق ص ١٣٨ .

(٩) الإسلام وثقافة الإنسان ، سميح الزين ص ٩٧ .

ومن خلال استقراء الآيات القرآنية وتتبعها يتبين أن الضلال هو اتباع سبل الشيطان والزيغ عن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً .

وذلك لأن كل حالة من هذه الحالات تعتبر ضلالاً ، فاتباع سبل الشيطان ضلال ، وانحراف العقيدة ضلال ، والانحراف عن أخلاق الإسلام ضلال ، حيث قال الله تعالى :﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عن سَبِيلِهِ ...﴾[1] وقال :﴿... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ واللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2] .

المطلب الثاني : مفهوم الضلال :

حصل خلاف في فهم وتحديد مفهوم الضلال ، وهذا راجع إلى الموقف من الأعمال التي يقوم بها الإنسان وعلاقتها بالإرادة الإلهية . وكون الإنسان مجبراً على أفعاله أم مخيراً . وفيما يلي توضيح ذلك :

أولاً : مفهوم الضلال عند السلف :

لقد فهم السلف معنى الضلال من خلال آيات الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فهموا ذلك فهماً حقيقياً من غير تكليف أو شطط ، وهذا يرجع إلى أنهم آمنوا بآيات الله تعالى على مراد الله تعالى ، كما آمنوا بما قاله رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ ، ولذلك كانوا هم القدوة لمن أراد أن ينجو من الضلال .

إن الله تعالى خلق الإنسان وخلق له إرادة واختياراً يحاسب عليه ، ووضع له منهاجاً وشريعة ، وأرسل له رسلاً ليبينوا له الحق . فإن التزم بأوامر الله تعالى ونواهية ، وسار على منهاج الله تعالى الذي وضعه له اهتدى ، ولكن إن أعرض عن منهاج الله تعالى ولم يتبعه ، تُرِكَ لهواه وكان مصيره الضلال ، بسبب اتباعه للشهوات وبتسلط الشيطان عليه . وهذا راجع لإرادته واختياره ، فمن المعلوم أن شغل الشيطان الشاغل هو الوسوسة لابن آدم وإضلاله ، ذلك أنه يجري في ابن آدم وفي جسمه كجري الدم في العروق . حيث قال رسول

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الصف الآية ٥ .

الله ﷺ:[إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم] [1]،وهذا يدل على شدة اتصال الشيطان بالإنسان وعدم مفارقته له ، كما أنه تحذير من رسول الله ﷺ للإنسان من كيد الشيطان .

إن من فضل الله تعالى أن فَطَرَ الإنسان على محبته وتأليهه وعبادته،حيث قال :﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا ...﴾[2]ولكن إذا لم يعمل الإنسان بما فطر عليه وخلق له عوقب على ذلك بتزين الشيطان مايفعله من الشرك والمعاصي ، والتي صادفت قلباً قابلاً لتأثير الخير والشرب ، بخلاف مالو كان فيه الخير الذي يمنع ضده ، ففي هذا الحال فإن الشر لا يتمكن منه ، لأن الشيطان لا يقوى على ذلك لقول الله تعالى على لسان ابليس :﴿... فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[3] فاخلاص العبادة لله تعالى واتباع منهاجه تمنع الشيطان من القلب ، ولكن إن كان القلب فارغاً ، تمكن الشيطان منه ، فتزداد المعصية ويزداد الإعراض ، ويكون هذا عقوبة له لعدم إخلاصه ، وهذا عدل من الله تعالى حيث قال :﴿وَمَنْ أَعرَاضَ عَن ذِكرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أَعمَى﴾[4] وقال أيضاً: ﴿... وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾[5] . يقول الامام الرازي معقباً على هذه الآية:«إن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فينتج أن متابعة الهوى ، يوجب سوء العذاب »[6] .

فمتابعة الهوى توجب الضلال ، لأن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية والمحرمات ، وهذا يؤدي إلى إلف هذه الحرمات فتصبح عند فاعلها عادة مما يؤدي إلى التغطية على القلب وقفله .

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص ١٧١٢ كتاب السلام ، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بإمرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ، حديث رقم ٢١٧٤ ، جامع الأصول ج١ ص ٣٤٤ ، كتاب الاعتكاف حدث ١٢٨ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) سورة ص الآيات ٨٢ – ٨٣ .

(٤) سورة طه الآية ١٢٤ .

(٥) سورة ص الآية ٢٦ .

(٦) التفسير الكبير للرزاي ج٢٦ ص ٧٥ .

لقد تبين من خلال استقراء الآيات القرآنية وتتبعها أن الله تعالى لا يضل إلا من يستحق الضلال ، فلا يضل إلا من أعرض عن ذكره وعمل أعمالاً تسوقه إلى الضلال ، فالضلال له أسباب حيث قال تعالى :﴿في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ...﴾[1] وقال : ﴿... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ...﴾[2] .أي فلما عدلوا عن الحق ، بإرادتهم وقصدهم . صرف الله قلوبهم عن قبول الحق ، وقال تعالى : ﴿... وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[3] وقال أيضاً ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[4] إلى غير ذلك الآيات التي توضح حقيقة ضلال الضالين . وقال رسول الله ﷺ :**[...وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا]**[5] .

وهكذا يتبين أن الضلال لا يقع بالإنسان من أول وهلة وإنما بعد بيان وتوضيح ودعوة ، ولذلك يوضح الإمام إبن القيم حقيقة الضلال بقوله :«القرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة ، حيث أمره بالإيمان أو بينه له ، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه ، والتأكيد في البيان والإرشاد ، وتكرار الإعراض منهم ، والمبالغة في الكفر والعناد ، فحينئذ يطبع على قلوبهم ، ويختم عليها ، فلا تقبل الهدى بعد ذلك ، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع ، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية ، فتأمل هذا المعنى في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[6][7] .

وهذا القول من الإمام ابن القيم يوضح حقيقة موقف السلف من الضلال ، حيث استدل بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :«قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير»[8] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠ .

(٢) سورة الصف الآية ٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦ .

(٤) سورة غافر الآية ٢٨ .

(٥) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠١٢ كتاب البر والصلة ، باب قبح الكذب حديث ٢٦٠٧ .

(٦) سورة البقرة الآيات ٦ – ٧ .

(٧) شفاء العليل ص ٩١ .

(٨) المصدر السابق ص ١٠٦ .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية مبيناً ومؤكداً موقف السلف من حقيقة الضلال :«إن مايبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ، وإن كانت خلقاً لله تعالى ، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها ، فالذنب يكسب الذنب ، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها ، فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضا »[1] .

إن الضلال الذي يحدث للإنسان لا يجبر عليه جبراً ولا يقهر عليه كما يظن البعض ، بل يحدث ذلك بإرادته واختياره . لأنه لا يقع الضلال إلا إذا فعل الإنسان الاسباب التي توصل إليه ، فالكفر والذنوب إن تتابعت على القلب أغلقته وقفلته ، وحينئذ يأتي الختم والطبع وهذا تؤكده السنة النبوية حيث قال الرسول ﷺ :**[إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب ، صقل قلبه ، وإن عاد ، زيد فيها ، حتى تعلوا قلبه]** ، وهو الران الذي ذكره الله تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[2] »[3] .

ويؤكد حقيقة فهم السلف للضلال ،وكون الإنسان غير مجبر على ذلك ، موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الرجل الذي قال له ماأرى لي من الأجر شيئاً إن كان ذلك بقضاء وقدر ، فقال له علي رضي الله عنه :«ويحك لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حتما ، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل الكثير ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يطع مكرهاً ، ولم يرسل الأنبياء لعباً ، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً ، ولاخلق السموات والأرض ومابينهما باطلاً ﴿... **ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾[4] »[5] .

تبين مما سبق أن كثيراً من الآيات القرآنية توضح أن الإنسان يتحمل مسؤولية ضلاله، وينسب الضلال إليه ،وأما ماورد في قوله تعالى ﴿... **فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ**...﴾[6]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٧ .

(٢) سورة المطففين الآية ١٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد ج٢ ص ٢٩٧ ، سنن الترمذي ج٥ ص ٤٣٤ ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة ويل للمطففين رقم ٣٣٣٤ .

(٤) سورة ص الآية ٢٧ .

(٥) نهج البلاغة ٥٧٨/٤ ، والمغنى للقاضي عبد الجبار ٣٢٩/٨ ، والمسايرة في علم الكلام ص ٧٤ .

(٦) سورة فاطر الآية ٨ .

فإضافة الضلال هنا إلى المشيئة الإلهية يحتاج إلى توضيح ، والتوفيق يكون كالتالي :

إن إضافة الضلال إلى مشيئة الله تعالى تعني أنه لايحدث الضلال جبراً عن الله تعالى ودون مشيئة وعلمه ، كما ورد في كلمة علي رضي الله عنه :«ولم يعص مغلوباً» فلو لم يرد خلق الضلال لما وجد أصلاً شأن بقية الأفعال التي تقع بإرادته لا بإكراه أو سهو أو نحوهما ، فالله تعالى هو الخالق ، والعبد هو الكاسب ، ولذلك قال أهل السنة:«إضافتها إليهم فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقاً ومشيئة ، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها ، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة ، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه ،لاستحال وقوعها منهم ، إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا مالم يشأه الله»[١] حيث قال سبحانه وتعالى :﴿... وَلَو شَآءَ اللَّهُ مَافَعَلُوهُ فَذَرهُم وَمَا يَفتَرُونَ﴾[٢] .

وأما بالنسبة لزوال الضلال عن الإنسان فهذا يحتاج إلى توفيق من الله تعالي ، حيث يقول الإمام ابن القيم «إن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك ، والخذلان أن يخلي بينك وبينها ، فالعباد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ... فإن وفقهم فبفضله ورحمته وإن خذلهم فبعدله وحكمه»[٣] .

إن موقف السلف واضح من زوال الضلال عن الإنسان حيث يوضحه إبن القيم بقوله «ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان ، بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه وضرب عليه القفل ، ذلك الختم والطابع والقفل ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله ، ويرشده بعد غيه ،ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده ،حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر،لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان»[٤] ويؤكد هذا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول في دعائه «اللهم إن كنت كتبتني شقياً فأمحني وأكتبني سعيداً فإنك تمحو ماتشاء وتثبت»[٥] .

كما أنه «قرأ قارئ عنده ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٦] .وعنده

(١) شفاء العليل ص ٥٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٧.

(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ج١ ص ٣٣٦ (بتصرف) .

(٤) شفاء العليل ص ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٦) سورة محمد الآية ٢٤ .

شاب ، فقال : اللهم عليها أقفالها ومفاتيحهابيدك ، لا يفتحها سواك ، فعرفها له عمر رضي الله عنه وزادته عنده خيراً »[1] .

وهكذا يتبين فهم السلف لحقيقة الضلال ، فقد أثبتوا أن الله تعالى هو الخالق ، والعبد كاسب ، «فمن أضاف الفعل إلى الله حقيقة ، والانفعال إلى المخلوق حقيقة كما أضافها الله تعالي فهو المؤمن حقيقة »[2].

كما تبين أن الضلال يحصل بناء على معاصي الإنسان وأفعاله ونواياه السيئة ، وأن الله تعالى لا يضل إلا من يستحق الضلال ، وذلك بفعل الأسباب التي تؤدي به إلى الضلال،ومع ذلك فإن رحمة الله قريبة،فإن أراد هداية إنسان بعد ضلالة هداه ، ويؤكد ذلك الواقع ، حيث أن كثيراً من الناس يكون في بداية حياته كافراً وضالاً ، ثم بعد ذلك يسلم ويحسن إسلامه وإيمانه .

ثانياً : مفهوم الضلال عند الجبرية :

تبين مماسبق أن الجبرية يعتقدون أن الإنسان لا يوجد أفعاله وليس له مما ينسب إليه من الأفعال شيء،بعبارة أخرى يقوم مذهب الجبرية على نفي الفعل حقيقة عن العبد،وإضافته إلى الله تعالى، يوضح موقفهم هذا الإمام إبن القيم بقوله :«قالوا العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها لا تأثير له في وجودها البتة ... وغلا غلاتهم فقالوا بل هي عين أفعال الله »[3] .

ويذكر ابن المرتضى موقف الجهم بقوله :«إن الجهم بن صفوان ذهب إلى أن الله تعالى خالق لأفعال العباد فيهم وليسوا محدثين لها ولا مكتسبين»[4] .

فنفى الجهم بذلك فعل العباد وكسبهم ، وخالف النصوص القرآنية الصريحة في إثبات الكسب للعبد حيث قال الله تعالى :﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[5] وقال :﴿... لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...﴾[6] .

---

(١) شفاء العليل الآية ٩٠ .

(٢) معارج القبول ج٢ ص ٣٥٠ .

(٣) شفاء العليل الآية ٤٩ .

(٤) ايثار الحق على الخلق لابن المرتضي ص ٣١٦ .

(٥) سورة المدثر الآية ٣٨ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

كما أنهم نفوا مشيئة العبد واختياره في حين أن الله تعالى أثبتها ولكن بعد مشيئته حيث قال : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(1)] ولكن الجبرية مع ذلك نفوها ،وكذلك نفوا أن يكون المكلفون مختارين غير مجبورين ، ولذلك يقول الجهم بن صفوان :«إن القادر على الحقيقة هو الله وحده ،وهو الفاعل حقاً ، ومن سواه ليس بفاعل على الحقيقة ولا كاسب أصلاً ، بل هومضطر إلى جميع مافيه من حركة وسكون»[(2)] .

وأما بالنسبة لإضافة الأفعال إلى العباد ، فهي عندهم نسبة مجازية لا حقيقة لها ، يقول جهم:«إن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يُقال تحركت الشجرة والفلك والشمس»[(3)] .

وبناء على ذلك اعتبروا أن الله تعالى إذا عاقب العبد أو حاسبه لا يحاسبه على أعماله ، وإنما يحاسبه على أعمال نفسه ،لأن الأعمال لا تنسب إلى العبد على الحقيقة، وهذا يظهر من قولهم :«والله سبحانهم وتعالى ، يلوم العبد ويعاقبه ، ويخلده في النار ، على مالم يكن للعبد فيه صنع ، ولا هو فعله ، بل هو محض فعل الله»[(4)].تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

إن الجبرية يعتمدون في أقوالهم على الأدلة التي تثبت قدرة الله تعالى ومشيئته ، والتي تبين أنه لا خالق غيره ،وأنه على كل شئ قدير ، وهذا حق «ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادراً مريداً فاعلاً بمشيئته وقدرته ، وأنه هو الفاعل حقيقة وأفعاله قائمة به ، وأنها فعل له لا لله ، وأنها قائمة به لا بالله»[(5)] .

لقد أدت هذه الأفكار والمعتقدات بالجبرية إلى اعتبار أن العبد مجبر على الضلال ، وأنه ليس له كسب في ذلك لأنه - على حد زعمهم - يعتبر كالريش في مهب الريح ، وأن الأسباب ليس لها علاقة بإضلال ، من ضل حيث يقول عنهم الإمام الرازي «أما أهل الجبر

---

(١) سورة التكوير الآية ٢٨ - ٢٩ .

(٢) شفاء العليل ص ٥١ ، وانظر : ايثار الحق على الخلق ص ٣١٤ .

(٣) مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣٣٨ ، وانظر : شفاء العليل ص ٤٩ ص ٥١ ، وانظر : معارج القبول ج١ ص ٣٣٧ ، وانظر : الملل والنحل ج١ ص ٨٧ ، وانظر : الفرق بين الفرق ص ٢١١ .

(٤) شفاء العليل ص ٤٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٥١ .

فقد حملوه على أنه تعالى خلق الضلال فيهم وصدهم عن الإيمان وحال بينهم وبينه»[1] .

وهذا القول مخالف للحق لأنه يؤدي إلى بطلان الرسالة السماوية وبعثة الأنبياء ، كما يؤدي إلى بطلان التكاليف الشرعية ، لأنه إن صح إدعاؤهم أن الله اختار للعبد الضلال وأجبره عليه فلا معنى عندئذ لأن يأمره بالطاعة أو الإيمان .

وكذلك فإن هذا القول يؤدي إلى إنكار الإرادة والمشيئة الإنسانية الثابتة بالكتاب والسنة ، ومخالف أيضاً لإثبات العدل الإلهي في إثابة المطيع ومعاقبة العاصي .

ثالثاً : مفهوم الضلال عند المعتزلة :

إن فهم المعتزلة للضلال هو النقيض لموقف الجبرية حيث يرون أن الإنسان خالقاً لأفعاله ، ومن ثم كان فهمهم للضلالة يتفق مع رأيهم هذا الذي يبينه الإمام الأشعري بقوله :«امتنعت المعتزلة أن تقول إن الله تعالى أضل عن الدين أحداً من خلقه»[2] . وهذا مبني على أصلهم الفاسد «أن أفعال العباد مخلوقة لهم»[3] ومع هذا الأصل أولوا آيات الضلال الواردة في القرآن الكريم على عدة وجوه :

١ - أنهم أولوا الضلال بمعنى التسمية والحكم حيث قالوا : «إن الإضلال هو التسمية بالضلال ، فيقال أضله أي سماه ضالاً ، وحكم عليه به ،وأكفر فلاناً أي سماه كافراً»[4] .

وقولهم هذا ظاهر الخطأ والبطلان وذلك للأدلة التالية :

أولاً : إن من سمى غيره ضالاً ، أو نسبه إلى الضلال،فإنما يقال فيه أنه ضلّله بالتشديد ولا يقال أضله ، ولأنه لا يعرف في اللغة أن أفلعت الرجل : نسبته أو سميته ،وإنما يقال إذا أراد التسمية فعّلتَ حيث يقال خطأته وكفرته وضللته[5] .

ثانياً: لو كان الإضلال من الله تعالى بمعنى التسمية والحكم لوجب أن يقال أن النبي ﷺ قد أضل الكفرة، لأنه سماهم ضالين وحكم بضلالهم ، كما وجب أن يقال إن الكفرة والشياطين والمجرمين قد أضلوا المؤمنين والأنبياء لأنهم قد سموهم ضالين[6] . كما أنه من

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٢٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري ج١ ص ٣٢٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٥ .

(٤) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٠ ،مقالات الاسلاميين ج١ ص ٣٢٥،وانظر:أصول الدين للبغدادي ص ١٤١

(٥) انظر : أصول الدين للبغدادي ص ١٤١ ، وانظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٩٢ .

(٦) انظر : أصول الدين للبغدادي ص ١٤١ ص ١٤٢ .

المعلوم أن فرعون أفسد قومه وأدى بهم إلى الضلال حيث قال تعالى :﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى﴾[1] ولا يصح ولا يعقل أن يكون المراد سمى فرعون قومه ضالين وحكم عليهم ، وماسماهم مهتدين .

ثالثاً : ورد عليهم الإمام الرازي بمثل منطقهم حيث أوقعهم بما اتهموا به الجبرية فقال :« أما التسمية والحكم فهو إن كان في غاية البعد ،لكن الإشكال معه باق ، لأنه إذا سماه الله بذلك وحكم به عليه ، فلو لم يأت المكلف به ،لانقلب خبر الله الصدق كذباً وعلمه جهلاً ، وكل ذلك محال ، فكان عدم إتيان المكلف به محالاً واتيانه به واجباً ، وهذا عين الجبر الذي تفرون منه وإنه ملاقيكم لا محالة »[2] .

٢ - زعم المعتزلة أن الضلال والإضلال هو العذاب والتعذيب ، والإهلاك والمجازاة على الضلال[3] . واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى :﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ* يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾[4] فوصفهم الله تعالى بأنهم يوم القيامة في ضلال ، وذلك لايكون إلا عذابهم »[5] . ودفع هذا القاضي عبد الجبار المعتزلي أن يحمل كل ضلال في القرآن الكريم على العقاب حيث يقول في تعقيبه على قوله تعالى ﴿... يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ...﴾[6] «فلو كان محتملاً مشتركاً لكان لاتعلق لهم في الظاهر ، لأنه ليس بأن يحمل ماقالوه أولى بأن يحمل على ماقلناه من أن يهلك ويعاقب من يستحق ذلك » [7].ويقول أيضاً «ونقول إنه يضل من استحق العقاب بالعاقبة ، وبأن يعدل بهم عن طريق الجنة ، وبأن لا يفعل بهم من الألطاف ما ينفعهم ، ولانقول إنه يضل عن الدين بأن يخلق الضلال فيهم »[8] .

---

(١) سورة طه الآية ٧٩ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٣ .

(٣) انظر : أصول الدين للبغدادي ص ١٤١ ، وانظر : التفسير الكبير ج٢ ص ١٣١ ، وانظر : مقالات الاسلاميين ج١ ص ٣٢٥ .

(٤) سورة القمر الآيات ٤٧ - ٤٨ .

(٥) التفسير الكبير للرزاي ج٢ ص ١٣١

(٦) سورة البقرة الآية ٢٦ .

(٧) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ج١ ص ٦٨ .

(٨) مفهوم العدل في تفسير المعتزلة ص ٣٥٤ .

إن حمل المعتزلة الإضلال من الله تعالى على معنى العقاب والعذاب على الضلالة لا يصح ، ويرجع تأويل المعتزلة هذا إلى مبدئهم القائل بإنكار خلق الله تعالى للضلال بقصد التنزيه ، فوقعوا في إثبات مخلوقات في الكون تحصل دون مشيئة الله تعالى لها،فوقعوا بذلك في شر وضلال عظيم .

وقد بين الإمام البغدادي ، بطلان قولهم بقوله :«ولوكان الإضلال من الله عز وجل ، بمعنى العقاب على الضلالة ، لكان كل من أقام الحد على الزاني والسارق والقاتل والقاذف وشارب الخمر قد أضلهم ، لأنه قد جازاهم على ضلالاتهم وفسقهم »[1] .

وأما استدلالهم بقوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[2] ، فقد فسر الإمام ابن كثير هذه الآية بقوله :«يخبر تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ، وسعر عما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك ، من كافر ومبتدع من سائر الفرَق»[3] .

إن الآية تبين حال المجرمين في الدنيا وكونهم في ضلال عن الحق واتباع للهوى ، ولذلك اختلف العلماء في تفسير كلمة «سعر» .فقيل جمع سعير وهو لهب النار، وقيل وسعر أي وبعد عن الحق ، وقيل بمعنى الجنون [4]. ولا يمنع ذلك أن يكن الضلال في بعض الآيات بمعنى الهلاك ، ولكن لا يكون ذلك على الإطلاق كما يرى بعض المعتزلة .

٣ - حمل الضلال على الإضلال عن طريق الجنة إلى طريق النار حيث يقول القاضي عبد الجبار «ويجوز أن يضاف الضلال إليه تعالىْ بمعنى أن يذهب بهم عن طريق الجنة إلى طريق النار»[5]. واعتبر المعتزلة هذا حقيقة ، وحملاً للفظ على ظاهره ، وليس تأويلاً ، حيث قالوا :«وهذا في الحقيقة ليس تأويلاً بل حملاً للفظ على ظاهره ، فإن الآية تدل على أنه تعالى يضلهم ، وليس فيها دلالة على أنه عن ماذا يضلهم ، فنحن نحملها على أنه تعالى يضلهم عن طريق الجنة »[6] .

---

(١) أصول الدين للبغدادي ص ١٤٢ .

(٢) سورة القمر الآية ٤٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص ٢٦٧ ، وانظر : فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ١٢٩ .

(٤) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ١٢٦ .

(٥) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ج١ ص ٦٧ .

(٦) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣١ .

إن اطلاق الضلال بهذه الصورة على الإضلال عن طريق الجنة لا يصح ، لأنه إن صح في بعض الآيات ، فلا يعني أن يصح على الإطلاق وخاصة في قوله تعالى :﴿... يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ...﴾[1] وهي الآية التي حمل المعتزلة معناها على الإضلال عن الجنة ، حيث أن الآية تتحدث عن مثل ضربه الله تعالى بقوله :﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ...﴾[2] فالإضلال يكون بسبب الإستماع إلى هذا المثل ، وهذه الآيات ، حيث قال تعالى : ﴿... يُضِلُّ بِهِ ...﴾[3] «أي يضل بسبب الإستماع إلى هذه الآيات ، والإضلال عن طريق الجنة ليس بسبب استماع هذه الآيات ، بل بسبب اقدامه على القبائح فكيف يجوز حمله عليه»[4] .

ويرد على المعتزلة أيضاً من خلال تأويلهم لهذا المعنى ، وهو أن الإضلال عن طريق الجنة الذي فهموه لا يعني في حقيقته إلا الاضلال عن الدين .

٤ - أن الإضلال هو التخلية وترك المنع بالقهر والجبر ، وهذا إنما يحديث بترك احداث اللطف والتأييد الذي يفعله الله بالمؤمنين ، فيكون ترك ذلك إضلالاً ، فيقال أضله إذ خلاه وضلاله ، قالوا ومن مجازه قولهم : أفسد فلان ابنه وأهلكه ودمر عليه ، إذا لم يتعهده بالتأديب[6] .

ورد الإمام الرازي على قولهم هذا باسلوبهم ، حيث قال «فهذا إنما يسمى إضلالاً إذا كان الأولى والأحسن بالوالد أن يمنعه عن ذلك ، فأما إذا كان الولد بحيث لو منعه والده عن ذلك لوقع في مفسدة أعظم من تلك المفسدة الأولىْ ، لم يقل أحد أنه أفسد ولده وأضله ، وهنا الأمر بخلاف ذلك ، لأنه تعالى لو منع المكلف جبراً عن هذه المفسدة ، لزمت مفسدة أخرى أعظم من الأولى ، فكيف يقال أنه تعالى أفسد المكلف وأضله بمعنى أنه مامنعه عن الظلال ، مع أنه لومنعه لكانت تلك المفسدة أعظم»[6] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦ .

(٤) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٣ .

(٥) انظر : مقالات الإسلاميين للأشعري ج١ ص ٣٢٥ ، وانظر : التفسير الكبير ج٢ ص ١٣١ .

(٦) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٣ .

٥ - أول المعتزلة الإضلال في نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز ، حيث أن الرجل إذا ضل باختياره عند حصول شيء من غير أن يكون لذلك الشيء أثر في إضلاله ، فيقال لذلك الشيء بأنه أضله[(١)] .

ولذا اعتبروا أن اسناد الضلال إلى الله تعالى هو اسناد إلى السبب لا الحقيقة حيث يقول الزمخشري[(٢)] : «واسناد الإضلال إلى الله تعالى اسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم»[(٣)] .

يلاحظ أن المعتزلة يحاولون الإبتعاد عن القول بخلق الله تعالى لأفعال العباد ، فيفرون إلى المجاز وإلى السببية ، متنكرين للحقيقة حتى أدى بهم ذلك إلى القول بأن الله تعالى سبب الإضلال لا خالقه ، ولذلك يرد ابن المنير على الزمخشري بقوله: «جرى على سنة السببية، في اعتقاد أن الإشراك بالله ، وأن الإضلال ، من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عز وجل ، بل من مخلوقات العبد لنفسه على زعم هذه الطائفة تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ... وهذا من ارتكاب الهوى ، واقتحام الهلكة ، وما أشنع تصريحه بأن الله سبب الإضلال لا خالقه ... واسناد الفعل لله عز وجل مجاز لا حقيقة»[(٤)] .

إن ماينقض قول المعتزلة بصراحة واضحة قول الله تعالى :﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ...﴾[(٥)] .فالله تعالى هو الخالق للضلال ، وهو الجاعل صدورهم ضيقة ، ويوضح ذلك الإمام ابن حزم[(٦)] بقوله : «فبين تعالى في نص القرآن أن إضلاله لمن ضل من عباده إنما هو أن يضيق صدره عن قبول الإيمان ، وأن يحرجه حتى لايرغب في تفهمه والجنوح إليه ، ولا

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٠ .

(٢) هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي صاحب الكشاف وغيره من المصنفات ، كان يظهر مذهب الاعتزال ويناظر عليه توفي بخوارزم سنة ٥٣٨ هـ عن عمر ست وسبعين عاماً . انظر : البداية والنهاية ج١٢ ص ٢١٩ .

(٣) الكشاف للزمخشري ج١ ص ٢٦٧ .

(٤) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير على حاشية الكشاف ج١ ص ٢٦٧ ص ٢٦٨ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٦) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، الامام الظاهري عالم الأندلس في عصره ولد سنة ٣٨٤هـ وتوفي سنة ٤٥٦هـ. له العديد من المؤلفات في الفقه وعلم الكلام ومن ذلك الفصل والأصول والفروع ، انظر : وفيات الأعيان ج٣ ص ١٣ - ١٧ ، و انظر : الأعلام للزركلي ج٥ ص ٥٩ .

يصبر عليه ، ويوعر عليه الرجوع إلى الحق ،كأنه يتكلف في ذلك الصعود إلى السماء» [١].

ولكن هذا الضلال وهذا التضييق على الصدر ،لا يكون علي الإنسان قبل البيان والتوضيح ، بل يكون بعد أن يبين الله تعالى لهم مايتقون لقوله تعالى :﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمَاً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُم حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[٢] . وكذلك قوله تعالى :﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً﴾[٣] .

٦ - أن معنى إضلال الله تعالى لهم ،أنه تعالى وجدهم ضالين فأخبر أنه أضلهم [٤].

وهذا القول من المعتزلة أيضاً يدل بوضوح على بعدهم عن الحق ، وقولهم هذا مبني على أصلهم الفاسد الذي بنوا عليه كل مايتعلق بالضلال ، وهو أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، وليس الله خالقاً لها ، وبالتالي عملوا على تأويل آيات الضلال حسب أصلهم الفاسد ، كما أنه لا دليل على قولهم من ناحية اللغة ، حيث أنه سبحانه وتعالى عدى الإضلال بحرف الباء فقال «يُضِلُّ بِهِ»[٥] والإضلال بمعنى الوجدان لا يكون معدي بحرف الباء[٦] .

هذا هو فهم المعتزلة لمعنى الضلال ، فهو فهم يخالف قول السلف ، لأنه مبني على أصولهم ومعتقداتهم المخالفة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ولكونهم حكموا العقل فيهاوقدموه على الشرع ، فكل ماقالوه في فهمهم للضلال - باستثناء بعض المعاني - يدل بوضوح أنهم خالفوا الحق لكونهم يريدوا أن يثبتوا أن الله تعالى لا يخلق الضلال ، بل العبد هو الخالق والموجد له ، كما حاولوا أن يبينوا أن أي ذنب يرتكبه المسلم يؤدي به إلى الضلال ، والخلود في النار ، وهذا مخالف لقول السلف . •

يتبين مما سبق أن فهم السلف للضلال هو الصحيح ، والأسلم والأحكم ، لكونه موافقاً لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ، حيث يقوم على أساس أن الله تعالى هو الخالق والعبد هو الكاسب ، وأن للضلال مقدمات وأسباب ولا يقع الضلال على الإنسان إلا إذا فعل هذه الأسباب .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج٣ ص ٧٠ .

(٢) سورة التوبة الآية ١١٥ .

(٣) سورة الانسان الآية ٣ .

(٤) انظر : مقالات الاسلاميين ج١ ص ٣٢٥ ، وانظر : التفسير الكبير ج٢ ص ١٣١ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٦ .

(٦) انظر : التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٣٣ .

المبحث الثاني
أنواع الضلال وأسبابه

المطلب الأول : أنواع الضلال :

للضلال أنواع وصور متعددة ، تبعاً لتعدد سبله وتفرعها ، وكثرة مغرياتها وشهواتها ، حيث حفت النار بالشهوات ، وزينها الشيطان في عيون ونفوس أتباعه ، فهناك ضلال الأعمال وضلال الحواس وضلال القلب .

أولاً : ضلال الأعمال :

ضلال الأعمال معناه عدم قبولها وإحباطها وإبطالها بحيث لا يجعل لها ثواباً ولا جزاءً [1] ، وقد ورد العديد من الآيات التي تتحدث عن ذلك كقول الله تعالى :﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [2] ، فالكفر والصد عن سبيل الله هما السبب في ضلال الأعمال ، كما وأن كراهية ما أنزل الله تعالى يؤدي إلى التعاسة وضلال الأعمال حيث قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [3] .

كما أن هناك آيات تشير إلى ضلال الأعمال وذلك بإحباطها وعدم قبولها ومن ذلك قول الله تعالى :﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [4] وقوله أيضاً :﴿... أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ...﴾ [5] .

فتحدثت الآيات السابقة عن ضلال الأعمال بمعنى حبوطها وعدم قبولها ، وذلك نتيجة الكفر وكراهية ما أنزل الله ، والصد عن سبيل الله تعالى ،ولضلال الأعمال بعض الصور ومن ذلك :

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ١٧٢ ، ص ١٧٤ .

(٢) سورة محمد الآية ١ .

(٣) سورة محمد الآية ٨ – ٩ .

(٤) سورة الكهف الآية ١٠٥ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ١٩ .

١ - الإعراض عن العمل :

الإعراض عن العمل صورة من صور الضلال ، لأنه يوصل الإنسان إلى الهلاك ، وقد ذكر القرآن الكريم الإعراض في كثير من آياته،مبيناً أسباب الإعراض ونتائجه .

لقد وضح القرآن الكريم أن سبب الإعراض الأساسي عن العمل هو الكفر بالله تعالى . حيث قال تعالى : ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[١] . فكفرهم أدى إلى إعراضهم عن أوامر الله تعالى .

كما بين أن إمداد الإنسان بالنعمة قد يؤدي به ذلك إلى الإعرض عن العمل ، فبدلاً من أن يشكر الله تعالى يكفر ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾[٢] . أي إذا أنعم الله تعالى على الإنسان بالنعم التي توجب الشكر من مال وعافية ورزق ونصر ، ونال مايريد ، أعرض عن طاعة الله تعالى وعبادته ، ونأى بجانبه ، وهذا تأكيد للإعراض ، لأن معنى الإعراض التولي بالوجه ، والنأي بالجانب ، لوى الجانب وتولية الظهر ، والمراد الاستكبار والتباعد لأن ذلك عادة المتكبر[٣] .

ونتيجة لذلك كان الإعراض عن آيات الله تعالى وعدم العمل بها من أشد الظلم ، لقوله تعالى :﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ...﴾[٤] . أي لا أحد أظلم ممن أعرض عن آيات الله تعالى البينات ، الدالة على الحق والإيمان ، ثم يعرض عنها دون تدبر أو تفكر ، ومع ذلك يتناسى ماقدمت يداه من الأعمال المنكرة ، والمذاهب الباطلة الهدامة ذات الكفر والمعصية دون التوبة منها[٥] .

ولذلك كانت العقوبة من الله تعالى على من أعرض شديدة قال تعالى :﴿... وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۞ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۞ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾[٦] .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٣ .

(٣) انظر : فتح القدير ج٣ ص ٢٥٣ ، التفسير الكبير ج٢١ ص ٣٠ ، التفسير المنير ج١٥ ص ١٥٠ .

(٤) سورة الكهف الآية ٥٧ .

(٥) انظر : التفسير الكبير ج٢١ ص ١٢١ ، فتح القدير ج٣ ص ٢٩٦ ، التفسير المنير ج١٥ ص ٢٨٢ .

(٦) سورة طه الآيات ٩٩ - ١٠١ .

بين الله تعالى عقوبة من أعرض عن القرآن حيث أنه يحمل يوم القيامة وزرا ، والوزر «هو العقوبة الثقيلة ، سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها الذي يثقل على الحامل وينقض ظهره»[١] .

وعقب الإمام ابن كثير على تلك الآيات بقوله :«إن من كذب به ، وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً ، وابتغى الهدى من غيره ، فإن الله يضله ، ويهديه إلى سواء الجحيم ، وهذا عام في كل مَنْ بلغه القرآن من العرب والعجم ، أهل الكتاب وغيرهم ، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له ، وداع، فمن اتبعه هدى ، ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقى في الدنيا ، والنار موعده يوم القيامة»[٢] .

وقال تعالى أيضاً في بيان عقوبة من أعرض عن القرآن الكريم والعمل به :﴿... وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾[٣] .أي عذاباً شديداً شاقاً وصعباً ومؤلماً . قال ابن عباس رضي الله عنهما :« (عذاباً صعداً) جبل في جهنم »[٤]، وقال عكرمة :«الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يُكَلَّفُ صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم كما في قوله ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾[٥] »[٦] .

كما ورد قوله تعالى :﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٧] . أي من خالف أمر الله تعالى وما أنزل على رسوله ، فإن له شقاء في الدينا والآخرة ، وإن تنعم ظاهره ،ولبس ماشاء ، وأكل ماشاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه إذا لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبه يتردد من ضنك المعيشة ، وفي الآخرة يضيق عليه قبره ، ويحشر يوم القيامة أعمى[٨] .

وهكذا يتبين أن الإعراض عن كتاب الله تعالى وعدم العمل بما فيه من أوامر ونواهي يؤدي إلى الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .

---

(١) التفسير الكبير ج٢٢ ص ٩٨ ، وانظر : فتح القدير ج٣ ص ٣٨٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ١٦٥ .

(٣) سورة الجن الآية ١٧ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٤٣١ .

(٥) سورة المدثر الآية ١٧ .

(٦) فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٣٠٩ .

(٧) سورة طه الآية ١٢٤ .

(٨) انظر : تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ١٦٩ ، وانظر : التفسير الكبير ج٢٢ ص ١١٢ .

٢ - الإعجاب بالعمل :

إن من صور ضلال الأعمال ، الإعجاب بالعمل والركون إليه ، مع نسيان فضل الله فيه وتوفيقه ، قال تعالى :﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[١] .

وقد وضح القرآن الكريم ، أن الشيطان هو الذي يزين الأعمال ، مبيناً عداوته للإنسان ليحذر منه ، قال تعالى :﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٢] .ومع هذا التحذير من الشيطان ، وكيده للإنسان إلا أن هناك من يزين لهم الشيطان سيء العمل من كفر ووثنية وعصيان ، معتقدين أنهم يحسنون صنعاً ، ويظهره لهم بأنه حسن .

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما :«الشيطان زين لهم .هي والله الضلالات»[٣].لقد زين لهم الشيطان أعمالهم فأعجبوا بها وفرحوا بما حل بهم من فتنة وابتلاء . قال تعالى :﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[٤] .أي أغواهم الشيطان بالتصميم على الكفر ، والإصرار على المعاصي ، وهذا أنساهم ذكر الله تعالى ، ثم استدرجوا بفتح أبواب الخير ، حتى إذا فرحوا بطراً وإعجاباً ، وظنوا أنهم أعطوا ذلك بسبب كفرهم ، جاءهم العذاب على غرة دون إمارة سابقة فأهلكهم .

وورد أيضاً قوله تعالى :﴿... كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥] . وقوله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[٦] .

يقول الإمام ابن كثير «حسنا لهم ماهم فيه ، ومددنا لهم في غيهم ، فهم يتيهون في ضلالهم ، وكان هذا جزاء على ماكذبوا من الدار الآخرة»[٧] فكان جزاء كفرهم وإنكارهم للدار الآخرة تزيين أعمالهم السيئة حتى رأؤها حسنة وذلك عقوبة من الله تعالى لهم .

---

(١) سورة فاطر الآية ٨ .

(٢) سورة فاطر الآية ٦ .

(٣) فتح القدير للشوكاني ج٤ ص ٣٤٠ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٤٣ - ٤٤ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

(٦) سورة النمل الآية ٤ .

(٧) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ٣٥٦ .

وورد إضافة التزيين إلى الله تعالى في قوله :﴿... كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] . أي كما زينا لهؤلاء الكفار من قريش حب الأصنام والأنتصار لها ، زينا لكل أمة من الأمم سوء عملهم من الكفر والضلال ، أي أن هذه سنة الله في خلقه ، يستحسنون عاداتهم وتقاليدهم التي ساروا عليها عن تقليد وجهل ، أو عن معرفة وعناد . وهذا التزيين أثر لاختيارهم ، لكونهم اختاروا الكفر على الإيمان والضلال على الهدى .

ومن خلال الآيات السابقة ، يلاحظ أن الله تعالى أضاف التزيين إليه لكونه منه سبحانه خلقاً ومشيئة ، وتارة حذف فاعله ونسبه إلى سببه ، ومن أجراه على يده تارة أخرى[2] .

أما التزيين الذي من الله تعالى فهو حسن ، لأنه ابتلاء واختبار ، ليميز الله المطيع من العاصي ، والمؤمن من الكافر ، كما قال تعالى :﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3] .

كما أن تزيينه سبحانه للعبد عمله السيىء عقوبة له على إعراضه عن توحيده وعبوديته ، وايثار سيىء العمل على حسنه ، مع أنه يعرف السيىء من الحسن ، ولكنه إذا آثر القبيح والسيىء واختاره وأحبه ورضيه لنفسه ، زينه سبحانه وتعالى له ، وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحاً أول مرة .

ولكن التزيين من الشيطان قبيح حيث إنه إغواء وظلم لأنه «أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصي»[4] .

وقبل أن يبتلي الله العبد بتزيين المعصية له ، يريه الحق والباطل ويحبب له الحق ، ويحذره من الباطل ،«وكل ظالم وفاجر وفاسق لابد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحاً ، فإذا تمادى عليه ، أرتفعت رؤية قبحه من قلبه ، فربما رآه حسناً عقوبة له ، فإنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه ، وهو حجة الله عليه ، فإذا تمادى في غيه وظلمه، ذهب ذلك النور فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم»[5] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٨ .

(٢) انظر : شفاء العليل ص ١٠٣ .

(٣) سورة الكهف الآية ٧ .

(٤) فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ١١٦ .

(٥) شفاء العليل ص ١٠٣ ص ١٠٤ .

إن الكثير من الناس زين الله لهم عملهم فرأوه حسناً ، وذبوا عنه ودافعوا عنه بكل الطرق ، ومثالنا على ذلك كفار قريش الذين كانوا يزعمون أنهم على حق ، والرسول ﷺ على باطل ، فبين الله تعالى أن هذا من تزيين سوء العمل حيث قال الله تعالى :﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ...﴾[1] ومع ذلك فإن «الذين زين لهم السيىء دون من أساء وعلم أنه مسيىء ، فإن الجاهل الذي يعلم جهله ، والمسيىء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب ، والذي لا يعلم يصر على الذنوب ، والمسيىء العالم له صفة ذم بالإساء وصفة مدح بالعلم ، والمسيىء الذي يرى الإساءة إحساناً له صفتا ذم الإساءة والجهل»[2].

تبين مما سبق عرضه أن التزيين لا يقع ويحدث إلا بعد بيان الحق ، والتحذير من الباطل ،ولكن استمرار العبد في غيه وفساده بعد البيان والتحذير ، بعاقبة الله تعالى بتزيين عمله، وهذا عدل من الله تعالى .

٣ - التباطؤ والتكاسل :

ومن صور ضلال الأعمال البطئ في العمل والكسل ، وهذا يرجع إلى عدم وجود الدافع الإيماني الذي يدفع للعمل ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الكسل ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول :**[اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ...]**[3] .

إن التكاسل عن الأعمال من صفات المنافقين، التي بينها الله تعالى بقوله :﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4] .وقوله تعالى :﴿... وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[5] .

إن المنافقين لجهلهم وسذاجتهم ، وقلة علمهم ومرضهم النفسي ، يلجأون إلى الخداع والمكر ، فيظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ولكن إذا جاءت الفرائض كالصلاة قاموا إليها

---

(١) سورة فاطر الآية ٨ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ج٢٦ ص ٦ .

(٣) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٧٩ كتاب الذكر ، باب التعوذ من العجز والكسل ، حديث رقم ٢٧٠٦ .

(٤) سورة النساء الآية ١٤٢ .

(٥) سورة التوبة الآية ٥٤ .

متباطئين متثاقلين كسالى لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظاهراً بالإسلام الذي يبطنون خلافه ، إذ لا إيمان يدفعهم إليها ، ولا نية لهم فيها ، ولا يعقلون معناها ، حتى أن نفقتهم التي ينفقونها لا يبتغون بها وجه الله تعالى وإنما ينفقونها وهم كارهون لعدم إيمانهم بما وعد الله تعالى ورسوله .

إن من المعلوم أن الرياء في العمل يؤدي به إلى الحبوط وعدم القبول حيث قال رسول الله ﷺ **[قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه]**[1] والمراد من ذلك «أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ، ويأثم به»[2] .

وقال رسول الله ﷺ :**[من سَمَّعَ سَمَّعَ الله به . ومن راءى راءى الله به]** [3] . والمقصود من ذلك «من راءى بعمله وسمعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره ، سمع الله به يوم القيامة الناس وفضحه ... وقيل : معناه من أراد بعمله الناس أسمعه الله الناس ، وكان ذلك حظه منه[4] » .

وأما عند الحديث عن الجهاد فتظهر حقيقة التباطؤ والتكاسل والتردد والجبن ، ولذلك كان عقاب من يفعل ذلك التثبيط من الله تعالى ، وهذا حصل مع المنافقين حيث نزل فيهم قوله تعالى :﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[5] .والتثبيط : رد الإنسان عن الشيء الذي هم به ، وثبطه عن الأمر ، عوقه وبطأ به عنه ، وشغله عنه ، وأثبطه المرض لم يكد يفارقه [6] .

فهذه الآيات تتحدث عن المنافقين ، وعن مواقفهم تجاه أوامر الله تعالى ، وتجاه الطاعات الواجب فعلها ، ولكنهم لما تركوا الإيمان بالله تعالى ولقائه ، وارتابوا وشكوا بما لا شك فيه ، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله تعالى ، ولا أخذوا أهبة ذلك باعداد العدة والزاد

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٢٨٩ ، كتاب الزهد والرقائق ، باب تحريم الرياء حدث رقم ٢٩٨٥ .

(٢) المصدر السابق ج٤ ص ٢٤٨٩ . الحاشية .

(٣) نفس المصدر ج٤ ص ٢٢٨٩ ، كتاب الزهد والرقائق ، باب تحريم الرياء حديث رقم ٢٩٨٦ .

(٤) نفس المصدر السابق ج٤ ص ٢٢٨٩ ، الحاشية .

(٥) سورة التوبة الآية ٤٥ – ٤٦ .

(٦) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ٣٥٢ ، وانظر : مختار الصحاح ص ٨٢ مادة ثبط وانظر : شفاء العليل ص ١٠١ .

والراحلة حيث أن السفر بعيد والحر شديد ، وتركهم العدة دليل على أنهم أرادوا التخلف ، وعدم الخروج مع رسول الله ﷺ ، وهنا جاء التثبيط من الله لهم ، لأن نواياهم غير سليمة فكان أن «كره الله خروجهم فتثبطوا عن الخروج ... لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبيطهم عن الخروج» [1].

لقد كره الله خروجهم لحكمة بينها بقوله:﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّازَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً [2] وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [3] فكسهلم وضعف رغبتهم في الإنبعاث مما أدى إلى انصرافهم عن الخروج .

إن القلوب الحائرة المترددة المنافقة تبث الخور و الضعف والعجز والجبن في الصفوف ، كما أن النفوس الخائنة خطر على الجيوش ، ولو خرج المنافقون مع المسلمين في غزوة تبوك ، مازادوهم قوه بل لزادوهم اضطراباً وضعفاً ، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتخذيل ، سواء كان ذلك بالكلمة ليجبنوا أمام الأعداء أو بالنميمة لإفساد ذات البين ، وهذا حال المنافقين في كل زمان ومكان ، ولكن المصيبة أن يوجد في المسلمين من يستمع إلى مايقولونه من الكذب فينقله ،فيقع الإختلاف والفساد بين المسلمين ، ولكن الله تعالى الذي يرعى دعوته ويحفظ دينه كفى المؤمنين ، فترك المنافقين متخاذلين ومثبطين .

ثانياً : ضلال الحواس :

ضلال الحواس أحد أنواع الضلال ، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا النوع في كثير من آياته ، وسيكون الحديث حول ضلال السمع والكلام والبصر .

١ - ضلال السمع :

السمع نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان ، التي تستلزم الشكر والطاعة والعبادة لله تعالى ، ولا يعرف قيمة هذه النعمة إلا من فقدها ، فالواجب على الإنسان ، استخدام هذه الحاسة فيما يرضى الله تعالى بالاستماع إلى كلام الله تعالى ، وعدم السماع إلى المنكرات والمحرمات لأنها تؤدي إلى الضلال . ولذلك وردت آيات قرآنية كثيرة تحض على

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ٣٦٦ ، وانظر : تفسير كلام المنان ج٣ ص ٢٤٣ .

(٢) الخبال : الفساد والاضطراب . انظر : القاموس المحيط ج٣ ص ٣٦٥ مادة خبل .

(٣) سورة التوبة الآية ٤٧ .

السمع ، لأن السماع رسول الإيمان إلى القلب ، ومن ذلك قول الله تعالى :﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١) .

«فالسماع أصل العقل ، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه ، وهو رائده وجليسه ووزيره» (٢) .

وضلال السمع يتمثل في استخدام هذه الحاسة فيما يغضب الله تعالى كالاستماع إلى المحرمات ، التجسس على عورات المسلمين ، وإخبار الأعداء بها . فإذا وقع ذلك حصل الضلال للسمع، حيث قال تعالى :﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(٣) . وقال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾(٤) . والصمم : هو انسداد الأذن وثقل السمع ، يقال قناة صماء ، إذا لم تكن مجوفه ، وصممت القارورة إذا سددتها ، وفلان أصم إذا إنسدت خروق مسامعه (٥) .

إن الآيات السابقة تتحدث عن المنافقين وأحوالهم ومواقفهم ، حيث أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، فكان الجزاء من جنس العمل ، وهو صمم الآذان «لأنهم لا يعرضوا عن الهدى ابتداء ولم يصموا آذانهم عن السماع ، وعيونهم عن الرؤيا ، وقلوبهم عن الإدراك كما صنع الذين كفروا ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعدما استوضحوا الأمر وتبينوه» (٦) ، فابعدهم الله عن الخير ، فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعماهم فلا يتبعون الصراط المستقيم ، وذلك من حيث إنهم استمعوا الكلام ولم يفهموه ، فهم بالنسبة إليه صم أصمهم الله تعالى ، وعند الأمر بالعمل تركوه وتركوا اتباع النبي ﷺ الذي يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر والفحشاء والمنكر ، واتبعوا أهواءهم وشهواتهم فهم عمي أعماهم الله تعالى .

---

(١) سورة الحج الاية ٤٦ .

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص ٢٥٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨ .

(٤) سورة محمد الآية ٢٣ .

(٥) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ١٤٠ مادة صمَّ ، فتح القدير ج١ ص ٤٦ .

(٦) في ظلال القرآن ج١ ص ٤٦ .

ولذلك فالذي لا ينتقع بالسماع فهو كمن لا يسمع ، فما الفائدة من السماع إذا لم ينتفع به !! وهذا يوضحه قول الله تعالى :﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1] .

لا شك أن أولئك كانت لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ، ولاشك في أنه كانت لهم أعين يبصرون بها المرئيات ، وآذان يسمعون بها الكلمات ، فوجب تقييد هذه الآية بما يرجع إلى الدين ، وهو أنهم ماكانوا يفقهون بقلوبهم مايرجع إلى مصالح الدين ، وماكانوا يبصرون ويسمعون مايرجع إلى مصالح الدين ، فلهم آذان ، ولكن الذي انتفى عنها هو سماع المواعظ الدينية النافعة ، والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة ، وماجاءت به رسل الله تعالى ، ولذلك جعلهم الله تعالى كالأنعام بل أضل ، لأن البهائم لها آذان ، ولكنها لا تسمع إلاكلمات مبهمة ، ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتاً مفهومة ، إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية ، أما هؤلاء فهم موكولون إلى إدراكهم الذي لا ينتفعون به ، فهم شر الدواب قطعاً ، حيث إنهم افسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة ، فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم ،وما أفسدو من فطرتهم[2] .

كما ورد ذكر الضلال بالوقر في قوله تعالى :﴿... وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[3].وقال تعالى أيضاً :﴿ ... وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ...﴾[4]والوقر هو «ثقل الأذن أو ذهاب السمع كله»[5] .

يلاحظ من خلال النظر في الآيات التي تتحدث عن الوقر أنه يتعلق بالكفار والمشركين ، لأنه «من كان غارقاً في بحر الخذلان وتائهاً في مفاوز الحرمان، ومشفوعاً بمتابعة الشيطان ،

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

(٢) انظر : التفسير الكبير ج١٥ ص ٥٢ ، فتح القدير ج٢ ص ٢٦٧ ، في ظلال القرآن ج٣ ص ١٤٩٣ .

(٣) سورة فصلت الآية ٤٤ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٢٥ ، سورة الاسراء الآية ٤٦ .

(٥) القاموس المحيط ج٢ ص ١٥٥ مادة وقر .

كان هذا القرآن في آذانه وقراً»[1] . لأنه لا يؤمن بالقرآن الكريم ، ولا ينفع بهداه وبنوره المبين ، ولا يستفيد منه لكونه سد على نفسه أبواب الهداية .

تبين مما سبق أن الآيات التي تتحدث عن الصمم والوقر ، أن سبب ذلك يرجع إلى الكفر والنفاق ، وهذا راجع إلى الإنسان الذي حاد عن الطريق ، ولم يتبع المنهج الحق الذي بينه الله تعالى ورسوله ﷺ . فكان العقاب على ذلك الوقر والصم .

٢ - ضلال الكلام

الكلام نعمة أنعم الله تعالى بها على الإنسان ، ولا يعرف قيمة هذا النعمة إلا من فقدها ، حيث إنه وسيلة التخاطب بين الناس ، وقد جعل الله تعالى ضوابط لآلة الكلام ، على الإنسان أن يلتزم بها وإلا كانت سبباً للضلال .

لقد فهم السلف حقيقة اللسان وخطره ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «ماشيء أحوج إلى طول سجن من لساني»[2] وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أنصف أذنيك من فيك ، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم به»[3] .

ومن ضلال الكلام الكذب حيث قال رسول الله ﷺ [... **وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا]**[4] .

فاللسان آفاته كثيرة ، حيث إنه كثيراً ما يخوض في الباطل ، ويتكلم في المنكرات ، وهذا كله من ضلال الكلام ، ولذلك حكم الله تعالى على ذلك بالبكم حيث قال تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[6] . وقال تعالى

---

(١) التفسير الكبير ج٢٧ ص ١١٦ - ط بيروت .

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ١٦٠ .

(٣) المصدر السابقة ص ١٦٠ .

(٤) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠١٣، كتاب البر والصلة والآداب ، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ، حديث رقم ٢٦٠٧ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٨ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٧١ .

:﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1] . والبُكْمُ جمع أبكم ، والأبكم هو الذي لاينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس [2] .

والبكم نوعان : بكم القلب ، وبكم اللسان ، كما أن النطق نطقان نطق القلب ، ونطق اللسان ، وأشد ذلك بكم القلب ، كما أن عماه أشد من عمي العين وصمم الأذن[3] .

لقد تحدثت الآيات السابقة عن حال الكافرين والمنافقين ، وعنادهم وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن الكريم ، ومايظهره الرسول ﷺ من الأدلة والآيات ، بمن هو أصم في الحقيقة فلا يسمع ، وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب فلذلك جعله بمنزلة الأبكم ، وإذا لم ينتفع بالأدلة ولم يبصر طريق الرشد فهو بمنزلة الأعمى[4] .

إن اللسان له دوراً فعالاً في حياة الإنسان ، حيث إنه هو المعبر عن حقيقة مافي القلب ، فمن يهديه الله تعالي ييسره إلى أن ينطق بالكلام الحسن ، ولكن من يضله بسبب فسقه أو نفاقه وكفره ، فهذا لا ينطق إلا بما يغضب الله تعالى ، إذ يبقى كلامه دائراً بين القبيح ، والأقبح ، والفاحش والأفحش ، في حين أن المطلوب من الإنسان أن يستعمل لسانه في الدعوة إلى الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا رسول الله ﷺ يبين لمعاذ بن جبل رضي الله عنه خطورة اللسان عندما سأله يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال : **[ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد السنتهم ؟]**[5] .

فإذا أراد الله تعالى هداية عبد فتح قلبه وسمعه وبصره للخير والهداية ، وإذا أراد ضلاله أصمه وأعماه وأبكمه ، فجعله لا يتكلم إلا في الباطل ، وفيما يؤدي به إلى النار ، فهو كالأبكم الذي لاينطق لأنه لا يستفيد من آلة النطق التي وهبها الله سبحانه وتعالى له ليجعلها في الخير ، ولذلك حكم عليه بأنه كشر الدواب ، لجهله وعدوله عن الإنتفاع بما يقول أو يسمع ، إلى جانب التكذيب بآيات الله تعالى :﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6] .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ٨١ ، وانظر : فتح القدير ج١ ص ٤٦ .

(٣) انظر : شفاء العليل ص ٩٦ .

(٤) انظر : التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ٧٠ ، ج٥ ص ٨ ، ط بيروت .

(٥) سنن الترمذي ج٥ ص ١٢ ، كتاب الإيمان ، باب ماجاء في حرمة الصلاة ، حديث رقم ٢٦١٦ .

(٦) سورة الأنعام الآية ٣٩ .

٣ - ضلال البصر :

البصر نعمة من نعم الله تعالى التي أنعمها على الإنسان وهو نعمة عظيمة تستوجب شكر الله عز وجل وطاعته ، وقد أمر الله تعالى الإنسان بأن يستخدم بصره في مرضاة الله تعالى ، وأن يصرفه عن الحرام ، ولذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين لأنهم أهل الامتثال والطاعة ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِم ...﴾(١) . كما أنه تعالى حذر من النظرة الخائنة فقال :﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٢). فالإنسان مسؤول عن نظرته ويسأل عنها يوم القيامة، حيث قال تعالى :﴿... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(٣) .

ومع كل هذا التحذير والإنذار قد يحدث ضلال للبصر وذلك بالنظر إلى ماحرم الله تعالى ، أو برؤية الحق وعدم اتباعه ، فهذا ضلال يؤدي بصاحبه إلى أن يصبح على عينية الغشاوة والغطاء ، حيث قال الله تعالى في حديثه عن الغشاوة:﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(٤) . وقال تعالى في حديثه عن الغطاء ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً* الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ (٥). والغشاوة هي غطاء ، والغطاء هو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب (٦).

وقد تبين مما سبق أن الغشاوة والغطاء استخدمها للعين للدلالة على تعاميهم عن الحق وإعراضهم ، رغم الأدلة الواضحة المرئية ، ولكن تعاميهم عن الأبصار أدى بهم إلى ماوصلوا إليه من الكفر ، واتخاذ الهوى إلهاً يعبدونه من دون الله تعالى .

---

(١) سورة النور الآية ٣٠ .

(٢) سورة غافر الآية ١٩ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٦ .

(٤) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

(٥) سورة الكهف الآية ١٠٠ - ١٠١ .

(٦) انظر : القاموس المحيط ج١ ص ٣٧٠ ، وانظر : فتح القدير ج٣ ص ٣١٥ ، ج٥ ص ٨ ، والتفسير الكبير ج ٢ ص ٤٥ - ط بيروت .

ويرى الإمام ابن القيم أن قوله تعالى :﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ...﴾[1] يتضمن معنين «أحدهما : أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته .

والثاني : أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والإهتداء به،وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين»[2] .

والمعنى الثاني أقرب وأوضح المعنين حيث إنه يشمل المعنى الأول ذلك أن القلب هو الأصل والبصر امتداد له ، فإذا عمي القلب أوختم عليه انتقل ذلك إلى البصر مباشرة ، لأن مافي القلب يظهر على العين من الخير والشر ، لأن العين هي مرآة القلب تظهر مافيه «فإذا أبغضت رجلاً بغضاً شديداً ، أو أبغضت كلامه ، أو مجالسته ، تجد على عينيك غشاوة عند رؤيته ومخالطته فتلك أثر البغض والإعراض عنه»[3] .

وأيضاً من خلال الواقع تجد أن الإنسان إذا أبغض إنساناً ، فإنه يراه قبيحاً فلا يرى محاسنه وفضائله ، وإن كان جميلاً في أعين الآخرين ، وهذا يدل على مدى تأثير القلب على حواس الإنسان ، ويؤكد ذلك قوله تعالى :﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[4] .

وأما ما يتعلق بقوله تعالى ﴿... وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ...﴾[5] فهذه الغشاوة ناتجة عن اتخاذ الهوى إلهاً يعبده من دون الله، فعاقبة الله تعالى بأن خَتَمَ سمعه فلا يسمع خيراً ، وإن سمع فلا يعتبر ، وعلى قلبه فلا يعي الخير ، وعلى بصره غشاوة وغطاء فلا يعرف الخير ولا يعتبر به ، فهو عقاب من الله ناتج عما قدم من عمل .

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠١ .

(٢) شفاء العليل ص ٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٦ .

(٤) سورة الحج الآية ٤٦ .

(٥) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

ثالثاً : ضلال القلب :

إن أكثر أحوال الضلال تتعلق بالقلب ، وهذا يدل بوضوح على مدى أثر القلب في الإنسان . يؤكد ذلك قول رسول الله ﷺ :**[ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهي القلب]** (1) .

ويعقب الإمام ابن حجر على هذا الحديث بقوله :«وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن ، وبصلاح الأمير تصلح الرعية ، وبفساده تفسد ، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب ، والحث على صلاحه» (2) .

وقسم الإمام ابن القيم القلوب إلى ثلاثة أقسام :

١ - **القلب الصحيح** : وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به ، كما قال تعالى :﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (3) . وهو الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره . فسلم من عبودية ماسواه ، وسلم من تحكيم غير رسول الله ، فخلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلا ، فإن أعطي أعطى لله ، وإن منع منع لله (4) .

٢ - **القلب الميت** : وهو القلب الذي لاحياة به ، فهو لا يعرف ربه ولايعبده ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ،ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله حباً وخوفاً ورجاءً ورضاً وسخطاً وتعظيماً وذلاً ، فهو إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغضْ لهواه ، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه . فالهوى إمامه ، والشهوة قائده والجهل سائقه ، والغفلة مركبه ، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سم ، ومجالسته هلاك (5) .

٣ - **القلب المريض** : «وهو قلب له حياة وبه علة وله مادتان ، تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له ، والتوكل عليه ماهو مادته وحياته ، وفيه محبة الشهوات وإيثارها والحرص علي تحصيلها ، والحسد

---

(1) صحيح مسلم ٣/١٢٢٠ ، كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات حديث رقم ١٥٩٩ .

(2) فتح الباري ج١ ص ١٢٨ .

(3) سورة الشعراء الآية ٨٨ - ٨٩ .

(4) انظر : إغاثة اللهفان ج١ ص ١٥ .

(5) المصدر السابق ج١ ص ١٦ ص ١٧ .

والكبر والعجب وحب العلو في الأرض بالرياسة ماهو مادة هلاكه ، وهو ممتحن بين داعيين ، داع يدعو إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعو إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً وأدناهما إليه جواراً»[(1)] .

وقد جمع الله تعالى بين هذه القلوب الثلاثة في قوله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(2)] .

قال الإمام ابن القيم :«فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه ، فهو صحيح الإدراك للحق ، تام الإنقياد والقبول له، والقلب القاسي لا يقبله ولاينقاد له . والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي ، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم»[(3)] .

وقد قسم النبي ﷺ القلوب إلى أربعة كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال :**[القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نور ، وأما القلب الأغلق فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح ، فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة ، يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة ، يمدها القيح والدم ، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه]**[(4)]

إن ضلال القلب يمر في أحوال متعددة بينها القرآن الكريم ووضحها وهذه الأحوال تتمثل في :

---

(1) المصدر السابق ج١ ص ١٧ .

(2) سورة الحج الآيات ٥٢ – ٥٤ .

(3) إغاثة اللهفان ج١ ص ١٨ .

(4) مسند الإمام أحمد ج٣ ص ١٧ .

١ - الطبع والختم والقفل :

ورد الطبع والختم والقفل في كثير من آيات القرآن الكريم ،والطبع هو السجية التي جُبِلَ عليها الإنسان ، وختم على قلبه أي طبعه فجعله لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء ، ويأتي الطبع والختم بمعنى واحد[١] . ومعناه التغطية على الشيء والإستيثاق منه حتى لايدخله شيء ، ومنه ختم الكتاب والباب ، حتى لا يوصل إلى مافيه ، ولا يوضع فيه غيره[٢] .

غير أن الإمام ابن القيم يرى أن «الختم والطبع يشتركان فيما ذكر ، ويفترقان في معنى آخر ، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم لا يفارق»[٣] .

وأما القفل فيطلق على «الحديد الذي يغلق به الباب»[٤] ، وكل من الختم والطبع والقفل يدل على شدة الإغلاق واحكامه أمام الهداية .

وقد وردت آيات متعددة تتحدث عن الختم والطبع والقفل ، حيث يظهر من خلالها أن الطبع والختم والقفل لا يكون إلا بعد وجود أسباب حدوثه من معاصي أو كفر ، لأن الله تعالى لا يطبع على قلب إنسان فيحول بينه وبين الإيمان إلا وقد علم أنه سيختار الكفر والعصيان ، ولا يظلم إنساناً فيختم على قلبه جبراً أو قسراً ، لأنه تنزه عن الظلم ، ونفاه عن نفسه بصريح آياته البينات .

ومن الآيات قوله تعالى:﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً﴾[٥].
فقلوبهم ليست مغلقة بطبعها ، إنما جعل ذلك بسبب كفرهم ، ومخالفتهم لأوامر الله تعالى ، وعدم طاعته ، حيث امتنعوا عن دخول القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين ، ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، ونبذهم الميثاق ، وكفرهم بآيات الله تعالى ، وقتل رسله ، وزيادة على ذلك ادعوا أن قلوبهم غلف لا تفقه مايقال لهم ولا تفهمه ، كل هذا جر عليهم

---

(١) انظر : القاموس المحيط ج٣ ص ٥٨ ، ج٤ ص ١٠٢ ، وانظر : فتح القدير ج١ ص ٥٣٤ .

(٢) انظر : التفسير الكبير ٤٥/٢ ، ط بيروت ، وانظر : فتح القدير ج١ ص ٣٩ .

(٣) شفاء العليل ص ٩٢ .

(٤) القاموس المحيط ج٤ ص ٣٩ مادة قفل .

(٥) سورة النساء الآية ١٥٥ .

أن يطبع الله تعالى على قلوبهم ، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة ، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته[1] .

وأما حقيقة قولهم قلوبنا غلف ، فقد ذكر بعض المفسرين أن فيها قولين :

أحدهما : أنهم قالوا قلوبنا غلف ، أي أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى علم سوى ماعندنا فكذبوا الأنبياء بهذا القول .

الثاني : أن غُلفاً جمع أغلف ، وهو المتغطي بالغلاف ، أي الغطاء ، والمعنى على هذا أنهم قالوا قلوبنا في أغطية فهي لا تفقه ماتقولون ، ونظيره ماحكى الله تعالى في قوله : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ...﴾[2] [3] .

ولكن الله تعالى رد على ادعائهم مكذباً قولهم الذي ادعوه بقوله :﴿... بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ...﴾[4] أي ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفاً بحسب مقصدهم الذي يريدونه ، بل بحسب الطبع من الله عليها بسبب كفرهم .

ومن الآيات قول الله تعالى :﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[5] .

لقد حكم الله تعالى عليهم بالطبع بعد أن بين أنهم كفروا بالله تعالى ، إلى جانب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فأدى بهم ذلك إلى أن طبع الله على قلوبهم فأغلقها ، وأقفلها ، فلا تعي خيراً ولا تفهمه ، وعلى سمعهم فلا يسمعون الحق ، ولا ينتفعون به ، وعلى أبصارهم غطاء وحجاب ، فلا يرون الحق ولا يهتدون إليه .

يتبين من خلال الآيات التي تتحدث عن الطبع على القلوب أن الكفر هو السبب

---

(١) انظر : في ظلال القرآن سيد قطب ٨٠١/٢ ، وانظر : تفسير كلام المنان ٢١٢/٢ .

(٢) سورة فصلت الآية ٥ .

(٣) التفسير الكبير ٧٧/١١ ، (بتصرف) ، ط بيروت ، وانظر : فتح القدير للشوكاني ٥٣٤/١ .

(٤) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٥) سورة النحل الآية ١٠٨ .

الأساسي للختم على القلب .حيث قال تعالى :﴿تِلْكَ القُرَى نَقُصُّ عَلَيكَ مِن أَنبَائِهَا وَلَقَد جَآءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤمِنُواْ بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبلُ كَذَلِكَ يَطبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ﴾[1] . وقال تعالى :﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2] .

وكما أن الكفر يؤدي إلى والختم وكذلك عدم العلم حيث قال تعالى :﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] . «فهؤلاء الذين لا يعلمون مطموسوا القلب ، لا تنفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله ، متطاولون على أهل العلم والهدى . ومن ثم يستحقون أن يطمس الله على بصيرتهم ، وأن يطبع على قلوبهم لما يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وعن تلك القلوب»[4] .

ومما يؤدي أيضاً إلى الختم على القلوب الجدل في آيات الله بغير علم أو حجة أو برهان ، وكذلك التجبر والتكبر، لقوله تعالى :﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيرِ سُلطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِ قَلبِ مُتَكَبِرٍ جَبَّارٍ﴾[5] . فلما ختم الله تعالى على قلوب المجادلين بغير حق ، كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر عن الإيمان ، متجبر على العباد ، حتى لايعقل الرشاد ولا يقبل الحق ، ووصف القلب بالتكبر والجبروت لكونه ملك الأعضاء ومركزها ، وهي جنوده يحركها ويستعملها ويوجهها كيفما شاء .

وأما بالنسبة للقفل فقد ورد في قوله تعالى :﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَم عَلَى قُلُوبٍ أَقفَالُهَا﴾[6] .وكأن القلب بمنزلة الباب الذي قد ضرب عليه القفل ، فإنه مالم يفتح القفل فلا يمكن فتح الباب ، والوصول إلى ماوراءه ، وكذلك مالم يفتح القفل ، ويرفع عن القلب لم يدخله الإيمان والقرآن ، حيث إن تدبر القرآن ، يزيل الغشاوة ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير ، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٠١ .

(٢) سورة المنافقون الآية ٣ .

(٣) سورة الروم الآية ٥٩ .

(٤) في ظلال القرآن ٢٧٧٨/٥ .

(٥) سورة غافر الآية ٣٥ .

(٦) سورة محمد الآية ٢٤ .

وتستنير ، ولكن أقفال القلوب تحول بينها وبين القرآن ، وبينها وبين النور ، وإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح للهواء والنور[1] .

ومما يلاحظ في الآية السابقة تنكير القلوب ،لأن تنكيرها «يتضمن إرادة قلوب هؤلاء ، وقلوب من هم بهذه الصفة ولو قال أم على القلوب أقفالها ، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة»[2] ،وإلى جانب هذا «للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب ، وذلك لأن القلب إذا كان عارفاً ، كان معروفاً، لأن القلب خلق للمعرفة ، فإذا لم يكن فيه المعرفة فإنه لا يعرف»[3] .

وأما قوله «أقفالها» بالإضافة ولم يقل «أقفال» كما في «قلوب» ، لأن الأقفال كانت من شأنها ، فأضافتها إليها كأنها ليست إلا لها ، ولم يضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم ، وأضاف الأقفال إليها لكونها مناسبة لها ، حيث أراد أقفالاً مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد والطغيان[4].

وكما اتضح سابقاً ، فإنه من خلال النظر في الآيات القرآنية فالله تعالى لم يفعل الطبع والختم والقفل بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له ، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه ، والتأكيد في البيان والإرشاد ، وفي المقابل كان الإنسان يواجه ذلك بالإعراض ، والمبالغة في الكفر والعناد ، فحينئذ يطبع الله على قلبه ، لأن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها «وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر عنها مخلص» [5].

٢ - قسوة القلب وموته :

ورد العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن قسوة القلب واماتته،وهي حالة من حالات القلب في ضلاله،حيث قال الله تعالى :﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ...﴾[6] والقسوة :

---

(١) انظر : شفاء العليل ص ٩٥ ، وانظر : في ظلال القرآن ٣٢٩٧/٦ ، وانظر : تفسير كلام المنان ٨٠/٧ .

(٢) شفاء العليل ص ٦٥ ، ص ٩٦ .

(٣) التفسير الكبير للرازي ج٢٨ ص ٥٧ ، ط بيروت .

(٤) المصدر السابق ج٢٨ ص ٥٧ ، ط بيروت .

(٥) جامع البيان للطبري ج١ ص ٢٦٠ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص ٣٢ .

(٦) سورة المائدة الآية ١٣ .

الشدة والصلابة والغلظة في كل شيء فيقال حجر قاسي وأرض قاسية لا تنبت شيئاً [1] .

والقلب القاسي هو أحد الأنواع الثلاثة التي أخبر الله تعالى بها في قوله ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] فهي كالتالي : قلب مريض ، وقلب ميت قاسي ، وقلب مخبت سليم ، فالقلب المريض هو الضعيف الذي لا تثبت فيه صورة الحق حيث لا يحفظ ماينطبع فيه [3] ، لأن الشك والشبهات أمرضته ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ...﴾ [4]وهذا القلب هو قلب المنافق .

وأما القلب القاسي وهو اليابس الصلب ، الذي لا يقبل صورة الحق ولا تنطبع فيه ، فلا يعي خيراً ولا يعقله ، وهو قلب الكافر والمشرك ، المصر على جهله وكفره «وهذان القلبان شقيان معذبان»[5] .

وأما القلب المخبت،فهو القلب السليم الذي يقبل الحق ويحفظه،«حيث أنه صافي ولين ، حيث يقبل الحق بلينه ويحفظه بتماسكه ، وهذا القلب هو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به» [6] ، وقد بشر الله تعالى هذا القسم من القلوب بقوله ﴿... وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[7] .

وخير القلوب هذا القلب «الصلب الصافي اللين» فهو يرى الحق بصفاته ، ويقبله بلينه ، ويحفظه بصلابته»[8] فقد ورد في الأثر أن «القلوب آنية الله في أرضه ، فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها»[9] .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ٣٧٨ مادة قسو .

(٢) سورة الحج آية ٥٣ - ٥٤ .

(٣) انظر : شفاء العليل ص ١٠٥ ، التفسير الكبير ج٢٣ ص ٤٩ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٠ .

(٥) شفاء العليل ص ١٠٦ .

(٦) المصدر السابق ص ١٠٥ ص ١٠٦ (بتصرف) .

(٧) سورة الحج الآية ٣٤ - ٣٥ .

(٨) شفاء العليل ص ١٠٥ ص ١٠٦ .

(٩) مجموع الفتاوي ج٩ ص ٣١٥ ، شفاء العليل ص ١٠٦ .

كما ورد العديد من الآيات التي تتحدث عن أن القلوب تموت وذلك بالكفر حيث قال تعالى : ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ...﴾[1] .وقال أيضاً :﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ...﴾[2] وقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[3] .

في هذه الآيات يصف الله تعالى الكافر بأنه ميت ، وأنه بمنزلة أصحاب القبور ، وذلك لأن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره ، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل ، ولا إرادة الحق وكراهية الباطل ، ولذلك يعقب الإمام ابن كثير[4] على قوله تعالى :«أو من كان ميتاً فأحييناه» بقوله : «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً ، أي في الضلالة هالكاً حائراً فأحياه الله ، أي أحيا قلبه بالإيمان ، وهداه له ووفقه لاتباع رسله»[5] .

وإماتة القلب تحدث بالبعد عن كتاب الله تعالى ، الذي هو نور وروح وحياة ، قال تعالى :﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ...﴾[6] . يقول الإمام ابن القيم :«فجعله الله روحاً لما يحصل به من الحياة ونوراً لما يحصل به من الهدى والإضاءة»[7] .

وشبه الله تعالى الكافرين بالموتى ومن في القبور ،لعدم فهمهم الحقائق ومعرفة الصواب، .

(١) سورة الروم الآية ٥٢ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢.

(٣) سورة فاطر الآية ٢٢ .

(٤) هو الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير ، البصري ثم الدمشقي الفقيه الشافعي ، شهد له العلماء بسعة علمه وغزارة فهمه ، له الكثير من المؤلفات ، ولد سنة ٧٩٠هـ وتوفي سنة ٧٧٤ هـ وكان قد كف بصره في آخر عمره . انظر : الدرر الكامنة ج ١ ص٣٧٣ - ٣٧٤ ، شذرات الذهب ٣٢١/٦ - ٣٢٢ ، وانظر : التفسير المفسرون ج١ ص ٢٤٢ - ص ٢٤٣ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ١٧٦ .

(٦) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٧) شفاء العليل ص ١٠٥ .

، لأن الكفر جهل ، «والجهل يوجب الحيرة والوقفة ، فهو كالموت الذي يوجب السكون ، وأيضاً الميت لا يهتدي إلى شيء والجاهل كذلك»[(١)] .

إن قسوة القلب وموته راجع إلى اعراض الإنسان عن قبول الحق ، وعدم الانقياد للدلائل والآيات المثبتة لوجود الله تعالى ، بل والإصرار على الكفر ، فكان العقاب من جنس العمل فقسى قلبه حتى أصبح لا يقبل شيئاً ، ومات قلبه حتى أصبح لا يفهم ولا يسمع ولا يبصر ، فهذا جزاء أعماله أن يقسو قلبه ، والجزاء من جنس العمل ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[(٢)] .

٣ - المرض والإركاس :

ورد عدد من آيات القرآن تتحدث عن هذه الحالة ، من حالات القلب حيث قال تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ...﴾[(٣)] .وقال :﴿... وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾[(٤)] وقال تعالى :﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ...﴾[(٥)] .

ومرض القلب نوع من الفساد يصيب القلب فيختل أدراك صاحبه وإرادته ، بحيث يبغض الحق النافع ، ويحب الباطل الضار ، ولذلك ورد في القاموس المحيط المرض : إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها ،واعتدالها ، والمرض للقلب الشك والنفاق والفتور والنقصان[(٦)] .

وأصل المرض الفساد ، مرض فلان أي فسد جسمه وتغيرت حاله ، وقيل أصل المرض النقصان ، ومنه بدن مريض أي ناقص القوة ، وقلبٌ مريض أي ناقص الدين ، ومرض في حاجتي إذا نقصت حركته ، فالمرض : كل مايخرج به الإنسان عن حد الصحة ، من علة أو نفاق أو تقصير في أمر[(٧)] .

---

(١) التفسير الكبير ج١٣ ص ١٤٠ ، وانظر : فتح القدير ج٤ ص ٢٣١ .

(٢) سورة فصلت الآية ٤٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٠ .

(٤) سورة المدثر الآية ٣١ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٣٢ .

(٦) انظر : القاموس المحيط ج٢ ص ٣٤٤ .

(٧) انظر : شفاء العليل ص ٩٩ ، وانظر : فتح القدير للشوكاني ج١ ص ٤٢ .

ويتحدث الإمام الغزالي عن مرض القلب فيقول :«مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به ، الذي خلق لأجله،وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته،والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه ... فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض»[1] .

فمرض القلب هو خروج عن صحته واعتداله ، فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له مؤثراً له على غيره ، فمرضه إما بالشك فيه ، وإما بإيثار غيره عليه ، لأن القلب له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله كما بينت الآيات السابقة ، وهما :مرض الشبهات ، والشكوك ، ومرض الشهوات ، فالكفر والنفاق والبدع والشكوك كلها من مرض الشبهات والشكوك ، وهو مرض المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر وأما الزنا ومحبة الفواحش والمعاصي ، وفعلها ، فهي من مرض الشهوات كما قال تعالى:﴿... فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ...﴾[2] وهو شهوة الزنا والفسوق والفجور كما شرح الإمام الشوكاني[3] قائلاً «فيطمع الذي في قلبه فجور وشك ونفاق»[4] .

إن تعاطي العبد أسباب المرض تؤدي به إلى المرض ، فيعاقبه الله تعالى بزيادة المرض لايثاره أسبابه وتعاطيه لها ،وهذا بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين ، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ...﴾[5].«فعقوبة المعصية ، المعصية بعدها»[6] .

(١) احياء علوم الدين ص ٦٢ ص ٦٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٢ .

(٣) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن ، وهو من مدرسة ابن تيمية ،ومذهبه في العقائد هو مذهب السلف ، ولد سنة ١١٧٣هـ سنة ١٧٦٠م وتوفي بصنعاء سنة ١٢٥٠ هـ سنة ١٨٢٣م ، انظر : الاعلام للزركلي ج٦ ص ٢٩٨ ، وانظر : المجددون في الاسلام لعبد المتعالي الصعيدي ص ٤٧٢ - ٤٧٥ ط دار الحمامي - القاهرة .

(٤) فتح القدير للشوكاني ج٤ ص ٢٧٧ .

(٥) سورة التوبة الآية ١٢٥ .

(٦) تفسير كلام المنان ج١ ص ٤٩ ، وانظر : شفاء العليل ص ٩٩ .

والإركاس يعتبر عقوبة لمرض النفاق ، وقد ورد في ذلك قول الله تعالى :﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[1] . وقوله تعالى :﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ...﴾[2] والرَّكْسُ : رد الشيء مقلوباً ، وقلب أوله على آخره ، وأركسهم ردهم إلى الكفر ، والإرتكاس الإرتداد[3] .

يقول الإمام ابن القيم :«أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه ، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة ، وهذا شر القلوب وأخبثها ، فإنه يعتقد الباطل حقاً ويوالي أصحابه ، والحق باطلاً ، ويعادي أهله»[4] .

والمراد بالمنافقين هنا ، المنافقون المظهرون إسلامهم ولم يهاجروا ، وكانت الهجرة هي الفيصل ، ومعنى الهجرة قبل الفتح كان محدداً بأنه الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، والانضام للجماعة المسلمة ، والخضوع لنظامها ، وإلا فهو الكفر أو النفاق ، وكان قد وقع بين الصحابة - رضوان الله عليهم - فيهم اشتباه ، حيث إن بعضهم تحرج من قتالهم ، وَقَطْع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان ، ولكن بعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم ، فحكم بكفرهم ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لاينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا ، بل أمرهم واضح غير مشكل إنهم منافقون ، قد تكرر كفرهم وودوا مع ذلك كفركم ، وأن تكونوا مثلهم[5] . حيث قال تعالى :﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ...﴾[6] . فقد حكم الله بكفرهم ، ومعنى ذلك «أنه ردهم إلى أحكام الكفار من الذل والصغار والسبي والقتل بما كسبوا ، أي بما أظهروا من الإرتداد بعد ما كانوا على النفاق ، وذلك أن المنافق مادام يكون متمسكاً في الظاهر بالشهادتين لم يكن لنا سبيل إلى قتله ، فإذا أظهر الكفر، فحينئذ يجري الله تعالى عليه أحكام الكفار»[7] .

---

(١) سورة النساء الآية ٨٨ .

(٢) سورة النساء الآية ٩١ .

(٣) انظر : القاموس المحيط ج٢ ص ٢٢٠ مادة ركس ، مختار الصحاح ص ٢٥٤ ، فتح القدير ٤٩٥/١ .

(٤) إغاثة اللهفان ج١ ص ٢٠ .

(٥) انظر : في ظلال القرآن ج٢ ص ٧٣٠ ، وانظر : تفسير كلام المنان ج٢ ص ١٢٠ .

(٦) سورة النساء الآية ٨٩ .

(٧) التفسير الكبير ج١٠ ص ١٧٥ ط بيروت ، شفاء العليل ص ١٠١ .

ومن الملاحظ أن النص يتضمن استنكاراً من الله تعالى لانقسام المؤمنين فئتين في أمر المنافقين ، وتعجباً من هذا الموقف ، وشدة وحسماً في التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته في التعامل مع أولئك المنافقين ، وهذا الاستنكار يدل على خطر التميع في الصف المسلم في النظر إلى النفاق والمنافقين ، لأن فيها تميعاً كذلك في الشعور بحقيقة هذا الدين ، وحقيقة الإيمان في ظروف تستدعي الوضوح الكامل والحسم القاطع ، فإن كلمة تقال باللسان مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين ، لا يكون إلا نفاقاً ، ولا موضع هنا للتسامح أو للإغضاء ، فمالكم فئتين في شأن المنافقين والله أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم ؟ .وهي شهادة من الله حاسمة في أمرهم (١).

لقد كان المرض والإركاس ، عقوبة موافقة لسوء نية المنافق وعمله ، فقط نطق بالشهادتين نطقاً يكذبه العمل من مظاهرة أعداء الإسلام ، ولكنه مع ذلك لا يقف إلى هذا الحد بل يعمل على رد المسلمين عن دينهم ، لأن الذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين ، فما كان إلا أن أضله الله تعالى وأركسه ، حيث أعاده إلى سابق عهده من الردة إلى الكفر .

٤ - صرف القلوب وإزاغتها :

وهذه حالة أخرى من أحوال ضلال القلب المتعددة التي ذكرها القرآن الكريم ،ومما ورد فيها قول الله تعالى :﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا۟ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾(٢) ويأتي الصرف بمعنى التحويل والتقليب ، ففي الرياح تحويلها من وجه إلى وجه ، وصرّفه في الأمر تصريفاً فتصرف ، قلّبته فَتَقَلَّبْ ، وانصرف انكبَّ وصرف الصبيان قَلَبَهم (٣).

يخبر الله تعالى في الآية السابقة وماقبلها عن المنافقين وخطرهم ، وما يكيدون للإسلام والمسلمين ، رغم أنهم يرون الآيات ويشاهدونها بكشف سترهم ومؤامراتهم ، وبنصر المسلمين في كثير من المعارك ، ومع ذلك لا يتوبون ، والقرآن ينزل لفضحهم ، وكشف خططهم ومؤامراتهم ، ولكنهم ينظرون إلى بعضهم قائلين ، «هل يراكم من أحد» أي من المؤمنين

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ج٢ ص ٧٣٠ ص ٧٣١ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٧ .

(٣) انظر : القاموس المحيط ج٣ ص ١٦٢ ،وانظر : مختار الصحاح ص ٣٦٢ .

لينصرفوا عن المكان الذي ينزل فيه الوحي ، لأنه لاصبر لهم على استماعه حيث يكشف فضائحهم ومخازيهم ، وإلى جانب ذلك يريدون أن يبتعدوا عن مقام الوحي ، ليخلوا لهم المقام ، فيتكلموا بما يريدون من طعن وضحك وسخرية بالإسلام والمسلمين ، متناسين أن الله تعالى يراهم ويعلم ماتخفي صدورهم .

لقد أخبر سبحانه وتعالى عن فعلهم وهو الانصراف ، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن الخير ومافيه الهداية ، وعن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلاً له ، لأن قلوبهم غير صالحة لذلك ، فصلاحيتها تتم بشيئين ، حسن الفهم ، وحسن القصد ، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة ، فكان جزاءهم صرف الله قلوبهم ، فهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها ، وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه وتعالى،جازاه بأن يعرض عنه ، فلا يمكنه من الإقبال عليه ، وهذا يدل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا عمن لا خير فيه ، والذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده [1].

كما ورد قوله تعالى :﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2] . والتقليب هوتحويل الشيء من وجه إلى وجه [3]. ومعنى تقليب الأفئدة والأبصار هو عدم ثباتها على الحق وانقلابها عنه ، وحدث ذلك لتركهم الإيمان ، فعاقبهم الله تعالى بتقليب أفئدتهم ، وأبصارهم ، وهو حال الكافرين والمشركين الذين جاءتهم الآيات القاهرة التي تدل على صدق رسول الله ﷺ ، ومع ذلك لم يؤمنوا ، فكان الجزاء من جنس العمل ، حيث أن الله تعالى قلب قلوبهم وأبصارهم عن الحق فبقوا على الكفر ولم ينتفعوا بالآيات ، وهذا من عدل الله تعالى وحكمته بعباده ، فإنهم هم الذين جنوا على أنفسهم ، حيث فتح لهم الباب فلم يدخلوا فيه ، وبين لهم الطريق فلم يسلكوه ، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسباً لأحوالهم[4] .

وقدم الله تعالى تقليب القلوب على الأبصار لأن القلب هو المركز ، وأما البصر فهو آله له ، فكان لا محالة تابعاً لأحوال القلب ، فلهذا السبب وقع الإبتداء ، بذكر تقليب القلوب

---

(١) انظر : شفاء العليل ص ٩٧ ص ٩٨ ، وانظر : فتح القدير ج٢ ص ١٠٨ ، ص ٤١٨ ، انظر : تفسير كلام المنان ج٣ ص ١٥٦ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٠ .

(٣) انظر : القاموس المحيط ج١ ص ١١٩ ، وانظر : شفاء العليل ص ٩٩ .

(٤) انظر : التفسير الكبير ج١٣ ص ١٢٠ ، ط بيروت ، وانظر : شفاء العليل ص ٩٩ .

في هذه الآية ثم أتبعه بذكر تقليب البصر(١) .

ولذلك كان رسول الله ﷺ دائماً يدعو الله أن يثبت قلبه على دينه فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول **[يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك]** فقلت يا رسول الله آمنا بك وبماجئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ،**[إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء]**(٢) .

وورد ذكر أزاغه القلوب في قوله تعالى :﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٣) .

وأصل الزيغ الميل ، ومنه زاغت الشمس إذا مالت ، فإزاغت القلب إمالته ، وزيغه ميله عن الهدى إلى الضلال ، والزيغ الشك والجور عن الحق(٤) ، والزيغ كما يوصف به القلب ، يوصف به البصر أيضاً حيث قال الله تعالى :﴿... وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ...﴾(٥) .

وأما قوله تعالى :« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » أي فلما انصرفوا عن الحق وعدلوا عنه بقصدهم ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وصرفها عن قبول الحق عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها ،ولم يوفقهم الله للهدى ،لأنهم لا يستحقون الخير، ولا يصلحون إلا للشر(٦) . وكان هذا مع قوم موسى عليه السلام عندما آذوه حيث قالوا :﴿... أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ...﴾(٧) وقالوا أيضاً :﴿... لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ...﴾(٨) وغيرها من الأقوال والأفعال مع علمهم أنه رسول الله إليهم ، وهذا يوجب منهم التعظيم والتوقير لنبيهم ، ولكنهم مالوا إلى غير الحق ، فأمال الله قلوبهم عن الحق ، وأضلهم جزاء ماعملوا ، وهذا

---

(١) انظر : التفسير الكبير ج١٣ ص ١٢١ ، ط بيروت .

(٢) صحيح مسلم ج٤ص ٢٠٤٥ ، كتاب القدر باب تصريف الله للقلوب حديث رقم ٢٦٥٤،بنحوه ، جامع الأصول ج٧ ص ٥٣ ، كتاب الصفات حديث رقم ٥١٩ .

(٣) سورة الصف الآية ٥ .

(٤) انظر : القاموس المحيط ج٣ ص ١٠٧ ، انظر : شفاء العليل ص ١٠٠ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ١٠ .

(٦) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٢٢٠ ، وانظر : تفسير كلام المنان ج٧ ص ٣٦٧ .

(٧) سورة النساء الآية ١٥٣ .

(٨) سورة البقرة الآية ٦١ .

تنبيه على عِظَمِ إيذاء الرسول لانه يؤدي إلى زيغ القلوب عن الهدى(١) .

ولكن في المقابل نجد أن المؤمنين الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، الراسخون في العلم يتذللون لله تعالى ويسألوه ألا يزيغ قلوبهم عن الحق بعد إذ جاءهم ، حيث قال تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(٢) فالراسخون في العلم بعد أن آمنوا بكل ما أنزل الله تعالى ، من الآيات المحكمات والمتشابهات تضرعوا إليه سبحانه وتعالى أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل ، بعد أن جعلها مائلة إلى الحق ، لأن القلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال ، وقيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة والشك ، ومن ثم يشفق من العودة إلى الضلال ، وبالتالي يتجه المؤمنون إلى الله تعالى بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة .

وهكذا يتبين أن صرف القلوب وإزاغتها من الله تعالى لا يكون إلا بعد انصراف العبد عن الله تعالى وزيغه عن منهاجه ، وهذا ماحدث مع المنافقين الذين عرفوا الحق،ولكنهم أعرضوا عنه مع بيانه ووضوحه ، حيث أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، فكان الجزاء من جنس العمل ، فأدى إعراضهم وإنصرافهم إلى صرفهم عن الهدى وهذا عدل من الله تعالى .

٥ - الران :

وردت هذه الحالة من حالات ضلال القلب في قوله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣) ، قيل ران بمعنى غطى ، حيث يقال ران على قلبه الذنب يرين ريناً أي غشيه وغطاه ، والرين كالغشاء يغشى القلب(٤) .

ويختلف الران عن الغين حيث ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : **[إنه لَيُغَانُ على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة]** (٥) ، والغين حجاب رقيق أرق من الغيم ، فأخبر ﷺ أنه يستغفر الله استغفاراً يزيل الغين عن القلب ، فلا يصير نكتة سوداء ، كما أن النكتة ، السوداء إذا أزيلت لا تصير ريناً (٧) .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ج٢٩ ص ٢٧١ ، ط بيروت .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨ .

(٣) سورة المطففين الآية ١٤ .

(٤) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ٢٣٠ ، وانظر : شفاء العليل ص ٩٤ .

(٥) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٧٥ ، كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار حديث ٢٧٠٢ .

(٧) انظر : مجموع الفتاوي لابن تيمية ج١٥ ص ٢٨٣ .

ويرى ابن الأثير الجزري[1] أن المراد بقوله ﷺ «ليُغَانُ علي قلبي» السهو ، لأنه كان ﷺ - لايزال في مزيد من الذكر والقربة ودوام المراقبة ، فإذا سها عن شيء منها في بعض الأوقات ، أو نسي عده ذنباً على نفسه ، ففزع إلى الاستغفار»[2]. وهذا القول يتفق مع عصمة رسول الله ﷺ .

والران هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب فتغشاه وتغطيه فيسود من الذنوب حيث تغلب عليه ، ويدل على ذلك مارواه أبو هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال :**[إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب ، صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكره الله** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3]][4] .

وهذا يبين أن الذنوب وتكاثرها مع عدم التوبة منها هو السبب الأساسي في تحقيق الران على القلب ، وقد قال في ذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:«كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله»[5] فتراكم الذنوب على القلب يؤدي إلى الضلال ، وقال مجاهد[6] :«القلب مثل الكف ، ورفع كفه ، فإذا أذنب انقبض وضم أصبعه ، فإذا أذنب ذنباً آخر انقبض وضم أخرى ، حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه ، قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين»[7] .

---

(١) هو المبارك بن محمد بن عبد الكريم مجد الدين أبو السعادات الشيباني الجزري الشافعي المعروف بابن الأثير ولد سنة ٥٤٤ ، كان عالماً في عدة علوم منها الفقه وعلم الأصول والحديث واللغة وله عدة مؤلفات منها جامع الأصول في أحاديث الرسول توفي سنة ٦٠٦ هـ ، انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص ٥٤ .

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ج٤ ص ٣٨٦ – ٣٨٧ ، وانظر : حاشية صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٧٥ .

(٣) سورة المطففين الآية ١٤ .

(٤) مسند الامام أحمد ج٢ ص ٢٩٧ ، سنن الترمذي ج٥ ص ٤٣٤ ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة ويل للمطففين حديث ٣٣٣٤ .

(٥) شفاء العليل ص ٩٤ .

(٦) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي ، تابعي ، شيخ القراء والمفسرين ، قرأ التفسير على ابن عباس رضي الله عنه ثلاث مرات ، ولد سنة ٢١ هـ ، وتوفي سنة ١٠٣هـ، أو ١٠٤ هـ ، انظر :شذرات الذهب ج١ ص ١٢٥ ، وانظر : تذكرة الحفاظ ج ١ص ٨٠ – ٨١ ، وانظر : الأعلام ج٦ ص ١٦١ .

(٧) فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٤٠٠ .

إن الذنوب عبارة عن أغطية تتراكم على القلب حتى يؤدي تراكمها إلى هلاكه ، فهي كالصدأ الذي يحيط بالحديد فإن تكاثر عليه أدى إلى بلائه ، ولذلك يقول الرسول ﷺ :**[إياكم ومحتقرات الذنوب ،فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهكلنه]** [1]، فالإنسان إذا واظب على الإتيان ببعض أنواع الذنوب ، حصلت في قلبه ملكة نفسانية علي الإتيان بذلك الذنب ، وهذا الذنب يشغل عن ذكر الله تعالى ، وكل مايشغل عن ذكره تعالى فهو ظلمة وسواد ، وهذا هو المقصور بحصول نكة سوداء في القلب حتى يسود وهو الران ، وهو بسبب الذنوب وتراكمها .

كما ورد قوله تعالى أيضاً :﴿... وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ...﴾[2] وقوله تعالى :﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾[3] . والأكنة جمع كنان وهي الأغطية ، وكن الشيء ستره وصانه ، وأكننته أخفيته ، وأصله من الستر والتغطية [4].

من الواضح أن هذه الأكنة ، وماعوقب بها الكافرون إلا بعد أن أعرضوا عن فهم الحق الذي جاءهم ، «وذكر الأكنة والوقر تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه ، كأن قلوبهم لا تعقل وأسماعهم لا تدرك»[5] .

فهي الأغلفة التي تحول دون أن تتفتح هذه القلوب فتفقه ، والصمم الذي يحول دون هذه الآذان أن تؤدي وظيفتها فتسمع ، فهذه الأشخاص البشرية التي تسمع ، ولكنها لا تفقه ، كأن ليس لها قلوب تدرك ، وليس لها آذان فتسمع ، وهذا ناتج عن الأغطية التي على قلوبهم إنهم عوقبوا بهذه العقوبة لأنهم السبب في جعل الأكنة على قلوبهم ،وذلك بإعراضهم عن فهم الحق الذي جاءهم من الله تعالى ، وتمردهم على دعوته . واستهزائهم برسوله حيث

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ١١٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٤٦ .

(٤) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ٢٦٤ ، وانظر : مختار الصحاح ص ٥٨٠ ، وانظر : فتح القدير ج٤ ص ١٠٨ .

(٥) فتح القدير ج٢ ص ١٠٨ ، وانظر : شفاء العليل ص ٩٣ .

قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[1] . يقولونها بتبجح قلوبنا في أغطية فلا تصل إليها كلماتك ، وفي آذاننا صمم فلا تسمع دعوتك وقولك ، وبيننا وبينك حاجز حيث عدم الإتصال بيننا وبينك ، فدعنا واتركنا واعمل لنفسك، بهذا الاسلوب تعامل الكفار مع رسول الله ﷺ فأظهروا الإعراض من كل وجه ، وبغضه والرضى بماهم عليه ، ولذلك قالوا فاعمل إنا عاملون .

وقد وقع الإقتصار في الآية على القلب والسمع والبصر ،«وذلك لأن القلب محل المعرفة وسلطان البدن ، والسمع والبصر هما الآلتان المعنيتان لتحصيل المعارف ، فلما تبين أن هذه محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن ... وإذا تأكدت النفرة من الشيء ، صارت تلك النفرة في القلب ، فإذا سمع منه كلاماً لم يفهم معناه كما ينبغي ، وإذا رآه لم تعد تلك الرؤية سبباً للوقوف على دقائق أحوال ذلك المرئي ، وذلك المدرك والشاعر هو النفس ، وشدة نفره النفس عن الشيء ، تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء»[2] .

وهكذا يتبين أن الران والأكنة ناتج عن المعاصي ،وعن الأعراض عن منهج الله تعالى، فيترتب على ذلك تراكم الذنوب على القلوب التي تسبب الأغطية عليه ، وبالتالي الضلال والهلاك .

٦ - الإغفال :

وردت هذه الحالة من أحوال الضلال في قوله تعالى :﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[3] .

وفي القاموس غَفَلَ عنه غفولا تركه وسها عنه كأغفله أو غفل ، صار غافلاً ،وغفل عنه وأغفله ، وصل الغفلة إليه[4] .

لقد نهى الله سبحانه وتعالى عن طاعة من جعل الله تعالى قلبه غافلاً عن ذكره ، كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه ، فأمره ألا يطيعهم فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء ، لأنهم لو ذكروا الله تعالى لما تعالوا علىَ خلقه «ولكنهم إنما

---

(١) سورة فصلت الآية ٥ .

(٢) التفسير الكبير ج٢٧ ص ٨٥ ،وانظر : في ظلال القرآن ج٥ ص ٣١٠٨ .

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٤) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ٢٥ .

يتبعون أهواءهم ، أهواء الجاهلية ، ويحكمون مقاييسهم في العباد ، فهم وأقوالهم سفة ضائع لا يستحق إلا الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله»[1] .

وهذا يدل على أن شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً من ذكر الله تعالى ، ويكون مملوءاً بالهوى ، الذي يؤدي به إلى الانحراف ، مستغلاً ماله ووقته ومارزقه الله من قدرات في اتباع الشهوات ، حيث لم يعد في قلبه متسع لله تعالى ، والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل ويجعلها غاية حياته لا شك في غفلته عن ذكر الله تعالى ، فيزيده الله غفلة ، وهو عقوبة من الله تعالى لمن أعرض من ذكره .

ولذلك يحمل قوله «أغفلنا» على إيجاد الغفلة وخلقها ، لأن المنطق السليم يقضي بامتناع أن يكون العبد موجداً للغفلة من نفسه ودليل ذلك :

أنه إذا حاول إيجاد الغفلة ، فإما أن يحاول إيجاد مطلق الغفلة ، وهذا باطل لأنه كيف تحصل له الغفلة عن شيء دون شيء آخر ، مع أن الطبيعة المشترك فيها بين الأنواع الكثيرة تكون نسبتها إلى كل تلك الأنواع على السوية .

وإما أن يحاول إيجاد الغفلة عن شيء معين ، وهذا باطل أيضاً ، لأن الغفلة عن شيء عبارة عن غفلة لا تمتاز عن سائر أقسام الغفلات ، إلا بكونها منتسبة إلى ذلك الشيء المعين بعينه ، وعلى هذا لا يمكن أن يقصد إلى غفلة معينة إلا إذا عرفها أنها غفلة عن ذلك الشيء المعين ، إذاً لابد من معرفة الغفلة والشيء المغفول عنه [2].

ويعقب الإمام الرازي على ذلك بقوله : «فثبت أن العبد لا يمكنه إيجاد هذه الغفلة إلا عند إجتماع الضدين ، وذلك محال ،والموقوف على المحال محال ، فثبت أن العبد غير قادر على إيجاد الغفلة ، فوجب أن يكون خالق الغفلات وموجدها في العباد هو الله»[3] .

---

(١) في ظلال القرآن ج٤ ص ٢٢٦٨ .

(٢) انظر : التفسير الكبير للرازي ج٢١ ص ٩٩ ، ط بيروت .

(٣) التفسير الكبير للرازي ج٢١ ص ٩٩ ، ط بيروت .

٧ - تضيق الصدر وجعله حرجاً لا يقبل الإيمان :

قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهدِيَهُ يَشرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَل صَدرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ ...﴾[١] .

والحَرَج : هو الشديد الضيق ، يقال رجل حرج أي ضيق الصدر ، وقيل أيضاً هو المكان الضيق الكثير الشجر[٢] ، وعندما قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ، قال : ايتونى رجلاً من كنانة واجعلوه راعياً ، فأتوه به . فقال عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم ، فقال : الشجرة تحدق بها الأشجار الكثيرة فلا تصل إليها راعية ولا وحشية ، فقال عمر : كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير »[٣] .

وفي تعليق لابن عباس رضي الله عنهما على هذه الآية يقول : « يجعل صدره ضيقاً حرجاً إذا سمع ذكر الله أشمأز قلبه ، وإن ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك »[٤] .

إن السبب الذي يشرح الصدر هو النور الذي يقذفه الله فيه ، فإذا دخله ذلك النور اتسع بحسب قوة النور وضعفه ، ولكن إذا فقد ذلك النور بسبب المعاصي والبعد عن دين الله تعالى أظلم القلب وتضايق وأصبح حرجاً لا يقبل الإيمان ، ولذلك قال النبي ﷺ : **[إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح]** قالوا فما علامة ذلك يارسول الله ؟ قال **[الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دارالغرور والإستعداد للموت قبل الموت]**[٥] فمن خالف هذه الأمور فلم يعمل لدار الخلود ، وجعل همه الدنيا الزائلة ، ولم يستعد للموت ولقاء الله تعالى ، بل لحق بالشهوات وارتكب المحرمات والكبائر ، فهذا يجعل الله تعالى صدره ضيقاً حرجاً ، لأن الإيمان يكون ثقيلاً عليه ،كمن يتكلف مالا يطيق كصعود السماء من غير أجهزة أو أدوات « وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء ، وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه »[٦] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ج١ ص ١٨٢ ، وانظر : شفاء العليل ص ١٠٦ .

(٣) شفاء العليل ص ١٠٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٦ .

(٥) جامع البيان للطبري ج٨ ص ٢١ ، تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٧٨ .

(٦) صفوة التفاسير ج١ ص ٤١٧ .

وهذه الآية تثبت ظاهرة علمية عرفها العلماء بعد ارتياد طبقات الجو العليا بفضل الطيران ، وهي ظاهرة طبيعية تنتج عن نقص أُوكسجين الهواء في طبقات الجو العليا ، إذ يشعر الصاعد في هذا العلو بصعوبة في التنفس ويحس بالضيق ، وهذا يدل على أنه كلما ارتفع الإنسان في الجو كلما قل الأوكسجين وهذا يؤدي إلى ضيق التنفس(١) ، وهكذا حال الضال في تضايقه من الحق وبعده عنه كمن يصعد إلى السماء فيتضايق ويختنق لقلة الأوكسجين .

وهكذا فإن مَنْ يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، أي في غاية الضيق من الإيمان والعلم واليقين ، حيث انغمس قلبه في الشبهات والشهوات ، فلا يصل إليه خير ، كما لا ينشرح قلبه لفعل الخير .

المطلب الثاني : أسباب الضلال

الضلال عقوبة للإنسان على أعماله المخالفة لأوامر الله تعالى ، وللضلال أسباب من فعلها ، أو فعل سبباً منها ، استحق البعد عن الله تعالى ، حيث أنه سبحانه لا يعاقب عبده بالضلال إلا بعد أن يبين له طريق الحق وطرق الضلال ، ويأمره باتباع الحق وينهاه عن طرق الضلال ، وبعد ذلك إن سار على طرق الضلال وأعرض عن طريق الحق ، أضله الله تعالى عدلاً منه وفيما يلي عرض جملة من أسباب الضلال :

أولاً الكفر :

والكُفرُ : بالضم ضد الإيمان ونقيضه ، والكَفْر بالفتح التغطية وكَفَر عليه يكفر غطاه وستره ،والكُفْرُ أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر(٢) ، ووصف الليل بالكافر ،لستره الأشخاص ،والزارع لستره البذر في الأرض ، والكافر من يجحد الوحدانية ، أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها ، وقد يقال كَفَرَ لمن أضل بالشريعة،وترك ما لزمه من شكر الله عليه (٣) .

وأصل الكُفْر «هو التكذيب المتعمد لشيء من كتب الله تعالى المعلومة ، أو لأحد من رسله عليهم السلام ، أو لشيء مما جاؤا به إذا كان ذلك الأمر المكذب به معلوماً بالضرورة

---

(١) انظر : روح الدين الاسلامي ص ٥٤ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ج٢ ص ١٢٨ ، مادة كفر ، وانظر : مختار الصحاح ص ٥٧٣ ، مادة كفر .

(٣) انظر : غريب القرآن للأصفهاني ص ٤٣٤ .

من الدين ، ولا خلاف أن هذا القدر كفر ، ومن صدر عنه فهو كافر ، إذا كان مكلفاً مختاراً غير مختل العقل ولا مكره »[1] .

ومثال ذلك من أنكر وجود الله تعالى ، أو كونه واحداً ، أو كونه عالماً مختاراً ، أو كونه منزهاً عن النقائص والآفات ، أو أنكر نبوة محمد ﷺ ، أو أنكر الشرائع التي علمنا بالضرورة كونها من دين محمد ﷺ .

وهذا الكفر الذي يحجب عن الهداية خمسة أنواع هي :

النوع الأول: كفر التكذيب ، والدليل على ذلك قول الله تعالى :﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلكَافِرِينَ﴾[2] .

النوع الثاني : كفر الإباء والاستكبار مع التصديق . والدليل على ذلك قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبلِيسَ أَبَى واستَكبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾[3] . فهناك صنف من الكفار يعرفون الله في قلوبهم ، ويعترفون به بألسنتهم ، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾[4] .ومع ذلك فهم يعاندون في الإيمان برسله ، واتباع شريعته ، ويستكبرون عن عبادته ، لأسباب كثيرة منها الحسد والبغي والكبر والطمع واتباع الشهوات وغيرها .

النوع الثالث : كفر الشك : والدليل عليه ، قول الله تعالى :﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيراً مِنهَا مُنقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُه وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾[5] . فهذا الشخص ، دفعه شكه إلى الكابرة ، فجزم بأن بستانه لن يبيد أبداً ، وأنكر يوم القيامة .

النوع الرابع : كفر الإعراض ، ودليل ذلك قوله تعالى :﴿... والَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾[6] . وهم الذين ينكرون الله بألسنتهم مع أنهم يعلمون وجوده في قلوبهم ككفر

---

(١) إيثار الحق على الخلق لابن المرتضى ص ٤١٥ ، وانظر : التفسير الكبير ج٢ ص ٣٥ ، ط بيروت .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٣٤ .

(٤) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٥) سورة الكهف الآيات ٣٥ – ٣٨ .

(٦) سورة الأحقاف الآية ٣ .

بعض كفار قريش ، وكفر بعض اليهود الذين عرفوا أن النبي محمداً رسول الله ﷺ ، وقد نزل في هذا الصنف قول الله تعالى ﴿... فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١) .

النوع الخامس : كفر الجحود ، ودل على ذلك قول الله تعالى :﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢) . فقد عرفوا الحق وجحدوه ، وجاءتهم الآيات الواضحة فكفروا بها . وقال تعالى :﴿... وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾(٣) . وقال تعالى :﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾(٤) .

تبين من خلال النظر في أحوال الضلا وأسبابه أن الكفر له الأثر الكبير في الضلال حيث أن الطبع على القلوب سببه الكفر ، قال تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾(٥) . وقال :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٦) .

وقد أتبع الله تعالى الطبع على القلوب السمع والإبصار ، ذلك لعظم الكفر وخطره حيث أنه تمرد على الله تعالى فيكون الجزاء من جنس العمل :﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ...﴾(٧) ، كما وأن الكفر سبب في جعل الأكنة على القلوب فكأنها مغلقة فلا يصل إليها الخير حيث قال تعالى :﴿... وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ...﴾(٨) . كما وأن تقليب الأفئدة والأبصار ناتج عن

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٩ .

(٢) سورة النمل الآية ١٤ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٩ .

(٤) سورة الإنسان الآية ٣ .

(٥) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٦) سورة النحل الآية ١٠٧ – ١٠٨ .

(٧) سورة الأنعام الآية ٣٩ .

(٨) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

نفس السبب حيث قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] .

ثانياً : الشرك :

الشرك : الكفر ، وأشرك بالله أي كفر[2] ، والشرك هو اتخاذ العبد غير الله نداً مسوياً به الله يحبه كحب الله ، ويخافه ويخشاه كخشية الله ويتبعه على غير مرضاة الله ، ويشركه في عبادة الله مضاه به الله تعالى[3] .وقد قال تعالى :﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ...﴾[4] .

إن الشرك بالله أعظم الذنوب وأقبحها ، وأكبر الكبائر ، حيث أن الله تعالى لا يغفره ولا يقبل لأحد معه عملاً ، وما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا بالإنذار من الشرك والدعوة إلى التوحيد ، وما هلكت الأمم السابقة ، وأعدت لهم النيران في الآخرة إلا بسبب الشرك والامتناع عن التوحيد ، ولا نجا الرسل وأتباعهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة إلا بالتزام التوحيد ، والبراء من الشرك ، ولذلك كان الشرك أعظم مانهى الله تعالى عنه ، كما أن التوحيد أعظم ما أمر الله به ، «ولهذا كان أول دعوة الرسل كلهم إلى توحيد الله عز وجل ، ونفي الشرك عنه ، فلم يأمروا بشيء قبل التوحيد ، ولم ينهوا عن شيء قبل الشرك ، وما ذكر الله تعالى التوحيد مع شيء من الأوامر إلا جعله أولها ، ولا ذكر الشرك مع شيء من النواهي إلا جعله أولها ، كماقال تعالى :﴿وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ...﴾[5] وقال :﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ...﴾[6] »[7] .

إن أكثر شرك الأمم ، التي بعث الله إليها الرسل ، وأنزل إليها الكتب ، إنما كان في

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١٠ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ج٣ ص ٣٠٨ ، وانظر : مختار الصحاح ص ٢٣٦ .

(٣) انظر : معارج القبول ج١ ص ٤٤٢ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٦٥ .

(٥) سورة النساء الآية ٣٦ .

(٦) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٧) معارج القبول ج١ ص ٤٤١ .

الألوهية ، ولذلك كان هذا التوحيد أساس دعوة كل رسول وجوهرها حيث قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...﴾[1] وقال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2] .

إن كثيراً من المشركين يقرون بالربوبية باطناً وظاهراً ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...﴾[3] . ولكن هذا التوحيد لا يكفي للنجاة في الدنيا والآخرة لأنه يتطلب توحيد الألوهية ، لأن توحيد الإلهية يتضمن في حقيقته توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء ، والصفات ، فمن أشرك في توحيد الألوهية ، فقد أشرك في توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، لأن أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر . ولذلك يقول الله تعالى مبيناً عظم الشرك :﴿... وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾[4] .

وشرك الألوهية ينقسم إلى أربعة أنواع، هي :

النوع الأول : شرك الدعاء ، لقوله تعالى :﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[5] .

النوع الثاني : شرك النية والإرادة والقصد، ودليل ذلك قول الله تعالى :﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6]

النوع الثالث : شرك الطاعة ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[7] .

وتفسيرها الذي لا إشكال فيه هو طاعة العلماء والعباد في المعصية ،كما فسرها النبي

---

(١) سورة النحل الآية ٣٦ .

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

(٤) سورة النساء الآية ١١٦ .

(٥) سورة العنكبوت الآية ٦٥ .

(٦) سورة هود الآيات ١٥ – ١٦ .

(٧) سورة التوبة الآية ٣١ .

ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه لما سأله فقال لسنا نعبدهم ، فذكر له أن عبادتهم طاعتهم في المعصية ، فعن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال ياعدي ، اطرح عنك هذا الوثن ،وسمعته يقرأ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ﴾ . قال : **[إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه]**[١] .

النوع الرابع : شرك المحبة . وهو أن يحب الإنسان أنداداً من دون الله تعالى ، ويدل على ذلك قول الله تعالى :﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ...﴾[٢] .

ثالثاً : النفاق :

النفاق بالكسر ككتاب فعل المنافق ، يقال نافق ينافق منافقة ونفاقاً ، وهو مأخوذ من النافقاء ، وهي احدىٰ ، جحرة اليربوع ،يخرج منه إذا أخذ عليه الحجر الذي دخل منه ، حيث أن له جحرين ، أحدها يسمى القاصعاء ، والآخر يسمى النافقاء ، الخطر، فإذا أتاه الخطر من جهة القاصعاء ، ضرب النافقاء برأسه فانتفق[٣] .

وذكر أن النفاق مأخوذ من النفق ، وهو السرب تحت الأرض ويراد بذلك أنه يستتر بالإسلام كما يستتر صاحب النفق فيه[٤] .

فالنفاق الأكبر هو إظهار الاسلام وإبطان الكفر ، والمنافق ، هو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه مخادعاً للمسلمين ، وسمي بذلك لإظهاره غير مايضمره ، تشبيهاً باليربوع الذي يكتم أحد جحريه ويظهر غيره .

فإن كان الذي يخفيه التكذيب بأصول الإيمان ، فهو المنافق الخالص وحكمه في الآخرة حكم الكافر ، ويزيد عليه في العذاب لخداعه المؤمنين بما يظهر لهم من الإسلام ، حيث قال الله تعالى :﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾[٥] .

وأما إن كان الذي يخفيه غير الكفر بالله وكتابه ورسوله ، وإنما هو شيء من المعصية

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير ج٢ ص ١٦١ ، كتاب التفسير ، تفسير سورة براءة حديث رقم ٦٥١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٥ .

(٣) انظر : تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٩ ، وانظر : القاموس المحيط ج٣ ص ٢٨٦ .

(٤) انظر : النفاق والمنافقون ابراهيم سالم ص ٣ .

(٥) سورة النساء الآية ١٤٥ .

لله تعالى ،فهو الذي فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق ، وهو يندرج تحت النفاق العملي ، وليس النفاق الخالص .

إن المنافق أضر وأسوأ وأخطر من الكافر ، حيث إنه ساواه في الكفر ، وامتاز به عليه بالخداع وإمكانية دخوله في صفوف المسلمين ، فيكون إيذاؤه شديداً ، والحذر منه قليلاً ، بخلاف الكافر الذي لا يحصل فيه الإشتباه ولا يمكن أن يخدع المسلمين بحقيقته الظاهرة . ولذلك قال الله تعالى في حق المنافقين :﴿... هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(١) .

مما سبق يتبين أن النفاق ينقسم إلى قسمين : نفاق اعتقادي وفيه قال تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَاهُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(٢) وقال :﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ...﴾(٣) فلا ينفع المنافق تظاهره بالإيمان أو بالإسلام يوم القيامة وإن كان «المنافق يخاطبُ بهذه الأعمال وتنفعه في الدنيا ، ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة، ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة ،كما تميز عنهم بها في الدنيا ، ولكن وقت الحقيقة يضرب ﴿... بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُم وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(٤) »(٥).

وأما النفاق العملي أو الأصغر ، وهو المراد بقول النبي ﷺ **[أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً . ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا إئتمن خان ، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر]**(٦) .«فهذه الخصال كلها نفاق عملي لا يخرج من الدين إلا إذا صحبه النفاق الإعتقادي»(٧)، ومن كان فيه خصلة من هذه الخصال يعتبر فعل صفة من صفات المنافقين ، ويصبح من أهل الوعيد ، وإيمانه ينفعه الله به ،

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٨ .

(٣) سورة النساء الآية ١٤٥ .

(٤) سورة الحديد الآيات ١٣ – ١٤ .

(٥) الإيمان لابن تيمية ص ٣٠٠ .

(٦) صحيح البخاري ج١ ص ١٤ ، كتاب الإيمان ،باب علامات المنافق ، صحيح مسلم ج١ ص ٧٨ ، كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق حديث رقم ١٠٦ .

(٧) معارج القبول ج٢ ص ٤٢٠ .

ويخرجه به من النار ، ولو كان مثقال حبة من خردل ، ولكن لا يستحق بما عنده من إيمان الإسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب « وحاصل الأمر أن النفاق الأصغر كله يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية ... وقال طائفة من السلف خشوع النفاق أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع »(١) .

إن استمرار الإنسان على صفات النفاق وفعل المعاصي التي حذر منها رسول الله ﷺ واعتبرها من صفات المنافقين قد تؤدي بصاحبها إلى النفاق الأكبر، حيث أن «النفاق الأصغر وسيلة إلى النفاق الأكبر ، كما أن المعاصي بريد الكفر ، وكما يخشى على من أصر على خصال النفاق أن يسلب الإيمان عند الموت ، كذلك يخشى على من أصر على خصال النفاق أن يسلب الإيمان فيصير منافقاً خالصاً » (٢) .

وعلى الجملة ، فخلق النفاق ، له أثر كبير في الضلال ، ويعتبر من الأسباب الرئيسة ، وهذا ماصرح به القرآن الكريم في آيات كثيرة ، ومن ذلك قول الله تعالى في حديثه عن المنافقين :﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(٣) فزيادة النفاق عندهم نابعة وناتجة عن نفاقهم .

كما أن انصرافهم عن آيات الله ، وإعراضهم عن منهاجه تعالى بسبب نفاقهم يؤدي إلى صرف قلوبهم ، حيث قال تعالى :﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾(٤) . ويؤدي إلى صمم الآذان عن سماع الحق وعمي الأبصار عن رؤية الحق لقوله تعالى :﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾(٥) .

ويؤدي النفاق أيضاً إلى الإركاس والضلال حيث قال تعالى :﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾(٦) .

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٠ .

(٤) سورة التوبة الآية ١٢٧ .

(٥) سورة محمد الآية ٢٣ .

(٦) سورة النساء الآية ٨٨ .

ويفعل النفاق فعله في الإبعاد عن طاعة الله تعالى ، وخاصة الجهاد في سبيله ، ولذلك يقول الله تعالى في حديثه عن المنافقين :﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[1] .

وهكذا يتضح ضرر وخطر النفاق على الإنسان بل وعلى المجتمع الاسلامي ، لكونه مرض ينخر في المجتمع كالسوسة في الخشب والنار في الهشيم ، ولهذا حذرنا الله منه كما حذرنا رسوله ﷺ .

رابعاً : اتباع الهوى :

جاءت كملة الهوى من «هوى فهو هو ، أحبه ، واستهوته الشياطين ذهبت بهواه وعقله ... أو زينت له هواه»[2] واتباع الهوى معناه أن يقدم الإنسان شهواته وملذاته على الالتزام بدين الله تعالى ، وغالب المعاصي والبدع التي تؤدي إلى الضلال إنما تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله تعال ورسوله ﷺ، ولذلك يحرص الإسلام أن يتعلم المسلم مجابهة أهوائه ، والحيلولة بينه وبين الإنقياد لها ، ذلك أن هوى النفس «يشوش نظام ميول الإنسان الطبيعية ، وأن للميول في الحالة الطبيعية نظاماً خاصاً ، وترتيباً منسقاً يقتضيان الاعتدال والتوازن ، ولكن إذا وقع الإنسان في حبال الهوى ، تشوش عليه هذا النظام الطبيعي وفسد ، ولهذا يصف القرآن الكريم الهوى بأنه مفسد للنظام الطبيعي لهذه الحياة ، الذي يجب أن يسود فيه الحق قال الله تعالى :﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ...﴾[3]»[4] .

ولذلك يلاحظ بأن القرآن الكريم والسنة النبوية اكثرا من النهي عن اتباع الهوى ، فالقرآن الكريم نهى عنه لأنه يؤدي إلى الظلم وعدم إيصال الحق إلى الغير ، حيث قال تعالى ﴿... فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ...﴾[5] .أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم ، على ترك العدل في أموركم وشئونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان[6] .

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٦ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ٤٠٤ مادة هوى ، وانظر : مختار الصحاح ص ٧٠٢ . مادة هوى .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٧١ .

(٤) روح الدين الاسلامي ص ٢٢٦ . (بتصرف) .

(٥) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٦) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص ٥٦٥ .

إن اعظم أضراراً هوى النفس ، هو مايجيء عن طريق الحكام والولاة الذين من واجبهم إقامة العدل في الأرض ، فإنهم إن انقادوا لأهوائهم فحابوا الأقوياء والأغنياء ، وجاروا على الضعفاء والفقراء ، يكن من أثر ذلك فساد في الأرض ، ولهذا جاء القرآن الكريم ليعلمنا العدل بطريقة خطاب الله تعالى لنبيه داود عليه السلام حيث قال :﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(١) .

كما وأن من شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً عن ذكر الحق ويكون مملوءاً من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق «فالقلب إذا أشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور ، وإذا توجه إلى الخلق فقد حصل فيه الظلمة»(٢) . ولذلك وجه الله تعالى خطابه لرسوله ﷺ بعدم إطاعة من اتبع هواه، وهذا الخطاب موجه لنا بعد رسولنا ﷺ حيث قال تعالى :﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٣) .

ومن الناس من يطيع هواه دون تفكر أو تدبر ، فيجعله إلهاً يعبده ، حيث قال تعالى :﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(٤) . إنه نموذج من الناس عجيب حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة ، والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، «وتخضع لهواها وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ولا تعترف بحد ، ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلهاً يعبد ويطاع»(٥) .

ولهذا عندما حاج القرآن الكريم اليهود ، وأمرهم باتباع رسالة محمد ﷺ وماجاء بها من الحق ، بين أن عدم استجابتهم لدعوة الإسلام إنما كان بسبب أهوائهم حيث قال تعالى :﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٦) .

---

(١) سورة ص الآية ٢٦ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ج٢١ ص ١٠٠ ، ط بيروت .

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٤٣ .

(٥) في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٥٦٦ .

(٦) سورة القصص الآية ٥٠ .

وقد نهت السنة النبوية أيضاً عن اتباع الهوى ، بل أمرت بأن يكون هوى الإنسان تبعاً لما جاء به النبي ﷺ حيث قال : **[لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به]**[1] وقال **[لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس اجمعين]**[2] . فاتباع منهاج الله تعالى وسنة رسوله ، وتقديم محبتهم على كل شيء هو الطريق المنجي من الهلاك والضلال .

إن خطورة اتباع الهوى لا تنحصر فقط في أنه سبب من أسباب الضلال كما قال جل شأنه ﴿... وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾[3] . وقوله تعالى :﴿... وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ...﴾[4] . بل إن الهوى إذا استحكم في الإنسان يمكن أن يصده عن الهدى بعد إذ جاءه ، وعاش في ظلاله حيث يقول الله تعالى :﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[5] .

إن علاج هوى النفس ليس له إلا التوجه إلى الله تعالى ، والامتناع عن مخالفة أمره ، لقوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[6] . فهذه المراقبة لله تعالى مع جهاد صادق للنفس كفيلان ، بأن يثبتا النفس على طريق الحق بعيداً عن ارتياد سبل الضلال ، وخاصة إذا صاحب ذلك خوف من سخط الله وعقابه في الدنيا والآخرة ، وطمع في رحمة الله تعالى وثوابه وجنته في اليوم الآخر .

خامساً : الظلم :

والظُلم بالضم وضع الشيء في غيرموضعه[7] ، وقال الإمام ابن حجر في تعريفه للظلم بأنه :«إسم لما أخذ بغير حق»[8] وقيل : هو «مجاوزة الحد وعدم إيصال الغير إلى حقه»[9] .

إن الظلم من المعاصي العظيمة التي حرمها الله تعالى ، وشدد في حرمتها ، وتوعد الظالم كثيراً ، لكونه اعتدي على حقوق الغير بغير حق ، إلى جانب مخالفة أوامر الله

(١) الأربعين النووية للنووي ص٨٣ حديث ٤١ ،ضمن مجموعة الحديث ،شرح الاربعين النووية ص ١٢٨ حديث ٤١

(٢) صحيح مسلم ج١ ص ٦٦ . كتاب الإيمان باب وجوب محبة رسول الله حديث رقم ٦٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١١٩ .

(٤) سورة القصص الآية ٥٠ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٥ .

(٦) سورة النازعات الآية ٤٠ – ٤١ .

(٧) انظر : القاموس المحيط ج٤ ص ١٤٥، وانظر : الصحاح ص ٤٠٥ .

(٨) فتح الباري ج٥ ص ٩٥ .

(٩) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج١ ص ٢٣٠ .

تعالى ، ولذلك فإن الكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، تحذر من الظلم وعواقبه ، لأنه من الذنوب الكبيرة التي تجعل فاعلها في كربات شديدة وعقاب أليم يوم القيامة .

ومما ورد ذكره في القرآن الكريم قول الله تعالى :﴿... مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(١) . وقوله ﴿... وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٢) .

كما وتحدثت السنة عن الظلم وحذرت منه حيث قال الرسول ﷺ:**[اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ...]**(٣) . وذلك لما يلاقي الظالم من الحساب والعذاب يوم القيامة ، كما بينت السنة النبوية أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل ، فإذا جاء موعد أخذ الظالم فإن أخذه اليم شديد . فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **[إن الله عز وجل ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته]** . ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٤) »(٥) .

بل إن الرسول ﷺ نهى المسلمين عن الدخول إلى مساكن الذين ظلموا وحل بهم العذاب ، كمساكن قوم صالح أو لوط ، حيث أنه عندما مر على أرض ثمود ، أمر أصحابه أن يخرجوا منها بسرعة ، وقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال «مر النبي ﷺ بالحجر - أرض ثمود - قال :**[لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم]** ثم تقنع بردائه وهو على الرحل ثم زجر فأسرع حتى خلفها »(٦) فالحجر أرض ثمود ، وهم قوم صالح ، وقد خالفوا أمره وعقروا الناقة فأنزل الله عليهم عقابه ، حيث قال تعالى :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾(٧) »(٨) .

ولعظم الظلم وخطره ، حرمه الله تعالى على نفسه ، وجعله بين العباد محرماً . فعن أبي

---

(١) سورة غافر الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٠ .

(٣) صحيح مسلم ج٤ ص ١٩٩٦، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، حديث رقم ٢٥٧٨ .

(٤) سورة هود الآية ١٠٢ .

(٥) صحيح مسلم ج٤ ص ١٩٩٧ ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، حديث ٢٥٨٣ .

(٦) صحيح البخاري ج٤ ص ١٢١ ، كتاب الأنبياء ، باب قوله وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، صحيح مسلم ج٤ ص ٢٢٨٦ ، كتاب الزهد والرقائق باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا رقم ٢٩٨٠ .

(٧) كهشيم المحتظر : قال ابن عباس رضي الله عنه :«كالعظام المحترقة» وقيل حطام الشجر ويابسه ، انظر : جامع البيان للطبري ٦١/٢٧ ، فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ١٢٦ .

(٨) سورة القمر الآية ٣١ .

ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :**[ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ...]**[1] . قال العلماء في معنى حرمت الظلم على نفسي «أي تقدست عنه وتعاليت»[2] . كما ورد في القرآن الكريم تنزيه الله تعالى نفسه عن ظلم العباد حيث قال :﴿... وَمَآ أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3] وقال ﴿... وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[4] .

وكون الله تعالى خلق أفعال العباد وفيها الظلم ، فان ذلك لا يقتضي وصفه بالظلم سبحانه وتعالى ، كما أنه لا يوصف بسائر القبائح التي يفعلها العباد وهي خلقه وتقديره ، فإنه لا يوصف إلا بأفعاله ولا يوصف بأفعال عباده ، فإن أفعال عباده مخلوقاته ، وهو لا يوصف بشيء منها ، إنما يوصف بما قام به من صفاته وأفعاله[5] . جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته .

والظلم نوعان :

النوع الأول : ظلم النفس : وظلم النفس إذا أطلق تناول جميع الذنوب ، ولكن أعظمه الشرك بالله تعالى ، حيث قال :﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[6] ، لأن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق فعبده وتألهه ، فهو وضع الأشياء في غير موضعها ، ثم يلي الشرك من ضمن ظلم النفس ، المعاصي على اختلاف أجناسها وأنواعها ، من كبائر وصغائرحيث قال تعالى ﴿... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[7] .

النوع الثاني : ظلم العبد لغيره .وهو الظلم الذي حذر منه الرسول ﷺ بقوله :**[اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب]**[8] .وقال أيضاً في الحديث الذي يرويه أبو هريرة

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص ١٩٩٤ ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، حديث ٢٥٧٧ .

(٢) انظر : حاشية صحيح مسلم ج٤ ص ١٩٩٤ ، وانظر : من وصايا الرسول ج٢ ص ٥٧٨ .

(٣) سورة ق الآية ٢٩ .

(٤) سورة فصلت الآية ٤٦ .

(٥) انظر : جامع العلوم والحكم ص ٢٣٨ .

(٦) سورة لقمان الآية ١٣ .

(٧) سورة البقرة الآية ٥٧ سورة الأعراف الآية ١٦٠ .

(٨) صحيح مسلم ج١ ص ٥٠ ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين ، حديث رقم ٢٩ ، صحيح البخاري ج٣ ص ٩٩ ، كتاب المظالم والغصب ، باب الإتقاء والحذر من دعوة المظلوم .

رضي الله عنه قال : رسول الله ﷺ **[من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه]**(١) .

والظلم بنوعيه ، إذاً يفضي إلى الضلالة ، لأن من لم يكف نفسه عن التعدي على حدود الله تعالى ، أو على حدود النفس، أو حدود الغير، فإن ذلك قد يقوده إلى حرمان النفس ، من أنفس مقومات الحياة الإنسانية ألا وهو الإيمان ، والإلتزام بمقتضياته حيث قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(٢) .

سادساً :الكبر

الكبر : بالكسر العظمة والتجبر وكذا الكبرياء (٣).

وتحدث الرسول ﷺ عن الكبر في الحديث الشريف الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال **[الكبر بطر الحق وغمط الناس]**(٤) . أي رد الحق ودفعه وانكاره ترفعاًوتجبراً ، واحتقاراً للناس ، فحقيقة الكبر استعظام المتكبر نفسه واستصغار قدر غيره ، فيدفعه ذلك إلى رذائل ومهلكات حيث يحتقر الناس ، ولايرى لهم قدراً ، ويستنكف عن قبول الحق ، ولا يسأل عما يجهل من خير ، كما لا يقبل نصيحة ناصح ولا تعليم معلم ، لأنه يعتبر نفسه أعلى من الناس .

ولذلك فالكبر من الإنسان حماقة وجهل لأنه دليل قاطع على عدم معرفة المتكبر لربه ونفسه ، لأنه لو عرف ربه حق المعرفة ، لعلم أن الكبرياء هو لله وحده ، كما قال الرسول ﷺ قال الله عز وجل :**[العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحد منها عذبته]**(٥) ، ولو عرف نفسه وأنه خلق من ماء مهين يخرج من مجرى البول ، وآخره جيفة منتنة لخجل من نفسه ووقف عند حده .

---

(١) صحيح البخاري ج٣ ص ٩٩ ، كتاب في المظالم والغصب ، باب من كانت له مظلمة عند الرجل .

(٢) سورة ابراهيم الآية ٢٧ .

(٣) انظر : القاموس المحيط ج٢ ص ١٢٤ ، وانظر : مختار الصحاح ص ٥٦١ .

(٤) صحيح مسلم ج١ ص ٩٣ ، كتاب الإيمان،باب تحريم الكبر وبيانه حديث رقم ١٤٧ .

(٥) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٢٣ كتاب البر والصلة،باب تحريم الكبر،حديث ٢٦٢٠ ، جامع الأصول ج١٠ ص ٦١٣ ، كتاب في الكبر والعجب ، حديث رقم ٨٢٠٧ .

إن خلق الكبرياء ، يغرس في النفس التعالي على الحق ، ويعميها عن مشاهدة نقائصها وقصورها . ولأجل هذا ينفر المتكبر لما جاءه من حق ، ظاناً أنه ليس في حاجة إلى ذلك . ولهذا فقد صرف الله تعالى قلوب المتكبرين عن سماع ما أنزله على رسله من البينات والهدى حيث قال : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ...﴾[1] .

إن الله تعالى يعلن عن مشيئته في شأن أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، بأنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها ، والأصل كما تقدم أن لا يتكبر عبد من عبيد الله تعالى في الأرض أبدا ، لأن الكبرياء لله وحده لايقبل فيه شريكاً ، وحيثما تكبر إنسان في الأرض ، كان ذلك تكبراً بغير الحق ، ولذلك أعلن الله تعالى عدم محبته للمتكبرين فقال :﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[2] .

وكذلك طبع الله تعالى على قلوبهم حيث قال :﴿... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[3] ، وتوعدهم بأن مأواهم جهنم فقال :﴿... أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[4] وقال الرسول ﷺ: **[لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر]**[5] . ويقول الامام الغزالي في حديثه عن الكبر «وإنما صار - الكبر - حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها »[6] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٦ .

(٢) النحل الآية ٢٣ .

(٢) سورة غافر الآية ٣٥ .

(٣) سورة الزمر الآية ٦٠ .

(٤) صحيح مسلم ج١ ص ٩٣ ، كتاب الإيمان ،باب تحريم الكبر وبيانه ، حديث رقم ١٤٧ .

(٥) احياء علوم الدين ج٣ ص ٣٤٤ .

لكل ذلك نهى الله تعالى عن الكبر ، وأخبر المتكبر بأنه مهما تجبر وتكبر فلن يخرق الأرض بقدمه ، ولن يبلغ الجبال طولاً بعلو هامته فقال :﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[1] .

إن الإنسان حين يخلوا قلبه من الشعور بعظمة الخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء ، ويأخذه الكبر نتيجة لما رزقه الله من جاه أو مال .ولو تذكر أن مابه من نعمة فمن الله تعالى، وأنه ضعيف أمام قوة الله تعالى لما تكبر واختال ، ولمشي على الأرض هوناً ، وتواضع لله تعالى ثم لعبادة.والتكبر باعتبار المتكبر ثلاثة أقسام :

القسم الأول : التكبر علي الله تعالى وهو أفحش أنواع الكبر، وهو نابع من الجهل المحض ، والطغيان، لأن شر الكبر إدعاء حق الربوبية في الأرض على عباد الله تعالى ، ومزاولة هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله ، وهذا القسم من التكبر فعله فرعون حيث ادعى الربوبية ، وذلك لتكبره حيث قال :﴿... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[2] .فاستنكف أن يكون عبداً لله تعالى . ويمثل ذلك أيضاً قوله تعالى :﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾[3] .

القسم الثاني : التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس ، كما حكى الله تعالى قولهم :﴿... أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ...﴾[4] وقولهم : ﴿... إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ...﴾[5] .

القسم الثالث : التكبر على العباد ، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه من الإنقياد لهم ، وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم .

وإن هذا القسم دون الأول والثاني إلا أنه أيضاً عظيم لأن الكبر والعز والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر ، كما أن الكبر يعتبر مخالفة لأوامر الله تعالى[6] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٧ .

(٢) سورة النازعات الآية ٢٤ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٦٠ .

(٤) سورة المؤمنون الآية ٤٧ .

(٥) سورة ابراهيم الآية ١٠ .

(٦) انظر : احياء علوم الدين للغزالي ج٣ ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

وسبب الكبر يرجع إلى عجب الإنسان بنفسه لعلمه أو ماله أو جاهه أو حسبه أو نسبه أو سلطانه ، فيؤدي هذا الإعجاب إلى استعظام نفسه ، وربما صاحب ذلك أخلاق رذيلة أخرى ، كالحقد والحسد والرياء ، فهذه من جملة أسباب التكبر [١] .

وعلاج الكبر لا يتم إلا بمعرفة الله تعالى حق المعرفة ، وأن الكبرياء لا يكون إلا لله تعالى ، كما أن المتكبر عليه أن يتذكر حقيقته وأنه خلق من ماء مهين ، وأنه سيموت في النهاية ويدفن في التراب ، وأن التفاضل بين الناس مداره على الإيمان والعلم النافع والتقوى ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾ [٢] .

سابعاً : الفسق

الفِسق بالكسر : الترك لأمر الله تعالى والعصيان والخروج عن طريق الحق .أو الفجور ، وإنه لفسق ، أي خروج عن الحق ، وَفَسَق:جار وعن ربه خرج [٣] .وإذا خرج الإنسان عما حد له يعتبر فاسقاً،ولذلك تقول العرب للنواة إذا خرجت من الرطبة عند سقوطها فسقت النواة [٤] .

والفسق هو الخروج عن طاعة الله تعالى وعدم لزومها . ولهذا كان من صفات أهل الإيمان ، أنهم يداومون على طاعة خالقهم ، ولا يخرجون عنها حتى الموت مستجيبين لأمر ربهم ﴿... خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٥] .

ويفسق المسلم المكلف باتيانه للمعصية الكبيرة ، وأصل الفسوق الخروج عن الاستقامة والجور ، وبه سمى العاصي فاسقاً لخروجه عن أمر ربه [٦] .

والفسق قسمان :

١ - فسق ينقل من الملة . فيسمى الكافر فاسقاً، والفاسق من الكفار من لا حياء ولا مروءة ولا عهد له حيث قال تعالي في الكفار من اليهود وغيرهم:﴿... **وأكثرهم فاسقون**﴾ [٧] .

---

(١) انظر : المصدر السابق ج٣ ص ٣٥٣ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٣) انظر : القاموس المحيط ج٣ ص ٢٧٦ ، وانظر : مختار الصحاح ص ٥٠٣ .

(٤) انظر : التفسير الكبير ج٣ ص ١٨٢ ، ط بيروت .

(٥) سورة البقرة الآية ٦٣ .

(٦)انظر : لوامع الأنوار البهية ج١ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٧) سورة التوبة الآية ٨ .

وفي بعض الآيات ﴿... وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1] كما ذكر الله تعالى إبليس،فقال: ﴿... فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...﴾[2] . وكان ذلك الفسق منه كفراً .

وقال تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ...﴾[3] . يريد بذلك الكفار ، ودل على ذلك قوله تعالى :﴿... كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[4] . وقال تعالى :﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾[5]، ولذلك يقول الإمام الفخر الرازي[6] «إن كل كافر فاسق ، ولا ينعكس فكأن ذكر الفاسق يأتي على الكافر وغيره»[7] . وقال تعالى : ﴿... إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[8] .

٢ - فسق لا ينقل عن الملة ولكنه يختص بالكبيرة من المعاصي مما ليس بكفر ، والفاسق يختص بمرتكبها ، ولذلك فإن فاسق أهل القبلة لا ينفي عنه مطلق الإيمان بفسوقه ، ولا يوصف بالإيمان التام ، ولكن هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته[9] .

وقد سمى القرآن الكريم الفاسق من المسلمين فاسقاً ولم يخرجه من الإسلام ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[10] لأن القذف من جملة الكبائر

---

(١) سورة الحديد الآية ١٦ - الآية ٢٦ - الآية ٢٧ .

(٢) سورة الكهف الآية ٥٠ .

(٣) سورة السجدة الآية ٢٠ .

(٤) سورة السجدة الآية ٢٠ .

(٥) سورة البقرة الآية ٩٩ .

(٦) الفخر الرازي : هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي ،الإمام المفسر الفقيه الشافعي قرشي النسب ، أصله من طبرستان ولد في الري وإليها نسبته ، سنة ٥٤٤هـ سنة ١١٥٠م يقال له ابن خطيب الري توفي في هراة سنة ٦٠٦ هـ سنة ١٢١٠م ، وترك كثر من المؤلفات ، انظر : وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٤٨ ، وانظر : الأعلام ج٦ ص ٣١٣ .

(٧) التفسير الكبير ج٣ ص ١٨٢ .

(٨) سورة التوبة الآية ٨٤ .

(٩) انظر : الإيمان لابن تيمية ص ٢٨١ ، وانظر :إيثار الحق على الخلق ص ٤٥١ معارج القبول ج٢ ص ٤١٧

(١٠) سورة النور الآية ٤ .

، ولأن اسم الفسوق لا يقع إلا على صاحب الكبيرة ، ولهذا نص بعض العلماء أن الفسوق لا يكون إلا بإرتكاب الكبيرة[1] .

وقال تعالى أيضاً :﴿... فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الحَجِّ ...﴾[2] «قالت العلماء في تفسير الفسوق هاهنا : هي المعاصي»[3]. بل حمله الكثير من المحققين على كل المعاصي ، لأن اللفظ صالح للكل ومتناول له ، والنهي عن الشيء يوجب الإنتهاء عن جميع أنواعه[4] . وقد وردت بعض الذنوب التي تؤدي بصاحبها إلى الفسوق كقوله تعالى:﴿... وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الإِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ...﴾[5] إنه من يفعل مانهى الله تعالى عنه من السخرية واللمز أو التنابز بالألقاب يفسق بعدما آمن ، والمؤمن يقبح منه أن يأتي بعد إيمانه بفسوق .

والحقيقة إن الصغائر لا تؤدي بصحابها إلى الفسوق ، لأن العبادات كالصلاة مثلاً تكفرها ، ولكن إذا أصر الإنسان عليها وجاهر بها ، فقد تأخذ حكم الكبيرة وتؤدي بصحابها إلى الفسوق والعصيان .

وذكرت السنة أيضاً الفسوق الذي لا يخرج صاحبه من الملة حيث يقول الرسول ﷺ **[سباب المسلم فسوق وقتاله كفر]**[6] .

وبهذا تبين من خلال الرجوع إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن الفسق من أسباب الضلال حيث قال الله تعالى في أكثر من آية ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ ، ففي سورة التوبة ﴿... فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾[7] .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ج٢٣ ص ١٤٢ ، ط بيروت .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٧ .

(٣) الإيمان لابن تيمية ص ٢٨١ .

(٤) انظر : التفسير الكبير للرازي ج٥ ص ١٤٠ ، ط بيروت .

(٥) سورة الحجرات الآية ١١ .

(٦) صحيح البخاري ج٨ ص ٩١ كتاب الفتن ، باب لا ترجعوا بعدي كفاراً .

(٧) سورة التوبة الآية ٢٤ .

وفي نفس السورة عند الحديث عن المنافقين قال :﴿... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1] . وفي سورة الصف ، قال تعالى :﴿... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].وفي سورة المنافقين ،قال تعالى : ﴿... لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[3] .

وهكذا تبين مما سبق أسباب الضلال ، وأن كل سبب من تلك الأسباب يؤدي بصاحبه إلى الضلال والهلاك في الدنيا والآخرة في حال اصراره عليه وعدم التوبة منه ، فالمسلم مطالب بالابتعاد عن تلك الأسباب ، والمانع لها هو تقوى الله تعالى ولزوم طاعته ، والالتزام بأسباب الهداية التي توصل إلى جنات النعيم .

---

(١) سورة التوبة الآية ٨٠ .

(٢) سورة الصف الآية ٥ .

(٣) سورة المنافقون الآية ٦ .

الباب الثالث

أفعال العباد في القرآن والسنة

الفصل الأول: أفعال العباد في القرآن الكريم

الفصل الثاني: أفعال العباد في السنة النبوية

الباب الثالث
أفعال العباد في القرآن والسنة

اشتمل القرآن الكريم والسنة النبوية على آيات وأحاديث ، يوحي ظاهرها بأن الإنسان مجبر على أفعاله ، وأنه لا اختيار له ، وكذلك اشتملا على آيات وأحاديث ، يوحي ظاهرها بأن الإنسان مخير في أفعاله ، وأن له إرادة ومشيئة واختياراً .

أما الآيات والأحاديث التي يوحي ظاهرها بالجبر ، فقد أخذ بها الجبرية ، واستدلوا بها محاولين إثبات مذهبهم القائل بأن الإنسان مجبر على أفعال ، وأنه كالريشة في مهب الريح، لا إرادة له ولا قدرة ولا اختيار ، وأعرضوا عن الآيات والأحاديث التي تدل على أن الإنسان له إرادة وقدرة واختيار ، وفاتهم أن الآيات والأحاديث التي اعتمدوا عليها ، والتي قد يُفهم منها الجبر إنما تتعلق بالجانب الجبري في حياة الإنسان ، حيث علاقته بربه من حيث إنه إلهه وربه ، وأنه يسير وفق مشيئته سبحانه وتعالى ، ويسير وفق نظام لاقدرة ولا طاقة له في مخالفته أو الخروج عنه ، فحياته ووجوده مرتبط ارتباطاً وثيقاً بذلك النظام ، فقد أتى إلى هذه الحياة من غير إرادة منه ، وسيذهب عنها أيضاً على غير إرادة منه .

وهو لا شأن له بشكل جسمه من حيث الطول أو القصر أو اللون ، كما لا دخل له بكونه ذكراً أم أنثى ، فهو في كل ذلك وأشباهه مجبر لا مخير ، وذلك لأن الله تعالى جعل هذه الأمور خاضعة لإرادته ومشيئته الكونية سبحانه وتعالى ، فأخذ القائلون بالجبر تلك الأدلة المتعلقة بالمشيئة والتي لا إرادة للإنسان فيها ولا اختيار ، وجعلوها دليلاً على أقوالهم ومعتقداتهم ، مهملين الآيات والأحاديث التي تدل على مسؤولية الإنسان وإختياره .

وأما الآيات والأحاديث التي يوحي ظاهرها بالإختيار فقد أخذ بها المعتزلة ، وحاولوا من خلالها إثبات أن الإنسان مخير مطلقاً ، وأنه خالق لأفعاله ، وحاولوا تأويل الآيات والأحاديث التي تخالف ذلك لتوافق أراءهم ومعتقداتهم وكلا الفريقين قد جانب الصواب .

والحق أن الإنسان يعيش ضمن دائرتي الجبر والاختيار ويتضح ذلك جلياً من خلال الجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في هذا الموضوع .

الفصل الأول
أفعال العباد في القرآن الكريم

المبحث الأول: مناقشة أفعال العباد على ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول: آيات الجبر وفهم السلف لها

المطلب الثاني: آيات الاختيار وفهم السلف لها

المبحث الثاني: موقف الجبرية والمعتزلة من آيات الأفعال والرد عليهم

المطلب الأول: موقف الجبرية من آيات الجبر والاختيار و الرد عليهم

المطلب الثاني: موقف المعتزلة من آيات الجبر والاختيار والرد عليهم

الفصل الأول
أفعال العباد في القرآن الكريم
المبحث الأول
مناقشة أفعال العباد على ضوء القرآن الكريم

لقد ناقش القرآن الكريم أفعال العباد من الجانبين ، الجانب الجبري ، والجانب الاختياري ، وسيتبين من خلال ذلك أن الآيات التي تتعلق بالجانب الجبري إنما تتحدث عن كون الأفعال تابعة للمشيئة والإرادة الإلهية الكونية ، وأنها خلق الله تعالى ، وأما ما يتعلق بالجانب الاختياري ، فهي تابعة للإرادة الشرعية ، التي هي الأوامر والنواهي ، والتي يتعلق بها تكليف الإنسان .

المطلب الأول : آيات الجبر وفهم السلف لها

بالنظر إلى الآيات التي تتعلق بالجبر ، يتبين أنها آيات إما تتعلق بالمشيئة الإلهية ، وهي الإرادة الكونية التي يعيش خلالها الإنسان مسيراً ، وإما آيات القدر والخلق ، أو آيات الثواب والعقاب ، وسيتضح من خلال النظر في هذه الأقسام ، حقيقة الجانب الجبري فيها .

أولاً : آيات المشيئة الإلهية

إن المشيئة الواردة في القرآن الكريم تجعل الإنسان مجبراً،ذلك لأنه يسير وفق إرادة الله تعالى ونواميسه الكونية التي تخضع لها كل مخلوقاته ، بما في ذلك الإنسان فلا اختيار له هنا ، حيث يتم الفعل في نطاقها حتماً ، فيستوي فيها الإنسان مع سائر الموجودات الأخرى من حيوان ونبات وجماد ، حيث لا يناط به تكليف ، ولا إثابة ولا معاقبة ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾[1] .

هذه الآية تدل بصورة واضحة أنه لايجري شيء في ملك الله وملكوته إلا بمشيئته ، حيث يستحيل حصول شيء في الوجود دون إرادة الله تعالى ، وقد سبق تلك الآية قوله تعالى :﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[2] . فقد أثبت الله تعالى هنا المشيئة الإنسانية ،

---

(١) سورة التكوير الآية ٢٩ .

(٢) سورة التكوير الآية ٢٨ .

وأخبر أنها لا تكون إلا بمشيئته ، ولو شاء تعالى أن لا تكون لنا مشيئة ، لما كان لأحد من العباد أي إرادة أو اختيار ، والعباد بإرادته تعالى ومشيئته يشاؤون ، ولذلك يقول الإمام ابن تيمية :«أخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته ، ومع هذا فلا يوجب ذلك وجود الفعل منهم ، إذ أكثرمافيه أنه جعلهم شائين ، ولايقع الفعل منهم حتى يشاؤه منهم ، كما في قوله تعالى :﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴾(١) . ومع هذا فلابد من إرادة الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم»(٢) .

وقد ذكر أبو هريرة رضي الله عنه سبب نزول تلك الآية بقوله :«لما نزلت ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٣) . قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤) »(٥) . أي وما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله تعالى وتوفيقه .

وعقب الإمام الشافعي على الآية بقوله :«أخبر الله في كتابه أن المشيئة له دون خلقه ، والمشيئة إرادة الله . يقول الله عز وجل :(وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) فأعلم خلقه أن المشيئة له» (٦).وفي ذلك بيان لمدحه تعالى والثناء عليه ببيان قدرته ، وكذلك حاجة الناس إليه ، ولكن مشيئة الله لا تعني أن العبد ليس بفاعل لفعله الاختياري ، ولا أنه ليس بقادر عليه أو مريد له ، بل يدل على أن العبد لا يشاء إلا أن يشاء الله ، وذلك تعليق لمشيئة العبد بمشيئة الرب سبحانه وتعالى في المستقبل لأن «حرف أن تخلص الفعل المضارع للاستقبال . فالمعنى : إلا أن يشاء بعد ذلك ، والأمر متقدم على ذلك ، كقول الإنسان لا أفعل هذا إلا أن يشاء الله» (٧).

مما سبق يتبين أن المشيئة ليست موكولة للإنسان خلقاً وإيجاداً ، بل راجع ذلك كله إلى

---

(١) سورة المدثر الآية ٥٥ – ٥٦ .

(٢) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج١٦ ص ٨١ .

(٣) سورة التكوير الآية ٢٨ .

(٤) سورة التكوير الآية ٢٩ .

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص ٤٨٠ ، فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٣٩٤ .

(٦) شرح إعتقاد أهل السنة للالكائي ج٣ ص ٥٧٠ .

(٧) مجموع الفتاوي ج١ ص ٤٨٩ .

مشيئة الله تعالى ، وهذا يدل على كمال صفاته - جل ثناؤه - وعظيم ربوبيته على خلقه .

لقد فهم الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - المشيئة الإلهية حق الفهم حيث جاء رجل إلي علي -رضي الله عنه - يسأله عن المشيئة فقال له : «إني سائلك عن ثلاث خصال ، ولن يجعل الله لك ولمن ذكر المشيئة مخرجاً ، أخبرني : أخلقك الله عز وجل لما شاء أو لما شئت ؟ قال : لا : بل لما شاء . قال أخبرني افتجيئ يوم القيامة كما شاء ، أو كما شئت ؟ قال : لا. بل كما شاء . قال أخبرني أخلقك الله عز وجل كما شاء أو كما شئت ؟ قال : لا بل كما شاء . قال : فليس لك في المشيئة شيء»[1] .

وأما قوله تعالى ﴿... وَلَو شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] .أي أنه سبحانه وتعالى لو شاء أن يهدي الناس جميعاً إلى الطريق الصحيح ،والمنهج الحق لفعل وذلك بلطف منه حيث يجعلهم يختارون الإيمان والانصياع للحق ،دون أن يستجيبوا لشيء من أهوائهم أو وساوس شياطينهم ، أو يجعلهم ينساقون إلى الحق قسراً دون اختيار منهم ، مثل الملائكة حيث أنهم لا يعصون لله أمراً ويفعلون ما يؤمرون ، لأنهم لم يعطوا الحرية ولم يوهبوا الاختيار ، ولكن الله تعالى لم يشأ ذلك ، إذ اقتضت مشيئته أن يكون هناك طريقان ، طريق الكفر وطريق الإيمان ، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[3] .كما اقتضت مشيئته أن يكون البعض مؤمناً والبعض كافراً ، ولكن بعد بيان طريق الهدى وطريق الضلال ،﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[4]. فقد شاء الله تعالى أن يكون الناس أمماً مختلفين في العقائد والمذاهب والأديان ، ومناهج الحياة والسلوك الخلقي ، ولم يشأ أن يكون الناس أمة واحدة ، وهذا تأكيد على الاختيار والمشيئة الإنسانية التي أياً ما اختارت ، وأياً ما عملت فهي بإذن الله وبموافقة مشيئته المطلقة .

أما قوله تعالى :﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ...﴾[5] فيحتاج فهمه إلى العودة إلى الآية التي سبقت هذه الآية ، حيث يخبر الله تعالى فيها عن المجرمين والمشركين بأنهم

(١) الشريعة للآجري ص ٢٠٢ .

(٢) سورة النحل الآية ٩ .

(٣) سورة البلد الآية ١٠ .

(٤) سورة هود الآية ١١٨ - ١١٩ .

(٥) سورة السجدة الآية ١٣ .

يوم القيامة عندما يعاينوا البعث على الحقيقة ، ويقفوا بين يدي الله تعالى ذليلين ناكسي رؤوسهم من الحياء والخجل معترفين بتقصيرهم معلنين السمع والطاعة ، يطلبون عند ذلك العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات . ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1] .فكانت تلك الآية رداً عليهم أن لو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، فهدينا الناس جميعاً فلم يكفر منهم واحد ، ولكن حق قدر الله تعالى أنه سيكون هناك أهل لجهنم تمتلأ بهم ، كما أنه «قد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها ، كفاراً يكذبون بآيات الله، ويخالفون رسله»[2] .

وقال تعالى فيما يتعلق بالإيمان :﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3] .فلو أراد الله تعالى إيمان الناس بمشيئته الكونية لما كفر أحد ، ولآمنوا جميعاً ، ولجعلهم كالملائكة غير مختارين ، أو لجعلهم مؤمنين بالجبر ، والضرورة والإكراه ، ولكن مشيئة الله كانت دون ذلك حيث جعل للإنسان الحرية والاختيار ، وهذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ودفع لما يضيق صدره في طلب صلاح الجميع ﴿... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[4] فإذا كان الله تعالى وهو ربهم وخالقهم لم يكرههم على أي من السبيلين حتى ولو كان على الهدى ،كما قال تعالى :﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ...﴾[5] فليس على الرسول سوق الناس إلى الإيمان جبراً ، ولكن عليه أن يبلغ دعوة ربه ، يهدي الناسْ هداية البيان والدعوة والتبليغ ، والله وحده هو الذي يهدي هداية التوفيق والإعانة لمن يستحقها من عباده .

وأما قوله تعالى ﴿... مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴾[6] أي إلا ماشاء الله إيمانهم ، لأنه ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير هذه الآية :« (ما كانوا ليؤمنوا) ، أي أهل الشقاء ، (إلا أن يشاء الله)، أي أهل

(١) سورة السجدة الآية ١٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص ٤٧٤ .

(٣) سورة يونس الآية ٩٩ .

(٤) سورة يونس الآية ٩٩ .

(٥) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٦) سورة الأنعام الآية ١١١ .

السعادة الذين سبق لهم في علمه أن يدخلوا في الإيمان»[1] ، لأن الهداية بمعنى التوفيق إلى الله تعالى وليست إليهم لأنه تعالى :﴿... فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2] . كما أنه تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[3] .

وجاءت تلك الآية رداً على جهل الكافرين الذين يحول كفرهم بينهم وبين معرفة الحق والصواب ، وذلك لكثرة مطالبهم التي اشترطوها لأجل أن يؤمنوا ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ...﴾[4] .

وقال تعالى :﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾[5] . وقال أيضاً مبيناً حقيقتهم ومشيئته تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...﴾[6] . فالمقصود هنا هداية التوفيق التي هي فضل من الله يعطيها لمن عنده الإرادة أن يؤمن ، لامن اشترط على الله تعالى الشروط ، وأعلن كفره وإلحاده.يقول الإمام ابن كثير في بيانه لحقيقة ذلك :«إن الهداية إليه لا إليهم ، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد ... لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته »[7] .

ثانياً : آيات القدر :

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن القدر الذي هو أحد أركان الإيمان ، ويظن كثير من الناس أن معنى القدر هو إجبار الله تعالى العباد ، وقهرهم على ماقدره ، وخاصة في القضاء الشرعي ،والأمر ليس كما يتوهمون بل «معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من إكتساب العبد،وصدور أفعاله عن تقدير منه سبحانه وخلق لها خيرها وشرها »[8] .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ١٥٤ .

(٢) سورة هود الآية ١٠٧ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٠٩ .

(٥) سورة الفرقان الآية ٢١ .

(٦) سورة الأنعام الآية ١١١ .

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ١٦٩ .

(٨) فتح المنعم شرح صحيح مسلم ج١ ص ٣٣ ، الدين الخالص ج٣ ص ١٤٨ .

وقال الإمام النووي[1] في بيان حقيقة القدر :«إن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أن الله قدر الأشياء في القدم،وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه على صفات مخصوصة ، فهي تقع على حسب ماقدرها الله»[2] .

لقد فهم السلف الصالح أمر القدر فهماً سليماً ، قال عكرمة[3] عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان الهدهد يدل سليمان على الماء .فقلت له فكيف ذلك ؟ الهدهد ينصب له الفخ عليه التراب . فقال إبن عباس «إذا جاء القدر ذهب البصر»[4] ولكن ذلك لا يعني أن الإنسان مجبر على أفعاله الاختيارية وقد سبق بيان موقف الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ممن سأله عن القضاء والقدر ، ظاناً أن الإنسان مجبر على أفعاله الاختيارية فقال له : «ويحك ! لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدر حتماً ، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل الكثير ، ولم يعص ، مغلوباً ولم يطع مكرهاً »[5] .

وقد تكلم الإمام أحمد بن حنبل كلاماً واضحاً ومعبراً عن حقيقة القدر حيث قال : «والقدر خيره وشره قليله وكثيره وظاهره وباطنه وحلوه ومره ، ومحبوبه ومكروهه وحسنه وسيئه ، وأوله وآخره من الله قضاءً قضاه ، وقدراً قدره عليهم ، لا يعدو واحد منهم مشيئة الله عز وجل ،ولا يجاوز قضاءه بل هم كلهم صائرون إلى ماخلقهم له ، واقعون فيما قدر عليهم لا محالة ، وهو عدل منه عز ربنا وجل»[6] .

---

(١) النووي . هو يحيى بن شرف بن حسن بن حزام الحازمي محي الدين أبو زكريا النووي ، ثم الدمشقي ،ثم الشافعي ، العلامة شيخ المذهب ، ولد بنوى وهي قرية من قرى حوران سنة ٦٣١هـ له العديد من المؤلفات في الحديث والفقه ، وهو من كبار الفقهاء في زمانه ، كان مشهوداً له بالتقوى والورع والزهد ، توفى رحمه الله سنة ٦٧٦ هـ . انظر : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٧٨ – ٢٧٩ .

(٢) مسلم بشرح النووي ج١ ص ١٥٤ .

(٣) عكرمة : هو عكرمة البربري أبو عبد الله المدني ،مولى ابن عباس ، روى عن مولاه وعن علي بن أبي طالب ، وأخرج عنه البخاري ، ومسلم توفي بالمدينة سنة ١٠٤ هـ ،انظر : تهذيب التهذيب ج٧ ص ٢٦٥ ص ٢٦٦ .

(٤) طريق الهجرتين لابن القيم ص ١٤٢ .

(٥) نهج البلاغة ج٤ ص ٥٧٨ . ،وفي هذا البحث ص ١٨٠ .

(٦) المسائل والرسائل للأحمد ج١ ص ١٣٩ .

ومما ورد من آيات قرآنية تتحدث عن القدر ، قول الله تعالى :﴿... وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾[١] . وقوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢] . أي إن كل شيء من الأشياء خلقه سبحانه متلبساً بقدر قدره ، وقضاء قضاه ، سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، ويوضح أبو هريرة رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية بقوله «جاء مشركوا قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٣] [٤] .

وتحدث النبي ﷺ عن القدر مبيناً قدر الله تعالى في كل شيء فقال :«كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[٥] ،وفهم السلف القدر كما جاء في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ ،فقال ابن عباس رضي الله عنهما :«كل شيء بقدر حتى وضعك يدلك على خدك»[٦] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة طاعون الشام عندما قال له أبو عبيدة رضي الله عنه أتفر مِن قدرالله ؟ !! فقال :«نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله»[٧] .وقال الحسن بن علي رضي الله عنه :«فالذي أنا وآبائي عليه ، أنه من لم يؤمن بالقضاء والقدركله خيره وشره ، حلوه ومره ، فقد كفر ، ومن حمل المعاصي على الله – عز وجل – فقد فجر ، إن الله تبارك وتعالى لم يطع من اقتدار من المطيع ، ولم يعص غلبة من المعاصى ، ولكنه المالك لما ملكهم عليه ، والقادر لما أقدرهم عليه ، فإن إئتمروا بالمعصية وشاء أن يحول بينهم وبينها فعل ، وإن لم يفعل فليس هو الذي حملهم على ذلك ، إذ ملكهم وقواهم ، وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما أمرهم به، وترك مانهاهم عنه»[٨] .

وقد حكم الرسول ﷺ على منكري القدر بأنهم مجوس هذه الأمة بقوله:**[لكل أمة مجوس . ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم]**[٩] . وهذا

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٨ .

(٢) سورة القمر الآية ٤٩ .

(٣) سورة القمر الآيتان ٤٨ – ٤٩ .

(٤) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٤٦ ، كتاب القدر ، باب كل شيء بقدر ، حديث رقم ٢٦٥٦ .

(٥) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٤٥ ، كتاب القدر ، باب كل شيء بقدر ، حديث رقم ٢٦٥٥ .

(٦) خلق أفعال العباد للبخاري ص ٢٦ .

(٧) صحيح البخاري ج٧ ص ٢١ ، كتاب الطب ، باب مايذكر في الطاعون .

(٨) قاموس الشريعة للسعدي ج٥ ص ٧٥ .

(٩) مسند الإمام أحمد ج٢ ص ٨٦ ، الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص ١٢٥ .

دليل واضح على أن من ينكر القدر يخرج من الإسلام ، لكونه أنكر أحد أصول الإيمان الستة ، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره .وبين الإمام الشافعي حقيقة منكر القدر بقوله :« تدري من القدري ؟ الذي يقول إن الله لم يخلق الشيء حتى عُمِلَ به »[1] وقال الإمام أحمد بن حنبل « القدري الذي يقول إن الله لم يعلم الشيء حتى يكون . هذا كافر »[2] .

وعلى هذا الأساس كان موقف السلف واضحاً من منكري القدر فعن عطاء ابن أبي رباح[3] قال : أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه ، فقلت له : قد تُكُلِّمَ في القدر ، فقال أو قد فعلوها ؟ قلت نعم . قال : فو الله مانزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿... ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[4] أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم ، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين »[5] . وقال مالك ابن أنس :« ما أضل من كذب بالقدر !! لو لم يكن عليهم فيه حجة إلا قول الله عز وجل :﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[6] . لكفى بها حجة »[7] . وكان موقف عمر بن عبد العزيز[8] ومالك بن أنس واضحاً من القدري:« حيث يريان أستتابته ، فإن تاب وإلا ضُرِبَتْ عنقه »[9] .

ونظراً لخطر أمر القدر ، فقد نهى السلف عن الخوض فيه ، حيث أتى رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال:« أخبرني عن القدر ؟ فقال طريق مظلم فلا تسلكه . قال

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ج٤ ص ٧١٠ .

(٢) المسائل والرسائل للأحمدي ج١ ص ١٤٢ .

(٣) هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولاهم ولد سنة ٢٧ هـ وتوفي سنة ١١٤ هـ على الأرجح ، روى عن إبن عباس وإبن عمر ، كان من سادات التابعين فقهاً وعلماً وورعاً . انظر : تهذيب التهذيب ج٧ ص ١٩٩ ، وانظر : التفسير والمفسرون ج١ ص ١١٣ .

(٤) سورة القمر الآيتان ٤٨ – ٤٩ .

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص ٢٦٧ .

(٦) سورة التغابن الآية ٢ .

(٧) الشريعة للآجري ص ١٦٢ .

(٨) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص الخليفة الصالح العادل قيل له خامس الراشدين ولد ونشأ بالمدينة سنة ٦١هـ .وولى الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩هـ دس له السم فمات سنة ١٠١ هـ . انظر : تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ج٧ ص ٤٧٥ .

(٩) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج٤ ص ٧١٠ .

أخبرني عن القدر ؟ قال بحر عميق فلا تلجه . قال أخبرني عن القدر ؟ فقال : سر الله خفي عليك فلا تفشه »(١) .وقال الإمام الطحاوي:« وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل »(٢) . وقال الامام إبن القيم :« من عطل العمل إتكالاً على القدرالسابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة ، في المعاش ، وسائر أسبابه إتكالاً على ماقدر له ، وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية »(٣) ، فالقدر السابق لا يمنع العمل ، ولا يدعو إلى التواكل ، بل يوجب الجد والاجتهاد ، والحرص على العمل الصالح والأخذ بالأسباب .

وورد أيضاً من الآيات التي تتحدث عن القدر ، قول الله تعالى :﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(٤) . وقوله تعالى :﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(٥) . وهذا يدل على قدر الله السابق ، وعلمه وخلقه ،وقد عقب ابن كثير على ذلك بقوله :« أي قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل تبرمها »(٦) ، وللإمام أحمد موقف واضح من علم الله السابق للأشياء حيث اعتبر من أنكره فهو مشرك يستتاب وإلا قتل فقال:« إذا جحد العلم فهو مشرك يستتاب ،فإن تاب وإلا قتل ، إذا قال : إن الله لا يعلم الشيء حتى يكون »(٧) .

وأما قوله تعالى ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٨) . فقد فهم البعض من هذه الآية الجبرْ ، فأدى بهم ذلك إلى التواكل ، مع أن حقيقة الآية ومفهومها يخالف فهمهم، وذلك بالعودة إلى الآية التي قبلها حيث قال تعالى:

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٦٢٠ ، الشريعة للآجري ص ٢٠٢ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٦ .

(٣) شفاء العليل ص ٢٥ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٢ .

(٥) سورة الأعلى الآيات ١ – ٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص ٢٦٧ .

(٧) المسائل والرسائل للأحمدي ج١ ص ١٤٤ .

(٨) سورة التوبة الآية ٥١ .

مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام في شأن المنافقين :﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾(١) فهي تكشف حقيقتهم وضمائرهم الخبثية وعداوتهم للرسول ﷺ وللمؤمنين في الماضي والحاضر ، فإن أصاب المؤمنين حسنة يحزنوا ، وإن أصابهم مصيبة فرحوا ، فبين الله تعالى للمؤمنين الحقيقة تصبيراً لهم ، وتثبيتاً على الحق فقال :(قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا) ولهذا الجواب فائدة تتمثل في « أن الإنسان إذا علم أن ماقدره الله كائن ، وأن كل مناله من خير أو شر إنماهو بقدر الله وقضائه ، هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماته الأعداء ، وتشفي الحسدة »(٢) فيثبت على الحق ويرضي بقدر الله الذي قدره عليه خيره أو شره .

ثالثاً : آيات الخلق :

ذكر الله تعالى في القرآ الكريم العديد من الآيات التي تبين أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء بلا استثناء ، فما من شيء وجد بعد أن لم يكن موجوداً فالله تعالى خالقه عن علم وإرادة ، وهذا يعني تفرده بالخلق لكل شيء حتى أفعال العباد . يقول الإمام أبو حنيفة « وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله تعالى خالقها »(٣) ، ورغم خلقه تعالى للأفعال إلا أنه لم يجبر أحداً على أفعاله الاختيارية ، « فلم يجبر أحداً من خلقه على الكفر ولا على الإيمان ، ولا خلقهم مؤمناً ولا كافراً ، ولكن خلقهم أشخاصاً ، والإيمان والكفر فعل العباد »(٤) .

إن مخلوقات الله تعالى تنقسم كما سبق التوضيح إلى قسمين :

الأول : مخلوقات لا كسب لأحد فيها ، وهي كل مايقع في الكون على وجه القسر والحتم والجبر ، كحركة الأفلاك ، ونمو الإنسان والنبات ، وكثير من وظائف الإنسان وحركاته ، كنبضات القلب والنوم واليقظة والموت وغير ذلك ، وهذه الأمور لا اختيار للإنسان فيها ، ولذا لا يحاسب عليها .

---

(١) سورة التوبة الاية ٥٠ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ٣٦٩ .

(٣) شرح الفقه الأكبر ص ٧٨ ص ٧٩ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٣ .

(٤) شرح الفقه الأكبر ص ٧٧ .

وأما القسم الثاني: فهو مخلوقات اكتسابية يتصف بها الإنسان بكسبه ، وأفعال الإنسان الاختيارية تعد من جملة مخلوقات الله عز وجل ، فهو الذي يخلق فيه الإقبال على الشيء أو الانصراف عنه ، والإنسان هو الكاسب للفعل أو الممتنع عنه .

ومما ورد من آيات الخلق ،قول الله تعالى : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ...﴾(١) .وقوله تعالى :﴿... قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٢) وقوله تعالى :﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(٣) .

إن هذه الآيات توضح حقيقة ، وهي أن الله تعالى خالق كل شيء ومقدره ، فكل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق لكل شيء وربه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتسخيره وتقديره ، ومما لاشك فيه أن فعل العبد شيء فوجب أن يكون خالقه الله ولذلك يقول الإمام أبو حنيفة :«نقر بأن العبد مع جميع أعماله وإقراره ومعرفته مخلوق ، فلما كان الفاعل مخلوقاً فأفعاله أولىٰ أن تكون مخلوقه»(٤) .

إن الله تعالى هو الخالق لقدرة العبد وإرادته وفعله ، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة ، ومحدث له ، وأن الله تعالى هو الذي جعله فاعلاً ومحدثاً له ، لأنه أعده لذلك كما أعد الأرض للإنبات ، فالله هو الخالق والعبد هو الفاعل والكاسب .

كما ورد قوله تعالى :﴿... أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٥) .وهذا ورد بعد أن ذكر تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام وتسخير الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار ، فبالخلق أوجد هذه الأشياء،ثم بين أن هذه المخلوقات وأفعالها إنما تسير بأمره الكوني الذي يبدو في صورة السنن والقوانين الكونية ، والتي لا اختيار للإنسان فيها .

ومما ورد أيضاً قول الله تعالى :﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦) يخبر الله تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له منازع أو معقب ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٢ .

(٤) شرح الفقه الأكبر ص ٧٩ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

(٦) سورة القصص الآية ٦٨ .

بيده ومرجعها إليه ، يقول الإمام إبن تيمية :«والإرادة المتعلقة بالخلق هي المشيئة ، وهي الإرادة الكونية القدرية ... وهي كونه يريد أن يفعل فعلاً فهذ الإرادة المتعلقة بفعله»(١) .

كما أن نفي الاختيار عن الإنسان يرجع إلى خلق الله تعالى واختياره ، حيث أن الأمر الكوني والقدر والخلق لا اختيار للإنسان فيه ، فالإنسان لا يختار لون عينيه أو بشرته أو قوة ذكائه وذاكرته ، أو ولادته وموته ، أو خلق السموات والأرض أو الليل والنهار ، فهذا لا يدخل في نطاق اختياره ، حيث إنه يعود للمشيئة الإلهية الكونية ، وأيضاً لا اختيار للإنسان أمام اختيار الله تعالى ، فهو يختار أنبياءه ورسله ، ولايحق لأحد أن يملي عليه تعالى هذا الاختيار ، كما أنه أمر أن يعبد وحده فلا يحق للمخلوق أن يختار غير عبادته ، وهو المشرع ولا يحق لأحد أن يشرع على تشريعه .

وأما قوله تعالى «سبحان الله وتعالى عما يشركون» فهو متصل بذكر الشركاء الذين عبدهم المشركون ، واختاروهم مع أن الاختيار إلى الله تعالى وليس لأحد من خلقه أن يختار على اختيار الله تعالى :﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ...﴾(٢) .

وورد أيضاً قول الله تعالى ﴿... أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣) . يتكلم الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات عن إبراهيم عليه السلام ومافعله بأصنام المشركين ، وحين أقبلوا عليه منكرين لعمله ، أقام عليهم الحجة منكراً عليهم عبادة الأصنام التي نحتوها من الأحجار فأصبحت أصناماً ، وتركهم عبادة الذي خلقهم.وفي هذا يقول الإمام ابن القيم :«فإن الله سبحانه أنكر عليهم عبادة من لا يخلق شيئاً أصلاً ، وترك عبادة من هو خالق لذواتهم وأعمالهم ، فإن كان الله تعالى خالقكم وخالق أعمالكم فكيف تَدَعُونَ عبادته ، وتعبدون من لايخلق شيئاً لا ذواتكم ولا أعمالكم»(٤).وهذا دلالة على فساد رأيهم وعقولهم ، لكونهم عبدوا مخلوقاً لا يضر ولا ينفع حينما ألهوا أحجاراً وعظموها وأحبوها ،وهذا من أقبح الظلم في حق أنفسهم وفي حق ربهم .

---

(١) منهاج السنة النبوية ج٢ ص ٢٩ ص ٣١ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

(٣) سورة الصافات الآيات ٩٥ - ٩٦ .

(٤) بدائع الفوائد لابن القيم ج١ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

وقد حصل خلاف بين العلماء حول «ما» في قوله تعالى «والله خلقكم وماتعملون» فقيل إن «ما» هنا مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم .

وقيل إن «ما» يحتمل أن تكون بمعنى الذي، والتقدير والله خلقكم والذي تعملون(١) .

ولكن إعتبار ما مصدرية أظهر وأصوب لقول الرسول ﷺ :**[إن الله تعالى خالق كل صانع وصنعته]** (٢). ويؤكد الإمام ابن كثير نتيجة ذلك على كلا الأمرين بقوله:«سواء كانت «ما» مصدرية أو بمعنى الذي ، فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله ، فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم ، وهذا باطل والآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له»(٣) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ويوضح بعضه بعضاً، حيث يقول الله تعالى :﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ...﴾ (٤).

رابعاً : آيات الثواب والعقاب :

ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الثواب والعقاب ، والتي يبدو في ظاهرها جبر الإنسان على الفعل . والحق أنها عبارة عن ثواب من الله تعالى للإنسان على ماقدم من خير ، أو عقاب له على ماقدم من شر ، فالمؤمن يزداد إيماناً ، والمهتدي يزداد هدى ، وفي المقابل يزداد الفاسق والكافر طغياناً وفسقاً وكفراً على حسب ماقدم ، ومن ذلك قول الله تعالى في بيان حقيقة الهداية والضلال :﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٥) .

هذه الآية يظهر من خلالها أن الله تعالى يهدي أناساً بشرح صدورهم للإسلام ، وفي المقابل يضل آخرين بتضييق صدورهم ، فظن البعض أن ذلك دليلاً على أن الإنسان مجبر لا إرادة له ولامشيئة ، ولكن المتدبر لآيات القرآن الكريم المتعلقة بالهداية يجد أن الله تعالى

---

(١) انظر : بدائع الفوائد ج١ ص ١٥٢ . وانظر : تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٥٢ ، وانظر : إملاء مامن به الرحمن ج٢ ص ٢٠٧ .

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ج١ ص ٣١ ، كتاب الإيمان ، خلق أفعال العباد للبخاري ص ٢٥ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص ١٤٥ ، وانظر : ايثار الحق لابن المرتضى ص ٣٥٠ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٣ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

اختص بهداية التوفيق ثواباً لمن هو أهل لها ، من حيث إنابته إلى ربه,وأخذه بالأسباب لمعرفة الحق والإهتداء بهديه ، والإلتزام بأمره والانتهاء بنهيه .حيث يقول تعالى :﴿وَالَّذِينَ اهتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ، وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[1] فهم بدأوا بالإهتداء فكافأهم الله تعالى وأثابهم بزيادة الهدى وبشرح صدورهم للإسلام ، وقد سئل الرسول ﷺ عن هذه الآية .**[قالوا كيف يشرح صدره يارسول الله ؟ قال "نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح" قالوا فهل لذلك من إمـارة يعرف بها ؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت]** [2]. فهذه إمارات ومقدمات لكي يشرح الله تعالى صدر الإنسان ويكون ذلك ثواباً من الله تعالى ولذلك قال حذيفة رضي الله عنه :«إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء ، فكلما إزداد العبد إيماناً إزداد قلبه بياضاً ، فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيضاً مشرقاً ، وإن النفاق يبدو منه لمظة سوداء ، فكلما إزداد العبد نفاقاً إزداد قلبه سواداً فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسوداً مربداً»[3] ، وعندما سئل ابن عباس رضي الله عنه عن معنى «يشرح صدره» قال «يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به»[4] .

هذه هي الهداية التي اختص الله بها ذاته المقدسة ليثيب ويجازي الطائع بها ، ويحرم منها العاصي ، والمنافق والكافر . ولم يمنح الله تعالى هذه الهداية لأحد من خلقه حتى لأقرب الخلق إليه وأفضلهم محمد ﷺ حيث خاطبه قائلاً له :﴿إِنَّكَ لَا تَهدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ...﴾[5] .إنها هداية التوفيق التي لم يستطع الرسول ﷺ أن يقدمها لعمه رغم حرصه علي هدايته .

وفي المقابل فإن المتدبر لآيات القرآن الكريم المتعلقة بالضلال يجد أن الله تعالى لم يعاقب بالضلال إلا من أعرض عن ذكره وضل عن ما أمره به وعمل المخالفات لشرع الله تعالى والمعاصي، فكان ذلك عقابه :﴿... وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ...﴾[6] . وهذا المثل ضربه الله تعالى لقلب الكافر وعدم وصول

---

(١) سورة محمد الآية ١٧ .

(٢) جامع البيان للطبري ج٨ ص ٢١ . تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ١٧٨ .

(٣) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج١٥ ص ٢٨٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٧٨ .

(٥) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٦) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

الهداية والإيمان إليه ، من شدة ضيقه ، فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه «مثل إمتناعه عن الصعود إلى السماء ،وعجزه عنه ،لأنه ليس في وسعه وطاقته»[(١)] ، فهو لا يتسع لشيء من الهداية ، كما لايخلص إليه شيء من الإيمان ، ولا ينفذ إليه، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما :«يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً والإسلام واسع»[(٢)] .

ولهذا يتبين أن الله تعالى لا يجبر أحداً على الضلال ، وإنما من يختار الضلال ، فإن الله سبحانه يعاقبه على اختياره، بتضييق صدره ولذلك ختم الآية بقوله :﴿... كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)] .

قال ابن عباس رضي الله عنه:الرجسُ الشيطان ،وقيل هو العذاب ، وقيل ما لا خير فيه[(٤)] .

فالله تعالى يبين أنه إلى جانب تضييق صدره يسلط عليه الشيطان ، فيغويه ويصده عن سبيل الله تعاليٰ ، فيعمل مالا خير فيه ، فتكون النتيجة العذاب في الآخرة وذلك لإعراضه عن الإيمان بالله تعالي .

ومن الآيات أيضاً قول الله تعالى:﴿... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ...﴾[(٥)] .

هذا هو حال المنافقين في كل زمان ومكان حيث أن قصدهم هو التطير بالرسول ﷺ والتشكيك في رسالته ، من حيث إنهم ليس لهم موقفاً ثابتاً واضحاً ، فإن أصابتهم الحسنة وهو الخصب حيث تنتج مواشيهم وخيولهم ويحسن محالهم وتلد نساؤهم ، فينسبون ذلك إلى الله تعالى ، ولكن إن أصابتهم السيئة وهو الجدب والضرر في أموالهم تشاءموا بمحمد ﷺ ، وردوا ذلك إلى اتباعهم دينه فأصيبوا بهذا البلاء فأنزل الله تعالى «قل كل من عند الله» أي الجميع بقضاء الله وقدره ، وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر[(٦)] .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه :«الحسنة والسيئة من عند الله ، أما الحسنة فأنعم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ١٧٩ ، وانظر : فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ١٦١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ١٧٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ١٧٩ ، وانظر : فتح القدير ج٢ ص ١٦١ .

(٥) سورة النساء الآية ٧٨ .

(٦) انظر : تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٥٢٧ ، وانظر : مجموع الفتاوي ج١٤ ص ٢٣٦ .

بها عليك ، وأما السيئة فابتلاك بها »[1] ولذلك فالحسنة مضافة إلى الله تعالى من كل وجه ، بينما السيئة مضافة إليه من حيث أنه خلقها وإنما خلقها لحكمة ،ولهذا لا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بلا حكمة ، فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . ولذلك قال تعالى :﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ...﴾[2] أي من قبلك ومن عملك وعقوبة لك على ذنبك:﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[3] . ولذلك يلاحظ أنه لم يضف الشر في القرآن الكريم إلى الله تعالى مفرداً قط ، بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات كقوله تعالى :﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ...﴾[4] وقوله تعالى :﴿... قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[5] ، وإما أن يضاف إلي السبب كقوله تعالى:﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[6] . وإما أن يحذف فاعله كقوله تعالى فيما حكاه عن الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[7] [8]. ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح :**[والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك]**[9] ،أي فإنك لا تخلق شراً محضاً من كل وجه ، بل كل ماتخلقه فيه الحكمة والخير ،ولكن مع كونه كذلك، فقد يكون فيه شراً لبعض الناس،فهذا شر جزئي إضافي وليس مطلقاً ،وأما الشر المطلق فالله سبحانه وتعالى منزه عنه،وهو الذي قصده الرسول ﷺ بقوله «والشر ليس إليك» .

ومن الآيات التي أخطأ الجبرية فهمها ، قول الله تعالى : ﴿... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ...﴾[10] .

(١) فتح القدير للشوكاني ج١ ص ٤٩٠ ، مجموع الفتاوي ج١٤ ص ٢٣٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٧٩ .

(٣) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٤) سورة الزمر الآية ٦٢ .

(٥) سورة النساء الآية ٧٨ .

(٦) سورة الفلق الآية ٢ .

(٧) سورة الجن الآية ١٠ .

(٨) انظر : مجموع الفتاوي ج ١٤ ص ٢٦٦ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤١٢ .

(٩) صحيح مسلم ج١ ص ٥٣٥ ، كتاب صلاة المسافر ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، حديث رقم ٧٧١ ، الأذكار للنووي ص ٣٥ .

(١٠) سورة الأنفال الآية ١٧ .

فقد أخذ الجبرية بظاهر هذه الآية واعتبروا أن الإنسان مجبر على أفعاله ، ولكن لابد من فهم حقيقة هذه الآية ، وهي كونها مساعدة من الله تعالى للمؤمنين ،وتثبيتاً منه لهم ونصراً ، ثواباً لهم وجزاءً على إيمانهم وثباتهم وصبرهم . فعن إبن عباس رضي الله عنهما قال رفع رسول الله ﷺ يديه يوم بدر فقال :**[يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا" فقال له جبريل خذ قبضة من تراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ بقضة فرمى بها في وجوههم ، فما من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين]**[1] .فالمراد بالرمي هنا هو ما كان منه ﷺ في بدر عندما أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين ، فأصابت كل واحد منهم ،ولكن نجد أن الله تعالى ينفي الرمية عن الرسول ﷺ بعد إثباتها ويثبتها لنفسه ، وحقيقة ذلك أنه تعالى أثبت الرمية للرسول ﷺ لأن صورتها وجدت على الحقيقة ، ونفاها عنه لأن أثرها وهو وصول التراب إلى جميع الكفار لا يطيقه البشر ولا يستطيعونه ، فكأن الله تعالى هو فاعل الرمية على الحقيقة ، ويؤكد ذلك قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ...﴾[2] . فوقوع النصر في بدر لم يكن بسبب قوة المسلمين ، ولكن كان بنصر الله تعالى ، حيث إن الكفار كانوا أكثر عدداً وعدة ، ولكن كان ذلك نصراً من الله تعالى وثواباً للمسلمين على إيمانهم .

وإلى جانب ذلك ، وردت آيات كثيرة تتحدث عن العقاب الذي يحل بمن أعرض عن ذكر الله تعالى ، ويؤدي به هذا العقاب إلى الضلال ، وقد ذُكرت الآيات عند الحديث عن أحوال الضلال ومن ذلك قول الله تعالى :﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3] وقال :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[4] .

إن العقاب الذي حل بهم ، ناتج عن أعمالهم ، وكثرة اجرامهم واجترائهم على أنبياء الله تعالى ، حيث قتلوا الكثير من الأنبياء ، وكذبوهم ، فكانوا بذلك مخالفين معتدين ، بل زيادة على ذلك ، قالوا بأن قلوبهم في أغطية سواء كان المقصود بذلك أنها لاتقبل الإيمان

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ج٣٠٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٢٣ .

(٣) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٤) سورة المنافقون الآية ٣ .

أم أنها مليئة بالعلم فلا تحتاج زيادة . ولذلك يقول الإمام ابن كثير:«وهذا من الذنوب التي إرتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وابعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم وكفرهم بآيات الله ، أي حججه وبراهينه ، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام»(١) .

وعقوبة المرض وهو النفاق ، كما في قوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾(٢) . إن الله تعالى زادهم نفاقاً . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «(فزادهم الله مرضا) أي نفاقاً»(٣) فعاقبهم الله تعالى بجنس معصيتهم ، فالمرض ينشيء المرض ، والانحراف يبدأ يسيراً ثم يزداد ، وهذا يؤكده قول الرسول ﷺ :**[إن العبد إذا أخطأ خطيئة . نكتت في قلبه نكتة ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكره الله تعالى** :﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤)**]**(٥). وقال مجاهد «هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب»(٦) .

وأما الإغفال فلقوله تعالى :﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾(٧) أي اغفال القلب كان نتيجة الاشتغال بالدنيا عن الدين وعبادة غير الله تعالى ، واتباع الهوى فكانت أعمال الكافر والمنافق عصياناً وسفهاً وتفريطاً وضياعاً .

ولهذا جاء النهي من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن لايطيع من أغفل الله قلبه عن ذكره وطالب بتنحية فقراء الصحابة عن مجلسه ، وقد كانوا يدعون الله بالليل والنهار ، بينما الكافرون في غفلة عن ذكره تعالى . وفي سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس رضي الله عنه «نزلت في أمية بن خلف ، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه، وتقريب صناديد مكة فأنزل الله هذه الآية» (٨).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٥٧٣ .

(٢) سورةالبقرة الآية ١٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص ٤٨ .

(٤) سورة المطففين الآية ١٤ .

(٥) مسند الإمام أحمد ج٢ ص ٤٢٥ ، الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ٨٣ .

(٦) شفاء العليل لابن المقيم ص ٩٤ .

(٧) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(١) فتح القدير للشوكاني ج٣ ص ٢٨٤ .

وأما الأكنة والأغطية على القلوب التي وردت في قوله تعالى :﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ...﴾(١) ، فواضح أن هذه الأكنة ما عوقبوا بها إلا بعد أن أعرضوا عن فهم الحق الذي جاءهم ، وهي غشاء على القلب ، لئلا يفهموا القرآن ، كما أن في آذانهم ثقل يمنعهم من سماعه سماعاً ينفعهم ويهتدوا به ، وهذا ناتج عن كونهم غير موقنين بالآخرة وبلقاء الله تعالى ، وهذا أدى إلى كفرهم . فكان عقابهم من جنس أعمالهم وليس ذلك إجباراً لهم لأنهم أخذوا حقهم في الاختيار فأعرضوا وأصروا فعوقبوا .

وأما عن إزاغة القلوب وقسوتها فقوله تعالى :﴿... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٢) أي لما أصروا على الزيغ واستمروا عليه ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وصرفها عن قبول الحق ، وذلك ناتج عن إيذائهم لموسى عليه السلام مع علمهم بأنه رسول الله تعالى ، يقول ابن كثير:« فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ،وأسكنها الشك والحيرة والخذلان»(٣) . ويؤكد ذلك قوله تعالى :﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(٤) .

فاليهود عندما مالوا عن الحق واستنكفوا عن الهدى ، أدى ذلك إلى ضلالهم ومن ثم إلى إزاغة قلوبهم .

وهكذا يتضح أن الآيات التي تتعلق بالثواب أو العقاب والتي ظاهرها الجبر ماهي إلا ثواب للطائع على طاعته ، وعقاب للعاصي على معصيته ، وليس هناك عقاب على الضلال ابتداءً ، وإنما يحدث العقاب بعد البيان والتوضيح ، فإن أصر العبد على المعصية أدى به ذلك إلى العقوبة ، وأما في حال الطاعة فإنه يثاب بهداية التوفيق إلى الإيمان وعمل الخير .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٦ .

(٢) سورة الصف الآية ٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٣٥٩ .

(٤) سورة النساء الآية ١١٥ .

موقف السلف من الجبر :

لقد اتضح فيما سبق موقف السلف من الآيات التي ظاهرها الجبر ، حيث أنها إما تتعلق بالخلق أو بالمشيئة أو القدر ، وذلك كخلق الإنسان وطوله ولونه ، وخلق السموات والأرض ، وهي أمور لا يحاسب الإنسان عليها ولا يعاقب لأنه لا اختيار له ولا إرادة في ذلك ولا تكليف ، وهذا مخالف لقول الجبرية الذين اعتمدوا على تلك الآيات ، واعتبروها أدلة لهم ليثبتوا من خلالها أن الإنسان مجبر على أفعاله ، كما أن هناك آيات تتعلق بعقاب دنيوي لمن أعرض عن الله تعالى وضل الطريق ، فهي لا تعني جبر العبد ولكن تبين عقوبة الله تعالى لمن أعرض عن ذكره ، وفي المقابل يثيب الله تعالى من أطاعه بهدايته .

وقد توقف السلف عند لفظ الجبر فمنهم من تحفظ عن التلفظ به . ومنهم من منع ذلك ، ومنهم من أجاز اطلاقه :

فقال الإمام أحمد والإمام الأوزاعي[١]: «من قال إنه جبر فقد أخطأ ،ومن قال لم يجبر فقد أخطأ ، بل يقال إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ونحو ذلك»[٢] . وورد عن الأوزاعي أيضاً أنه قال: «ما أعرف للجبر أصلاً في القرآن ولا في السنة ، فأهاب أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر ، والخلق والجبل ، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ»[٣] وقيل للإمام أحمد: «رجل يقول : إن الله جبر العباد . فقال : هكذا لا تقول . وأنكر هذا ، وقال ﴿... يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ...﴾[٤]»[٥] . وورد عن الإمام أحمد أيضاً «أنه جاءه رجل فقال : إن فلاناً قال : إن الله عز وجل جبر العباد على الطاعة . فقال بئس ماقال ولم يقل شيئاً غيرذلك»[٦] .

وهذا رد صريح وواضح عن الإمام أحمد للقائلين بأن الإنسان مجبر على أفعاله .

---

(١) الأوزاعي : هو أبو عمرو عبد الرحمن بن يحمد الأوزاعي ، نسبة إلى قبيلة الأوزاع ، إمام الشام في الفقه والحديث ، ولد ببعلبك سنة ٨٨هـ وتوفي في بيروت سنة ١٥٧هـ عرض عليه القضاء فامتنع ، انظر : وفيات الأعيان ج١ ص ٣١٠ ص ٣١١ . وانظر : تهذيب التهذيب ج٦ ص ٢٣٨ ص ٢٣٩ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج٤ ص ٩٤ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٢٥٥ ، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١ ص ١٩٣ .

(٣) مجموع الفتاوي ج٣ ص ٣٢٣ ، درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٦٦ .

(٤) سورة النحل الآية ٩٣ .

(٥) المسائل والرسائل للأحمدي ج١ ص ١٥٨ .

(٦) المرجع السابق ج١ ص ١٥٨ .

وأنكر الامام سفيان الثوري[١] الجبر وقال «الله جبل العباد »[٢] .

ومن الواضح أن هؤلاء العلماء كان توقفهم عن وإطلاق لفظ الجبر نابع من التزامهم بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من الفاظ ، ولكونه لم يرد لفظ الجبر توقفوا ، حيث نقل الإمام إبن تيمية عن الأئمة الأوزاعي وأحمد وسفيان الثوري القول:«ليس للجبر أصل في الكتاب والسنة ، وإنما الذي في السنة لفظ «الجبل» لا لفظ «الجبر» فإنه صح عن النبي ﷺ أنه قال لأشج عبد القيس: [**إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والأناة" . فقال يارسول الله : أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما ؟ فقال : "بل خلقين جبلت عليهما" فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله**][٣] [٤] .

وأما الإمام الزبيدي [٥] فقال «أمر الله أعظم من أن يجبر أو يعضل ... لأن الله سبحانه قادر على أن يجعل العبد مختاراً راضياً لما يفعله ، ومبغضاً وكارهاً لما يتركه كما هو الواقع ، فلا يكون العبد مجبوراً على مايحبه ويرضاه ويريده ، وهي أفعاله الاختيارية ، ولا يكون معضولاً عما يتركه ، فيبغضه ويكرهه ، أولا يريده ، وهي تروكة الاختيارية »[٦] .

ويعقب الإمام ابن تيمية على موقفي الإمامين الأوزاعي والزبيدي بقوله :«فهذان الجوابان اللذان ذكرهما هذان الإمامان في عصر تابعي التابعين من أحسن الأجوبة ... وجواب الأوزاعي أقوم من جواب الزبيدي ، لأن الزبيدي نفى الجبر ، والأوزاعي منع إطلاقه ، إذ هذا اللفظ يحتمل معنى صحيحاً ، فنفيه قد يقتضي نفي الحق والباطل»[٧] .

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ، محدث فقيه ، مسلم له بالإمامة ، قيل عنه أمير المؤمنين في الحديث ولد سنة ٩٧ هـ وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ . انظر : تهذيب التهذيب ج٤ ص ١١١ ، وانظر : البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص ١٣٤ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ج٧ ص ٦٨ .

(٣) سنن الترمذي ج٤ ص ٣٦٦ كتاب البر ، باب ما جاء في التأني والعجلة حديث ٢٠١١ ، خلق أفعال العباد للبخاري ص ٤٠ ، جامع الأصول ج١١ ص ٦٩١ حديث رقم ٩٣٢٥ .

(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ج١ ص ١٥٥

(٥) هو أبو الهذيل محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي من أهل حمص قال عنه ابن سعد كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث ، ولد سنة ٧٩هـ ، وتوفي سنة ١٤٩ هـ . انظر : تهذيب التهذيب ج٩ ص ٥٠٢ ، وانظر : طبقات ابن سعد ج٧ ص ٤٦٥ ، وانظر : الأعلام للزركلي ج٧ ص ٣٥٨ .

(٦) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٦٧ .

(٧) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٦٩ ، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١ ص ٧٠ .

والحق إن نفي السلف للفظ الجبر ليس نفياً لمجرد مفهوم الكلمة بقدر ما نقول إن المقصود من نفيه هو المعتقد ،وهو القول بجبر العباد واكرههم على الأفعال دون أن يكون لهم إرادة واختيار ، فهذا هو مقصود علماء السلف من قولهم هذا والله أعلم .

وقد وضح هذه الحقيقة الإمام أبو حنيفة بقوله :«وإني أقول قولاً متوسطاً لا جبر ولا تفويض ولا تسليط ، والله تعالى لا يكلف العبادبما لا يطيقون ، ولا أردا منهم مالا يعلمون ، ولا عاتبهم بما لم يعملوا ولا سألهم عما لم يعملوا ، ولا رضى لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم والله يعلم بما نحن فيه» (١).

وهكذا يتبين موقف السلف من هذه القضية ، حيث إثبات الإرادة والاختيار للإنسان ، ولكن خالق هذه الإرادة وهذا الاختيار هو الله تعالى ، ولايعني ذلك جبره على الفعل ، بل خلق فيه الإرادة والقدرة والاختيار ، وأراد منه أن يختار ويريد .

إن فهم السلف لقضية الجبر هو الفهم الصحيح السليم باعتباره موقفاً قرآنياً خالصاً ، وليس فكراً بشرياً أو اجتهادياً ، ولهذا يصبح القرآن حجة لهم يوم القيامة لا حجة عليهم ، فالذي يدين بعقيدة السلف ويموت على ذلك ، يأتي آمناً يوم القيامة ، لأن حجته القرآنية معه ، فإذا قال لقد آمنت بما جاء في القرآن كما هو دون رفض أو تحريف أو تمثيل أو تشبيه أو تعطيل أو تأويل مسلماً الأمر لله تعالى على مراد الله تعالى وعلى مراد رسوله ﷺ ، فإن القرآن يكون حجة له لا عليه .

---

(١) أبو حنيفة للإمام محمد أبو زهرة ص ١٧٨ ، القضاء والقدر في الإسلام ج٢ ص ٤٧ .

المطلب الثاني : آيات الاختيار وفهم السلف لها :

ورد في القرآن الكريم آيات توضح أن للإنسان إرادة وحرية في اختيار أفعاله وأعماله سواء أكان ذلك ناتج عن الإرادة الإنسانية الحرة المختارة ، أو وجوده بين نازعي الخير والشر، أو التقوى والهوى في داخل النفس الإنسانية ، وهذا كله يوضح أن الإنسان له اختيار إلى جانب أن الآيات وضحت أن هناك طريقين ، طريق الخير وطريق الشر ، وأن من تبع طريق الخير جزاؤه الجنة ، ومن تبع طريق الشر فعقابه النار .

إن العبد في هذه الدنيا كثيراً ما يجد نفسه أمام تجربة ابتلائية عليه أن يختار إزاءها بين أحد سلوكين ،كلاهما ضد الآخر، فالأفعال أو الأعمال أو مجرد الاختيارات والنيات التي يختارها الإنسان،تصبح بعد اختياره،وبعد تلبسها بإرداته ، ووقوعها منه في الواقع مكتسبة إما للشر وإما للخير ، أي إما أن تكون موافقة لشرع الله تعالى أو مخالفة له .

إن الإنسان الذي يركز حرصه على الدنيا دون الآخرة،مستعد باختياره وحريته أن يرتكب في سبيلها كل رذيلة وكبيرة،لأنه يرفض الآخرة،ولا يؤمن بالحساب في يوم القيامة،وفي المقابل،فالإنسان الذي يختار الآخرة ويسعى لها ويفضلها على الدنيا ،ستكون أفعاله واختياراته متمشية مع أمر ربه وشرعه،وهذا هو طريق الآخرة الذي هو حرية العمل في مجال الفضائل .

كما أن اثبات القرآن الكريم للكسب الإنساني،يدل بوضوح على أن الإنسان حر في الفعل الذي يفعله ، ولولم يكن حراً ومختاراً لما ثبت له كسب، واثبات الرضا و القبول للإنسان وايثاره شيئاً على شيء، يعطي دلالة واضحة على أن للإنسان حرية واختياراً،وهذا في ضوء القضاء الكوني الذي قدر الله تعالى من خلاله وجود إرادة حرة للإنسان وقدرة واختياراً .

أولاً : الإرادة الإنسانية الحرة بين الثواب والعقاب :

إن الإرادة التي وهبها الله تعالى للإنسان أعطته حرية التوجه دون قسر أو قهر ، وهذا مزية من الله تعالى للإنسان ، فضله بها على كثير ممن خلق ، وكان من الممكن ألا يهبه حرية الإرادة والاختيار ، ولكن إرادة الله تعالى ومشيئته تعلقت بأن يكون مريداً ، فسرت إرادة الله تعالى إلى مايريد ويختار من الأعمال ، ولا يمكن أن يقع أي تعارض بين إرداته تعالى وبين ما يختاره الإنسان عن طريق الإرداة التي وهبه إياها .

وبناء على وجود هذه الإرادة الحرة في الإنسان ، جاء التكليف من الله تعالى وصدرت

الأوامر والنواهي لاختبار الإنسان في إرادته ليميز الله الخبيث من الطيب . وهذه الأفعال الاختيارية التي يحاسب عليها الإنسان ، تندرج تحت نوعين متضادين من الفعل الاختياري ، هما الكفر أو الإيمان ، والثواب أو العقاب ، ومما ورد في ذلك من آيات قرآنية قوله تعالى : ﴿... وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(١) . وقوله :﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(٢) .

لقد جعل الله تعالى الإخرة حرثاً والدنيا حرثاً ، يختار المرء منها مايشاء ، وذلك تابع لإرادة الإنسان ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾(٣) ، فمن عمل للآخرة وسعى لها ، يقويه الله تعالى ويعينه ويبارك له في عمله ، ويضاعف حسناته، الحسنة بعشر أمثالها وقد تصل إلى سبعمائة ضعف ﴿... وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٤) . وله مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له في هذه الأرض لا يحرم منه شيئاً ، وأما من أراد بإرادته الحرة المختارة ثواب الدنيا ، أعطاه الله بإرادته من عَرَضْ الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئاً .﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ ...﴾(٥).أي من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الدنيا ومتاعها ، ومايرزق الله به عباده منها يعطيه الله ماقضت به مشيئته وقسم له في قضائه ،ولكن لا يكون له في الآخرة من نصيب، حيث إنه لم يعمل في حرث الآخرة شيئاً ينتظر عليه ذلك النصيب .

ولذلك قال قتادة (٦):«إن الله تعالى يعطي على نية الآخرة ما شاء الله من أمر الدنيا ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا »(٧) .وقال ابن عباس رضي الله عنه «من يؤثر دنياه

---

(١) سورة آل عمران الآية١٤٥ .

(٢) سورة الشورى الآية ٢٠ .

(٣) سورة القصص الآية ٧٧ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦١ .

(٥) سورة الإسراء الآية ١٨ .

(٦) قتادة : هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه ، عربي الأصل كان يسكن البصرة ، وكان قوي الحافظة واسع الإطلاع اشتهر في التفسير توفي سنة ١١٧ هـ وكان عمره ست وخمسون سنة على الأصح انظر : وفيات الأعيان ج٢ ص ١٧٩ ، وانظر : تهذيب التهذيب ج٨ ص ٣٥١ ، ص ٣٥٢ ، وانظر : التفسير والمفسرون ج١ ص ١٢٥ ص ١٢٦ .

(٧) فتح القدير للشوكاني ج٤ ص ٥٣٣ .

على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار ، ولم يزود بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً فرغ منه وقسم له»[1] . وقال علي رضي الله عنه :«الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات»[2] وقال الإمام ابن كثير :«من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ماقدره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وماقسم له في الدنيا ... ولذا قال ههنا «وسنجزي الشاكرين» أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم»[3] . فأقوال السلف هذه تبين حقيقة الإرادة والاختيار لدي الإنسان وأنه يجازي أو يعاقب بحسب اختياره .

وقال تعالى ﴿... مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾[4] ، تتحدث هذه الآية عن غزوة أحد وما حصل فيها ، حيث كان النصر في أولها للمسلمين ولكن عندما خالف بعض الرماة أمر رسول الله ﷺ البقاء في أماكنهم ، وذلك بإرادتهم الدنيا عندما رأوا الغنائم . وفي ذلك يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «ماكنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا ، حتى نزل فينا مانزل يوم أحد (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)»[5] . فهذا يدل بوضوح على إثبات الإرادة للإنسان وحرية الاختيار .

كما ورد قوله تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾[6] .

يخبر الله تعالى ، أنه ماكل من طلب الدنيا ومافيها من النعيم يحصل له ، بل يحصل لمن أراد الله تعالى وشاء ، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها كقوله تعالى ﴿... وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ...﴾[7] ، ولكن من طلب الدنيا وأرادها ، خسر الآخرة ، وكان من أهل

---

(١) المصدر السابق ج٤ ص ٥٣٦ .

(٢) نفس المصدر ج٤ ص ٥٣٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٤١٠ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص ٤١٣ .

(٦) سورة الإسراء الآية ١٨ - ١٩ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .

جهنم ، يدخلها وهو مذموم على تصرفه حقيراً ذليلاً مهاناً ، ومن جهة أخرى فمن أراد الدار الآخرة ومافيها من نعيم وهو مصدق ومؤمن بالجزاء والثواب فهذا يشكر على سعيه ويعطيه الله تعالى مايريد[1] .

وقد أثبت الله تعالى شروطاً للعمل ليكون مشكوراً وهو أن يكون صاحبه مؤمناً وأراد الآخرة ، وأن يسعى السعي الذي يحق لها .

وأما قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] .توضح هذه الآيات أن من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، لكونها همه ونيته وطلبه جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة ، وليس له حسنة يعطي بها جزاء لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً ولم يحسب لها حساباً، فنتج له عند ذلك فيها أن عمله محكوم عليه بالحبوط والبطلان ، وأن مصيره إلى النار . يقول ابن عباس رضي الله عنه : «إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً فمن عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى أو فيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله لا لتماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين»[3]. وهكذا يتضح من خلال هذه الآيات وجود الإرادة الإنسانية الحرة والتي تثبت من جانبها وتدل على الاختيار الإنساني ، ولكن هذا الاختيار يبقى في نطاق وحدود الإرادة الإلهية لأن إرادة الإنسان واختياره من خلق الله تعالى .

ثانياً : وجود نازعي الخير والشر في النفس (التقوى والهوى) :

إن وجود نارعين في النفس الإنسانية متقابلين ومتضادين أحدهما للخير والآخر للشر يدلان بوضوح علي وجود الاختيار عند الإنسان ، أما نازع الخير فهو الفطرة الموحدة لله

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ٢٤ ، وانظر : فتح القدير ج٣ ص ٢١٦ ، وانظر : تفسير كلام المنان ج٤ ص ٢٦٧ .

(٢) سورة هود الآيات ١٥ – ١٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ٤٤٩ .

والمؤمنة لقوله تعالى :﴿... فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...﴾[1] ، وأما نازع الشر النفسي عند الإنسان فهو الهوى ، ويطلق على كل ماخالف الشرع من أوامر أو نواهٍ.

وقد وردت آيات تتحدث عن ذلك ومنها قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ...﴾[2] ، أي الذي لا يأتمر إلا بأمر نزواته وشهواته ، ولاينتهي إلا بنواهي دوافعه فقط تاركاً شرع الله المتمثل في أمره ونهيه ، فمعنى الهوى كنازع للشر ليس سوى كل مايجلب للإنسان المتعة واللذة والبقاء من شهوات وغرائز وعواطف مع منافاة ذلك لأمر الله تعالى ونهيه،إلى جانب مايدفع عنه الألم ويحرص به على الحياة ، من دوافع دون النظر لطاعة الله تعالى ومرضاته،قال الإمام مالك :«لا يهوي شيئاً إلا عبده»[3]. وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما:«ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه»[4]. وقال الإمام ابن كثير:«يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناًفعله ومهما رآه قبيحاً تركه »[5]. ويرى أن قوله :﴿وأضله الله على علم﴾ يحتمل قولين أحدهما : وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك ، والآخر : وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس»[6] .

ويوضح الإمام الرازي حقيقة إتخاذ الهوى إلهاً بقوله : «تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه»[7] .

وقال تعالى :﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ...﴾[8] ، أي لا أحد أضل منه ، بل هو الفرد الكامل في الضلال ، لأن الحق في هذا القرآن بين ، وإن حجة هذا الدين واضحة ، ومايتخلف عنه أحد إلا أن يكون الهوى هو الذي يقوده . وإنهما لطريقان لا ثالث لهما : إما إخلاص للحق ، وخلوص من الهوى، وفي هذا الحال لابد من الإيمان والتسليم ، وإما إتباع الهوى ، ومخالفة الحق ، وبالتالي التكذيب والشقاق والكفر ، وهذا فعل أضل

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص ١٥٠ .

(٤) فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٨ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ١٥٠ .

(٦) المصدر السابق ج٤ ص ١٥٠ .

(٧) التفسير الكبير للرازي ج٢٧ ص ٢٣٠ .

(٨) سورة القصص الآية ٥٠ .

الناس ، حيث عرض عليه الهدى ، والصراط الموصل إلى الحق ، ولكن ساقه هواه إلى سلوك الطريق الموصل إلى الهلاك والشقاق .

ومما ورد أيضاً قوله تعالى :﴿... فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾(١) والخطاب هنا موجه لدواد عليه السلام ، ولكنه عام لكل ولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلون عنه باتباع الهوى فيضلوا عن سبيل الله تعالى ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد (٢) . وقد قال الإمام الرازي في تعقيقه على الآية: «إن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب وعليه فإن متابعة الهوى توجب سوء العذاب»(٣) .

وقال تعالى أيضاً :﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(٤) .

يقسم تبارك وتعالى بالنفس هنا للدلالة على مكانتها وأهميتها ،والتي لولاها لكان البدن مجرد تمثال ، لا فائدة منه،فالنفس آية من آيات الله تعالى، فمن طهرها من الذنوب ونقاها من العيوب وذلك بطاعة الله فقد أفلح ، وأما من دنسها بالرذائل والذنوب فقد خسر وخاب، وأما قوله :«فألهمها فجورها وتقواها »أي أرشدها إلى فجورها وتقواها ببيان ذلك لها وتوضيحه ، وهدايتها إلى ماقدر لها . قال ابن عباس رضي الله عنه :«بين لها الخير والشر »(٥)وقال أيضاً :«علمها الطاعة والمعصية»(٦). وقال سعيد بن جبير(٧):«ألهمها الخير والشر»(٨).

---

(١) سورة ص الآية ٢٦ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٣٢ ، وانظر : فتح القدير ج٤ ص ٤٢٩ .

(٣) التفسير الكبير للرزاي ج٢٦ ص ١٧٥ .

(٤) سورة الشمس الآيات ٧ – ١٠ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٥١٦ .

(٦) فتح القدير للشوكاني ج٥ ص ٤٥٠ .

(٧) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء ، روى عن جمع كثير من الصحابة ، وكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟ يقصد سعيد بن جبير ، كان من أفضل التابعين وكان صالحاً ورعاً فقيهاً زاهداً قتله الحجاج سنة ٩٥هـ . انظر : البداية والنهاية ج٩ ص ٩٦ ، تهذيب التهذيب ج٤ ص ١١ .

(٨) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٥١٦ .

فقد فاز من زكى نفسه ونماها وأعلاها بالتقوى في كل عمل ، وقد خسر من أضلها وأغواها وذلك بعدم التزامها بالطاعة والعمل الصالح .

إن هذا الكائن الإنساني مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه، فهو بطبيعة تكوينه من طين الأرض ، ومن نفخة الله تعالى فيه من روحه ، فهو مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، حيث إنه قادر على التمييز بين ماهو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء ، إن هذه القدرة كامنة في كيانه ، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة:﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] . ويعبر عنها بالهداية تارة أخرى:﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2] . فهي كامنة في صميمه في صورة استعدادات ، والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتوجهها هنا أو هناك ، ولكنها لا تخلقها خلقاً لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً ،وكامنة إلهاماً ، وإلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان هي التي تناط بها التبعة ، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه ، وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها ،وتغليبه على الشر فقد أفلح ، وأما من أظلم هذه القوة وأضعفها فقد خاب وخسر[3] .

ثالثاً : وجود هاتفين خارج النفس :«لمة الملك ولمة الشيطان» :

يتصل بالإنسان هاتفان متعارضان ، أحدهما يهيب بالنفس لفعل الخير ، مستحثاً نازع الخير فيها ويأتي من الملك ، والآخر يوسوس لها لفعل الشر مستحثاً نازع الشر فيها عن طريق الشيطان وقد سمى الرسول ﷺ ذلك بلمة الشيطان ولمة الملك حيث قال :**[إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فيحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4]]**»[5] .

---

(١) سورة الشمس الآيات ٧ – ٨ .

(٢) سورة البلد الآية ١٠ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن سيد قطب ج٦ ص ٣٩١٧ ص ٣٩١٨ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .

(٥) سنن الترمذي ج٥ ص ٢١٩ ص ٢٢٠ ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة البقرة حديث رقم ٢٩٨٨ .

إن الآيات التي سبقت هذه الآية تتحدث عن الإنفاق في سبيل الله، وأن ينفق الإنسان الطيب من الرزق ، ولكن هناك هاتف الشيطان ،لا يترك الإنسان فيخوفه الفقر كي لا ينفق في مرضاة الله تعالى،ويثير في نفسه الحرص والشح والتكالب «وخوف الفقر كأن يدعو القوم إلى وأد البنات وهو فاحشة، والحرص على جمع الثروة كان يؤدي ببعضهم إلى أكل الربا ، وهو فاحشة ، كما أن الخوف من الفقر بسبب الإنفاق في سبيل الله في ذاته فاحشة» (١) ، وفي المقابل هناك نازع الخير وهو وعد الله تعالى بالمغفرة وزيادة الرزق،وهذا يأتيه بإلهام المَلَك له .

إن وجود الإرادة الإنسانية بين هاتفين ، هاتف يهتف بها لحظة الاختيار ويحرضها ويزين لها اختيار القبيح ، والآخر يهتف ويهيب بها أن تفعل الحسن ، ليدل على اختيار الإنسان وحريته . فالشيطان هو هاتف الشر الذي يحرض الإنسان عليه ، ويدعوه إلى إرتكابه ، والملك هو هاتف الخير الذي ينهاه عن الشر ويدعوه إلى فعل الخير ، ولكل من الشيطان والملك سلاحه الذي يستخدمه ، فللشيطان الهوى، وللملك الفطرة السليمة المؤمنة ، وليس لأي هاتف منهما إلزام أو إجبار إرادة الإنسان على اختيار هذا الجانب دون ذاك ، فهما هاتفان وداعيان فقط (٢) .

وقد قال الله تعالى موضحاً اعتراف الشيطان لأتباعه ، ومبيناً ضعف أثره عليهم يوم القيامة:﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣) . يخبر سبحانه وتعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وحسرة على حسرتهم ، مبيناً أن الله وعدهم الوعد الحق عندما أخبرهم أن هناك بعثاً وحساباً وجنة وناراً ، وذلك على ألسنة رسله ، وأن هذا الوعد فيه النجاة ، والسلامة ، وأنه وعدهم الوعد الباطل المضل عندما زين لهم أنه لا بعث ولا

---

(١) في ظلال القرآن ج١ ص ٣١٢ .

(٢) انظر : القضاء والقدر في الإسلام . د. فارقو دسوقي ج١ ص ٢٢٠ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

حساب ولا جنة ولا نار، دون حجة أو دليل ، فما كان منهم إلا أن اتبعوه ، فعليهم أن يلوموا أنفسهم ولا يلوموه ، حيث أن الذنب ذنبهم لكونهم خالفوا الحجج والبراهين ، واتبعوه بمجرد دعوته لهم ، فلا يستطيع هو إغاثتهم، ولا هم يستطيعون إغاثته من عذاب الله العظيم(١) .

إن من رحمة الله تعالى أن وجه رسوله ﷺ وأمة الإسلام قاطبة إلى الالتجاء إليه ، والإستعاذة من شر الشيطان لأن وسوسته خفية ، ولا يدرون كيف تتم هذه الوسوسة ، ولكن آثارها واقعة في النفوس وواقعة في الحياة ، فقال تعالى :﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ* مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(٢) . ومن المعلوم أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة ، وأن الشيطان قد أعلنها حرباً عليه وعلى ذريته ، وذلك لكبريائه وحسده وحقده عليهم ، والمقصود بالوسواس الخناس «هو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه مامن أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ولا يألو جهداً في الخبال ، والمعصوم من عصمه الله»(٣) . وقد قال الرسول ﷺ :**[مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال :"وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير"**(٤)**. وقال أيضاً :"إن الشيطان يجري من إبن آدم مجرى الدم]**(٥) .

وقد وضح ابن عباس رضي الله عنهما حقيقة وسوسة الشيطان وفعله فقال :«الوسواس الخناس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس وإذا ذكر الله خنس»(٦) .

والوسوسة بالسوء لا تقع فقط من شياطين الجن ، بل هناك شياطين الإنس أيضاً يوسوسون للإنسان ويزينون له الباطل ، ويمثل ذلك جليس السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب صاحبه وعقله من حيث لا يحتسب ولا يحترس ، لأن الصاحب مأمون الجانب، حيث يظهر نفسه كالناصح المشفق ، فيوقع في الصدر كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ، ولذا

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٥٤٤ ، وانظر :فتح القدير للشوكاني ج٣ ص ١٠٣ .

(٢) سورة الناس الآيات ١ - ٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٥٧٥ .

(٤) صحيح مسلم ج٤ ص ٢١٦٧ ، كتاب صفات المنافقين،باب تحرش الشيطام وأن مع كل إنسان قرين حديث رقم ٢٨١٤ .

(٥) صحيح مسلم ج٢ ص ١٧١٢، كتاب السلام ، باب دفع ظن السوء،حديث رقم ٢١٧٤ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٥٧٥ ، فتح القديرللشوكاني ج٥ ص ٥٢٤

قد يكون شيطان الإنس أقوى في وسوسته من شيطان الجن ، ولكن من اعتمد على الله تعالى واستعاذ به جل ثناؤه من شياطين الإنس والجن ، ينصره عليهم، ويكفيه شرهم ، أمام الاستعاذة بالله تعالى منهم .

إن الآيات السابقة تثبت هاتف الشر ووعده الكاذب ، وهاتف الخير، ووعد الله الحق ، كما أنها تثبت رفع أي سلطان عن الإنسان أو إجبار لحظة الإجابة إلا سلطان الإرادة الإنسانية ، ويظهر ذلك واضحاً من قول الله تعالى على لسان الشيطان يوم القيامة :﴿... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيكُم مِّن سُلطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاستَجَبْتُمْ لِي ...﴾[1] . فالاستجابة هنا نابعة من العبد ، وذلك دون إكراه أو إلزام . كما أنه لا يوجد أي إكره أو إلزام أو قهر من الله تعالى لاستجابة العبد للخير أو للشر ، وذلك لأن قدرة الله تعالي مطلقة ومشيئته نافذة ، فلو أراد سبحانه أن يستجيب الناس كلهم للخير دون الشر ، لاستجابوا لذلك ولما توانوا .

ولو أراد سبحانه وتعالى أن يكون له سلطان وقهر وإلزام للإرادة الإنسانية لاختيار الشر دون الخير لكان الناس كلهم أشراراً .حيث قال تعالى :﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2]وقال :﴿وَلَو شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسأَلُنَّ عَمَّا كُنتُم تَعمَلُونَ﴾[3] ،فكانت إرادة الله تعالى ومشيئته للناس أن يكونوا أحراراً ليبتليهم فيعلم الصادق من الكاذب فيكون بعضهم خيراً وبعضهم الآخر شريراً ، وهذا يدل على حرية الإنسان وقدرته على الاختيار ولكن ضمن حدود الإرادة والمشيئة الإلهية .

رابعاً : وجود النجدين :

النجدان هما الطريقان المتضادان خارج النفس ، أحدها مطابق لنازع الخير ، والآخر مطابق لنازع الشر ، وهذا يؤكد كذلك علي الاختيار البشري لأن الإنسان يواجه طريقين : طريق الخير وطريق الشر ، وعليه أن يختار أحدهما . ولذلك قال الله تعالى :﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[4] .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٢) سورة هود الآيات ١١٨ – ١١٩ .

(٣) سورة النحل الآية ٩٣ .

(٤) سورة البلد الآيات ٨ – ١٠ .

والنجد هو الطريق المرتفع، فكأنه لما وضحت الدلائل جُعِلت كالطريق المرتفع العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للإبصار ، وقد منح الله تعالى الإنسان القدرة والاستعداد لسلوك أي الطريقين شاء ، وأن تخلقه بهذا الإزدواج طبقاً لحكمة الله تعالى في الخلق ، وإعطاء كل شيء خلقه وتيسيره في هذا الوجود[(١)] .

إن الإنسان الجاحد يعتز بقوته أو بماله ، والله هو الذي أعطاه هذه القوة ، وأنعم عليه بهذا المال إلى جانب ذلك جعل له حواساً يهتدي بها في عالم المحسوسات ، فجعل له عينين على هذا القدر من الدقة في التركيب ، والقدرة على الإبصار ، ولساناً ينطق به فيعبر عما في ضميره ،وشفتين يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالاً لوجهه ، ثم أودع في نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى . والضلال ، والحق والباطل،ليختار أيهما شاء .

وفي بيان حقيقة قوله تعالى :﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[(٢)] قال الإمام علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم : هما «الخير والشر»[(٣)] .

وقال الإمام ابن تيمية :«أي بينا له طريق الخير والشر ، وهو هدى البيان العام المشترك»[(٤)] . وقيل هما الحق والباطل [(٥)].

والمقصود من ذلك ، أن الله تعالى وضح للإنسان طريقي الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل ، وهذه المنن من الله تعالى تقتضي من العبد الشكر وليس الكفر .

ومما ورد أيضاً قوله تعالى :﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[(٦)] .

لقد خلق الله تعالى الإنسان من نطفة أمشاج ، أي أخلاط مختلطة بعضها من بعض ، وليس هذا الخلق عبثاً – تعالى الله وتقدس عن ذلك – وإنما ليبتليه ويمتحنه ويختبره ، قال

---

(١) انظر : التفسير الكبير ج٣١ ص ١٦٦ ، وانظر : في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٩١٠ ص ٣٩١١ .

(٢) سورة البلد الآية ١٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٥١٢ ، مجموع الفتاوي ج١٦ ص ١٤٣ ، فتح القدير ج٥ ص ٤٤٤ .

(٤) مجموع الفتاوي ج١٥ ص ٩٩ .

(٥) انظر : المصدر السابق ج١٦ ص ١٤٣ .

(٦) سورة الإنسان الآيات ٢ – ٣.

ابن عباس رضي الله عنه «(من نطفة أمشاج) يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور»(١) .

كما جعل الله تعالى له السمع والبصر ليتمكن بهما من الطاعة أو المعصية ، فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال :[... **كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها**] (٢). أي فكل إنسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيهلكها في العذاب .

ولقد زود الله تعالى الإنسان بالقدرة على اختيار الطريق الذي يريد أن يسلكه بعد أن بين له طريق الخير وطريق الشر ، وأمره بعد ذلك باتباع طريق الخير ونهاه عن اتباع طريق الشر وذلك ليتبين شكره من كفره ، وطاعته من معصيته «وعبر عن الهوى بالشكر لأن الشكر ... هو الخاطرُ الأول الذي يرد على القلب المؤمن في هذه المناسبة ، فإذا لم يشكر فهو الكفور»(٣) .

إن وجود طريقين أمام الإنسان ، خير أو شر ، هداية أو ضلال ، ثم تركه ليختار ما شاء من هذين الطريقين ليدل دلالة واضحة على حرية الإرادة عنده و القدرة على الاختيار في هذا الجانب الابتلائي ، فهو أمام امتحان ، فإما أن ينجح وإما أن يفشل ، إما أن يهتدي فيفوز بجنات النعيم ، وإما أن يضل فيقع في دركات الجحيم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٤٥٣ ، فتح القدير ج٥ ص ٣٤٤ .

(٢) صحيح مسلم ج١ ص ٢٠٣ ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء حديث رقم ٢٢٣ .

(٣) في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٧٨٠ .

خامساً : إثبات الكسب[1] للإنسان :

إن إثبات الكسب للإنسان يعني أن له اختياراً في فعله ، فالكسب هو فعل العبد ، والله تعالى خالق العبد وخالق أفعاله ، حيث يقول إبن القيم عند حديثه عن الكسب:«هي أفعال للعباد حقيقة ومفعولة للرب ، فالفعل عندنا غير المفعول وهو إجماع من أهل السنة ، فالعبد فعلها حقيقة ، والله خالقه وخالق مافعل به من القدرة والإرادة وخالق فاعليته ... فربه تعالى هو الذي جعله فاعلاً بقدرته ومشيئته ، وأقدره على الفعل وأحدث له المشيئة التي يفعل بها »[2]. فإثبات الفعل للعبد لا يدع مجالاً للشك في أن للإنسان اختياراً في فعله حيث قال تعالى :﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...﴾ [3].

فهذه هي رحمة الله وعدله في التكاليف التي يفرضها علي عبده في خلافته للأرض، وفي إبتلائه أثناء الخلافة ، وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف ، فلا يكلفه إلا بحسب قدرته واستطاعته ، وهذا يدفع الإنسان إلى الاطمئنان لرحمة الله تعالى وعدله ، فلا يتبرم بتكاليف الله ، ولا يضيق بها صدراً ، كما لا يستثقلها لكونه يعلم أن الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته ، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه ، ولذلك رفع الله تعالى عن الإنسان أموراً ليست في استطاعته حيث قال الرسول ﷺ :**[رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه]** [4]. وقال أيضاً :**[رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم]**[5] . وهذا من رحمة الله تعالى بالإنسان أنه لم

---

(١) ورد الكسب في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه . أحدهما : عقد القلب وعزمه كقوله تعالى «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ...» سورة البقرة ٢٢٥،أي بما عزمتم عليه وقصدتموه . والوجه الثاني من الكسب ، كسب المال من التجارة أو الزراعة ، قال تعالى :«يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ...» سورة البقرة الآية ٢٦٧ . فالأول للتجارة والثاني للزرع . والوجه الثالث : من الكسب : السعي والعمل كقوله تعالى «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما إكتسبت ...» سورة البقرة الآية ٢٨٦ وقوله «بما كنتم تكسبون» سورة الأعراف الآية ٣٩ وقوله «... وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ...» سورة الأنعام الآية ٧٠ فهذا كله للعمل . انظر : شفاء العليل ص ١٢٠ ، وانظر : الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٧٩ .

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ١٣١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج٥ ص ١٦٠ ص ١٦١ ، الجامع الصغير ج٢ ص ٢٤ .

(٥) سنن إبي داود ج٤ ص ١٤ ، كتاب الحدود ، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً ، حديث رقم ٤٣٩٩ .

يكلفه أكثر من طاقته ، كما أنه لا يكتب عليه ولا يحاسبه إلا على مافعله حراً مختاراً غير مكره وفي حدود استطاعته . ﴿... لَهَا مَاكَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...﴾[1] . فإن كسب الإنسان خيراً جوزى خيراً ، وإن كسب شراً عوقب بمثله فلا تنال نفس إلا ماكسبت ، ولاتحمل نفس إلا ما اكتسبت ، حيث يرجع كل إنسان بصحيفته الخاصة وما قيد فيها له أو عليه ، ولذلك يقول الإمام الشوكاني :«فيه ترغيب وترهيب أي لها ثواب ما كسبت من الخير وعليها وزر ما اكتسبت من الشر»[2] .

ومما ورد أيضاً قوله تعالى :﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾[3]. فكل إنسان يحمل هم نفسه وتبعتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ، فمن أراد لها التقدم والإكرام عمل لما يدخله الجنة ، ومن أراد لها التأخر والإهانة أعرض عن ذكر الله وعمل لما يدخله النار ، حيث أن كل نفس رهينة بما تكسب مقيدة بما تفعل ، ولكن أصحاب اليمين ينطلقون إلى جنات النعيم ، وهذا فضل من الله تعالى حيث بارك أعمالهم ، وضاعف حسناتهم التي قدموها .

وأما بالنسبة لقوله تعالى :«كل نفس بما كسبت رهينة» فقال ابن عباس رضي الله عنهما :«أي معتقلة بعملها »[3]. وقال أيضاً:«مأخوذة بعملها »[4].

وقال الإمام الطبري :«كل نفس بما عملت في الدنيا رهينة في جهنم»[5] . وهذا يتعلق بالمجرمين الذين يكذبون بيوم الدين .

وأما بالنسبة لأصحاب اليمين فقال ابن عباس رضي الله عنهما :«أصحاب اليمين هم المؤمنون»[7] ، وقال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «هم أطفال المسلمين» [8].وقولهم هذا ناتج عن كون أطفال المسلمين لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به ، إلى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ج١ ص ٣٠٧ .

(٣) سورة المدثر الآيات ٣٧ - ٣٩ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٤٤٦ .

(٥) فتح القدرير ج٥ ص ٤٣٤ .

(٦) مختصر تفسير الطبري ج٢ ص ٥٠٠ .

(٧) التفسير الكبير للرازي ج٣٠ ص ١٨٥ .

(٨) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٥ .

جانب أن الله تعالى رفع القلم عنهم ، والظاهر أن أصحاب اليمين هم المؤمنون الذين أخذوا صحفهم بأيمانهم ، ولم يناقشوا الحساب ، لأن من نوقش الحساب عذب لما روت عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ :**«من حوسب يوم القيامة عذب» فقلت : أليس قد قال الله عز وجل ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾[1] ؟ فقال : «ليس ذاك الحساب . إنما ذاك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»**[2] .

وقد قال تعالى مبيناً حقيقة إرتهان كل إنسان بعمله:﴿... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [3]. لما أخبر الله تعالى عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك ، وهذا في حال المؤمنين ، وهو فضل منه تعالى ، أخبر بعد ذلك عن مقام العدل ، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد ، فكل امرئ مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أباً أو ابناً كما أنه مرهون بكسبه ، فإن كسب خيراً فك رقبته وأدخل الجنة وإلا بقي مرهوناً ، وذلك يؤدي به إلى دخول النار حيث قال تعالى : ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4] . هذه الآية ترد على اليهود الذين كانوا يتقولون على الله تعالى ، فيزعمون أنهم لن يعذبوا في النار إلا أياماً معدودة ، فرد الله تعالى عليهم بأن الأمر ليس كما تمنيتم ولا كما تشتهون ، بل إنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته ،وجاء يوم القيامة وليست له حسنة،بل جميع أعماله سيئات فهذا من المخلدين في النار ، ويوحي التعبير القرآني بأنه إرتكب الخطيئة وهو يلتذها ويستسيغها ويحسبها كسباً له ، ولو أنها كانت كريهة في حسه مافعلها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمساً ، وماتركها تحيط به وتملأ عليه نفسه . قال ابن عباس رضي الله عنه : « (بلى من كسب سيئة) أي عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فماله من حسنة»[5] . وقد فسر أبو هريرة وإبن

---

(١) سورة الإنشقاق الآية ٨ .

(٢) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٢٠٤ ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب اثبات الحساب حديث رقم ٢٨٧٦ .

(٣) سورة الطور الآية ٢١ .

(٤) سورة البقرة الآية ٨١ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ج١ ص ١١٩ .

عباس رضي الله عنهما الخطيئة بالشرك [١]. وقال مجاهد «هي الذنوب تحيط بالقلب» [٢] .

وفي هذا يقول الرسول ﷺ :**[إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه]** [٣].

سادساً : إيثار الضلال على الهدى :

الكثرة الغالبة من الناس تختار الضلال على الهدى . لقوله تعالى :﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [٤] . فهذه الحقيقة وضحها القرآن الكريم وبينها ، ويتمثل ذلك بجعل هذا الاختيار تجارة تتمثل بشراء شيء بشيء آخر،ويتبين ذلك بوضوح عندما يتحدث القرآن الكريم عن المنافقين بقوله :﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ، فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُم وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [٥].

أي إن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، واعتاضوا عن الهدى بالضلال حيث كانوا يملكون الهدى ، ولو أرادوه فقد كان مبذولاً لهم وهذا يدل بوضوح على حرية الاختيار عندهم عندما استبدلوا الضلال بالهدى . ففي قوله تعالى :﴿اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ . قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما :«أخذوا الضلالة وتركوا الهدى» [٦] . وعن ابن عباس أيضاً اشتروا «الكفر بالإيمان» [٧] . فالمنافقون بذلوا الهدى ثمناً للضلال ، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع إلى الكفر، أو أنهم ابتداءً استحبوا الضلالة على الهدى فرغبوا فيها رغبة المشتري للسلعة التي من رغبته فيها يبذل الأموال النفيسة . قال الامام الرازي :«واعلم أن اشتراء الضلالة بالهدى اختيارها عليه واستبدالها به ، فإن قيل كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وما كانوا على هدى ؟ قلنا جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم ، فإذا تركوه ومالو إلى الضلالة فقد استبدلوها به» [٨].

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ج١ ص ١٠٧ ، وانظر : فتح القدير للشوكاني ج١ ص ١٠٦ .

(٢) مجموع الفتاوي ج١٤ ص ٤٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد ج٦ ص ٧٠ ص ١٥١ ، الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ١١٧ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١١٦ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٦ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٥٢ ، فتح القدير ج١ ص ٤٦ .

(٧) تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٥٢ ، فتح القدير ج١ ص ٤٦ .

(٨) التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ٦٥ .

وقال تعالى أيضاً :﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(١) . يتحدث الله تعالى عن اليهود الذين خالفوا أوامر الله تعالى وفضلوا واختاروا الحياة الدنيا على الآخرة ، بل استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة ، فباعوا حظوظهم من نعيم الآخرة بالخسيس التافه من الدنيا ، ونتيجة لذلك استحقوا العذاب في الدنيا والآخرة ، يقول الإمام الشوكاني في ذلك :«اخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون في عذاب موفر لازم لهم بالجزية والصغار والذلة والمهانة ، فلا يخفف عنهم ذلك أبداً ماداموا ، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم»(٢) .

ومما يبين حقيقة الاختيار هو ماذكره الله تعالى من أن شراء الدنيا بالآخرة إنما يكون بشراء الضلالة المكتسبة بالهدى الفطري . فيقول :﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾(٣) .

يتحدث الله تعالى عن الذين كتموا ما أنزل الله في الكتاب من صفة الرسول ﷺ وذكر مبعثه والبشارة به ، واتباعه وتصديقه وهو الهدى ، واستبدلوا من ذلك واعتاضوا الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ، فكان نتيجة ذلك العذاب بدل المغفرة ، فكانما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة ، ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب ، فما أخسرها من صفقة وأغباها ، و يالسوء ما ابتاعوا واختاروا ، وإنها لحقيقة، فقد كان الهدى مبذولاً لهم فتركوه وأخذوا الضلالة ، وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب (٤).

إن الإنسان باختياره للكفر والضلالة إنما يشوه فطرته ، وينقض عهد الله الذي أخذه عليه عندما أشهد الناس على أنفسهم قبل خلقهم ، قال تعالى :﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(٥) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٦ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ج١ ص ١٠٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٥ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٢٠٦ ، وانظر : فتح القدير ج١ ص ٤٥ ، وانظر : في ظلال القرآن ج١ ص ١٥٨ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

إن هذا الناكث لعهد الله العظيم ينتظره عذاب عظيم عند الله تعالى حيث قال :﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١) . فلا نصيب لهم في الآخرة ولا رعاية عند الله تعالى ولا قبول ولا طهارة ، وإنما هو العذاب الأليم الذي ينتظرهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢) . فالذين استبدلوا الكفر بالإيمان والضلال بالهدى فلن يضروا الله شيئاً بارتدادهم عن الإيمان ، وإنما يضرون أنفسهم،لأنهم سيعذبون على ذلك،يقول سيد قطب (٣):«كان الإيمان مبذولاً لهم فباعوه واشتروا به الكفر على علم وعلى بينة ، ومن هنا استحقوا أن يتركهم الله يسارعوا في الكفر ليستنفذوا رصيدهم كله ولا يستبقوا حظاً من ثواب الآخرة ، ومن هنا كذلك كانوا أضعف من أن يضروا الله شيئاً ، فهم في ضلالة كاملة ليس معهم من الحق شيئاً »(٤) .

سابعاً : إستبدال الكفر بالإيمان والدنيا بالآخرة

إن أمر الاختيار في القرآن الكريم ، يتضح كذلك من خلال الآيات التي تتحدث عن استبدال الكفر بالإيمان والدنيا بالآخرة ، وهذا يعني أن هناك شيئين مختلفين ، ومتروك للإنسان حرية الاختيار لواحد منهما. يقول الله تعالى :﴿... وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(٥) .إن من يستبدل الكفر والجحود بآيات الله تعالى ويقدمه على الإيمان بالله تعالى والتصديق بآياته ، فقد حاد وخرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال ، وهذا حال كل من يعدل عن تصديق الأنبياء واتباعهم والإنقياد لهم ، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة على وجه التعنت والكفر ، وهذا ماحصل مع

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٧ .

(٣) سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي ولد في قرية موشة إحدى قرى محافظة اسيوط في صعيد مصر في أول اكتوبر سنة ١٩٠٦م نشأ في بيئة اسلامية ، له العديد من المؤلفات منها في ظلال القرآن ، سجن عدة مرات في عهد عبد الناصر واعدم في السجن ١٩٦٦م بتهمة الإنتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين . انظر : سيد قطب الشهيد الحي لصلاح الخالدي ص ٥١ ، وانظر : مدخل إلى ظلال القرآن صلاح الخالدي ج١ ص ١٧ ومابعدها .

(٤) في ظلال القرآن ج١ ص ٥٢٤ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٠٨ .

موسى عليه السلام من بني إسرائيل فكان نتيجة فعلهم هذا أن خرجوا عن نهج الاستقامة ، وعن الطريق السوي الموصل إلى جنات النعيم .

وقال تعالى :﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(١) .

في هذه الآيات تتضح حقيقة الاختيار بجلاء ، فهناك قسم من الناس يتجاوزون الحد في الكفر والمعاصي وتقديم الدنيا على الآخرة ، فهذا مأواه جهنم وبئس المصير ، وأما القسم الآخر فهو من خاف من الله تعالى والوقوف بين يديه يوم القيامة ، إلى جانب زجر نفسه عن المعاصي والمحرمات التي تشتهيها الأنفس ، فهذا الصنف مصيره ومقره الجنة ، وقد عقب سيد قطب على هذه الآيات تعقيباً يوضح حقيقة الاختيار بقوله :«وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان . تلك هي حرية الإنتصار على هوى النفس ، والانطلاق من أسر الشهوة ، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني ، وهناك حرية حيوانية هي هزيمة الإنسان أمام هواه ، وعبوديته لشهواته ، وانفلات الزمام من إراد ته ، وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداءً زائفاً من الحرية»(٢) .

وورد أيضاً قوله تعال :﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(٣) ،أي تقدمون وتفضلون الحياة الدنيا على الآخرة وذلك للنظرة الآنية حيث المنفعة العاجلة سواء في المعاش أو الأرزاق أو الشهوات،وهذا الإيثار هو أساس كل بلوى،حيث ينشأ الإعراض عن الذكرى،ونسيان أو تناسى الآخرة،مع العلم أن ثواب الله في الآخرة خير من الدنيا وأبقى،لأن الدنيا فانية،والآخرة باقية،فكيف يؤثر عاقل ما يفني على مايبقى،ويهتم بما يزول عنه ويترك الاهتمام بدار الخلد والبقاء لذلك قال رسول الله ﷺ:**[الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر]** (٤).وقال أيضاً **[الدنيا دار من لا دار له ،ومال من لا مال له ،ولها يجمع من لاعقل له]**(٥). وقال :**[من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على مايفنى]** (٦). وقد اقتدى

---

(١) سورة النازعات الآيات ٣٧ – ٤١ .

(٢) في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٨١٩ .

(٣) سورة الأعلى الآيات ١٦ – ١٧ .

(٤) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٢٧٢ ، كتاب الزهد والرقائق حديث رقم ٢٩٥٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد ج٦ ص ٧١ ، الجامع الصغير ج٢ ص ١٧ .

(٦) مسند الإمام أحمد ج٤ ص ٤١٢ ، الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص ١٦٠ .

السلف برسول الله ﷺ في إيثار الآخرة على الدنيا ، ولزوم التقوى والطاعات ، ومجانبة الهوى والشهوات ، حيث يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «إن الدنيا احضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ،وإن الآخرة لغيب لنا ،وزويت عنا ، فأخذنا بالعاجل وتركنا لآجل»(١) .

ويوضح الإمام الرازي هذه الحقيقة بطريقة عقلية حيث يقول «إن كل ماكان خيراً وأبقى فهو آثر ، فيلزم أن تكون الآخرة آثر من الدنيا وخير منها، وذلك لأن الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، كما أن الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام والآخرة ليست كذلك ، والدنيا فانية والآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني»(٢) .

ومع كل هذا الوضوح في أمور الدنيا والآخرة إلا أن هناك من يحبون العاجلة الدنيوية ويعرضون عن الآخرة ، قال الله تعالى :﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾(٣) . فالله تعالى ينكر على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها وترك الآخرة ، والإعراض عنها ، ينكر عليهم شغفهم بالدنيا ، والمراد هنا بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها ، والاطمئنان إليها والإعراض عن الآخر بالكلية ، ويكون المراد بالخطاب الكفار ، وقيل المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر،وذلك لأنه لا يخلو غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة،والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتماماً زائداً على الاهتمام بالطاعات،مع أن الدار الآخرة وهي الجنة ومافيها من نعيم أفضل من الدنيا(٤) .

ثامناً : الرضا والحب :

رضا العبد وحبه لما يفعل عن طوعية ودون إكراه يدل دلالة بينة على أمر الاختيار الإنساني ، حيث يقول الله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٥) . يخبر الله تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا بالله وبلقائه ، وكذبوا

---

(١) التفسير الكبير ج٣١ ص ١٣٥ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ج٣١ ص ١٣٥ ، (بتصرف) .

(٣) سورة الإنسان الآية ٢٧ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٤٥٨ ، وانظر : فتح القدير ج٥ ص ٤٢٥ .

(٥) سورة يونس الآية ٧ - ٨ .

بالثواب والعقاب ، ورضوا بالحياة الدنيا عوضاً عن الآخرة ، وسكنوا إلى زينتها وزخارفها ، والذين عن أدلة وحدانية الله الكونية وحججه العقلية معرضون ، فهؤلاء مصيرهم في الآخرة نار جهنم لما اقترفوا في الحياة الدنيا من الآثام والإجرام ، قال الحسن بن علي رضي الله عنه في ذلك :«والله مازينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها ، وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها ، فإن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ماكانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام ، مع ماهم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر» (١) .

إن الذين لا يتدبرون النظام الكوني الموحي بأن لهذا الكون خالقاً مدبراً ، لا يدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام يتم فيها تحقيق القسط والعدل ،كما يتم فيها ابلاغ البشرية إلى آفاقها العليا ، ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله تعالى ، ونتيجة لهذا القصور يقفون عند هذه الحياة الدنيا ومافيها من نقص وهبوط ويرضونها ويستغرقون فيها ، ولايدركون أنها لا تصلح أن تكون نهاية البشر(٢) . ولذلك فهناك من استحب الحياة الدنيا حباً ملأ قلبه وقدمها على الآخرة بل، وحارب كل من يدعو إلى الآخرة حيث قال تعالى :﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾(٣) . وقال أيضاً :﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٤) هذا هو وصف الكافرين حيث يختارون الحياة الدنيا ومتاعها الفاني على الآخرة ومتاعها الدائم ، ويمنعون من يدعو إلى الله تعالى بل ويلتمسون لدين الله التحريف والتبديل بالكذب والتزوير ، «ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً ، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد عن الحق»(٥) .

إن اطلاق كلمة استحب تدل على الرضى والقبول للشيء طواعية دون إكره،وهذا يتعلق بالقلب الذي لا يستطيع أحد ولو بالإكراه أن يغير مافيه .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٤١٦ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ج٣ ص ١٧٦٧ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٣ .

(٤) سورة النحل الآية ١٠٧ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٥٣٧ .

وهكذا يتضح مفهوم الاختيار في القرآن الكريم ، وأن الآيات الواردة في هذا الجانب توضح أن للإنسان إرادة واختياراً ، سواء اتضح ذلك من خلال تخيير الإرادة الإنسانية بين الثواب والعقاب أي بين الجنة والنار ، أو من خلال وجود نازعي الخير والشر داخل النفس الإنسانية متمثلاً ذلك بالتقوى أو الهوى ، أو ماهو خارج النفس الإنسانية ، بلمة الشيطان ولمة الملك ، وأيضاً وضح القرآن الاختيار الإنساني ببيان وجود طريقي الخير والشر، وأن على الإنسان أن يختار أحدهما ويدل على ذلك إثبات الكسب للإنسان،وأنه يستطيع أن يفضل شيئاً على شيء آخر ،فيستبدل الكفر بالإيمان والدنيا بالآخرة ،مع رضاه وحبه لما اختار .

فهم السلف لآيات الاختيار :

تبين مما سبق من خلال دراسة آيات الاختيار فهم السلف للآيات الواردة في القرآن الكريم بشأن حرية الإنسان ، الفهم الذي يتفق مع مراد الله تعالى من غير انحراف أو زيغ عن الحق لأن عقيدتهم كانت صافية أخذوها عن رسول الله ﷺ فلم تتأثر بأفكار دخيلة ولا معتقدات باطلة ، ولذلك أثبتوا للإنسان إرادة واختياراً ، واتسق ذلك مع ما أثبته الله تعالى للإنسان ، إرادة لا تخرج عن إرادة ومشيئة الله تعالى ، وهذه الإرادة مسؤولة عن أفعالها لكونها لها اختيار وحرية في التصرف والفعل ، وفيما يلي يُورد بعض الأمثلة من أقوال سلف هذه الأمة التي تبين حقيقة هذا الفهم : فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعاقب من يعتذر بالقدر زاعماً أنه مجبر على فعله ، ليدلل على أن للإنسان إرادة واختياراً ، فيروي أنه أتى بسارق فقال له : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله علي بذلك ، فأمر به فقطعت يده ، وضرب أسواطاً ، فقيل له في ذلك،فقال:القطع للسرقة والجلد لما كذب علي الله »[١] وقيل إنه قال له عندما احتج بالقدر «فأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره »[٢] .

كما ويتبين موقف السلف بوضوح كذلك من خلال قول الإمام علي رضي الله عنه «ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحد منها بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فكل أم يتبعها ولدها ، واليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[٣] .فالإنسان له حرية واختيار فيختار الدنيا أو يختار الآخرة ولا يجبر على أفعاله الاختيارية الواقعة في مجال التكاليف .

---

(١) موسوعة فقه عمر بن الخطاب ص ١٦٨ ص ١٦٩ .

(٢) شرح الفقه الأكبر ص ٣٩ .

(٣) القضاء والقدر في الإسلام ج٢ ص ١٩ .

هذه الإرادة والحرية والاختيار للإنسان والتي ينتج عنها الأفعال ، هي خلق الله تعالى ، فهو خالق الإنسان وخالق إرادته وخالق أفعاله ، ولذلك سبق وتبين فهم الإمام أبو حنيفة عندما قال :«وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة ، والله تعالي خالقها وهي كلها بمشيئته»(١) . وفهم الإمام الطحاوي حيث قال :«وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد » (٢).

لقد فهم السلف على ضوء الكتاب والسنة أن الإنسان يعيش ضمن دائرتين إحداهما تتمثل بالإرادة الكونية والقضاء الكوني والأمر الكوني وهذه الأمور لا إرادة للإنسان ولا اختيار في حدودها لأنه يسير ضمنها مجبراً ، وأما الدائرة الثانية فهي الدائرة الشرعية والتي تتمثل بالإرادة والقضاء والأمر الشرعي ، وهذه الأمور فيها تتمثل حرية الإنسان واختياره وقدرته وإرادته ، ولذلك ينقل الإمام ابن تيمية موقف سلف الأمة من ذلك بقوله :«ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ... أن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه ... فلم يكن من السلف والأئمة من يقول إن العبد ليس بفاعل ولا مختار،ولا مريد ولا قادر، ولاقال أحد منهم إنه فاعل مجازاً ، بل من تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز متفقون على أن العبد فاعل حقيقة والله تعالى خالق ذاته وصفاته وأفعاله» (٣).

ويقول أيضاً :«إنه قد ثبت أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، ودلت على ذلك الدلائل الكثيرة السمعية والعقلية ، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة وأئمتها ، وهم مع ذلك يقولون إن العباد لهم قدرة ومشيئة ، وأنهم فاعلون لأفعالهم ويثبتون ما خلقه الله من الأسباب وما خلق الله من الحكم»(٤) .

---

(١) شرح الفقه الأكبر ص ٢ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٣ .

(٣) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج٨ ص ٤٥٩ ص ٤٦٠ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٢ .

(٤) مجموع الفتاوي ج٨ ص ٥٢١ ، وانظر : شفاء العليل ص ١٣١ ،وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٣ .

المبحث الثاني
موقف الجبرية والمعتزلة
من آيات الأفعال والرد عليهم

للجبريه والمعتزلة موقف مخالف لآيات القرآن الكريم المتعلقة بأفعال العباد ، حيث حاول كل فريق توجيه النصوص ، وتأويلها حسب مايرى ، ويعتقد ، دون النظر إلى حقيقة النص ، ومدلوله ، فأدى بهم ذلك إلى الإنحراف عن فهم السلف للآيات القرآنية ، وفيما يأتي نعرض موقف كل منهما ثم نرد عليه .

المطلب الأول : موقف الجبرية من آيات الجبر والاختيار والرد عليهم

يشتمل القرآن الكريم على كثير من الآيات المصرحة أو الموحية بالجبر ، وهذا دفع الجبرية إلى القول بالجبر المطلق ، واعتبار الإنسان مسيراً في جميع أفعاله وحركاته وسكناته ، فهو حسب زعمهم كالريشة في مهب الريح ، وهذا القول لم يطرأ حديثاً بعد ظهور الإسلام بل هو معتقد سابق ، حيث ذكر القرآن الكريم هذا المعتقد عندما تحدث عن الذين ينسبون شرورهم للمشيئة الإلهية ، ويتعللون بها منكرين إرادتهم واختيارهم واستطاعتهم . قال الله تعالى :﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١) . وقال أيضاً :﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٢) .

هذه هي طبيعة البشر ، فهم إذا ارتكبوا الشرك والآثام والشرور ، يعللون ذلك بأن كل شيء يتم بقضاء الله وقدره ، فهي إذاً كلمة حق أريد بها باطل ، وقصدهم أن ماهم فيه من مخالفات لأوامر الله تعالى إنما هو بمشيئة الله تعالى وأنهم لاذنب لهم في ذلك ، متغافلين لاختيارهم ومنكرين لإرداتهم .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) سورة النحل الآية ٣٥ .

إن ظهور فكرة الجبر في المجتمع الإسلامي كما يرى الإمام محمد أبو زهرة ، نشأت في عصر الصحابة ، ولكنها شاعت وانتشرت في العصر الأموي وكثرت حتى صارت فيه نحلة ومذهباً له أنصار يدعون إليه ويتدارسونه ويبينونه للناس ، وأن أول من قام بذلك اليهود ، حيث علموه لبعض المسلمين ، وهؤلاء أخذوا ينشرونه(١) ، وأول من فعل ذلك من المسلمين الجعد بن درهم (٢)وقد تلقاه من يهودي بالشام ، ونشره بين الناس بالبصرة ، ثم تلقاه عن الجعد ، الجهم بن صفوان الذي نسبت إليه الجهمية متزعمة القول بالجبر ،لأنها أكثر دعاته وأعظم أنصاره . ومع أن هذه النحلة بدأت يهودية ، وأبتدأت في عصر الصحابة ، إلا أن الفرس كان لهم دور كذلك في انتشار هذه النحلة حيث كانت تجري بينهم هذه الأفكار من قبل ، فكانت من الآراء التي طرقتها الزرادشتية(٣) والمانوية(٤) وغيرهم ، فلم يترعرع ذلك المذهب إلا في خراسان حيث أن جهماً لم يجد أرضاً صالحة لدعوته إلا في خراسان وماحولها ، فهذه الفرقة فارسية يهودية الأصل والنشأة (٥).

ومما يؤكد ظهور هذه الفرقة في عهد الصحابة رضي الله عنهم ماروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه قال :كنت جالساً عند أبي إذ جاء رجل فقال ، يا ابن عباس : إن هاهنا قوماً يزعمون أنهم أتوا ما أتوا من قبل الله ، وأن الله أجبرهم على المعاصي ، فقال : لو أعلم أن هاهنا منهم أحد لقبضت على حلقه فعصرته حتى تذهب روحه عنه ، لا تقولوا أجبر الله على المعاصي ، ولا تقولوا لم يعلم الله ما العباد عاملون فتجهلوه »(٦) .

---

(١) انظر : تاريخ الجدل محمد أبو زهرة ص ١٨١ ، ط سنة ١٩٨٠م دار الفكر العربي .

(٢) الجعد بن درهم : كان يؤدب مروان بن محمد آخر من ولى الخلافة من بني مروان وإليه ينسب فيقال مروان الجعدي ، يقال أنه أول من تكلم بخلق القرآن ، ويقال أخذه خالد بن عبد القسري فذبحه يوم العيد سنة ١٢٤هـ . انظر : الفرق بين الفرق ص ١٩ . وانظر : البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص ٣٥٠ .

(٣) الزرادشتية : هم أتباع زرادشت وهو رجل من أذربجان إدعى النبوة ، وجاء بكتاب إدعاه وحياً ، وقسم العالم إلى روحاني وجسماني ، وقسم عمل الإنسان إلى ثلاثة الاعتقاد والقول والعمل ، وبهذه الثلاثة يتم التكليف . انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ١٣٤ – ص ١٣٦ .

(٤) المانوية : أتباع ماني ظهر في زمن سابور بن أزدشير بن بابك ، إدعى النبوة وقال إن للعالم أصلين نور وظملة ،وكلاهما قديمان ، ولكن عندما جاء الملك بهرام أخذه وقتله ، وقتل أصحابه ، ففر بعضهم إلى الصين وهناك دعوا إلى دين ماني . انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٣٨ .

(٤) انظر : تاريخ الجدل محمد أبو زهرة ص ١٨١ ص ١٨٢ . وانظر : التفكير الفلسفي في الإسلام عبد الحيم محمود ص ١٤٥ ص ١٤٦ دار المعارف – القاهرة .

(٥) تاريخ الجدل ص ١٨١ .

لقد تأثر الجبرية ببعض ظواهر النصوص ، وأخذوا باحتمال سلب الإرادة والاختيار من الإنسان سلباً كاملاً ، ولكن عندما اصطدموابمسألة التكليف الرباني للإنسان ، ومنافاة ذلك لعدل الله تعالى وحكمته ، أدى بهم ذلك إلى أن يخرجوا عن المفهوم الواضح للعدل و الحكمة في كل النصوص القاطعة ، بالإضافة إلى المفهوم العقلي الذي لا يقبل المناقشة أو الاعتراض ، كما وأنهم خرجوا عن صريح النصوص التي تجعل للإنسان إرادة واختياراً ، وبالتالي تنسب إليه الأفعال .

إن لفظ الجبر فيه إكراه الفاعل على الفعل بدون رضاه ، والله تعالى أجل وأعظم من أن يكون مجبراً بهذا التفسير، فإنه يخلق للعبد الرضا والاختيار بما يفعله وليس ذلك جبراً ، لأنه تعالى أجل وأعلا وأقدر من أن يحتاج إلى مثل هذا الجبر والإكراه ، وأن هذا إنما يكون من عاجز يعجز عن جعل غيره مريداً لفعله مختاراً له راضياً به ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، فإذا شاء أن يجعل العبد محباً لفعله ، مختاراً له جعله كذلك ، وإن شاء أن يجعله مريداً له بلا محبة بل مع كراهة ، فيفعله كارهاً له جعله كذلك ، وليس هذا كإكراه المخلوق للمخلوق ، فإن المخلوق لا يقدر أن يجعل شيئاً في قلب غيره لا إرادة ولا حباً ولا كراهة وبغضاً ، بل غايته أن يفعل ما يكون سبباً لرغبته أو رهبته(١) .

أولاً : موقف الجبرية من آيات الجبر والرد عليهم :

اعتمد الجبرية على آيات الجبر في إثبات فكرهم ، وأولوا الآيات التي تدل على إرادة الإنسان واختياره ، ومن أكثر ما اعتمدوا عليه النصوص المبتورة المعنى ، دون العودة إلى سابقها ولاحقها ، إلى جانب عدم التفريق بين الإرادة الشرعية والمشيئة الكونية ، أو مايترب على المعاص من عقوبات إليهة ، وهذا كله دفعهم للحكم على الآيات القرآنية حسب أهوائهم لاثبات مبادئهم وأفكارهم .

ومما استدل الجبرية به من الآيات قوله تعالى :﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...﴾(٢) . يقول الإمام الرازي في بيان حقيقة اعتمادهم على هذه الآية بقوله :«والجبري يقول متى

(١) انظر : مجموع الفتاوي لابن تيمية ج٨ ص ٥٠١ ص ٥٠٢ ، انظر : مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ج١ ص ٣٦٨ . وانظر : درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٦٧ .

(٢) سور الإنسان الآية ٣٠ .

ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منه صريح مذهب الجبر ،ذلك لأن قوله :﴿... فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[1] . يقتضي أن تكون مشيئة العبد متى كانت خالصة فإنها تكون مستلزمة للفعل ، وقوله بعد ذلك ، «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله» . يقتضي أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد ، ومستلزم المستلزم مستلزم ، فإذاً مشيئة الله مستلزمة لفعل العبد وذلك هو الجبر»[2] .

إن استدلالهم هذا غير صحيح وغير سليم لأن المراد أن مشيئتهم للاستقامة واختيارهم لها لم تكن لتتحقق إلا بمشيئة الله تعالى ، وذلك بخلق الإرادة والمشيئة الإنسانية فيهم ، وبالتالي القدرة على الاختيار إلى جانب بيان الطريق المستقيم الواجب سلوكه ، وهدايتهم هداية التوفيق إليه .

واعتمدوا أيضاً في استدلالهم على الآيات التي تدل على العقوبات الإلهية الناتجة عن انحراف الإنسان وذلك بكفره أو نفاقه أو معصيته وبعده عن الله تعالى ،كقوله :﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ...﴾[3] وقوله :﴿... وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[4] . وقوله تعالى :﴿... كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[5] . وقوله :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[6] . وبعد أن ذكر ابن القيم هذه الآيات التي استدل بها الجبرية قال :«وزعمت الجبرية أن الله أكرهها على ذلك وقهرها عليه وأجبرها من غير فعل منها ولا إرادة ولا اختيار ، ولا كسب البتة ، بل حال بينها وبين الهدى ابتداء من غير ذنب ولا سبب من العبد يقتضي ذلك ، بل أمره وحال مع أمره بينه وبين الهدى فلم ييسر إليه سبيلاً ، ولا أعطاه عليه قدرة ، ولا مكنه منه بوجه ، بل أحب له الضلال والكفر والمعاصي ورضيه منه»[7] .

---

(١) سورة الإنسان الآية ٢٩ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ج٣٠ ص ٢٣١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٧ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٠٠ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٠١ .

(٦) سورة محمد الآية ٢٤ .

(٧) شفاء العليل لابن القيم ص ٨٥ ، دار الفكر للطباعة والنشر .

إن استدلال الجبرية وقولهم نابع عن بعدهم عن الفهم الحقيقي للآيات ، حيث إن تلك الآيات التي استدلوا بها على مذهبهم تدل بوضوح - كما ذُكر من قبل -[1] على أن الختم والطبع والقفل على القلوب ، ماحدث إلا بعد أن أظهروا الكفر والنفاق ، فكان ذلك عقوبة لهم على أعمالهم ، وهذا ناتج عن عدل الله تعالى وكونه لا يظلم أحداً ، ولذلك يقول الإمام ابن القيم :«والله سبحانه ماض في العبد حكمه عدل في عبده قضاؤه فإنه إذا دعى عبده إلى معرفته ومحبته وذكره وشكره،فأبى العبد إلا إعراضاً وكفراً ، قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره وصده عن الإيمان به،وحال بين قلبه وبين قبول الهدى وذلك عدل منه فيه ، وتكون عقوبته بالختم والطبع والصد عن الإيمان كعقوبته له بذلك في الآخرة مع دخول النار» [2].

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى :﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ...﴾[3] . حيث قالوا :« فنفى الله عن نبيه الرمي ، وأثبته لنفسه سبحانه ، فدله على أنه لا صنع للعبد ، قالوا : والجزاء غير مرتب على الأعمال»[4] .

والحقيقة أن هذا دليل عليهم حيث إن الله تعالى أثبت الرمي للرسول ﷺ فعلم أن المثبت غير المنفي ، لأن ما أثبته الله تعالى للرسول ﷺ قد وجد على الحقيقة ، حيث أخذ قبضة من تراب فرماها في وجوه المشركين ، ونفاها عنه لأن أثرها وهو وصول التراب إلى جميع الكفار لا يطيقه البشر ولا يستطيعونه ، فكأن الله تعالى هو فاعل الرمية على الحقيقة .

كما اعتمد الجبرية في استدلالهم على آيات الخلق ، كقوله تعالى :﴿... هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[5]. وقوله تعالى :﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[6]. وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [7]. فقالوا :«إن العبد لو كان فاعلاً لفعله لكان محدثاً له ، ولو كان محدثاً له لكان خالقاً له . والشرع والعقل ينفيه» [8].

---

(١) انظر : ص ٢٠٧ ومابعدها من هذا البحث .

(٢) شفاء العليل ص ٨٦ .

(٣) سورة الأنفال الآية ١٧ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٤ .

(٥) سورة فاطر الآية ٣ .

(٦) سورة الفرقان الآية ٢ .

(٧) سورة الصافات الآية ٩٦ .

(٨) شفاء العليل ص ١٥١ .

إن قول الجبرية هذا نابع من عدم الفهم السليم لآيات القرآن الكريم ، إلى جانب توجيه النص ، والاستدلال به حسب مبادئهم وأفكارهم ، حيث إن الشرع والعقل والحس يدل على أن العبد فاعل لفعله ، وأنه يستحق عليه الذم حيث قال تعالى :﴿... هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) . وقال تعالى :﴿... وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ...﴾(٢) .

ومن المعلوم أن العقل والحس يثبت لكل فاعل فعله ، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وأن الله تعالى هو الذي جعله فاعلاً ومحدثاً له ، فالله تعالى هو الخالق ، والعبد هو الفاعل والكاسب .

إن تلك الآيات اعتمد عليها القائلون بالجبر ، واعتبروا أنها دالة على أن العبد مجبر على أعماله من قيام وقعود ومشي ، وعبادة وغيرها ، لا اختيار له في إيجادها وإيقاعها ، ولذلك ذهب الجهم بن صفوان إلى أن الإنسان لا يقدر على شيء من أفعاله ، ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أفعاله ، ولا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله فيه الأفعال على حسب ما يخلقها في الجمادات ، حيث نقل عنه ابن حزم في الفصل هذه العبارة :«إن الإنسان مجبر على أفعاله ، وأنه لا استطاعة أصلاً له»(٣) . وأما الإمام الأشعري ، فنقل عنه مايلي :«إنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده ، وأنه هو الفاعل ، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس ، وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس ، الله سبحانه»(٤) . وهذا دفع الجهم إلى إنكار القدرة للإنسان ونسبتها لله تعالى ، حيث قال :«إن ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد»(٥) .ثم إن لفظ الجبر يراد به إكراه الفاعل على فعله بدون رضاه وإختياره كما يقال إن الأب يجبر ابنته علي النكاح ، والله تعالى أجل وأعظم من أن يكون مجبراً بهذا التفسير، حيث إنه يخلق للعبد الرضى والاختيار بما يفعله ، وليس ذلك جبراً بهذا الاعتبار ، ولهذا

---

(١) سورة النمل الآية ٩٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٥ .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج٣ ص ٣٣ .

(٤) مقالات الاسلاميين ج١ ص ٣٣٨ ، وانظر : الفرق بين الفرق ص ٢١١ ، وانظر : التبصير في الدين ص ٩٦ وانظر : الملل والنحل ج١ ص ٨٧ .

(٥) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٨٢ .

أنكر الأئمة على من قال جبر الله العباد[1] . حيث قال الإمام أحمد :«الجبر لا يكون إلا من عاجز كما يجبر الأب ابنته على خلاف مرادها ، والله خالق الإرادة والمراد »[2] .

ويبدو أن الجبرية فروا من القول باختيار الإنسان ، لأنه في نظرهم ينتقض من السيطرة الإلهية المطلقة ، أو كأنه يتنافى مع الخضوع المطلق لسلطانها ، ولذلك حاولوا تبرير اعتقادهم بالقول إن «الجبر لازم لصحة التوحيد ، ولا يستقيم التوحيد إلا به ، لأنا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلاً للحوادث مع الله ، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر»[3] . وقولهم هذا مبني على تقدير مشيئة الله تعالى للفعل، وكراهة العبد له ، وهذا تقدير ممتنع لأنه منقول من تقدير ربين وإلهين وهو قياس باطل ، لأن العبد مخلوق لله تعالى هو وجميع مفعولاته فليس هو مثلاً لله تعالى ولا نداً[4] . بل إن قدرة العبد وإرداته مخلوقة لله تعالى ، فالله قادر مستقل ، ولكن العبد قادر بجعل الله له قادراً ، وهو تعالى خالق قدرته وإرادته وفعله ، فلا مجال للقائلين بالجبر أن يحتجوا بالجبر لصحة التوحيد ، أو الخوف من جعل الخالق والمخلوق نظيران .

بل إن القول بالجبر هو المنافي للتوحيد ، والمنافي للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب ، وذلك أنه لو صح قول الجبرية لبطلت الشرائع ، وبطل الأمر والنهي ، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب ، وهذا يترتب عليه الفساد في أمر الدنيا والمعاد. كما قال الإمام ابن تيمية :«إن هذا القول يستلزم طي بساط كل أمر أو نهي ، وهذا مما يعلم بالاضطرار من العقل والدين أنه يوجب الفساد في أمر الدنيا والمعاد »[5] .

مرة أخرى يمكن القول بأن أقوال ومعتقدات الجبرية ظاهرة البطلان لمخالفتها النصوص القرآنية الصريحة الواضحة ، ويمكن إجمال الرد عليهم من الوجوه التالية :

---

(١) انظر : مجموع الفتاوي ج٨ ص ١٣٢ ، درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٢٥٥ ، منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٧١ .

(٢) انظر : منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٧١ ، ج٢ ص ٥١ .

(٣) شفاء العليل ص ١٣٩ .

(٤) انظر : درء تعارض العقل والنقل ج١ ص ٨٦ ، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١ ص ٨٠ .

(٥) مجموع الفتاوي ج٢ ص ٤٤٥ ص ٤٤٦ .

الأول : بالنص القرآني حيث أن الله سبحانه وتعالى أثبت في كثير من الآيات بأن للإنسان عملاً وفعلاً، حيث قال :﴿... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١) .وقال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٢) وقال تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(٣) . فهذه الآيات تثبت بصورة واضحة أن للإنسان عملاً وله فعل .

الثاني : الحس إن كل إنسان يعلم بوضوح وبضرورة العقل ، ومن غير شك أن هناك فرقاً واضحاً بين صحيح الجوارح وبين من لاصحة لجوارحه ،فالصحيح الجوارح يفعل القيام والقعود وسائر الحركات مختاراً ، ولكن الذي لاصحة لجوارحه ، كالمفلوج مثلاً والمقعد لا يستطيع أن يفعل مايفعله الصحيح وإن حاول ذلك ، وهذا يقتضي اختيار العبد وبطلان الجبر بالضرورة ، ولذلك كان التكليف بحسب القدرة والاستطاعة ، وهذا من رحمة الله تعالى ، فلم يكلف المقعد بالصلاة قائماً وإنما جعله بحسب استطاعته حيث قال ﷺ :**[صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب]** (٤) . وهذا يدل على أن الله تعالى لم يكلف عباده إلا ما يطيقون ، وهذا من عدل الله تعالى وحكمته ورحمته .

الثالث : أما بطلان قول الجبرية من الناحية اللغوية فواضح ، حيث إن المجبر في اللغة هو الذي يقع الفعل بخلاف اختياره وقصده ، وأما من وقع فعله باختياره وقصده وإرداته فلا يسمى في اللغة مجبراً،كما أن المجبر مكره على فعله ، والإكراه يتنافى مع اللذة والشهوة والرضى ، وأهل المعاصي يفعلونها متلذذين بها مشتهين لها مسرورين ،وهذا كله يضاد الجبر والإكراه وينافيه ، إلى جانب ذلك فإن إجماع الأمة كلها على أن «لا حول ولاقوة إلا بالله» ، مبطل لقول الجبرية وموجب أن لنا حولاً وقوة ، ولكن لم يكن لنا ذلك إلا بالله تعالى(٥) .

الرابع : يستحيل عقلاً أن يتوجه أمر التكليف الإلهي لإنسان لا يملك في نفسه القدرة على اختيار الطاعة ، وذلك لأن الله جل وعلا حكيم لا يوجه أوامر التكليف لمجرد العبث فهو تعالى منزه عن العبث .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٤ .

(٢) سورة الصف الآية ٢ .

(٣) سورة الكهف الآية ٣٠ ، ١٠٧ .

(٤) صحيح البخاري ج٢ ص ٤١ ، كتاب تقصير الصلاة ، باب إذا لم يطق قاعد صلى على جنب .

(٥) انظر : الفصل لابن حزم ج٣ ص ٣٥ وانظر : إيثار الحق على الخلق لابن المرتضى ص ٣١٤ ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

الخامس : إن القول بالجبر يؤدي إلى تعطيل جميع التكاليف الشرعية ، وبطلان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الإجبار يتنافى مع التكليف ، فالمجبر على فعل شيء لا يكلف بضده أو بنقيضه لأنه يصبح تكليفاً بالمحال ، ومن المعلوم أن من صفات الله تعالى العدل والحكمة ، ولم يعهد في عدل الله تعالى أوحكمته أن يكلف مخلوقاً من مخلوقاته فوق وسعه وطاقته ، تكليفاً يراد منه التنفيذ الذي يعجز عنه ، ثم يعاقبه على المخالفة أو التقصير، لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

السادس : إن القول بالجبر يلزم منه أن يكون إبليس وفرعون وقوم نوح وغيرهم من الأقوام السابقة الذين أهلكهم الله بذنوبهم ، معذورين لأنهم أكرهوا على ذلك ، وهذا مما هو معلوم بطلانه بالضرورة ، ومن الكفر الواضح الصريح ، لأنه مخالف لنصوص القرآن الكريم الصريحة في الحكم على تلك الأقوام .

السابع : إن القول بالجبر يلزم منه عدم التفريق بين أولياء الله وأعداء الله ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا بين المحسنين والمسيئين ، ولا أهل الجنة ولا أهل النار ، وقد قال تعالى :﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [(١)] . وقال أيضاً :﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [(٢)] .

الثامن : إن الجبرية يحتجون على قولهم بسابق القدر ، ليؤكدوا أنهم أجبروا علي أفعالهم ، وحجتهم هذه داحضة ، فإن كان القدر حجة لهم فهو حجة لجميع الناس ، والناس كلهم متشركون فيه ، وحينئذ لا يحق للجبري أن ينكر أو يعترض على من يظلمه أو يشتمه، أو يأخذ ماله أو يضرب عنقه ، لأنه مجبر على ذلك ، فهل يقبل الجبري بهذا ؟ !! إنه لن يقبل بذلك ، وسيعمل على أخذ حقه بالقوة ، «فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره ، يستند إليه في الذنوب والمعائب ، ولا يطمئن إليه في المصائب ، كما قال ابن الجوزي : «أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهب به»[(٣)] .ولذلك يقول ابن تيمية :«إن القدر نؤمن به ولا نحتج به ، فمن احتج بالقدر حجته داحضة ،

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢١ .

(٢) سورة ص الآية ٢٨ .

(٣) مجموع الفتاوي ج٨ ص ١٠٧ ، ٤٤٦ .

ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول ، ولو كان الاحتجاج مقبولاً ، لقبل من إبليس وغيره من العصاة ، ولو كان حجة للعباد لم يُعذب أحد من الخلق ، لافي الدنيا ولا في الآخرة ، ولو كان القدر حجة لم تقطع يد سارق ولا قتل قاتل ولا أقيم حد » (١) .

وهكذا يتبين بطلان القول بالجبر ، الذي جعل الإنسان كالريشة في مهب الريح لا إرادة له ولا إختيار ، فهو مخالف لكتاب الله ولسنة رسوله ولأقوال علماء السلف .

ثانياً : موقف الجبرية من آيات الاختيار والرد عليهم :

وأما الآيات التي تثبت حرية الإنسان وإرادته واختياره ، فقد حولها الجبريون عن معناها الحقيقي ، وأولوها تأويلاً مخالفاً للغة ، والإعتقاد السليم .

وكل ذلك من أجل إثبات أن الإنسان مجبر على فعله ، بل إن الآيات التي تدل بطريق مباشر وبوضوح على اختيار الإنسان أولوها تأويلاً يوافق ما ذهبوا إليه ومن ذلك قوله تعالى :﴿... فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾(٢) . وقد سبق - عند الحديث عن آيات الجبر - بيان موقف الجبرية من الآيات المتعلقة بالمشيئة الإنسانية ، حيث اعتقدوا أن مشيئة الإنسان لا معنى لوجودها لكونها متعلقة بمشيئة الله تعالى ، وغير مستقلة ، ولذلك غير مستلزمة للفعل «فإذا مشيئة الله مستلزمة لفعل العبد وذلك هو الجبر»(٣) . إن هذا الاستدلال من الجبرية مخالف لحقيقة النص ، حيث إنهم لم يفرقوا بين خلق الله تعالى لمشيئة الإنسان ، وكون الإنسان له حرية وإرادة واختيار ، فظنوا أن الإنسان مجبر علي فعله ، ويرد الإمام الغزالي عليهم بقوله :«فإن قلت إني أجد في نفسي وجداناً ضرورياً أني إن شئت الفعل قدرت على الفعل ، وإن شئت الترك قدرت على الترك ، فالفعل والترك بي لا بغيري »(٤) ، فيتبين من قول الإمام الغزالي أن أصل وجود المشيئة هو خلق الله تعالى لها لتتوجه مختارة بين شيئين الإيمان أو الكفر ، وهذا الاختيار لا يجبر عليه أحد .

---

(١) مجموع الفتاوي ج ٨ ص ٢٦٤ ص ٢٦٥ . مجموع الرسائل الكبرى ج٢ ص ٩١ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .

(٣) التفسير الكبير للرازي ج٣٠ ص ٢٣١ .

(٤) احياء علوم الدين للغزالي ج٤ ص ٢٥٤ . وانظر : التفسير الكبير ج٢١ ص ١٠٢ .

وأما الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكسب ، وتثبت للإنسان كسباً وفعلاً كقوله تعالى :﴿... لَهَا مَاكَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...﴾[1] . فلم يعتبر بها الجبرية بل «نفوا أن يكون للعبد كسب ، واعتبروا أن لفظ الكسب لا معنى له ولا حاصل تحته»[2] .

واعتبر بعضهم أن حقيقة الكسب هو «اقتران الفعل بالقدرة الحادثة من غير أن يكون لها فيه أمر»[3] . وهذا القول نشأ عن الذين جعلوا للإنسان قدرة لا تأثير لها ، ولا تدل على أن الإنسان له إرادة أو اختيار ،فقد جاء في شرح المقاصد «بعض الجبرية تنسب للإنسان قدرة ولكنها غير مؤثرة أصلاً ، إذ أن القدرة المؤثرة تعتبر الفعل كسباً وليس جبراً»[4] .

فالذين أثبتوا القدرة للإنسان من الجبرية لم يختلفوا في الحقيقة عن غيرهم في اعتبار أن الإنسان مجبر على أفعاله ، لأن القدرة التي أثبتوها غير مؤثرة في الفعل حيث يقول ابن القيم رداً عليهم :«ومن زعم أنه لا أثر للقدرة الحادثة في مقدورها ... فوجه مطالبة العبد بأفعاله عنده كوجه مطالبته بأن يثبت في نفسه ألواناً وإدراكات ، وهذا خروج عن حد الاعتدال إلى التزام الباطل والمحال ، وفيه إبطال الشرع ، ورد ماجاء به النبيون»[5] .

لقد خالف الجبرية النصوص القرآنية في قضية الكسب ، ذلك أنهم لم يثبتوها على حقيقتها ، بل نفوها لأجل إثبات الجبر .

والحق أن إثبات الكسب للإنسان يعني أن له اختياراً في فعله ، فالكسب هو فعل العبد ، والله تعالى هو خالق العبد وخالق أفعاله ، وقد ورد ذكر الكسب في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، حيث أخبر تعالى أن الإنسان يجازي بما كسبت يداه ، ولا يعقل أن يقال بأنه كسب لله تعالى ، لأنه لم يأت بذلك نص ، ولم يقله تعالى عن نفسه ولا أذن في قوله ، ولكن يقال كما ورد في كتابه تعالى :﴿... خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾[6] فهي خلق لله تعالى ، وقال :﴿... لَهَا مَاكَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتَسَبَتْ ...﴾[7] ، وكسب للإنسان .ولذلك قال الإمام

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٢) شفاء العليل ص ١٢١ . (بتصرف) .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٠ .

(٤) شرح المقاصد للتفتازاني ج٤ ص ٢٢٤ .

(٥) شفاء العليل ص ١٢٣ .

(٦) سورة الأنعام الاية ١٠٢ .

(٧) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

ابن حزم :«إنه ليس لأحد أن يقول إن أفعالنا خلق لنا ، ولا أنها كسب لله عز وجل ، ولكن الحق الذي لا يجوز خلافه هو أنها خلق لله تعالى ، كسب لنا كما جاء في هدى الله تعالى الذي هو القرآن» (١).

لقد اضطر الجبرية أمام الآيات التي تثبت للإنسان حرية واختياراً ، وتثبت له أفعالاً ، إلى القول بأن هذه الأفعال تنسب للإنسان على سبيل المجاز وليس الحقيقة حيث قال جهم بن صفوان :«وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال تحركت الشجرة ، ودار الفلك ، وزالت الشمس ،وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه»(٢) .

إن هذا القول ظاهر البطلان لأن الآيات التي تتحدث عن أفعال العباد واضحة في نسبة هذه الأفعال للإنسان ، والأصل هو حمل اللفظ على حقيقته ، يقول الإمام ابن القيم مؤكداً :«إن المجاز لو كان ثابتاً فإنما يصار إليه عند تعذر الحمل على الحقيقة إذ هي الأصل» (٣).

إن اعتبار آيات القرآن الكريم المتعلقة بأفعال العباد مجازات من قبل الجبرية خطأ من وجهين :

١ - حكمهم على الله تعالى بأنه أراد بهذه الألفاظ خلاف معانيها المفهومة منها عند التخاطب ، وهذا ضد البيان والتفهيم ، وهو أشبه بالتلبيس منه بالتبيين،فتعالى عنه أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وقد صرح الناس قديماً وحديثاً بأن الله تعالى لايجوز أن يتكلم بشيء ويعني به خلاف ظاهره (٤). ومن ذلك قول الإمام الشافعي:«فكل كلام كان عاماً ظاهراً في سنة رسول الله ﷺ فهو على ظهوره وعمومه»(٥) . وقال أيضاً :«فلما احتمل المعنيين وجب على أهل العلم أن لايحملوها على خاص دون عام ، إلا بدلالة من سنة رسول الله ﷺ ، أو إجماع علماء المسلمين الذين لا يمكن أن يجمعوا على خلاف سنة له»(٦). إذاً يبقى الكلام على ظاهرة ولا يحمل على غير ذلك إلا بقرينة ودليل .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج٣ ص ١١٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣٣٨ ، وانظر : الفرق بين الفرق ص ٢١١ . وانظر : شفاء العليل ص ٤٩ .

(٣) مختصر الصواعق المرسلة ج٢ ص ١٠٨ .

(٤) المصدر السابق ج٢ ص ٧٣ .

(٥) الرسالة للإمام الشافعي ص ٣٤١ . تحقيق أحمد شاكر .

(٦) المصدر السابق ص ٣٢٢ .

٢ - إذا كان ظاهر كلام الله تعالى ورسوله ﷺ الأصل فيه الحقيقة،فلا يجوز أن يحمل على مجازه وخلاف ظاهره البتة،لأن المجاز لو صح كان خلاف الأصل والظاهر،ولا يجوز الشهادة على الله سبحانه ولا على رسوله ﷺ أنه أراد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته (١).

وهكذا أخلّ الجبرية في تعاملهم مع نصوص القرآن الكريم وآيات الأفعال لاعتقادهم أن العبد مجبر على أفعاله قسراً ، وأن إثبات الفعل له هو عين الشرك ، ولهذا لجأوا إلى القول بالجبر فقالوا :«لما كان الله تعالى فعالاً لا يشبهه شيء في خلقه وجب ألا يكون أحد فعالاً غيره» (٢). فنسبوا الأفعال إلى الله تعالى ، واعتبروا أفعال العبد إنما هي أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد ، دون إرادة منه أو اختيار ، حيث يقول الجهم :«إنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده» (٣)،«وأن القادر على الحقيقة هو الله وحده ، وهو الفاعل حقاً ومن سواه ليس بفاعل على الحقيقة ،ولا كاسب أصلاً بل هو مضطر إلى مافيه من حركة وسكون» (٤).

إن اعتبار أفعال العباد عند الجبرية أفعال لله أدى بهم إلى عدم التفريق بين فعل العبد وفعل الرب تعالى،حيث جعلوا التعادي والتباغض فعله سبحانه دون المتعادين والمتباغضين ، كما دفعهم إلى عدم تقسيم الأفعال إلى حسن وقبيح ، فلا فرق عندهم بين الصدق والكذب ، والبر والفجور ، والعدل والظلم ، والسجود للرحمن والسجود للشيطان (٥) . وهذا دفعهم إلى اعتبار أفعال العباد كلها طاعات خيرها وشرها،لموافقتها للمشيئة والقدر،حيث يقولون كما أن موافقة الأمر طاعة ، فموافقة المشيئة طاعة ، وهذا أدى بهم إلى عدم إثبات المعصية ، لأن أفعال الناس كلها طاعات ، إلى جانب ذلك عدم إثبات الإرادة الشرعية ، والذين يثبتونها يزعمون قائلين : في الطاعات أطعنا الإرادة الشرعية ، وفي المعاصي - التي سماها الله تعالى معاصي - أطعنا الإرادة الكونية . وقولهم هذا أدى بهم إلى تعطيل الشرائع والاحتجاج على نفيها بالقدر الكوني ، وإثبات الحجة على الله تعالى لكل كافر وفاسق وعاصي ، وهذا كفر لم يسبقهم إليه غير إبليس اللعين ، إذ احتج على الله تعالى

---

(١) انظر : مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ج٢ ص ٧٤ .

(٢) الفصل لابن حزم ج٣ ص ٣٤ - ص ٣٥ ، وانظر: شفاء العليل ص ١٣٩، وانظر : تاريخ الجدل ص ١٨٠ .

(٣) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة ص ١٣١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٩٢ .

(٤) شفاء العليل ص ٥١ ، وانظر : مدارج السالكين ج١ ص ٤٠٤ .

(٥) انظر : شفاء العليل ص ٤ ، ص٨٥ .

بحجتهم فقال :﴿... فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ...﴾[1] [2] . بل إن من الجبرية من يعتذر عن إبليس ويتوجع له ، ويقيم عذره بجهده ، وينسب ربه تعالى إلى ظلمه بلسان الحال والمقال ، ويقول :«ماذنبه وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه ؟ وقد وافق حكمه ومشيئته وإرادته فيه ، ثم كيف يمكنه السجود ، وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه ؟ وهل كان في ترك السجود لغير الله إلا محسناً ؟ !! فقال بعض الحاضرين : تباً لك سائر اليوم أتذب عن الشيطان وتلوم الرحمن» [3] .

إن هذه المعتقدات الباطلة ، دفعت الجبرية للقول بجواز تعذيب الله تعالى العبد على فعل مايحبه ويرضاه ، وترك مايبغضه ويسخطه ، والجميع بالنسبة إليه سواء ، لأنه إن عذبهم يعذبهم على نفس فعله لا على أعمالهم القبيحة ، لأن الطاعات والمعاصي من الأقوال والأعمال هي عندهم عين فعل الله عز وجل [4] . وهذا دفعهم إلى القول بأن الله تعالى هو الفاعل للفسوق والعصيان ، وهذا يكذبه العقل والفطرة ، وكتب الله تعالى المنزلة ، وإجماع رسله في إثبات حمده وصفات كما له ، فإن فعله كله خير ، وتعالى أن يفعل شراً ، فالشر ليس إليه ، والخير هو الذي إليه ، فالكذب والظلم والفسوق والعصيان ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كان فعلاً له ، كما يفعلها العبد ، وتقوم به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقه له إذا كانت قد جعلها صفة لغيره ، فإذا كان خلق لون الإنسان لم يكن هو المتلون به ، وإذا خلق رائحة منتنة أو طعماً مراً أو صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح ، لم يكن هو متصفاً بهذه المخلوقات والأفعال القبيحة المذمومة المكروهة ، ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها ، وسبباً لذمه وعقابه ، وجالبة لألمه وعذابه ، وهذا أمر يعود على الفاعل الذي قامت به لا على الخالق الذي خلقها فعلاً لغيره[5] .

وهكذا تبين مما سبق موقف الجبرية من آيات الأفعال ، وأنهم عملوا على صرف الكلمات وتأويل الآيات لتوافق معتقداتهم ، معرضين عن المعنى الحقيقي لآيات الجبر أو الاختيار ، وقد اتضح بطلان وفساد قولهم لمخالفته لكتاب الله تعالى وسنة رسوله .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٦ .

(٢) انظر : مدارج السالكين ج١ ص ٤٠٥ ، شفاء العليل ص ٢٧٨ ، معارج القبول ج١ ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ .

(٣) مدارج السالكين ج١ ص ٤٠٥ ، طريق الهجرتين ص ١٤٨ ، معارج القبول ج٢ ص ٣٧٥ .

(٤) انظر : شفاء العليل ص ١٠٢ ، معارج القبول ج١ ص ٣٣٧ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوي ج٨ ص ١٢٣ ، شفاء العليل ص ١٣٦ .

المطلب الثاني : موقف المعتزلة من آيات الجبر والاختيار ، والرد عليهم

سمى المعتزلة بهذا الإسم لأن واصل بن عطاء [(١)]- شيخ هذه الطائفة - اعتزل مجلس أستاذه الحسن البصري[(٢)] .

فقد ذكر الإمام البغدادي أن واصل كان من تلاميذ الحسن البصري ، وكان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرق ، فرقة تزعم أنه كافر ، وأخرى تقول إنه منافق ، وكان علماء التابعين مع أكثر الأمة يقولون إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن لما فيه من معرفة بالرسل ، والكتب المنزلة من الله تعالى ، ولكنه فاسف بكبيرته ، وفسقه لا يخرجه عن إسم الإيمان والإسلام ، ولكن خرج واصل عن اعتقاد أهل السنة والجماعة وزعم أن مرتكب الكبيرة في هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان ، فلما سمع الإمام الحسن البصري من واصل بدعته طرده من مجلسه ، فاعتزل عند سارية مِن سواري مسجد البصرة ، فقال الناس يومئذ اعتزل قول الأمة ، وقال الحسن البصري اعتزلنا واصل ، فسمى أتباعه يومئذ معتزلة [(٣)].

وقيل إنهم سموا معتزلة لاعتزالهم السياسة ، وانصرافهم إلى دراسة العقائد ، وقيل لأنهم كانوا رجالاً اتقياء متقشفين معرضين عن ملاذ الدنيا[(٤)] .

وقيل إن لفظ معتزلة أطلقه قوم ممن أسلموا من اليهود لما رأوه من التشابه بين معتزلة اليهود ، ومعتزلة الإسلام في تفسير كلاهما التوراة والقرآن على مقتضى منطق الفلاسفة ، وقولهم بأن أفعال العباد غير مخلوقة[(٥)] ، ولكن القول الأول هو الراجح ، لأنه يتفق مع بداية النشأة ، ولا يمنع ذلك أن تكون الأقوال الأخرى مساندة ومساعدة في انتشار أفكار المعتزلة .

---

(١) واصل بن عطاء الغزال البصري ، أبو حذيفة المتكلم ولد سنة ٨٠هـ ومات سنة ١٣١ ، وهو قديم المعتزلة وشيخها وأول من أظهر المنزلة بين المنزلتين ، كان يجلس في سوق الغزالين ولذلك لقب بالغزال ، انظر : وفيات الأعيان ١٧٠/٢ ، ميزان الاعتدال ٣٢٩/٤ ، لسان الميزان ٢١٤/٦ ، الفرق بين الفرق ص ٢٠ .

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري الأنصاري مولاهم ، فقيه ثقة فاضل وإمام ولد زمن عمر بن الخطاب ، قال عنه الذهبي «كان كبير الشأن رفيع الذكر رأساً في العلم والعمل » مات في رجب سنة ١١٠ هـ وقد قارب التسعين ، انظر : الكاشف للذهبي ج١ ص ١٦٠ ، وانظر : تقريب التهذيب ص ١٦٠ دار الرشيد – سوريا .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق ص ١١٧ ، الملل والنحل ٤٨/١ ، تاريخ المذاهب الإسلامية ١٢٤/١ .

(٤) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ١٤٧/١ – ١٤٨ .

(٥) انظر : المرجع السابق ١٤٨/١ – ١٤٩ .

وأطلق على المعتزلة أيضاً اسم القدرية،وذلك لأنهم قالوا :«بقدرة الناس على أفعالهم ، وأنه ليس لله فيها تقدير»[1] . وقد عارض المعتزلة هذا الاسم ، واعتبروا أن خصومهم أحق بهذا الاسم منهم ، لأن الذي يثبت القدر لله تعالى أحق أن ينسب إليه اسم القدرية من نافية، وقد وقع بين المعتزلة والسلف مناظرات،وكل فريق حاول أن يثبت أن اسم القدرية يلزم الآخر ، وذلك لما ورد عن النبي ﷺ في ذم القدرية ، حيث قال:**[القدرية مجوس[2] هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم]**[3] .

ولذلك وقف القاضي عبد الجبار ينفي التهمة عن المعتزلة ، ويلصقها بخصومه مطلقاً عليهم اسم المجبرة . فيقول :«إن القدرية عندنا هم المجبرة والمشبهة ، وعندهم المعتزلة ، فنحن نرميهم بهذا اللقب وهم يرموننا ... والذي يدل على أنهم هم القدرية ... أن الاسم اسم ذم فيجب أن يجري على من له مذهب مذموم في القدر ، وليس ذلك إلا مذهب المجبرة ومما يدل على ذلك ، قول النبي ﷺ «القدرية مجوس هذه الأمة ...»[4] فشبه القدرية بالمجوس على وجه لا يشاركهم فيه غيرهم ، فبناء على ذلك ننظر إلى المذاهب تشبة المجوس على هذا الحد ، فليس ذلك إلا مذهب هؤلاء المجبرة ، فإنه يضاهي مذهب المجوس»[5] .

وأما السلف فاعتبروا المعتزلة هم المجوس – وهو الحق ، لأنهم نفوا تقدير الشر دون الخير من الله تعالى ، وجعلوا الشر من العبد ، ثم منهم من ينفي تقدير الشر من أعمال العباد دون تقديره في المصائب ، ومنهم من غلا فنفى تقدير الشر من المصائب والمعايب ، وعلى كل حال فقد اثبتوا مع الله تعالى خالقاً بل جعلوا العباد معه خالقين كلهم ، ونفوا أن يكون الله تعالى هو المتفرد بالتصرف في ملكه ، وهذا راجع في الحقيقة إلى مذهب المجوس

---

(١) الملل والنحل ٥٤/١ .

(٢) إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس في قولهم بالأصلية النور والظلمة حيث يزعمون أن فعل الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة ، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله تعالى خالق الخير والشر لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته. انظر : عون المعبود ٤٥٣/١٢ ، بذل المجهود ٢١٣/١٨ ، الدين الخالص ١٦٢/٣ ، تاريخ المذاهب الاسلامية ج١ ص ١٢٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٨٦/٢ ، جامع الأصول ١٢٩/١٠ – ١٣٠ حديث رقم ٧٦٠٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد ج٢ ص ٨٦ ، جامع الأصول ١٢٩/١٠ – ١٣٠ حديث رقم ٧٦٠٢ .

(٥) الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٧٧٢ – ٧٧٣ .

الثنوية الذين أثبتوا خالقين خالقاً للخير وخالقاً للشر[1] . ولذلك رد عليهم الإمام النووي بقوله :«زعم بعض القدرية بأنهم ليسوا بقدرية ، بل الذين يثبتون القدر هم القدرية لاعتقادهم إثبات القدر ، وهذا تمويه من هؤلاء الجهلة ، لأن أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ويضيفون القدر والأفعال إلى الله سبحانه وتعالى ، وهؤلاء يضيفونه إلى أنفسهم ، ومدعي الشيء لنفسه ومضيفه إليها أولى بأن ينسب إليه ممن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه»[2]. ولذلك قال الإمام محمد أبو زهرة :«لا مانع من أن ينسبوا إلى ضد مايقولون ، كما تسمى الأشياء بأضدادها » [3].

وأما الإمام الأشعري ، فرد عليهم أيضاً بقوله :«القدري هو من يثبت القدر لنفسه دون ربه عز وجل ، وأنه يقدّر أفعاله دون خالقه ، وكذلك هو في اللغة ، لأن الصائغ هو من زعم أنهيصوغ ، دون من يقول أنه يُصاغ له ، والنجار هو من يضيف النجارة إلى نفسه ، دون من يزعم أنه يُنجر له ، فلما كنتم تزعمون أنكم تقدرون أعمالكم وتفعلونها دون ربكم ، وجب أن تكونوا قدرية ، ولم نكن نحن قدرية ، لأنا لم نضف الأعمال إلى أنفسنا دون ربنا عز وجل ، ولم نقل إنا نقدرها دونه ، وقلنا إنها تقدر لنا »[4] .

وهذا يدل على شدة الخلاق الواقع بين السلف والمعتزلة ، وخاصة فيما يتعلق بأفعال العباد ، وعلاقتها بإرادة الله تعالى ومشيئته .

لقد تأثر المعتزلة كثيراً بالفلسفة اليونانية في آرائهم ، وأخذوا عنها كثيراً من استدلالاتهم ، فظهرت في أدلتهم ، ومقدمات أقيستهم الباطلة حتى أن القارئ لكتبهم خاصة «كتاب المغنى في أبواب التوحيد والعدل » أو كتاب «شرح الأصول الخمسة » للقاضي عبد الجبار لا يكاد يفرق بينها وبين كتب الفلسفة ، حيث يقرأ صفحات عديدة دون أن يعثر على آية قرآنية أو حديث نبوي شريف ، إلا قليلاً ، وهذا القليل ليس للاستدلال الحق ، وإنما لتأويل المعنى ، ليوافق ماذهبوا إليه من آراء أو الدفاع عنها .

---

(١) انظر : مسلم بشرح النووي ١/١٥٤ ، معارج القبول ١/٣٣٧ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١/١٥٤ (بتصرف) .

(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية محمد أبو زهرة ١/١٢٤ .

(٤) الإبانة إلى أصول الديانة للأشعري ١١٥ - ١١٦ .

إن تأثر المعتزلة بالفلسفة اليونانية ، أدى بهم إلى الاعتماد على العقل وتقديمه على الشرع في الاستدلال لإثبات العقائد ، حيث كانت ثقتهم بالعقل كبيرة جداً ، فإذا عرضت عليهم مسألة ، عرضوها على العقل ، فإن قبلها أقروها ، وإن لم يقبلها رفضوها ، وهذا دفعهم إلى أن يحكموا بحسن الأشياء وقبحها على العقل بل قالوا إن «المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بنظر العقل ، وشكر النعم واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبح»(١) . واتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على مايفعله ثواباً أو عقاباً في الدار الآخرة ، لأن الله سبحانه وتعالى - كما ادعوا - منزه عن أن يضاف إليه شر أو ظلم ، أو فعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً - تعالى الله عما يقولون ، كما لو خلق العدل كان عادلاً (٢) .

إن قول المعتزلة هذا المخالف للعقيدة الصحيحة السليمة ناتج عن إعتمادهم على العقل، وهذا يرجع إلى ثلاثة أسباب كما ذكرها الإمام محمد أبو زهرة وهي :

١ - مقامهم في العراق وفارس ، حيث كانت تتجاوب فيها أصداء المدنيات وحضارات قديمة .

٢ - إن المعتزلة ينحدرون في أصلهم من سلالة غير عربية،لأن أكثرهم كانوا من الموالي.

٣ - تقبلهم لكثير من آراء الفلاسفة الأقدمين ، على الرغم من مخالفتها لتعاليم الإسلام ، وذلك بسبب اختلاطهم بكثير من اليهود والنصارى ، وغيرهم ممن حمل هذه الأفكار ، وترجمها إلي العربية (٣).

لم يكف المعتزلة بإدخال عنصر العقل في المعرفة الدينية ، بل قدموه على النص ، وأولوا المتشابة من الآيات القرآنية ، ورفضوا الأحاديث التي يتعارض ظاهرها مع العقل، وتحرزوا في خبر الآحاد ، وقالوا بوجوب معرفة الله تعالى بالعقل ، ولو لم يرد شرع بذلك ، وإذا تعارض النص مع العقل ، قدموا العقل لأنه - حسب نظرتهم - أصل النص ، ولا يتقدم الفرع على الأصل ، فالعقل عند المعتزلة موجب وآمر وناه(٤) . وبالرغم من ذلك لم يغفلوا

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١/١٣٠ ، انظر :الملل والنحل للشهرتاني ١/٧١ .

(٢) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ١/٦٥ - ٦٦ .

(٣) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ١/١٢٩ - ١٣٠ .

(٤) انظر : في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيق د. ابراهيم مدكور ٢/٣٧ ط سنة ١٩٧٦م دار المعارف ، وانظر : الفرق الكلامية الإسلامية د. علي المغربي ص ٢٠٣ ط الأولى سنة ١٩٨٦م دار التوفيق القاهرة .

النصوص القرآنية ، بل حاولوا أن يجدوا لمذهبهم سنداً وبراهين منها ، ولكن حيثما وجدوا تعارضاً بين مقررات عقولهم ومفاهيمها الخاصة وبين أحكام الآيات ومدلولاتها الصريحة ، أخضعوا الآيات للعقول ،وأولوها تأويلاً خارجاً عن حدود وقواعد اللغة ، وهذه شهادة على ذلك ، ويرويها معتزلي عن معتزلي أيضاً :«قال الخياط سألت جعفر بن مبشر عن قوله تعالى :﴿... يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ ...﴾[1] وعن الختم والطبع فقال :«أنا مبادر إلى حاجة ، ولكن ألقى عليك جملة تعمل عليها ، إعلم أنه لايجوز على أحكم الحاكمين أن يأمر بمكرمة ثم يحول دونها ، ولا أن ينهي عن قاذورة ثم يدخل فيها ، وتأول الآيات بعد هذا كيف شئت»[2] . فهذا تصريح واضح وصريح بالسماح بتأويل الآيات كيف شاء ، بشرط ألا يتعارض التأويل مع مذهبه ، إن هذا المنهج الخاطئ الذي اتبعه المعتزلة ، ليدل بوضوح على مدى بعدهم عن الحق ، حيث يقبل الباحث على القرآن بأفكار ومقررات عقلية سابقة ، ثم يحاول إخضاع الآيات لها ، مما يؤدي إلى صرف النصوص عن مفاهيمها ومعانيها .

أولاً : موقف المعتزلة من آيات الجبر ، والرد عليهم

يتناول الكلام هنا موقف المعتزلة من آيات الإرادة والمشيئة ، وآيات الخلق ، وآيات العقاب ، وفيما يلي توضيح ذلك :

أ- آيات الإرادة والمشيئة :

ورد عدة آيات قرآنية تتحدث عن الإرادة والمشيئة الإلهية ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿...وَلَو شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الهُدَى ...﴾[3] . وقوله تعالى :﴿... أَفَلَمْ يَيأَسِ الَّذِينَ آمَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾[4] . وقوله تعالى : ﴿... فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5] .

وقد أول المعتزلة المشيئة الإلهية في هذه الآيات ، على معنى القسر والإلجاء ، وهذا

---

(١) سورة النحل الآية ٩٣ .

(٢) مفهوم العدل في تفسير المعتزلة د. محمود أحمد ص ٢٠٦ ط ١٩٨٣م دار النهضة بيروت . القضاء والقدر في الإسلام د. فاروق دسوقي ٢/١٢٠ - ١٢١ ، دار الدعوة - الاسكندرية .

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٥ .

(٤) سورة الرعد الآية ٣١ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٤٩ .

يتضح من خلال مانقل عن أئمتهم وزعمائهم حيث يقول الزمخشري ، في تفسير قوله تعالى :﴿... وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [1] «قسراً والجاءاً»[2] ، وأما تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [3] . «يعني لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة ، أي ملة واحدة وهي ملة الإسلام وهذا الكلام يتضمن نفي الاضطرار ، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق ، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو اساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل»[4] .

وأما قوله تعالى :﴿... وَلَو شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى ...﴾[5] فقد قال الزمخشري :«بأن يأتيهم بآية ملجئة ، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة»[6] .

ويرد ابن المنير على المعتزلة في تعقيبه على هذه الآية بقوله :«فهذه الآية كاملة بالرد علي القدرية في زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن ، ألا ترى أن الجملة مصدرة بلو ، ومقتضاها امتناع جوابها لامتناع الواقع بعدها ، فامتناع اجتماعهم على الهدى إذاً ، إنما كان لامتناع المشيئة»[7] .

وأما قوله تعالى :﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾[8] ، فقال الزمخشري :«وما تشاؤون الاستقامة يامن يشاؤها إلا بتوفيق الله ولطفه ، أو ما تشاؤونها أنتم يامن لايشاؤها إلا بقسر الله والجائه» [9] .

ويتبين موقف المعتزلة كذلك من خلال تفسيرهم لقوله تعالى :﴿... أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾[10] .

---

(1) سورة النحل الآية ٩ .

(2) الكشاف للزمخشري ٤٠٣/٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت .

(3) سورة هود الآية ١١٨ .

(4) الكشاف للزمخشري ٢٩٨/٢ .

(5) سورة الأنعام الآية ٣٥ .

(6) الكشاف ١٦/٢ .

(7) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال لأحمد بن المنير . حاشية الكشاف ١٦/٢ .

(8) سورة التكوير الآية ٢٩ .

(9) الكشاف ٢٢٦/٤ .

(10) سورة الرعد الآية ٣١ .

حيث يقول الزمخشري :«بل لله أن يلجأهم إلى الإيمان وهو قادر على الإلجاء ، لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار ، ويعضده قوله : «أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله» يعني مشيئة الإلجاء والقسر»(١) .

ويذهب القاضي عبد الجبار إلى الإعتراف بدلالة هذه الآية على خلاف مايعتقده المعتزلة، ويصرح أنه لابد من العدول عن الظاهر ، الذي ينص على أنه تعالى لو شاء لهداهم أجمعين ، وأنه جل ثناؤه ، لم يبين الوجه الذي كان يمكن أن يهديهم عليه ، فلا يجوز أن تحمل الآية على العموم ، لأن الظاهر لم يكن مبيناً لذلك، فلابد من كونه مجملاً محتاجاً إلى بيان (٢).

ثم يوضح ما أجمل في الآية بقوله :«والمراد أو لم يعلم الذين آمنوا أنه لو شاء أن يكره العباد لهداهم جميعاً على جهة الإكراه ، لكنه أراد أن يؤمنوا طوعاً لكي يستحقوا الثواب والنفع »(٣).

لقد تمسك المعتزلة بحمل آيات المشيئة على معنى الإلجاء الذي لا يشاؤه الله تعالى، ويوضح ذلك القاضي عبد الجبار بقوله :«والإلجاء هو أن يعلمهم أنهم لو حاولوا غير الإيمان لمنعهم منه ، وحينئذ يمتنعون من فعل غير الإيمان ... وإنه تعالى إنما ترك فعل هذا الإلجاء، لأن ذلك يزيل تكليفهم ، فيكون ما يقع منهم كأن لم يقع ، وإنما أراد تعالى أن ينتفعوا بما يختارونه من قبل أنفسهم ، من جهة الوصلة إلى الثواب وذلك لا يكون إلا اختياراً»(٤) .

ويرد الإمام الرازي على موقف المعتزلة مبيناً بطلان قولهم بالمُكْنَة والاختيار الذي اعتمدوا عليه ، وأن الحال لا يخلوا من أحد أمرين :

١ - أنه تعالى أراد منهم الإيمان ، حال كونه أراد منهم الكفر ، على درجة سواء ، وهذا تكليف بما لا يطاق حيث إنه تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال .

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣٦٠/٢ .

(٢) انظر : متشابه القرآن للقاقض عبد الجبار ٤١٠/٢ ط سنة ١٩٦٩م دار التراث القاهرة .

(٣) المصدر السابق ٤١٠/٢ - ٤١١ .

(٤) التفسير الكبير للرازي ١٧١/١٢ .

٢ - أن يكون قد أراد منهم الإيمان حال حصول الرجحان ، وهنا يكون الطرف الراجح واجب الوقوع ، والطرف المرجوح ممتنع الوقوع ، وهو الإيمان ، وهذا يدل على بطلان قول المعتزلة [١].

ثم أن المعتزلة وقعت في هذه المتاهة نتيجة عدم إيمانهم بالإرادة ، الإيمان الموافق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وهو أنه توجد إرادة كونية وإرادة شرعية ، وآيات الإرادة السابقة تتعلق بمشيئة الله تعالى الكونية لا الإرادة المتعلقة بالأمر والتشريع ، وهناك فرق واضح بين المشيئة الكونية والإرادة الشرعية ، وتزداد هذه الحقيقة وضوحاً من خلال كلام ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر في قوله تعالى :﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ...﴾[٢] «أن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له السعادة في الذكر الأول»[٣] .

ب - آيات الخلق :

ورد العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن خلق الله تعالى لكل شيء ، ومن ضمن ذلك أفعال العباد ، إلا أن المعتزلة أولوا الآيات وحرفوها عن معناها الحقيقي ، ليستدلوا بها على أن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد ، ومن ذلك قول الله تعالى :﴿... مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ...﴾[٤]. يقول القاضي عبد الجبار :«فلا يخلوا إما أن يكون المراد بالتفاوت من جهة الخلقة ، أو من جهة الحكمة ، لا يجوز أن يكون المراد به التفاوت من جهة الخلقة ، لأن في خلقه المخلوقات من التفاوت مالا يخفي ، فليس إلا المراد به التفاوت من جهة الحكمة على ماقلناه . إذ ثبت هذا لم يصح في أفعال العباد أن تكون من جهة الله تعالى لاشتمالها على التفاوت وغيره»[٥].

إن تأويل المعتزلة هذا يظهر من خلاله قصدهم ومعتقدهم ، لأن المقصود بالتفاوت عدم التناقض ، والتباين ، حيث يقول الشوكاني :«ماترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين

(١) انظر : المصدر السابق ١٢/١٧١ - ١٧٢ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/١٣٣ .

(٤) سورة الملك الآية ٣ .

(٥) شرح الأصول الخمسة ص ٣٥٥ .

ولا اعوجاج ولا تخالف ، بل هي مستوية مستقيمة دالة على خلقها ، وإن اختلفت صورها وصفاتها فقد اتفقت في هذه الحيثية»(١) .

ويؤكد هذا قوله تعالى بعد ذلك :﴿... فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾(٢) . حيث يقول ابن كثير :«انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ... أي شقوق»(٤) ، وبالتالي يحمل التفاون على الإحكام والإتقان في خلق الله تعالى ، وهذا يدل على علم الله تعالي وقدرته ، ولايصح استدلال المعتزلة بهذه الآية ، على عدم خلق الله تعالى لأفعال العباد .

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى :﴿الَّذِيَ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ...﴾(٤) . قال القاضي عبد الجبار بأن هذه الآية :«تدل على أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم ، ووجه الاستدلال أنه لايخلوا ، إما أن يراد به - الخلق - أن جميع مافعله الله تعالى فهو إحسان ، أو المراد به أن جميعه حسن ولايجوز أن يكون المراد به الإحسان ، لأن في أفعاله مالايكون إحساناً كالعقاب ، فليس إلا أن المراد به الحسن على مانقوله . إذا ثبت هذا ، ومعلوم أن أفعال العباد تشتمل على الحسن والقبيح ، فلا يجوز أن تكون مضافة إلى الله تعالى»(٥) .

إن قول المعتزلة بأن أفعال العباد غير مخلوقة ، ناتج عن عدم التفريق بين الفعل وبين الخلق ،كما أنهم قاسوا أفعال الخالق على أفعال المخلوق ، وهذا معلوم بطلانه بالضرورة ، لأنه لو افترض - جدلاً - علم حسن الأفعال وقبحها بالعقل ، ولكن العقل لا يقول إن الخالق كالمخلوق ، حتى يكون ماجعله حسناً لهذا أو قبيحاً له ، أن يجعله حسناً للآخر أوقبيحاً له .

وأولوا أيضاً قول الله تعالى :﴿... صُنْعَ اللَّهِ الَّذِيَ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ...﴾(٦) .

قالوا : «بين الله تعالى أن أفعاله كلها متقنة ، والإتقان يتضمن الإحكام والحسن جميعاً ، حتى لو كان محكماً ولا يكون حسناً لايوصف بالإتقان ... إذا ثبت هذا ، ومعلوم

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢٥٩/٥ .

(٢) سورة الملك الآية ٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٩٦/٤ .

(٤) سورة السجدة الآية ٧ .

(٥) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ٣٥٧ .

(٦) سورة النمل الآية ٨٨ .

أن في أفعال العباد مايشتمل على التهود والتنصر والتمجس ، وليس شيء من ذلك متقناً فلا يجوز أن يكون الله تعالى خالقاً لها » [1].

من الملاحظ أن القاضي عبد الجبار يقتطع الآية من سياقها ، بل يقتطع جزءاً منها ليستدل به على مذهبه ، ويغفل ذكر السياق أو بقية الآية ، كما أنه يترك الكثير من الآيات المحكمة الصريحة التي تدل على خلاف مذهبه ، وأن جزء الآية الذي استدل به ليثبت مذهبه يتحدث عن إحدى مخلوقات الله تعالى ، وهي الجبال التي أتقن صنعها ، وهي من الأمور التي لايقدر عليها سواه ، حيث جعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، وهذه الآية تثبت أن الأرض تدور «لأن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد من السمت والكيفية ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مراً حثيثاً» [2] . ولذا يرد الفخر الرازي على القاضي عبد الجبار بقوله :«والجواب أن الإتقان لا يحصل إلا في المركبات فيمتنع وصف الأعراض بها » [3] .

وأما قوله تعالى :﴿... أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [4] .

يعتبر القاضي عبد الجبار،أن هذه الآية ممايتمسك بها أهل السنة في إثبات أن أفعال العباد ، مخلوقة لله تعالى، ولذلك يرد عليهم بقوله :«إنا لو استدللنا بهذه الآية على مذهبنا لكنا أسعد حالاً منكم، لأن القديم تعالى أضاف إليهم العبادة والنحت ، فقال ﴿أتعبدون ماتنحتون﴾ . وذمهم على ذلك ، فلولا أنها متعلقة بهم ، وإلا لما حسن إضافته إليهم وذمهم على ذلك» [5] .

ويحاول هنا أن يتهرب من ظاهر النص ويتوجه إلى التأويل الذي يوافق رأيه فيقول :«فلا يجوز حمل هذا على ظاهره ، ويجب أن يحمل على وجه يوافق الأدلة العقلية» [6] .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ٣٥٨ . وانظر : المغنى في أبواب العدل والتوحيد ٢٥٨/٨ - ٢٥٩ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٨٩/٢٤ ، ط بيروت .

(٣) المصدر السابق ١٨٩/٢٤ ، ط بيروت .

(٤) سورة الصافات الآية ٩٥ - ٩٦ .

(٥) شرح الأصول الخمسة ٣٨٢ .

(٦) المصدر السابق ٣٨٢ .

إن العمل أو الفعل إذا أضيف للإنسان ، فإنما يعني ذلك الكسب ، فعلى هذا لايصح تأويل الآية إلا على ماذهب إليه أهل السنة ، وهو أن الله تعالى خلق الإنسان وعمله ، ولذلك يقول ابن القيم :«والنظم على تأويل أهل الحق أبدع والحجة أقطع ، والذي ذهبوا إليه فاسد محال ، لأنهم أجمعوا معنا على أن أفعالنا لا تقع على الجواهر والأجسام»(١) فلا يصح لأحد أن يقول عملت جملاً ولا صنعت جبلاً ولا حديداً ولا تراباً .

ويرد القاضي عبد الجبار على استدلال أهل السنة بقوله تعالى :﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(٢) . وقوله :﴿... قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٣) . فيقول : «لا يمكن التعلق بظاهر هذه الآية ، وعلى أن هذه الآية وردت مورد التمدح ، ولا مدح بأن يكون الله تعالى خالقاً لأفعال العباد وفيها الكفر والإلحاد ، والظلم ، فلا يحسن التعلق بظاهره ... فنتأوله على وجه يوافق الدليل العقلي فنقول : إن المراد به ﴿الله خالق كل شيء﴾ أي معظم الأشياء ، والكل يذكر ويراد ماذكرناه» (٤).

وأما الزمخشري فيقول عند تفسيره لهذه الآيات :«لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق ، فلا يكون له شريك في العبادة» (٥).

فيلاحظ من خلال كلامه لا ينبه إلى هذه القضية لكون هذه الآيات تثبت مذهب السلف بصورة واضحة ، ولذلك يقول ابن المنير معقباً على تفسير الزمخشري :«والزمخشري لا يطيق التنبيه على هذه النكتة ، مع كونه أفطن من أن تستتر عنه، لأن معتقده أن غير الله يخلق، وهم العبيد يخلقون أفعالهم على زعمه ، ولكن لا يخلقون كخلق الله ، لأن الله تعالى يخلق الجوا هر والأعراض ، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم لا غير ، وفي قوله عز من قائل :﴿... اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ...﴾(٦) إلقام لأفواه المشركين الأولين ، ثم لأفواه التابعة لهم في هذه الضلالة كالقدرية ، فإن الله تعالى بت هذه البتة ، أن كل شيء يصدق عليه أنه

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ١٤٧/١ ، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان .

(٢) سورة الزمر الآية ٦٢ .

(٣) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٤) شرح الأصول الخمسة ٣٨٣ .

(٥) الكشاف للزمخشري ٣٥٥/٢ .

(٦) سورة الرعد الآية ١٦ .

مخلوق جوهراً كان أو عرضاً فعلاً لعبده أو غيره فالله خالقه»[1]، بل إن الدليل العقلي يثبت خلق الله تعالى لأفعال العباد حيث يقول الإمام الرازي :«الدليل العقلي القاطع قد ساعد على صحة هذه الآية ، وتقريره أن الفعل موقوف على الداعي ، وخالق الداعي هو الله تعالى ، ومجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل ، وذلك يقتضي كونه تعالى خالقاً لأفعال العباد ، وإذا تأكد هذا الظاهر بهذا البرهان العقلي القاطع ، زالت الشكوك والشبهات»[2] .

يتضح مما سبق أن المعتزلة لم يغفلوا النصوص القرآنية، بل حاولوا أن يجدوا لمعتقداتهم وأفكارهم سنداً وبراهين منها ، فإذا وجدوا تعارضاً بين مقررات عقولهم، ومفاهيمهم الخاصة، وبين أحكام الآيات ومدلولاتها الصريحة أخضعوا الآيات للعقول ، وأولوها تأويلاً خارجاً عن قواعد اللغة وجعلوها تتناسب مع مقررات عقولهم ، وهذا ظاهر من خلال قول القاضي عبد الجبار عند توجيه كلامه لأفراد المعتزلة :«وإذ قد عرفت ذلك ، وسألك سائل عن أفعال العباد أهي بقضاء الله وقدره ، أم لا ؟ كان الجواب في الجواب عنه أن تقول : إن أردت بالقضاء والقدر الخلق فمعاذ الله من ذلك ، وكيف تكون أفعال العباد مخلوقه لله تعالى وهي موقوفة على قصورهم ودواعيهم ، إن شاؤا فعلوا وإن كرهوا تركوا ... فلو كانت مخلوقة لله تعالى لما استحق العباد عليها المدح والذم والثواب والعقاب ، وأيضاً فلو كانت أفعال العباد كلها بقضاء الله وقدره، للزم الرضا بها أجمع ، وفيها الكفر والإلحاد والرضى بالكفر كفر»[3] .

لم يكتف المعتزلة في إنكارهم خلق الله تعالى لأفعال العباد على لي النصوص القرآنية وتأويلها تأويلاً يخالف حقيقتها ، بل اعتمدوا أيضاً على أدلة عقلية ومن ذلك مايأتي :

١ - قياسهم الفاسد ، فقد قال القاضي عبد الجبار : «إن في أفعال العباد ماهو ظلم وجور ، فلو كان الله تعالى خالقاً لها لوجب أن يكون ظالماً جائراً» [4]. «وأنه خالق القبائح منها ، وهذا يوجب كونه تدبيراً فاسداً ، وذلك يدل على نقص القديم من حيث أضيف إليه

(١) الإنصاف لابن المنير ٣٥٥/٢ حاشية الكشاف .

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٠٠/١٣ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ٧٧١، الثانية ١٩٨٨م مكتبة وهبة - القاهرة ، المغنى ٣١٣/٨ ، ط الأولى سنة ١٩٦٢م المؤسسة المصرية - القاهرة ، المجموع في المحيط بالتكليف ٤٢٠/١ طبعة القاهرة .

(٤) شرح الأصول الخمسة ص ٣٤٥ .

التدبير الفاسد ... ويلزمهم القول بأن الله سبحانه وتعالى مفسد لتدبير نفسه بخلق القبائح وتمكين العباد من التدبير الفاسد» [(١)].

إن قول المعتزلة أعلاه مردود ومرفوض ، حيث أن خالق الظلم ، أو الجور والكذب والكفر يسمى خالقاً ، ولا يجوز أن يسمى ظالماً ولا جائراً ولا كاذباً ولا كافراً ، حيث أنه تعالى يخبر أنه خالق لها فقط ، كما أن القبيح هو فعل القبيح لا خلقه ، لأن الخلق ربما تكون له عاقبة حميدة ، كما أن الظالم من اتصف بالظلم لا من أوجده في محل آخر ، ولذلك يقول التفتازاني :«هذا جهل عظيم ، لأن المتصف بالشيء من قام به ذلك الشيء لا من أوجده ، أو لايرون أن الله تعالى هو الخالق للسواد والبياض ، وسائر الصفات في الأجسام ، ولا يتصف بذلك»[(٢)] . ويقول ابن تيمية :«ففرق بين فعله هو وبين ماهو مفعول مخلوق له ، وليس في مخلوقه ظلم منه ، وإن كان بالنسبة إلى فاعله الذي هو الإنسان ظلم ، كما أن أفعال الإنسان هي بالنسبة إليه تكون سرقة وزنا وصلاة وصوماً ، والله تعالى خالقها بمشيئته وليست بالنسبة إليه كذلك ،إن هذه الأحكام هي للفاعل الذي قام به هذا الفعل، كما أن الصفات هي صفات للموصوف الذي قام به لا للخالق الذي خلقها وجعلها صفات»[(٣)] .

٢ - قولهم في المعاصي : فقد جاء في بعض كتابات أئمتهم مايلي :«لو كانت المعاصي مخلوقة لله تعالى ، لم يجز أن يعيبها ويوبخ عليها لأن فاعل الشيء لا يجوز أن يعيبه ، وقد ثبت أن الله تعالى قد عاب الكفر وسائر القبائح ... فيجب القضاء بأن هذه الأفعال غير مخلوقة لله»[(٤)] .

وهذا الإستدلال للمعتزلة أيضاً مردود مرفوض ، حيث إن الله تعالى خلق المعاصي بقضائه وإرادته الكونية ، وذلك من أجل إبتلاء الإنسان ، وقد ذمها ووبخ عليها ليتجنبها الطائع ، ويكون ذمه لها حجة على العاصي ، فلا يعني كونه أعابها ووبخ عليها أنه لم يخلقها ، وإنما حكم المعتزلة ناتج عن قياس أفعال الله تعالى على أفعال العباد ، وهو قياس مرفوض مردود عليهم ، لأنه سبحانه و تعالى : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[(٥)]

---

(١) المغنى في ابواب العدل والتوحيد ٨/٢٨٩ .

(٢) شرح العقائد النسفية للتفتازاني ٩٨ .

(٣) مجموعة الرسائل المنيرية الرسالة العاشرة ٣/٢١٤ ، ط بيروت ١٩٧٠م .

(٤) المغنى للقاضي عبد الجبار ٨/٢٥٥ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .

ورد الإمام الرازي بعد بيان قولهم بأنه : «لما حصل المدح والذم ، وجب أن يكون العبد مستقلاً بالفعل وهو منقوض ، لأنه تعالى ذم أبا لهب على كفره مع أنه عالم منه أنه يموت على الكفر ، وقد ذكرنا أنه خلاف المعلوم محال الوقوع» [1].

٣ - ومن أدلة المعتزلة العقلية أيضاً قولهم : «لو كان تعالى خلق أعمال العباد ، لوجب أن يكون مخطئاً بما هو خطأ قبيح ، لأنه إن جاز كونه معيباً بفعل القبيح الخطأ ، لجاز كونه حكيماً بذلك ... ولو جاز كونه معيباً بفعل القبيح ، لجاز كونه صادقاً بفعل الكذب، وعادلاً بفعل الظلم ، ولأدى ذلك إلى قلب حقائق الأشياء عما يعقل في الشاهد» [2] ، تعالى الله عن كل نقص علواً عظيماً .

إن هذا القول كسابقه ناتج عن قياس المعتزلة أفعال الله تعالى على أفعال العباد ، وهذا قياس مرفوض ومنقوض من أساسه ، إلى جانب ذلك أن الله تعالى يخلق ولا يعني كونه خالقاً أن يتصف بما خلق .

٤ - وقالوا أيضاً : «لو كان تعالى هو الخالق لأفعال العباد ، لوجب كونهم مضطرين إليها ، وأن لا يكون بين مايكتسبه العبد ويضطر إليه فرق ، وفي علمنا بالفرق بينهما دلالة على فساد كل قول يسقط الفرق الذي علمناه» [3].

إن هذا القول مردود عليهم مرفوض ، لأن من أثبت خلق أفعال العباد هم سلف الأمة ، أثبتوا للعبد إرادة وقدرة على الفعل ،واعتبروا أفعال العباد كسبهم باختيارهم ، وأنهم غير مجبرين عليها ، ولهذا يقول التفتازاني : «إن هذا الكلام الأصل أن يوجه إلى المجبرة النافين لقدرة العبد واختياره لا على من يجعل فعله متعلقاً بقدرته وإرادته واقعاً بكسبه ، وعقيب عزمه وإن كان بخلق الله عز وجل ، ولا على من يجعل قدرته مؤثرة لا بالاستقلال بل بمرجح هو بمحض خلق الله تعالى» [4].

٥ - ومما أستدل به المعتزلة على عدم خلق الله تعالى لأفعال العباد قولهم : «لو كان

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/١٩ .

(٢) المغنى للقاضي عبد الجبار ٢٤٦/٨ .

(٣) المصدر السابق ٢١٨/٨ .

(٤) شرح المقاصد للتفتازاني ٢٥٤/٤ .

تعالى هو الخالق لفعلهم ، لوجب أن لا يستحقوا الذم على قبيحه ، والمدح على حسنه . لأن استحقاق الذم والمدح على فعل الغير لايصح»[1] .

إن قول المعتزلة هذا ، يثبت في حال إكراه العبد وإجباره على الفعل ، لكن في حال الإثبات للعبد إرادة وقدرة واختياراً وكسباً ، فهذا يكفي لكي يستحق الذم على قبيحه والمدح على حسنه ، ولكن المعتزلة يريدوا إثبات رأيهم بأي وسيلة وطريقة .

٦ - يقول القاضي عبد الجبار :«إنه لو كان تعالى هو الخالق للكفر في الكافر ، للزم أن لايكون له عليه نعمة في الدين ولا في الدنيا ، بل يلزم أن لا يكون له على المؤمنين أيضاً نعمة ، ثم يلزم أن يكون الله أضر على العبد من إبليس»[2] .

تعالى الله عن قول القاضي علواً كبيراً، لأن الله تعالى يخلق الفعل مجرداً أو محايداً بالنسبة للحسن أو القبح ، ثم إذا تلبست إرادة الإنسان المختارة الواعية بالفعل المحايد المخلوق ، لم يصبح مُحايداً وإنما صار خيراً أو شراً ، حسناً أو قبيحاً ، فخلق الله تعالى للكفر المحض المجرد الذي يجعله العبد باختياره كفراً بالله تعالى أو كفراً بالشيطان ، والإنسان باكتسابه الكفر وتلبسه له بإرادته ، فإنه يجمع هذا الكفر المخلوق بالحق تارة أو بالباطل تارة ، فيكون كفراً بالله تعالى أو كفراً بالطاغوت ، فالفعل يتم باختيار الإنسان مع علمه بأن هذا مذموم وهذا محمود .

والحق أن الله تعالى خالق لجميع أفعال العباد ،اختيارها واضطرارها وهذا يثبت بوجوه :

١ - إن العبد لو كان موجداً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها ، وهذا غير صحيح ، لأنه أحياناً يأتي بالزيادة والنقصان ، وأحياناً يصدر منه أفعال وهو نائم لا شعور له بتفاصيل كمياتها أو كيفيتها ، وهذا في بسائط أموره فضلاً عن معقداتها ودقائقها ، وفي ذلك يقول الإمام الجويني[3] :«لا يشك لبيب أن من وصف نفسه بكونه خالقاً على التحقيق ، فقد

---

(١) المغنى للقاضي عبد الجبار ١٩٣/٨ .

(٢) المجموع في المحيط بالتكليف ٣٦٧/١ ، وانظر : المغنى ١٩٩/٨ ، ٢٢٥ .

(٣) الجويني : هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني الفقيه الشافعي ولد في جوين بنيسابور عاش أربعين عاماً في في مكة والمدينة ، ولهذا سمي إمام الحرمين ، ثم عاد إلى نيسابور وتوفي بها سنة ٤٧٨هـ وكان من أئمة الشافعية . انظر : وفيات الأعيان ١٦٧/٣ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٢٨/١٢ ، الاعلام للزركلي ٣٠٦/٤ .

أعظم الفرية لكونه ادعى كونه خالقاً ، وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أفعاله ، ومن لم يعلم حقيقة ماصدر منه ، ولم يحط بمقداره ومبلغه كيف يكون خالقه ؟ والعلم بالشيء أقرب من خلقه ، وهذا معنى قوله تعالى :﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ...﴾[1] فدل مقتضى الآيتين أن العالم بحقائق الحادثات بارؤها وخالقها ، وقد تقرر في قضايا العقول أن الأفعال دالة على علم خالقها بها ، فإذا صدرت أفعال من العبد في حالة ذهول عنها ، فهي غير دالة على علم العبد بها »[2] ، وبالتالي فلا يستقيم أن يكون موجوداً وخالقاً لها .

ورد الإمام الغزالي على ذلك بقوله :«وذهبت المعتزلة إلى إنكار تعلق قدرة الله تعالى بأفعال العباد من الحيوانات والملائكة والجن والإنس والشياطين ، وزعمت أن جميع مايصدر منها من خلق العباد واختراعهم ، لا قدرة لله تعالى عليها بنفي ولا إيجاب ، فلزمتها شناعتان عظيمتان : إحداهما انكار ما أطبق عليه السلف رضي الله عنهم من أنه لا خالق إلا الله ولا مخترع سواه ، والثانية : نسبة الإختراع والخلق إلى قدرة ممن لا يعلم ماخلقه من الحركات،فإن الحركات ، التي تصدر من الإنسان وسائر الحيوان ، لو سئل عن عددها وتفاصيلها ومقاديرها لم يكن عنده خبر عنها » [3].

واما الإمام الرازي فيرد بما يلي : «إن الخالق للشيء على سبيل التقدير والتحديد لابد وأن يكون عالماً به وبتفاصيله ، لأن خالقه قد خصه بقدر دون قدر ، والتخصيص بقدر معين لابد أن يكون بإرادة ، وإلا فقد حصل الرجحان من غير مرجح ، والإرادة مشروطة بالعلم ، فثبت أن خالق الشيء لابد وأن يكون عالماً به على سبيل التفصيل ، فلو كان العبد موجداً لأفعال نفسه لكان عالماً بها وبتفاصيلها في العدد والكمية ، فلما لم يحصل هذا العلم، علمنا أنه غير موجد لأفعال نفسه»[4] .

٢ - إنه لا يمكن أن يكون الإنسان خالقاً لفعله ، لأنه يمتنع اجتماع قدرتين مؤثرتين مستقلتين على مقدور واحد ، من جهة أن الشيء لا يكون أثراً إلا لمؤثر واحد ، ولذا يقول

---

(١) سورة الملك الآية ١٣ - ١٤ .

(٢) العقيدة النظامية للجويني ص ٤٧ . ط الأولى سنة ١٩٧٨م ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .

(٣) الإقتصاد في الإعتقاد للغزالي ص ٥٧ .

(٤) التفسير الكبير للرازي ١٤٦/٢ .

الإمام أبو حنيفة :«إن دخول مقدور تحت قدرتين احداهما قدرة الاختراع ، والأخرى قدرة الاكتساب جائز ، وإنما المحال اجتماع مؤثرين مستقلين علي أثر واحد»[١] .

٣ - إن العبد لو كان موجداً لفعله بقدرته واختياره استقلالاً ، لكان متمكناً من فعله وتركه ، ويلزم على هذا ترجيح فعله على تركه ، محتاجاً إلى مرجح ، لأنه لو لم يتوقف على ذلك المرجح لكان صدوره اتفاقاً لا اختياراً ، وأيضاً لو لم يكن محتاجاً إلى مرجح لكان وقوع أحد الجائزين غير مفتقر إلى سبب ، وهذا يفضي إلى القول بجواز ألا يكون لهذا العالم صانع أوجده ، ورجح أحد طرفيه الجائزين - الوجود والعدم - على الآخر ، وهذا معلوم بطلانه ، فيبطل ما يؤدي إليه ، ثم إن هذا المرجح الذي يحتاج إليه فعل العبد، لا يعقل أن يكون صادراً عنه باختياره ، وإلا لزم التسلسل المعلوم بطلانه ، فيلزم أن يكون صدور الفعل عند هذا المرجح واجباً ، بحيث يمتنع تخلفه ، فيكون الفعل اضطرارياً لازماً لا يستقل العبد فيه استقلالاً تاماً ، وهذا يعني أن الخالق للفعل هو الله تعالى [٢].

ولذلك يلاحظ أن السلف ناظروا المعتزلة وبينوا بطلان معتقداتهم ، يروي أن جعفر الصادق[٣] قال لقدري :إقرأ الفاتحة فقرأ ، فلما بلغ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٤] ، قال له جعفر على ماذا تستعين بالله ، وعندك أن الفعل منك ، وجميع مايتعلق بالأقدار والتمكين والألطاف قد حصلت وتمت . فانقطع القدري والحمد لله رب العالمين» [٥].

ويحكى أن القاضي عبد الجبار الهمداني - أحد شيوخ المعتزلة دخل على الصاحب ابن عباد وعنده الأستاذ أبو اسحاق الإسفرائيني - أحد أئمة أهل السنة - فلما رأى الأستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء ، فقال الأستاذ : فوراً سبحان من لا يقع في ملكه إلا

---

(١) شرح الفقه الأكبر ص ٨٢ ، وانظر : تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ص ١٠٤ ، وانظر : شرح المقاصد ٢٢٧/٤ .

(٢) انظر : الإقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص ٦٠ ، وانظر : التفسير الكبير للرازي ج٢ ص ١٤٦ .

(٣) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الهاشمي القرشي أبو عبد الله الملقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط ، وهو سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، كان مَن أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه الإمام أبو حنيفة والإمام مالك توفي سنة ١٤٨هـ ، انظر : وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥ ، صفوة الصفوة ج٢ ص ٩٤ .

(٤) سورة الفاتحة الآية ٥ .

(٥) شرح المقاصد للتفتازاني ج٤ ص ٢٧٠ .

مايشاء ، فقال القاضي : أيشاء ربنا أن يعصى ؟ قال الأستاذ : أيعصى ربنا قهراً ؟ قال القاضي : أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى أحسن إليّ أم أساء ؟ فقال الأستاذ : إن منعك ماهو لك فقد أساء ، وإن منعك ما هو له ، فهو يختص برحمته من يشاء . فبهت القاضي»[(١)] .

وهكذا يتبين أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، ويتبين أيضاً بطلان قول المعتزلة وأدلتهم .

ج - آيات العقاب :

ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تتحدث عن الختم والطبع والمرض وغيرها ،والتي هي عقوبات للإنسان على أفعاله ، وللمعتزلة موقف من هذه الآيات ناتج عن قولهم بأن العبد هو الخالق لأفعاله ، وهذا دفعهم إلى تأويل هذه الأيات عن قولهم بأن العبد هو الخالق لأفعاله ، وهذا دفعهم إلى تأويل هذه الآيات حسب مذهبهم ومعتقدهم ، ورفضوا حمل هذه الآيات على ظاهرها لكون عقولهم لا تقبل ذلك .

ومن هذه الآيات قول الله تعالى :﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [(٢)].

قالت المعتزلة لا يجوز إجراء هذه الآية على المنع من الإيمان ، وذلك لأن الله تعالى قد كذب الكفار الذين قالوا إن على قلوبهم كناً وغطاءً يمنعهم من الإيمان ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ...﴾ [(٣)]. ﴿... بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[(٤)] .

وهذا كله عيب وذم من الله تعالى فيما أدعوه أنهم ممنوعون من الإيمان ، كما أن الختم لو كان منعاً للإيمان لما جاز أن يتوعدهم بالعذاب العظيم ، وإذا خلق فيهم الكفر ومنعهم الإيمان ، فكيف يحسن أن يعذبهم ، وثبت بالعقل أنه تعالى لا يجوز أن يأمر بالإيمان ، ويرغب فيه ويعد عليه ويزجر على خلافه ، ويمنع مع ذلك منه فلا يجوز ذلك عليه [(٥)].

---

(١) شرح الفقه الأكبر ص ٨٦ ، تحفة المريد ص ٦٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٨ الحاشية .

(٢) سورة البقرة الآية ٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ٨٨ .

(٤) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٥) انظر : متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ٥٤/١ دار التراث القاهرة ١٩٦٩م . وانظر : التفسير الكبير ٤٦/٢ .

ولكن يلاحظ أن الله تعالى أضاف الختم إليه وهذا له دلالة على المنع من الإيمان ، ولكن يجيب الزمخشري على ذلك بقوله :«فإن قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى ، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق ، والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح ، والله تعالى يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً ...؟ . قلت : القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها . وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل فلينبه على أن هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي... كذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي بحال قلوب ختم الله عليها »[1].

ومن ثم قال المعتزلة لابد من حمل الختم والغشاوة على أمور :

١ - أن الختم من الله سبحانه وتعالى ، والطبع على قلوب الكفار هو الشهادة والإخبار والحكم أنهم لا يؤمنون ولا يعون الذكر ولا يقبلون الحق ، وعلى أسماعهم بأنها لا تصغى إلى الحق ، وإنما أضيف ذلك إلى الله تعالى لأن هذه الصفة في تمكنها وقوة ثباتها كالشيء الخلقي[2] .

إن تأويل المعتزلة هذا غير موافق للحق ، لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم فلم لا يحمل الخبر على ظاهره ؟ ! وعلى افتراض أنه الشهادة والتسمية والحكم كما يقول المعتزلة ، فإن الحكم يكون حكم الله تعالى والشهادة شهادته والتسمية تسميته ، وهذا يكون قضاءً من الله بأنه لا يؤمن ، وهذا على سبيل المجاراة للمعتزلة في قولهم ، ولكن لم يرد في لغة من اللغات أن من أخبر عن غيره بأنه مطبوع على قلبه ، أنه قد طبع على قلبه ، ولذلك يقول ابن القيم : «وأنه لا يقال في لغة من لغات الأمم لمن أخبر عن غيره بأنه مطبوع على قلبه وأن عليه ختماً ، إنه قد طبع على قلبه وختم عليه ، بل هذا كذب على اللغات وعلى القرآن»[3] .

٢ - أن المراد بذلك علامة وسمة ، يجعلها في قلب الكفار وسمعهم فتستدل الملائكة بذلك على أنهم كفار وعلى أنهم لا يؤمنون أبداً، فلا يبعد أن يكون في قلوب المؤمنين علامة

(١) الكشاف للزمخشري ١/١٥٧ - ١٥٨ - ١٦٠ .

(٢) انظر : التفسير الكبير للرازي ٢/٤٦ - ٤٧ ، وانظر : مقالات الإسلاميين ١/٣٢٣ .

(٣) شفاء العليل لابن القيم ص ٨٩ .

تعرف بها الملائكة كونهم مؤمنين عند الله كما قال تعالى :﴿... أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ...﴾(١) . وحينئذ الملائكة يحبونهم ويستغفرون لهم . ويكون لقلوب الكفار علامة تعرف الملائكة بها كونهم ملعونين عند الله ، فيبغضونهم ويلعنونهم . وهذا قول الجبائي والقاضي عبد الجبار (٢).

إن هذا القول مخالف لنصوص القرآن الكريم الواضحة الصريحة في هذه القضية ، ولذلك يرد الإمام الجويني عليهم بقوله :«وحمل الجبائي وابنه هذه الآيات على محمل بشع مؤذن بقلة اكتراثهما بالدين ، وذلك أنهما قالا : من كفر وسم الله على قلبه سمة تعلمها الملائكة ، فإذا ختموا على القلوب تميزت لهم قلوب الكفار من أفئدة الأبرار ، فهذا معنى الختم عندهما ، وما ذكراه مخالف لنص الكتاب وفحوى الخطاب ، فإن الآيات نصوص في أن الله تعالى يصرف بالطبع والختم عن سنن الرشاد من أراد صرفه من العباد ، قال الله تعالى :﴿... وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيَ آذَانِهِمْ وَقْراً ...﴾(٣) ... فاقتضت الآيات كون الأكنة مانعة من إدراك . الإيمان ، والسمة التي اخترعوا القول بها لا تمنع من الإدراك» (٤).ولذلك اخترعوها ليثبتوا أن الأكنة لا تمنع من الإيمان .

٣ - قالت طائفة من المعتزلة «الكافر هو الذي طبع على قلب نفسه في الحقيقة، وختم على قلبه ، والشيطان أيضاً فعل ذلك ، ولكن لما كان الله سبحانه هو الذي أقدر العبد والشيطان على ذلك ، نسب الفعل إليه لإقراره للفاعل على ذلك»(٥) ، ولذلك قال الزمخشري : «فيكون الختم مستنداً إلى إسم الله على سبيل المجاز ، وهو لغيره حقيقة ... فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر ، إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب» (٦).

إن قول المعتزلة هذا فيه حق وباطل ، فلا يقبل مطلقاً كما لايراد مطلقاً ، أما قولهم بأن الله تعالى أقدر الكافر والشيطان على الطبع والختم كلام باطل ، فإنه لم يقدر إلا على

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٢) انظر : متشابه القرآن ٥٢/١ ، مقالات الإسلاميين ٣٢٣/١ ، التفسير الكبير ٤٧/٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

(٤) الإرشاد للجويني ص ٢١٤ .

(٥) شفاء العليل ص ٨٨ .

(٦) الكشاف للزمخشري ١٦٠/١ - ١٦٢ .

التزيين والوسوسة والدعوة إلى الكفر ولم يقدر على خلق ذلك في قلب العبد البتة ، وهو أقل من ذلك وأعجز ، فمقدور الشيطان أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب ، التي إذا فعلها ختم الله على قلبه وسمعه ، فأسباب العقاب فعل الله تعالى ، وتزيينها وتحسينها فعل الشيطان، والجميع مخلوق لله تعالى ، والحق في هذا الكلام أن الله تعالى أقدر العبد على الفعل الذي أوجب الطبع والختم على قلبه ، فلولا إقدار الله تعالى له على ذلك لم يفعله [١] .

٤ - «يجوز أن يجعل الله تعالى على قلوبهم الختم وعلى أبصارهم الغشاوة من غير أن يكون ذلك حائلاً بينهم وبين الإيمان ، بل يكون ذلك كالبلادة التي يجدها الإنسان في قلبه ،والقذى في عينيه والطنين في أذنه ، فيفعل الله كل ذلك بهم ليضيق صدورهم ويورثهم الكرب والغم فيكون ذلك عقوبة مانعة من الإيمان» [٢] .

إن هذا القول من المعتزلة يجوز أن يكون في أول الأمر ، ولكن إذا تمكن واستحكم في القلب ورسخ فيه ، إمتنع معه الإيمان ، ومع هذا فهو أثر فعله وإعراضه وغفلته ، وإيثار شهوته وكبره على الحق والهدى ، فلما تمكن فيه واستحكم صار صفة راسخة وطبعاً وختماً ، فكان مبدأه غير حائل بينه وبين الإيمان ، فمن الممكن لو شاء أن يؤمن لآمن ،ولكن لما زادت الموانع واستحكمت لم يبق إلى الإيمان سبيل ، لأنه قد طُبِعَ وخُتِمَ على قلبه ، فلم يبق فيه محل لما يهواه ويحبه ، وكان الإنصراف مقدور له في أول الأمر ولكن بعد تمكن الأسباب لم يبق مقدوراً له [٣] .

٥ - أن القوم لما أعرضوا وتركوا الاهتداء بدلائل الله تعالى صار ذلك كالإلف والطبيعة لهم ، أشبه حالهم بحال من منع عن الشيء وصد عنه [٤] ، ومقصود ذلك هو تشبيه القلوب بالمختوم عليها وليس على الحقيقة .

٦ - أن المقصود بالطبع هو عدم الإخلاص الموجب لقبول العمل ، حيث ذكر الإمام الأشعري أن المعتزلة تقول :«إن الإنسان مأمور بالإخلاص مع الطبع ، وأن الطبع الحائل بينه وبين الإخلاص عقوبة له ، وأنه مأمور بالإيمان مع الطبع الحائل بينه وبين الإيمان» [٥] .

---

(١) انظر : شفاء العليل ص ٨٨ .

(٢) التفسير الكبير ٤٧/٢ ، وانظر : شفاء العليل ص ٩٠ .

(٣) انظر : شفاء العليل ص ٩٠ .

(٤) انظر : الكشاف ١٥٨/١ ، التفسير الكبير ٤٦/٢ .

(٥) مقالات الاسلاميين للأشعري ٣٤٣/١ .

إن قول المعتزلة هذا - سواء الإعراض أو عدم الإخلاص - يعتبر بداية للوصول إلى الطبع والختم وليس هو حقيقة ذلك ، فالطريق الأوضح والأسلم هو الأخذ بظاهر الآيات القرآنية .

ويعقب القاضي عبد الجبار على قوله تعالى :﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾[1]. بقوله : «الطبع لا يمنع من الإيمان ويدل عليه وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى ذكر ذلك في معرض الذم لهم ، ولو كانوا عاجزين عن الإيمان به لما استحقوا الذم بتركه .

الوجه الثاني: أنه تعالى أشرك بين السمع والبصر ، وبين القلب في هذا الطبع ، ومعلوم من حال السمع والبصر أن مع فقدهما قد يصح أن يكون مؤمناً،فضلاً عن طبع يلحقها في القلب .

الوجه الثالث : وصفهم بالغفلة ، ومن منع من الشيء لا يوصف بأنه غافل عنه ، فثبت أن الطبع السمة والعلامة التي يخلقها في القلب» .[2]

إن قول القاضي عبد الجبار نابع من اعتقاده بأن الله تعالى ليس خالقاً لأفعال العباد وكذلك أن الإيمان «ليس مقدور للرب ولا يدخل تحت فعله ، إذ لو كان مقدوراً له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه» [3].

وَيُرد على القاضي عبد الجبار بما سبق وتبين عند الحديث عن أنواع الضلال ، بأن الله تعالى لم يفعل بعبده الطبع والختم والغشاوة من أول وهلة حين أمره بالإيمان ، أو بينه له ، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه ، والتأكيد في البيان والإرشاد فكان نتيجة ذلك الإعراض والمبالغة في الكفر والعناد ، فحينئذ يطبع على قلبه ويختم عليه ، فلا يقبل الهدى، بعد ذلك ، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختياراً ، ولكن عندما تكرر منه صار طبيعة وسجية ومع ذلك فإنه «لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان، بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه وضرب عليه القفلَ ذلك الختم والطابع

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٨ .

(٢) التفسير الكبير ٩٩/٢٠ .

(٣) شفاء العليل ص ٩٠ .

والقفل ، ويهديه بعد ضلاله ، ويعلمه بعد جهله ، ويرشده بعد غيه ، ويفتح قفل قلبه بفاتيح توفيقه التي هي بيده حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر ،لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان»(١) .

وهذا موافق لقول رسول الله ﷺ :[... **وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**] (٢). كما أنه قرأ قارئ عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه :«أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(٣) . وعنده شاب فقال :اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك ، لا يفتحها سواك ، فعرفها له عمر رضي الله وزادته عنده خيراً »(٤) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه :«اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً ، فإنك تمحو ماتشاء وتثبت»(٥) .

وأما قوله تعالى :﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ...﴾(٦) فأوله المعتزلة بقولهم :«لا يجوز أن يكون مراد الله تعالى منه - المرض - فعل الكفر والجهل ... فلا بد من التأويل وهو من وجوه :

١ - أن يحمل المرض على الغم ... أي زادهم الله غماً على غمهم»(٧) .

٢ - المقصود أن مرضهم وكفرهم كان يزداد بسبب ازدياد التكاليف ، حيث إنه كلما أنزل الله على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به ، فازدادوا كفراً إلى كفرهم ، فكأن الله هو والذي زادهم ، فازدادوا وذلك باسناد الفعل إلى المسبب له (٨).

٣ - أن المراد بالمرض هو المنع من زيادة الألطاف (٩).

---

(١) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ٢١٠/٧ ، كتاب القدر ، باب في القدر ، صحيح مسلم ٢٠٣٦/٤ ، كتاب القدر باب خلق الآدمي . حديث رقم ٢٦٤٣ .

(٣) سورة محمد الآية ٢٤ .

(٤) شفاء العليل ص ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٠ .

(٧) التفسير الكبير ٥٨/٢ .

(٨) انظر : الكشاف ١٧٧/١ ، التفسير الكبير ٨٥/٢ .

(٩) التفسير الكبير ٥٩/٢ .

٤ - أن يحمل المرض علي ألم القلب وذلك أن الإنسان إذا ابتلى بالحسد والنفاق والغل والبغض ، ودام به ذلك ، فربما يغير مزاج القلب ، وكان هذا يقع مع المنافقين كلما كان ينتصر الرسول ﷺ على الكفار ، إزدادو حسداً وغلاً وبغضاً [(١)] .

٥ - «ويحتمل أن يراد بزيادة المرض الطبع»[(٢)] .

يتبين من تأويل المعتزلة أنهم لا يريدون إثبات خلق الله تعالى للمرض في القلب ، ولذلك حاولوا وضع هذه التأويلات ، وإن كان بعضها يحمل على مقدمات هذا المرض وهو النفاق ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره للمرض بأنه الشك وقيل النفاق[(٣)] . وقال الإمام ابن القيم : «ومرض القلب خروج من صحته واعتداله ، فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له ، مؤثراً له على غيره ، فمرضه إما بالشك فيه وإما بايثار غيره عليه ، فمرض المنافقين مرض شك وريب ، ومرض العصاة مرض غي وشهوة»[(٤)] .

وأما قوله تعالىٰ :﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ...﴾[(٥)] . فقد أول المعتزلة هذه الآية حسب معتقدهم ، حيث قال الزمخشري :«من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر بالخذلان، أو وجدناه غافلاً عنه»[(٦)] ، وقالوا بهذا التأويل ليعلنوا أنه «ليس المراد خلق الغفلة فيه»[(٧)] . ولذلك أولوا المراد بالغفلة إلى :

١ - أنه تعالى لما صب عليهم الدنيا صباً أدى ذلك إلى رسوخ الغفلة في قلوبهم ، صح على هذا التأويل أنه تعالى حصَّل الغفلة في قلوبهم .

٢ - أن معنى أغفلنا ، أي تركناه غافلاً فلم نَسِمْه بسمة أهل الطهارة والتقوى .

٣ - أن المراد من قوله أغفلنا قلبه ، أي خلاه مع الشيطان ولم يمنع الشيطان منه[(٨)] .

إن منهج المعتزلة في تأويل الإغفال هو نفس منهجهم في تأويل الطبع والختم وهو نابع

---

(١) انظر : الكشاف ١/١٧٧ ، التفسير الكبير ٢/٥٩ .

(٢) الكشاف ١/١٧٧ ، وانظر : التفسير الكبير ٢/٥٩ .

(٣) انظر : فتح القدير للشوكاني ١/٤٢ .

(٤) التفسير القيم ص ١١٣ ، دار الفكر بيروت ١٩٨٨م ، شفاء العليل ص ٩٨ ص ٩٩ .

(٥) سورة الكهف الاية ٢٨ .

(٦) الكشاف ٢/٤٨٢ .

(٧) التفسير الكبير ٢١/٩٩ .

(٨) انظر : الكشاف ٢/٤٨٢ ، التفسير الكبير ٢١/١٠٠ .

من إنكارهم خلق الله تعالى لأفعال العباد ، ولكن الحق أن الله تعالى هو الذي يخلق الغفلة في القلوب ، وهذا ناتج عن كسب العبد ، وذلك لأن «الدليل العقلي دل على أنه يمتنع كون العبد موجداً للغفلة في نفسه ، والدليل عليه أنه إذا حاول إيجاد الغفلة ، فإما أن يحاول إيجاد مطلق الغفلة ، أو يحاول إيجاد الغفلة عن شيء معين ، والأول باطل ، وإلا لم يكن بأن تحصل الغفلة عن هذا الشيء أولى أن تحصل له الغفلة عن شيء آخر ، لأن الطبيعة المشترك فيها بين الأنواع الكثيرة تكون نسبتها إلى كل الأنواع على السوية ، أما الثاني فهو أيضاً باطل ، لأن الغفلة عن كذا عبارة عن غفلة لا تمتاز عن سائر أقسام الغفلات إلا بكونها منتسبة إلى ذلك الشيء المعين بعينه ...فثبت أن العبد غير قادر على إيجاد الغفلة، فوجب أن يكون خالق الغفلات وموجودها في العباد هو الله»[1] .

وأما قوله تعالى :﴿ رَبَّنَا لَاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ...﴾[2] فقال المعتزلة :«لما دلت الدلائل على أن الزيغ لا يجوز أن يكون فعل الله تعالى ، وجب صرف هذه الآية إلى التأويل»[3] . وتأويلاتهم لها هي :

١ - أن المراد بقوله «لاتزغ قلوبنا » يعني لا تمنعها من الألطاف التي معها ، ليستمر قلبهم على صفة الإيمان ، وذلك لأن الله تعالى لما منعهم ألطافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال أزاغهم .

٢ - أن المقصود لا تبتلينا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ، فلا تكلفنا من العبادات مالا نأمن معه الزيغ .

٣ - أن لا تسمنا باسم الزائغ .

٤ - أي لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك بعد إذ هديتنا .

٥ - احرسنا من الشيطان ومن شرور أنفسنا حتى لا نزيغ [4].

أما قولهم بأن المقصود لا تمنعها من الألطاف ، ففي مذهبهم أن كل ماصح في قدرة الله تعالى أن يفعل في حقهم لطفاً ، وجب عليه ذلك وجوباً - تعالى الله عما يقولون - ولو

---

(١) التفسير الكبير ٩٩/٢١ .

(٢) سورة آل عمران الاية ٨ .

(٣) التفسير الكبير ١٥٦/٧ .

(٤) انظر : الكشاف للزمخشري ٤١٤/١ ، والتفسير الكبير ١٥٦/٧ .

تركه لبطلت إلهيته ، والشيء الذي يكون كذلك فأي حاجة إلى الدعاء في طلبه .

وأما قولهم بأن المقصود لا تكلفنا من العبادات ، فهو ضعيف ، لأن ذلك يرجع إلى كون العبد مطيعاً أو عاصياً ، فلا فائدة في صرف الدعاء إليه وخاصة أن الله تعالى كلفنا كل بحسب طاقته ووسعه .

وأما أن المقصود لا تسمنا بإسم الزائغ ، فإن التسمية بالزيغ والكفر دائر مع الزيغ والكفر وجوداً وعدماً ، والكفر والزيغ باختيار العبد فلا فائدة من القول لا تسمنا بإسم الزيغ والكفر .

وأما قولهم :«لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك» فهو أنه لو كان علمه تعالى بأنه يكفر في السنة الثانية يوجب عليه أن يميته ، لكان علمه بأن لا يؤمن قط ويكفر طول عمره يوجب عليه أن لا يخلقه .

وأما قولهم :«بأنه المقصود الحراسة من الشيطان وشرور النفس» ، فإن كان مقدوراً وجب فعله فلا فائدة في الدعاء ، وإن لم يكن مقدوراً تعذر فعله فلا فائدة في الدعاء [1].

يتضح من خلال تأويلات المعتزلة السابقة لآيات القرآن الكريم :

١ - البعد عن الحق لكونهم ينكرون خلق الله تعالى لأفعال العباد وهذا مخالف لدليل النقل والعقل على وحدانية الله تعالى .

٢ - أن الذي دفعهم إلى إضافة الخلق إلى العبد حرصهم على تنزيه الله تعالى عن خلق الظلم والقبائح دون التمييز بين الخلق وبين الفعل ، فالله تعالى خالق يتصرف في ملكه كما يشاء .

٣ - اعتمدوا في تأويل الآيات على قياس الغائب علي الشاهد أي قياس أفعال الله تعالى على أفعال الإنسان وهذا الذي أوقعهم في الضلال .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ١٥٧/٧ .

ثانياً : موقف المعتزلة من آيات الاختيار والرد عليهم :

يناقش هذا الجزء من المطلب ، آراء المعتزلة حول إرادة الإنسان الحرة ، ووجوده نازعي الخير والشر فيه ، وإثبات الكسب له ، وفيما يأتي بيان ذلك :

١ – آيات الإرادة الإنسانية الحرة :

يقول الله تعالى :﴿... مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ...﴾[(١)] .ويقول تعالى :﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾[(٢)] .

عقب القاضي عبد الجبار على هذه الآيات مبيناً حقيقة الاختيار الإنساني بقوله :«فقد فوض الأمر في ذلك إلى إختيارنا ، فلولا أن الكفر والإيمان متعلقان بنا ، ومحتاجان إلينا ، وإلا كان لا معنى لهذا الكلام ، ولتنزل منزلة قوله من شاء فليسود ومن شاء فليبيض ، فكما أن ذلك سخف لأن الإسوداد والابياض غير متعلقين بنا ، كذلك في مسألتنا »[(٣)] .

وأما الزمخشري فقال :«والمعنى جاء الحق وزاحت العلل، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ماشئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك ، وجيء بلفظ الأمر والتخيير لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه مُخّبَر مأمور بأن يتخير ماشاء من النجدين»[(٤)] . واعتبر المعتزلة أن الآيات السابقة صريحة في أن «الأمر في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض إلي العبد واختياره ، فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن»[(٥)] ، فالإنسان عندهم مخير اختياراً تاماً من حيث أنه خالق لأفعاله ، وأن أفعاله لا علاقه لها بالإرادة والمشيئة الإلهية ولذا يقول الزمخشري :«ومن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره»[(٦)] .

إن الذي دفع المعتزلة إلى هذا القول «هو أن في أفعال العباد ماهو ظلم وجور ، فلو كان الله تعالى خالقاً لها لوجب أن يكون ظالماً جائراً»[(٧)] . وهذا أدى بالقاضي عبد الجبار إلى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ٣٦٢ .

(٤) الكشاف ٤٨٢/٢ .

(٥) التفسير الكبير ١٠١/٢١ .

(٦) الكشاف ٥٩/٢ .

(٧) شرح الأصول الخمسة ص ٣٤٥ .

نفي الإرادة الإلهيـة لينزههـا عن إرادة القبيح بقـولـه :«إن الإرادة فعل من الأفعـال ، ومتى تعلقت بالقبيح فتجب لا محالة ، وكونه تعالى عدلاً يقتضي أن تنفي عنه هذه الإرادة»[١] .

طبق المعتزلة مبدأ قياس الغائب على الشاهد[٢] ، وأعملوا العقل على عادتهم فقيدوا إرادة الله تعالى بالحكمة والعدل ، ونزهوه عن خلق الشر ، ووصفوا أفعاله كلها بالعدل والحسن ، حيث أن العقل لا يتصور وقوع الشر من الله سبحانه وتعالى ، فالعدل صفة كمال كما هو شأنها عند الإنسان ، ولايمكن أن تخلوا أفعاله من الحكمة وقصد الخير .

إن رأى المعتزلة في أصل العدل ، قد تأثروا فيه بمذهبهم في أصل التوحيد ، حيث نفوا في التوحيد عن الله تعالى الصفات إطلاقاً لتنزيهه عن مشابهة المخلوق ، فنزهوا الله تعالى في العدل عن الظلم حتى لا يشابه المخلوق في صدور الظلم عنه «فالله في أصل التوحيد منفرد في ذاتيته ، وفي أصل العدل منفرد وبخيريته» [٣].

لقد نظر المعتزلة إلى مشكلة الخير والشر نظرة إنسانية ، ولكن أهل السنة نظروا نظرة إيمانية حيث تعظيم الله تعالى، وعدم الإقرار بأن يكون في ملكه مالايريد ، لأن ذلك انتقاص من إرادته وقدرته :«فأساس المشكلة أن المعتزلة ينظرون إلى الأمر من ناحية تنزيه الله عن كل قبيح ،ويقيسون القبائح والظلم بما نعلمه في حياتنا ومعاملاتنا»[٤]، فشبهوا الله سبحانه ومثلوه في الأفعال بأفعال العباد ، وضربوا له الأمثال ولم يجعلوا له المثل الأعلى، واعتبروا أنه تعالى إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع مايقدر عليه، من وجوه الإعانة كان ظالماً له ، ولذلك وضح الإمام ابن تيمية الظلم الذي حرمه الله على نفسه بقول:«مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ،ويعاقب البريء على مالم يفعل من السيئات،ويعاقب هذا بذنب غيره،أو يحكم بين الناس بغير القسط،ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه عنها الرب لقسطه وعدله وهو قادر عليها ،وإنما استحق الحمد والثناء لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه»[٥] .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣١ .

(٢) المقصود بقياس الغائب على الشاهد : أي قياس أفعال الله تعالى ، على أفعال الإنسان ، وهذا من أفسد القياس وأعظمه بطلاناً ، فإنه تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في أفعاله ، انظر: مفتاح دار السعادة ٥٢/٢ ، المستصفى للغزالي ٦١/١ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د. على النشار ٣٢٤/١ . السابعة سنة ١٩٧٧م دار المعارف – القاهرة

(٤) شرح الأصول الخمسة ص ٤٣١ الحاشية تعليق عبد الكريم عثمان .

(٥) مجموعة الرسائل المنيرية ٢٠٩/٣ ، شرح حديث ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي .

إن الآيات السابقة تثبت أن حصول الإيمان ،وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر ، وصريح العقل أيضاً يدل عليه ، لأن الفعل الاختياري يمنع حصوله بدون القصد إليه ، وبدون الاختيار له ، وهذا القصد والاختيار خلقه الله تعالى في العبد ، وقد بين الإمام الغزالي هذه الحقيقة بقوله :«فإن قلت إني أجد في نفسي وجداناً ضرورياً أنى إن شئت الفعل قدرت على الفعل ، وإن شئت الترك قدرت على الترك ، فالفعل والترك بي لابغيري ... وأجاب بقوله :هب أنك تجد في نفسك هذا المعنى ، ولكن هل تجد من نفسك أنك إن شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة ، وإن لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل . بل العقل يشهد بأنه يشاء لابسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة ، وإذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار في هذا المقام ، فحصول المشيئة في القلب أمر لازم ، وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضاً أمر لازم ، وهذا يدل على أن الكل من الله تعالى»[(1)] وهذا يدل بوضوح على بطلان موقف المعتزلة من الإرادة الإلهية وعلاقتها بالإرادة الإنسانية ، ويثبت أن الإرادة الإنسانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بإرادة الله تعالى ومشيئته ، وأن إرادة الإنسان وأفعاله خلق لله تعالى .

ب – وجود نازعي الخير والشر في الإنسان :

ورد في القرآن الكريم آيات تتحدث عن نازعي الخير والشر في الإنسان ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[(2)] . وذكر المعتزلة عدة تأويلات لهذه الآية ومن ذلك :

١ - أن شاكراً أو كفوراً حالان من الهاء في هديناه ، أي مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعاً ، فهديناه السبيل كونه شاكراً وكفوراً ، والمعنى أن كل مايتعلق بهداية الله وإرشاده ، فقد تم حالتي الكفر والإيمان .

٢ - أو دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع ، كان معلوماً منه أن يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة .

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي ج٤ ص ٢٥٤ ، ط ١٩٨٢م ، دار المعرفة . بيروت – لبنان ، وانظر : التفسير الكبير ١٠٢/٢١ .

(٢) سورة الإنسان الآية ٣ .

٣ - يجوز أن يكون حالين من السبيل : أي عرفناه السبيل ، إما سبيلاً شاكراً ، وإما سبيلاً كفوراً، كقوله :﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(١) . ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز .

٤ - أن انتصاب قوله : شاكراً وكفوراً باضمار كان والتقدير سواء كان شاكراً أو كان كفوراً (٢).

وقد وقف الإمام الرازي عند هذه الأقوال وبين أنها تابعة لمذهب المعتزلة ويذكر تأويلاً خامساً يعتبره مطابقاً لمذهب أهل السنة ، وهو أن تكون «إما» في هذه الآية مثل «إما» في قوله تعالى :﴿...إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ...﴾(٣) . والتقدير «إنا هديناه السبيل» ثم جعلناه تارة شاكراً أو تارة كفوراً ، وأكد الرازي هذا التأويل ورجحه بما روى أنه قرأ أبو السمال بفتح الهمزة في «أما» والمعنى إما شاكراً فبتوفيقنا وإما كفوراً فبخذلاننا ، وذكر أن المعتزلة تعتبر هذا التأويل باطل ، ودليل ذلك أنه تعالى ذكر بعده هذه الآية ، تهديد الكفار فقال ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلاً وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً﴾(٤) فلو كان كفر الكافرين من الله تعالى وبخلقه لما جاز منه أن يهدده عليه ، واعتبر المعتزلة التأويل الصحيح هو أنه تعالى هدى جميع المكلفين سواء آمن أو كفر(٥).

ولكن عند الرجوع إلى الزمخشري في تفسيره يتضح أنه يؤيد قراءة أبي السمال حيث يقول :«وقرأ أبو السَّمَّال بفتح الهمزة في «أما» وهي قراءة حسنة والمعنى إما شاكراً فبتوفيقنا ، وإما كفوراً فبسوء اختياره» (٦).

والظاهر أن الزمخشري في تحسين هذه القراءة قصد إثبات مذهبه وهو عدم خلق الله تعالى للهداية والشكر والكفر ، ولهذا يرد عليه ابن المنير بقوله :«واستحسانه لقراءة أبي السمال لتخيله أن في التقسيم إشعاراً بغرضه الفاسد ، وليس كذلك فإن التقسيم يحتمل الجزاء إما شاكراً فمثاب وإما كفوراً معاقب ، ويرشد إليه ذكر جزاء الفريقين بعد»(٧) .

---

(١) سورة البلد الآية ١٠ .

(٢) انظر : الكشاف ١٩٥/٤ ، وانظر : التفسير الكبير ٢١١/٣٠ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٠٦ .

(٤) سورة الإنسان الآية ٤ .

(٥) انظر : التفسير الكبير ٢١١/٣٠ - ٢١٢ .

(٦) الكشاف ١٩٥/٤ .

(٧) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير ١٩٥/٤ ، حاشية الكشاف .

إن الله تعالى هو المبين طريقي السعادة والشقاء ، والعبد له اختيار أحد الطريقين ، فإن اختار طريق الخير والإيمان كان شاكراً،وإن اختار طريق الشر والكفر كان كفوراً . ولكن الخالق للهداية والضلال والخير والشر والكفر والإيمان هو الله تعالى والعبد هو الكاسب والفاعل .

وأما قوله تعالى :﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1] . قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآيات :«ومعنى الهام الفجور والتقوى إفامها وإعقالها ، وأن أحدهما حسن الآخر قبيح ، وتمكينه اختيار ماشاء منها بدليل «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما »[2] .

إن كلام الزمخشري هذا يظهر منه بوضوح فكر المعتزلة ، من حيث الحكم على الأشياء بالعقل ، أو من حيث إنكار خلق الله تعالى للأفعال ، فيتضح من كلامه الاعتقاد بأن الحسن والقبح مدركان بالعقل مع أن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع ، لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية ، ولكن لا يُلغى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لابد في علم كل حكم شرعي من «المقدمتين : عقلية وهي الموصلة إلى العقيدة ، وسمعيه مفرعة عليها وهي الدالة على خصوص الحكم»[3] سواء كان هذا الحكم يدل على حسن الشيء أو قبحه .

ومن هنا يتضح الخلاف بين المعتزلة والسلف حول جهة التحسين والتقبيح ، وليس في ذات الحسن والقبح ، فيرى المعتزلة أن كل ماورد في القرآن ، من تكاليف وشرع ، إنما هو تعريف بما ركزه الله تعالى في عقول البشر من جِبلّة الخلق تحسيناً وتقبيحاً ، على حد قول القاضي عبد الجبار :«إن كل عاقل يستحسن بكمال عقله التفرقة بين المحسن والمسيء»[4] .

وينكر أن يكون التحسين والتقبيح بالشرع أي بالأمر والنهي فيقول :«فلو حسن الفعل للأمر وقبح للنهي ، لكان يجب كما لا يقبح من الله تعالى فعل لفقد النهي ، أن لا يحسن منه فعل أيضاً لفقد الأمر»[5] .

لقد سبق وتبين بطلان قول القاضي عبد الجبار سابق الذكر ، لأن العقل لا مجال له في

---

(١) سورة الشمس الآيات ٧ – ١٠ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/٢٥٩ .

(٣) الإنصاف لابن المنير ٤/٢٥٨ حاشية الكشاف .

(٤) شرح الأصول الخمسة ص ٣٠٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٣١١ .

أن يحكم على أفعال الله تعالى لا بالتحسين ولا بالتقبيح وذلك لأن «الفعل الصادر عن الله تعالى إما أن يكون وجوده وعدمه بالنسبة إليه على السوية أو لا يكون ، فإن كان الأول ، فقد بطل الحسن والقبح ، وإن كان الثاني لزم كونه ناقصاً بذاته ، مستكملاً بذلك الفعل وذلك في حق الله تعالى محال»[1] .

والسلف قد خالفوا المعتزلة في قولهم بأن الحكم على الأفعال بالتحسين أو التقبيح يكون بالعقل بل ، قالوا إن «وجوب الأفعال وحظرها وتحريمها على العباد ،فلا يعرف إلا من طريق الشرع»[2]. فاعتبروا أن القبيح مانهى عنه الشرع ، والحسن ما أمر به ، ولا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها وإنما الأساس في ذلك الشرع .

ج - إثبات الكسب للإنسان :

بُحِثَ فيما سبق موقف أئمة السلف من مسألة الكسب ، على ضوء الكتاب والسنة ، غير أن للمعتزلة موقفاً مغايراً لذلك ، حيث عرفوه بأنه «إحداث العبد لفعله بقدرته ومشيئته استقلالاً ،وليس للرب صنع فيه ولا خالق فعله ولا مكونه ولا مريداً له»[3]ولكن القاضي عبد الجبار ينكر تحديد الاصطلاح على الكسب لأنه يعتبره أمراً غير معقول فيقول «الاصطلاح على ما لا يعقل غير ممكن لأن الشيء يعقل معناه أولاً ،ثم إن لم يوجد له اسم في اللغة يصطلح عليه ، فأما والمعنى لم يثبت بعد ولم يعقل فلا وجه للاصطلاح عليه»[4] واستدل على كون الكسب غير معقول بقوله :«بأنه لو كان معقولاً ، لوجب كما عقله أهل اللغة وعبروا عنه،أن يعقله غيرهم من أرباب اللغات ، وأن يضعوا له عبارة تنبئ عن معناه ... فلما لم يوجد في شيء من اللغات مايفيد هذه الفائدة البتة دل على أنه غير معقول»[5].

تعقيباً على قول القاضي عبد الجبار ، يظهر أنه ليس مستوعباً لقضية الكسب ، على الرغم من أن القرآن الكريم أثبتها على الحقيقة ، فقال تعالى :﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[6] . وقال

---

(١) معالم أصول الدين للرازي ص ٩٣ ص ٩٤ .

(٢) أصول الدين للبغدادي ص ٢٤ ، وانظر : المواقف للإيجي ص ٣٢٣ ، مجموع الفتاوي ٣٠٩/٨ .

(٣) شفاء العليل ص ١٣٠ ، وانظر : ص ١٢١ من نفس المصدر .

(٤) شرح الأصول الخمسة ص ٣٦٤ .

(٥) المصدر السابق ٣٦٦ .

(٦) سورة البقرة الآية ٨١ .

تعالى :﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...﴾(١) وقال تعالى :﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾(٢) . إلا أن العقل عند القاضي لم يثبت ذلك ، وبما أن العقل مقدم على الشرع في مذهبه ، فلا مانع عنده إنكار حقيقة ذكرها القرآن الكريم . حيث أجاز إطلاق لفظ الخالق على الإنسان مع أن السمع منع ذلك فيقول :«أما تسمية أفعالنا بأنها مخلوقة فغير جائز على الإطلاق ، وقد منع السمع من إطلاق لفظ الخالق في العبد ، وإن كان من حيث اللغة لا تمنع تسميته بذلك» (٣).

واستدل المعتزلة علي عدم خلق أفعال العباد ، بالآيات التي تثبت الكسب للعبد على «أن فعل العبد بايجاده وتكوينه ، قالوا لأن الآية صريحة في إضافة خيره وشره إليه ولو كان ذلك بتخليق الله تعالى لبطلت هذه الإضافة ، ويجري صدور أفعاله منه مجرى لونه وطوله وشكله وسائر الأمور التي لاقدرة له عليها البتة»(٤) .

يتبين من خلال أقوال المعتزلة السابقة عن حقيقة الكسب ، أنهم يرون أنه من خلق الإنسان ، وأن الله تعالى غيرخالق لذلك ، وأن إرادته ومشيئته لا أثر لها في أفعال العباد ، بل بلغ الأمر بالقاضي عبد الجبار أن ينكر على من قال بالكسب ، على أساس أن الخلق لله تعالى والكسب للإنسان ، واعتبر أن ذلك مخالف للعقل فيقول :«وأما الكلام على القائلين بالكسب ، فالأصل فيه أن تعلم أن فساد المذهب قد يكون بأحد طريقين أحدهما : بأن تبين فساده بالدلالة ، والثاني : تبين أنه غير معقول في نفسه ، وإذا ثبت أنه غير معقول في نفسه كفيت نفسك مؤنة الكلام عليه ، لأن الكلام على ما لا يعقل لايمكن»(٥) . ويبرر رفضه لقضيه الكسب بقوله :«فإنه يجب أن يكون كل حكم للفعل ، كأن يحصل لو لم يجعله الله تعالى كسباً له ، أن يحصل له ، وإن جعله كسباً له ، مما يرجع إلى الله تعالى وإلى الفعل نفسه ، وكان يجب أن يكون تعالى - وإن جعله كسباً للعبد - ظالماً به إن كان ظلماً ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة المدثر الآية ٣٨ .

(٣) المجموع في المحيط بالتكليف ٤١٥/١ .

(٤) التفسير الكبير ١٢٤/٧ .

(٥) شرح الأصول الخمسة ص ٣٦٤ ص ٣٦٥ ، وانظر : المغنى ٢٢٢/٨.

ومستحقاً للذم عليه،وأن يكون تعالى موصوفاً بالقدرة علي الظلم والكذب والتفرد بهما ... وكان يجب كون العبد مضطراً لذلك»[1] .

حاول المعتزلة أن يردوا على السلف المثبتين الكسب ، ولهذا قالوا :«إن الكسب لو كان معقولاً لكان يجب أن نسمى القديم تعالى مكتسباً ، والمعلوم خلافه ، ووجه هذا الإلزام وجهان أحدهما : أن الله تعالى قادر لذاته ، ومن حق القادر لذاته أن يكون قادراً على جميع أجناس المقدورات ، وعلى جميع الوجوه التي يصح أن يقدر عليها ، ومن الوجوه التي يقدر عليها الكسب ، فيجب أن يكون تعالي قادراً عليه ، فإذا قدر عليه وفعله وجب أن يسمى مكتسباً علي ماذكرناه .

الوجه الثاني : هو أن هذه التصرفات عند القوم متعلقة بالله تعالى على سائر صفاتها ووجوهها ، ومن وجوه الأفعال الكسب ، فيجب تعلقه به من هذا الوجه» [2].

كما هي عادة المعتزلة في قياسهم أفعال الله تعالى على أفعال المخلوقين ومعلوم بطلان ذلك ، كما أنهم يحاولوا إثبات أن الكسب الذي أثبته السلف لا حقيقة له خشية أن ينسب لله تعالى ، وقصدهم من ذلك الرد على السلف لإثباتهم الكسب للعبد .

يتضح من خلال إنكار المعتزلة على من أثبت الكسب أن ذلك راجع إلى اعتقادهم ،أن إثبات الكسب هو عين القول بالجبر، ويبدو أن إثبات الإمام الأشعري للكسب يشعر بذلك حيث عرفه بقوله :«الاقتران العادي بين القدرة والفعل ، وأن الله سبحانه وتعالى أجري عادته بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بهما »[3].وهذا جعل الإمام الأشعري يرى أن القدرة الحادثة التي هي قدرة العبد لا أثر لها في إيجاد الفعل .ولم يقبل كثير من العلماء رأي الإمام الأشعري في الكسب ، ووصفوه بأنه غير معقول . ويقول الإمام ابن تيمية :«فلهذا قال من قال إن هذا الكسب الذي أثبته الأشعري غير معقول لأنه يثبت للعبد قدرة محدثة واختياراً ، ويقول إن الفعل كسب للعبد، لكنه يقول لا تأثير لقدرة العبد في إيجاد المقدور» [4]. ولذا اُعتُبِر أن مذهب الإمام الأشعري هو مذهب الجبر بعينه لا فرق إلا في العبارة واللفظ . فالعبد مجبر في صورة مختار .

(١) المغنى في ابواب العدل والتوحيد ١٨٢/٨ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٣٦٩ ، ص ٣٧٠ .

(٣) الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٧٩ .

(٤) منهاج السنة النبوية ١٦/٢ – ١٧ (بتصرف) .

إن التكليف بناءً على قول الإمام الأشعري غير معقول لكونه اعتبر قدرة العبد لا أثر لها في إيجاد الفعل ،كما أن المقارنة بين القدرة والفعل ينتهي بتكليف العاجز ، ومعلوم شرعاًوعقلاً عدم تكليف العاجز حيث قال تعالى :﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ...﴾[1] . وقد صدق من قال : إن كسب الأشعري وأحوال أبي هاشم [2]وطفرة النظام [3]من محالات الكلام [4].

وحقيقة الكسب أنه لابد فيه من إثبات فعل العبد إلى قدرته حقيقة، لا على وجه الإحداث والخلق ، لأن الخلق يشعر باستقلال ايجاد الفعل من العدم ، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار ، يحس من نفسه عدم الاستقلال ، فالفعل يستند وجوده إلى المقدور ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب ، الذي هو الخالق للأسباب ومسبباتها وهو الله سبحانه وتعالى . ولذلك يرى الإمام الغزالي ، أنه لما بطل الجبر المحض بالضرورة وكون العبد خالقاً لأفعاله بالدليل ، وجب الاقتصاد في الاعتقاد ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب ، وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون على وجه الاختراع ، إذ قدرة الله تعالى في الأزل متعلقة بالعالم من غير اختراع . ثم تتعلق به عند الاختراع نوعاً آخر من التعلق ، فحركة العبد باعتبار نسبتها إلى قدرته تسمى كسباً له ، وباعتبار نسبتها إلى قدرة الله تعالى خلقاً ، فهي خلق للرب ووصف للعبد وكسب له ، وقدرته خلق للرب ووصف للعبد وليس بكسب له [5].

إن خروج الفعل من العدم إلى الوجود بتوسط القدرة المحدثة المخلوقة ، بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة ، كما خلق النبات بالماء ، وخلق الغيث بالسحاب وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٢) أحوال أبي هاشم : هو قوله بالواسطة بين الموجود والمعدوم . انظر: ضحي الاسلام ١٢٤/٣ ، الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٨٠ .

(٣) طفرة النظام : هو أن الجسم الواحد قد يكون في مكان ثم يصير في المكان الثالث من غير أن يمر بالثاني على سبيل الطفرة . انظر ضحى الإسلام ١٢٤/٣ ، الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٨٠ .

(٤) انظر: الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ص ٨٠ .

(٥) انظر : إحياء علوم الدين ١١١/١ ، وانظر : شرح المقاصد ٢٢٦/٤ .

حق ، وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات ، وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً ، وإلا فلزم كون إثبات جميع الأسباب شركاً، وقد قال الله تعالى :﴿... فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ...﴾[1] وقال : ﴿... فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ...﴾[2] . وقال :﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ...﴾[3] فهي أسباب وأوساط وأدوات في إخراج النبات أو وصول العذاب [4].

إن اعتبار الإمام الأشعري قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل ، هو الذي فتح الباب أمام المعتزلة لاعتبار إثبات الكسب للعبد هو الجبر بعينه ، والحق أنه لابد من اعتبار أن القدرة الحادثة المخلوقة لها تأثير في ايجاد الفعل ، وهذا يثبت حرية الاختيار لدى الإنسان ويؤكد حقيقة الكسب .

إن الناظر في فكر المعتزلة يتضح له أن ضلالهم وبعدهم عن الحق يرجع إلى عدة أسباب ، ومن ذلك مايلي :

١ - إتخاذ الدليل العقلي معياراً للحقيقة الدينية بل وتقديمه علي النقل ، فقد اعتبر المعتزلة العقل معياراً لكل شيء ، وقد مكن الله به العبد من معرفة الحقيقة الدينية وهذا مظهر من مظاهر عدله تعالى وحكمته [5]. ولذلك يعتبرونه عنصراً مقدساً خصه الله تعالى بالقدرة على الفصل بين كل خير وشر ، ولهذا كانت جهود المعتزلة مركزة للإرتقاء بالعقل إلى مستوى البرهان في مسائل العقيدة ، لأنهم يفرقون بين نوعين من الدليل هما دليل العقل ، ودليل السمع ، يذكر الجاحظ[6] أن الدليل يتكون من ثلاثة عناصر هي العقل والعيان - وهو المشاهدات الكونية التي حث القرآن على تدبرها - والخبر والمقصود به القرآن والسنة فيقول

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٧ .

(٢) سورة النمل الآية ٦٠ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٤ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوي ٣٨٩/٨ - ٣٩٠ .

(٥) انظر : الحيوان للجاحظ ٥٤٣/٥ .

(٦) الجاحظ : هو ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كان رأساً في الكلام والإعتزال عاش تسعين سنة أو يزيد ، أخذ عن أبي اسحاق النظام ، صنف كثيراً من المصنفات مات سنة ٢٥٥ هـ ، وإليه تنسب فرقة الجاحظية ، وقد سمى بالجاحظ لجحوظ عينيه وكان شنيع المنظر سيء المخبر ، رديئ الاعتقاد . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٩/١١ - ٢٠ .

:«والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ،ولابد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لابطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر » [1].ولذلك يرى المعتزلة أن الواجب اتباع الدليل العقلي في تفسير القرآن الكريم، ورد ما يخالف ذلك من ظاهر الآيات .

إن جعل المعتزلة العقل اساساً لفهم القرآن الكريم أدى بهم أن يفسروا القرآن على حسب فهم العقل البشري ، وحكموه في كل شيء وحينما نظروا إلى الآيات التي ظاهرها التعارض جعلوا العقل الفيصل فيها ، فأولوا الآيات التي لا تتفق مع ما توصل إليه رأيهم حتى صار التأويل طريقتهم .

٢ - تقيس المعتزلة الغائب على الشاهد وهذا أدى بهم إلى الوقوع في أخطاء جسام، لأنه لا ضرورة لأن يكون مايعتبر ظلماً إذا فعله الإنسان ، أن يكون كذلك ظلماً إذا فعله الله تعالى ، لأن اعتبار العمل ظلماً أو عدلاً يقتضي الاطلاع على جميع أحواله وملابساته ، وهذا بالنسبة للإنسان ممكن بل ويسير أن يُعرف ويُحاط به ، ولكنه بالنسبة لله تعالى مستحيل ،لأن الأحاطة بالله تعالى مستحيلة ، حيث قال سبحانه :﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ...﴾[2] فإيجاب العدل على الله تعالى كما يريده ويتصوره المعتزلة خطأ محض ، وكذلك الحكم على فعل من أفعاله تعالى . حيث يقول ابن القيم «ومبنى هذه الشبهة على أصل فاسد وهو قياس الرب على خلقه وتشبيههم في أفعاله بحيث يحسن منه مايحسن منهم ، ويقبح منه مايقبح منهم ، ولهذا كانت القدرية مشبهة الأفعال ... وهذا الأصل الفاسد مما رده عليهم سائره العقلاء ، وقالوا قياس أفعال الرب على أفعال العباد من أفسد القياس،وكذلك قياس حكمته على حكمتهم وصفاته على صفاتهم» [3].

٣ - حكمهم على أفعال العباد بأنها خلق منهم وإنكار كونها خلقاً لله تعالى ،وكان الأولى بهم أن يبحثوا أفعال العباد في جانب الثواب والعقاب وليس من جانب الخلق والإرادة ، حيث أنهما صفتان من صفات الله تعالى ، ولكن المعتزلة أخطأوا في هذا الجانب بإثباتهم خلق الأفعال للعبد ونفيه عن الله تعالى ، لكونهم ينكرون صفات الله تعالى خشية التشبية، فوقعوا في التعطيل .

---

(١) مفهوم العدل في تفسير المعتزلة ، د. محمود كامل أحمد ص ٥٣ . دار النهضة – بيروت سنة ١٩٨٣م .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٣) شفاء العليل ص ٢٤٨ .

٤ - تأويل الآيات القرآنية حسب أهوائهم وآرائهم وكل ماخالف ذلك حملوه على المجاز ، وذلك فراراً من ظاهر اللفظ وحقيقته ، فاعتبروا كلمة مجاز أيسر طريق لهم في مواجهة حقائق النصوص القرآنية التي تخالف معتقداتهم .

الفصل الثاني
أفعال العباد في السنة النبوية

الفصل الثاني
أفعال العباد في السنة النبوية
المبحث الأول
مناقشة أفعال العباد على ضوء السنة النبوية

تحدثت السنة النبوية عن أفعال العباد من الجانبين ، الجانب الجبري ، والجانب الاختياري ، وسيتضح من خلال الدراسة أن الأحاديث التي تتعلق بالجانب الجبري إنما تتحدث عن كون الأفعال تابعة للقدر وللمشيئة الإلهية الكونية ، وأنها خلق الله تعالى ، وأما مايتعلق بالجانب الاختياري فهي تابعة للإرادة الشرعية ، والتي هي الأوامر والنواهي التي يتعلق بها التكليف .

المطلب الأول : أحاديث الجبر وفهم السلف لها :

بالنظر إلى الأحاديث التي يشعر ظاهرها بالجبر ، إنها تتعلق بالقدر وخلق الأعمال ، أو تصريف القلوب ، وستظهر حقيقة الجانب الجبري من خلال دراسة هذه الأقسام وهي :

أولاً : أحاديث القدر :

ورد عدد من الأحاديث تتعلق بالقدر وتبين علاقة ذلك بأفعال الإنسان ومن ذلك :

١ – حديث محاجة آدم وموسى عليهما السلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ :**[احتج آدم وموسى . فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . فقال له آدم : أنت موسى اصطفاك الله بكلامه . وخط لك بيده . أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فقال النبي ﷺ : فحج آدم موسى . فحج آدم موسى]** (١).

هذا الحديث يتحدث عن القدر وعن علم الله تعالى السابق ، وظاهره يوحي بالجبر ، ولكن حقيقته خلاف ذلك ، وقد حصل خلاف حول زمن هذه المحاجة ، فقيل يحتمل أنه في زمان موسى عليه السلام ، حيث أحيا الله له آدم معجزة له فكلمه ، وقيل أراه الله روحه

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٤٢/٤ كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام حديث رقم ٢٦٥٢ ، صحيح البخاري ٢١٤/٧ كتاب القدر ، باب تحاج آدم وموسى عند الله .

فحدثت محاجة روحية ، وقيل أراه الله له في المنام ، ورؤيا الأنبياء حق[١]. والراجح أنهما اجتمعا بأشخاصهما حقيقة ،حيث إن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

وأما المقصود بقوله :«خيبتنا وأخرجتنا من الجنة» أي كنت سبب خيبتنا وإغوائنا بالخطيئة التي ترتب عليها إخراجك من الجنة ، إذ لو لم يقع الأكل من الشجرة، لم يقع الإخراج من الجنة ، ولو لم يقع الإخراج ما تسلط عليهم الشيطان [٢].

والمقصود بالتقدير في قوله :«أمر قدره الله» هو الكتابة في اللوح المحفوظ ، وفي صحف التوراة وألواحها ، لأن تقدير الله تعالى أزلي ، فلا يجوز أن يراد به حقيقة القدر ، لأن علم الله تعالى، وماقدره على عباده ،وأراد من خلقه ،أزلي لا أول له [٣]. ويؤكد هذا وضوح إحدى روايات مسلم في صحيحه **[فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجيا . فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاماً . قال آدم : فهل وجدت فيها : ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[٤] قال نعم]**[٥] .

وهذا دليل على سابق علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد قبل صدورها فعلياً منهم .

ولكن على الرغم من وضوح حجته ، «يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر يستلزم الجبر وقهر العبد ، ويتوهم أنه غلبة آدم كانت من هذا الوجه ، وليس كذلك وإنما معناه الإخبار عن إثبات علم الله بما يكون من أفعال العباد ، وصدورها عن تقدير سابق منه»[٦] . ولهذا قال ابن عبد البر[٧] «إن هذا الحديث أصل جسيم لأهل الحق في إثبات القدر

---

(١) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٠٦/١١ ، مسلم بشرح النووي ٢٠٠/١٦ .

(٢) انظر : البخاري بشرح الكرماني ٨٤/٢٣ ، ط الثانية سنة ١٩٨١م ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، وانظر : فتح الباري ٥٠٦/١١ ، وانظر : مسلم بشرح النووي ٢٠٠/١٦ ، عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي لابن العربي ٢٩٨/٨ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

(٣) انظر : مسلم بشرح النووي ٢٠١/١٦ ، عون المعبود شرح سنن أبي داوود ٤٦٧/١٢ .

(٤) سورة طه الآية ١٢١ .

(٥) صحيح مسلم ٢٠٤٣/٤ ، كتاب القدر ، باب حجاج آدم موسى رقم ٢٦٥٢ .

(٦) فتح الباري ٥٠٩/١١ .

(٧) ابن عبد البر : هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي من كبار حفاظ الحديث ومؤرخ ، ومن كتبه الإستيعاب توفي سنة ٤٦٣هـ ، انظر : وفيات الأعيان ٦٦/٧ – ٦٧ ، الاعلام ٢٤٠/٨ .

، وأن الله قضى أعمال العباد فكل أحد يصير لما قُدِّر له بما سبق في علم الله»[1] .

«فحج آدم موسى» أي غلبه بالحجة وظهر عليه بها ، وقد ظهرت آراء في حقيقة هذه المحاجة ، وسبب غلبة آدم فيها ، وذكر الإمام ابن حجر العسقلاني[2] عدة وجوه وآراء ومن ذلك :

١ - أنه ليس لمخلوق أن يلوم مخلوقاً في وقوع ماقدر عليه إلا بإذن من الله تعالى ، فيكون الشارع هو اللائم ، فلما أخذ موسى عليه السلام في لومه من غير إذن من الله تعالى عارضه بالقدر فأسكته .

٢ - أن مافعله آدم عليه السلام اجتمع فيه القدر والكسب ،والتوبة تمحو أثر الكسب، وقد تاب الله عليه ، فلم يبق إلا القدر ، والقدر لا يتوجه عليه لوم ، لأنه فعل الله تعالى ولا يُسأل عما يفعل .

٣ - وقيل أن هذا مخصوص بآدم ، لأن المناظرة بينهما وقعت بعد أن تاب الله على آدم ، فحسن من آدم عليه السلام أن ينكر على موسى عليه السلام لومه على الأكل من الشجرة ، لأنه قد تيب عليه .

٤ - أن آدم حجه لأن موسى لامه بعد أن مات ، واللوم إنما يتوجه على المكلف مادام في دار التكليف ، فلم يكن في قول موسى فائدة بل فيه إيذاء وتخجيل .

٥ - وقيل إن آدم أب ، وموسى ابن وليس للإبن أن يلوم أباه [3].

وعقب الإمام النووي أيضاً فقال :«معنى كلام آدم أنك ياموسى تعلم أن هذا كتب عليّ قبل أن أخلق فلابد من وقوعه ، ولو حرصت أنا والخلق أجمعون على رده مثقال ذرة منه لم نقدر ، فلا تلمني ، فإن اللوم على المخالفة شرعي لا عقلي ، وإذا تاب الله تعالى على آدم وغفر له زال عنه اللوم ، فمن لامه كان محجوجاً بالشرع»[4].

---

(١) فتح الباري ٥٠٩/١١ .

(٢) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ابو الفضل من أئمة العلم والتاريخ ، من عسقلان بفلسطين، فصيح اللسان راوية للشعر ، من تصانيفه فتح الباري شرح صحيح البخاري ، والإصابة في تمييز الصحابة . ولد سنة ٧٧٣هـ ، وتوفي سنة ٨٥٢ هـ ، انظر : الأعلام للزركلي ١٧٨/١ .

(٣) انظر : فتح الباري ٥١٠/١١ - ٥١١ ، القضاء والقدر للبيهقي ٤٨ ، البخاري بشرح الكرماني ٨٥/٢٣ ، شرح السنة للبغوي ١٢٦/١ - ١٢٧ ، عون المعبود ٤٦٩/١٢ .

(٤) مسلم بشرح النووي ٢٠٢/١٦ .

وحقيقة ذلك أن آدم عليه السلام غلب موسى عليه السلام في الحجة ، لأن ماوقع فيه آدم عليه السلام هو مصيبة ، وأما الذنب فقد تاب منه ، وقبل الله توبته ، ويجوز أن يحتج بالقدر في المصائب بخلاف المعائب،ولذلك يقول شارح الطحاوية :«فاحتج آدم بالقدر على المصيبة ، لاعلى الخطيئة ، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب ... فما قدر من المصائب يجب الإستسلام له ، فإنه من تمام الرضى بالله رباً ، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب ، فيتوب من المعائب ، ويصبر على المصائب»[(١)]. ويؤكد هذا الرأي الإمام ابن كثير بقوله:«إن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا على المعيبة»[(٢)].

إن الإنسان مأمور بالتسليم بالقدر عند المصيبة، لقوله تعالى :﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ...﴾[(٣)] . قال ابن مسعود رضي الله عنه :«هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسَلِّم»[(٤)] .

كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ :[...وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان][(٥)] .

إن المصيبة لم يردها الإنسان ، ولم يأتها مختاراً لها مؤثراً إياها ، وإنما تقع عليه بدون علم منه ، ولا إرادة ولا اختيار ، فيحسن الاحتجاج عليها بالقدر تخفيفاً من آلامها ، وثقل وطأتها على النفس ، وأما المعائب وهي الذنوب والمعاصي ، فإن العبد يأتيها مريداً لها ، وهو يعلم أن الله تعالى قد حرمها وكرهها ويصر على فعلها ، فإن فعلها فلا يصح منه أن يحتج عليها بإرادة الله تعالى وقدره بحال من الأحوال ، ولذلك يقول الإمام ابن تيمية : «وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين ، وسائر أهل الملل ، وسائر العقلاء ، فإن هذا لو كان مقبولاً ، لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس ، وأخذ الأموال ، وسائر أنواع الفساد في الأرض ، ويحتج بالقدر ، ونفس المحتج بالقدر إذا اُعتُدِي

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١٥٤ – ١٥٥ ، وانظر : المنتقى في منهاج الاعتدال للذهبي ١٢٣ – ١٢٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٨٥/١ .

(٣) سورة التغابن الآية ١١ .

(٤) مجموع الفتاوي ٣١٩/٨ .

(٥) صحيح مسلم ٢٠٥٢/٤ ، كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز حديث رقم ٢٦٦٤ .

عليه ، واحتج المعتدى بالقدر لم يقبل منه ، بل يتناقض ، وتناقض القول يدل على فساده ، فالاحتجاج بالقدر معلوم في بداية العقول»[1] . ولهذا قال آدم لموسى عليهما السلام «أتلومني على أمر قدرة الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة» ، فحج آدم موسى عليهما السلام ، لأن موسى عليه السلام لأمه عى المصيبة التي حصلت بسبب فعله وهي الخروج من الجنة ، ولم يكن اللوم على الذنب ، ولهذا احتج آدم عليه السلام بالقدر «لأن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس»[2] . حيث ثبتت توبة آدم عليه السلام وقبولها بقوله تعالى :﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ...﴾[3] .

وهكذا يتبين أن احتجاج آدم عليه السلام بالقدر على المصيبة التي وقعت به ، وليس على ذات الذنب ، لأن الذنب قد تاب منه ، وتاب الله عليه ، ذلك أن القدر لا يحتج به عند الذنوب والمعايب ، ولو كان القدر حجة الأحد في الذنوب ، لكان حجة لإبليس وفرعون وغيرهما !! .

٢ – الإيمان بقدر الله وعدله :

عن ابن الديلمي[4] قال :أتيت أبي بن كعب فقلت له : قد وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني ، لعل الله أن يذهبه من قلبي ، فقال : **[لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ماقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار ، قال ثم أتيت عبدالله بن مسعود ، فقال مثل ذلك ، قال ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، ثم أتيت زيد بن ثابت محدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك]**[5] .

---

(١) مجموع الفتاوي ١٧٩/٨ .

(٢) مجموع الفتاوي ١٧٨/٨ – ١٧٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ٣٧ .

(٤) ابن الديلمي : هو عبد الله بن فيروز الديلمي المقدسي من كبار التابعين ومنهم من ذكره في الصحابة . انظر : تقريب التهذيب ص ٣١٧ ترجمة رقم ٣٥٣٤ ، وانظر : الكاشف ١٠٥/٢ .

(٥) سنن أبي داود ٢٢٥/٤ ، كتاب السنة ، باب في القدر حديث رقم ٤٦٩٩ .

إن الله تعالى إذا أراد أن يعذب الناس عذبهم وهو غير ظالم لهم ، وإذا عفا عنهم ، عفا برحمته وكرمه ، لأن طاعات العباد وعبادتهم إذا قيست بما أنعم الله تعالى على الإنسان ، لاتساوي شيئاً ، إلى جانب أنه تعالى مالك الملك ، والناس كلهم عبيده ، وتصرف المالك في ملكه ومماليكه لا يكون ظلماً ، فلو وضع سبحان العدل على عباده لعذبهم بعدله فيهم ، ولم يكن ظالماً لهم ، لأنه «من المعلوم عقلاً وشرعاً وفطرة أن الله تعالى يستحق على عبده غاية التعظيم والإجلال والعبودية التي تصل إليها قدرته ، وكل ماينافي التعظيم والإجلال يستحق عليه من العقوبة مايناسبه»[1] . وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال :**[سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يارسول الله ، قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل]** [2].

فلولا رحمة الله بعبده لما أدخله الجنة لأن العمل بمجرده ولو تناهى لا يوجب بمجرده دخول الجنة ، ولا أن يكون عوضاً لها ، لأنه لو وقع على الوجه الذي يحبه الله تعالى ويرضاه لا يعدل نِعَمَهُ ، بل جميع عمل الإنسان لا يعدل نعمة واحدة أنعمها الله تعالى عليه ، فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها ، وهو لم يوفها حق شكرها ، ولذلك تكون رحمة الله خيراً له من عمله ، لأن رحمة الله تنجيه ، وعمله لا ينجيه «فعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم ببعض حقه عليهم ، وكان ما يطالب به من الشكر أكثر مما يطالب من دونه ، فيكون حق الله عليه أعظم ، وأعماله لا تفي بحقه عليه»[3] . فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له ، وإذا رحمه كانت رحمته خيراً له من عمله . ويؤكد ذلك مارواه الحاكم في مستدركه عن صاحب الرمانة الذي عبد الله خمسمائة عام حيث قال رسول الله ﷺ **[خرج من عندي خليلي جبريل آنفاً فقال : يامحمد والذي بعثك بالحق إن لله عبداً عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل في البحر .... فأخرج الله له عيناً عذبة بعرض الأصبع ، تبض بماء عذب فتستنقع في أسفل الجبل ، وشجرة رمان تخرج في كل ليلة رمانة تغذيه يومه ، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء ، وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته ، فسأل ربه عند وقت**

(١) مختصر الصواعق المرسلة ٣٣٣/١ .

(٢) صحيح مسلم ٢١٧٠/٤ ، كتاب صفات المنافقين ، باب لن يدخل الجنة أحد بعمله رقم ٢٨١٦ . صحيح البخاري ١٨١/٧، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل .

(٣) شفاء العليل ص ١١٤ ، وانظر : فتح الباري ٢٩٦/١١ ، عون المعبود شرح سنن أبي داود ٤٦٧/١٢ .

الأجل أن يقبضه ساجداً ، وأن لا يجعل للأرض ولا لشيء يفسده عليه سبيلاً حتى يبعثه وهو ساجداً، قال : ففعل ، فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فنجد له في العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله عز وجل ، فيقول له الرب أدخلوا عبدي الجنة برحمتي فيقول : رب بل بعملي (كررها ثلاثاً) فيقول الله عز وجل للملائكة قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله ، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمس مائة سنة ، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه ، فيقول : أدخلوا عبدي النار ، قال : فيجر إلى النار فينادي رب برحمتك أدخلني الجنة ، فيقول : ردوه فيوقف بين يديه فيقول : ياعبدي من خلقك ولم تك شيئاً ؟ فيقول : أنت يارب ، فيقول : كان ذلك من قبلك أو برحمتي ، فيقول برحمتك ، فيقول من قواك لعبادة خمسمائة عام ؟ فيقول : أنت يارب ، فيقول من أنزلك في جبل وسط اللجة وأخرج الماء العذب من الماء المالح ، وأخرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج مرة في السنة ، وسألتني أن أقبضك ساجداً ففعلت ذلك بك ؟ فيقول أنت يارب ، فقال الله عز وجل فذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة ، أدخلوا عبدي الجنة فنعم العبد كنت ياعبدي فيدخله الله الجنة . قال جبرئيل عليه السلام إنما الأشياء برحمة الله تعالى يامحمد](١) .

فهذا الحديث وغيره يدل على أنه لايدخل الجنة أحد بعمله ، ولكن هناك آيات تبين أن دخول الجنة يكون بالعمل كقوله تعالى :﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِيَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) . وقوله :﴿... سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣) . وقد ورد عدة أقوال للجمع بين الآيات والأحاديث حيث قال الإمام ابن الجوزي:« ويتحصل من ذلك أربعة أجوبة :

١ - أن التوفيق للعمل من رحمة الله تعالى ، ولو لا رحمته السابقة ماحصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة .

٢ - أن منافع العبد لسيده ، فعمله مستحسن لمولاه ، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله .

---

(١) المستدرك للحاكم ٤/٢٥٠ - ٢٥١ ، كتاب التوبة والإنابة . دار الكتاب العربي - بيروت ، قال الإمام الحاكم تعقيباً على الحديث «هذا حديث صحيح» . المستدرك للحاكم ٤/٢٥١ ، وقال الإمام ابن القيم «الإسناد صحيح لاريب فيه» شفاء العليل ص ١١٤ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٧٢ .

(٣) سورة النحل الآية ٣٢ .

٣ - جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة الله تعالى واقتسام الدرجات بالأعمال .

٤ - أن أعمال الصالحات كانت في زمن يسير ، والثواب لا ينفذ ، فالإنعام الذي لا ينفذ في جزاء ماينفذ بالفضل لا بمقابلة الأعمال » [١].

ويرى الإمام النووي :« أن ظاهر الايات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، والجمع بينها وبين الحديث أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها إنما هو برحمة الله وفضله » [٢].

وأما الإمام ابن حجر العسقلاني فيقول :« ويظهر لي في الجمع بين الآية والحديث جواب آخر وهو أن يحمل الحديث على أن العمل من حيث هو عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنة مالم يكن مقبولاً ، وإذا كان كذلك فأمر القبول إلى الله تعالى ، وإنما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه »[٣] .

فالعمل سبب شرعي لدخول الجنة ، ومن لم يحصل على ذلك السبب لا يكون أهلاً لرحمة الله وفضله ، فالعمل وحده لا يصلح أن يكون عوضاً لدخول الجنة ، لأن الطاعات زمنها يسير وثواب الله تعالى عليها بالجنة ذات النعيم الدائم الذي لا ينفذ ، فجعل ذلك العمل المحدود في مقداره وزمنه عوضاً لذلك النعيم الدائم فضل منه تعالى ، وأي فضل أعظم من أن يكافئ على العمل اليسير بجزاء لا حد له .

والذي يظهر من الحديث الشريف و الآيات القرآنية أن أعمال العباد الصالحة إذا قيست بنعم الله تعالى ، لا تدخلهم الجنة ، فلو أراد الله تعالى أن يحاسبهم على أعمالهم مع مقابلة ما أنعم عليهم لما دخل أحد الجنة بعمله ، ولكن رحمة الله تعالى بعباده ، اقتضت أن يحسابهم على أعمالهم دون النظر إلى النعم التي أنعم بها عليهم ، فلهذا كان دخول الجنة برحمة الله وفضله .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧٩٦/١١ (بتصرف) .

(٢) المصدر السابق ٢٩٧/١١ .

(٣) نفس المصدر ٢٩٦/١١ .

٣ – كتابة المقادير:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال :**[كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال لي :ياغلام إني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أ ن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف]** (١) .

إن هذا الحديث يثبت قدر الله سبحانه وتعالى السابق وكتابته الأزلية ، ويؤكد كذلك على أهمية العمل ، فقول الرسول ﷺ «احفظ الله» يعني بذلك الدعوة إلى العمل والأخذ بالأسباب ، أي احفظ حدوده وحقوقه ، وأوامره ونواهيه ، وحفظ ذلك يكون بالوقوف عند أوامره بالإمتثال وعند نواهيه بالإجتناب ، وفي المقابل من فعل ذلك حفظه الله تعالى ، ووجد الله معه في كل أحواله حيث يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه لقوله تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٢) كما نص القرآن الكريم علي أن العمل الصالح ينفع عند الشدة وينجي فاعله ، حيث قال تعالى حكاية عن يونس عليه السلام :﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣).

وقال بعض السلف :«من اتقى فقد حفظ نفسه ، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه ، والله غني عنه»(٤) .

إن الله سبحانه يحفظ من حفظه في جميع أحواله حتى من الحيوانات المؤذية بالطبع ، كما جرى لسفينة مولى رسول الله ﷺ من كرامة مع الأسد ،حيث كُسِرَ به المركب وخرج إلى جزيرة ، فرأى الأسد ، فدعا الله أن ينقذه منه ، فجعل الأسد يمشي معه حتى دله على الطريق ، فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه ثم رجع (٥).

بل إن العبد يحفظ بصلاحه بعد موته في ذريته كما قيل في تفسير قوله تعالى

---

(١) سنن الترمذي ٤/٦٦٧ ، كتاب صفة القيامة باب رقم ٥٩ حديث رقم ٢٥١٦ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٨

(٣) سورة الصافات الآية ١٤٣ – ١٤٤ .

(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٩٨ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ١٩٨ .

:﴿... وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...﴾[1] . فهذا الحفظ كان بسبب صلاح أبيهما ، لأجل ذلك كان سعيد بن المسيب[2] يقول لابنه :«لأزيدنَّ في صلاتي من أجلك رجاء أن أُحفظ فيك ، ثم تلا هذه الآية (وكان أبوهما صالحاً) » [3].

إن الحديث الذي سقناه آنفاً يدل بوضوح على الفراغ من الكتابة في الأزل «فلم يمكن أن يكتب فيها بعد ذلك تبديل أو نسخ لما كتب من ذلك واستقر ، لأنها أمور ثابتة لا تُبدل ولا تُغير عما هي عليه ، فذلك كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ من أمد بعيد»[4] . وإنَّ كل ماهو واقع من الإنسان في الحياة واقع مقدراً لا محالة سواء فعل ذلك من اختياره ، أو عن عدم اختيار ، مع أنه يستحيل على أحد من الخلق أن يطلع على علم الغيب الذي قدره الله سبحانه في سابق علمه ، والعبد لا يعلم بأنَّ الله تعالى قدر عليه الخير أو الشر إلا بعد وقوع أحدهما ، وأما قبل ذلك فلا أحد يعلم إلا الله تعالى . فإنْ أصاب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه ، فكله مقدور عليه ، ولا يصيب العبد إلا ماكتب له من مقادير ذلك في الكتاب السابق ، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً، ومما يؤكد ذلك قول الله تعالى :﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ...﴾[5].فإذا علم العبد أنه لن يصيبه إلا ماكتب الله له من خير أو شر ، و نفع أو ضر،علم حينئذ أن الله تعالى وحده هو الضار النافع،المعطي المانع،وهذا يوجب على العبد إفراده بالطاعة وحفظ حدوده،والرضا بقضاء الله وقدره حيث يقول الرسول ﷺ :**[عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له]**[6] . فالمؤمن الذي

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن مخزوم القرشي المخزومي ابو محمد سيد التابعين أحد العلماء والفقهاء الكبار . قال ابن المديني لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه وهو ثقة حجة رأس في العلم والعمل عاش تسعاً وسبعين سنة مات سنة ٩٤ ، انظر : الكاشف للذهبي ٢٩٦/١ ترجمة رقم ١٩٧٩، تقريب التهذيب ص ٢٤١ ترجمة رقم ٢٣٩٦ .

(٣) انظر : جامع العلوم والحكم ص ١٩٨ .

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٢٣١/١ . ط الثالثة ادارة البحوث العلمية والإفتاء . الرياض .

(٥) سورة التوبة الآية ٥١ .

(٦) صحيح مسلم ٢٢٩٥/٤ ، كتاب الزهد باب المؤمن أمره كله خير حديث رقم ٢٩٩٩ .

آمن بالقدر خيره وشره ، يرضى بقدر الله تعالى مطلقاً ، إن كان خيراً يشكر أو شراً يصبر ، محتسباً لله تعالى .

وورد أيضاً قول الرسول ﷺ :**[إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمني وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك ويكذب]** (١) .

يقول الإمام ابن حجر في شرحه لهذا الحديث :«كتب على ابن آدم ،أي قدر ذلك عليه أو أمر الملك بكتابته ...أدرك ذلك لا محالة ، أي لابد له من عمل ماقدر عليه أن يعمله»(٢) .

ويرى القسطلاني أن معنى كَتَبَ :«يحتمل أن يراد به أثبت ، أي أثبت فيه الشهوة والميل إلى النساء ، وخلق فيه العينين والأذن والقلب وهي التي تجد لذة الزنا »(٣) . وهذا القول بعيد وقال أيضاً :«ويحتمل أن يراد به قدر،أي قدر في الأزل أن يجري على ابن آدم الزنا ، فإذا قدر في الأزل أدرك ذلك لا محالة»(٤) . والظاهر أن المراد بالكتابة هنا هو علم الله تعالى السابق بما سيفعله الإنسان .

وقد أطلق الرسول ﷺ الزنا على النطق والنظر، وذلك لأنهما من مقدمات ودواعي الزنا ، وحقيقته إنما تقع بالفرج ولذلك يقول العيني :«والفرج يصدق ذلك ويكذبه ، يعني إذا قدر على الزنا فيما كان فيه النظر والتمني كان زنا ، صدق ذلك فرجه ، وإن امتنع وخاف ربه كذب ذلك فرجه ، وتكتب له حسنة»(٥) .

وهذا الحديث فيه دليل واضح على قدرة الإنسان لاختيار أفعاله حيث ورد فيه «والنفس تمني وتشتهي» حيث أن المشتهي للشيء غير الملجأ والمكره عليه ، كما فيه رد على المعتزلة لأنه يدل على قدرة الله تعالى وعلمه السابق .

وقد استدل الإمام ابن حجر العسقلاني بهذا الحديث ، على أن العبد لايخلق فعله حيث جاء فيه **[والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك ويكذب]** ، فأشار الإمام العسقلاني

---

(١) صحيح البخاري ٢١٤/٧ ، كتاب القدر باب وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون .

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥٠٤/١١ .

(٣) ارشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني ٣٥٦/٩ .

(٤) المصدر السابق ٣٥٦/٩ .

(٥) عمدة القاري للعيني ١٥٧/٢٣ ، إدارة الطباعة المنيرية – بيروت .

«إلى أن في هذه العبارة مايستدل به على أن العبد لا يخلق فعل نفسه ، لأنه قد يريد الزنا مثلاً ، ويشتهيه فلا يطاوعه العضو الذي يريد أن يزنى به ، ويعجزه الحيلة فيه ولايدري لذلك سبباً ، ولو كان خالقاً لفعله لما عجز عن فعل مايريده مع وجود الطواعية واستحكام الشهوة ، فدل على أن ذلك فعل مقدر يقدره ، إذا شاء ويعطله إذا شاء »[1].

٤ - الأعمال بخواتيمها :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : **[إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات . يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها]**[2].

يدل هذا الحديث الشريف بوضوح على حقيقة القدر ، وهو علم الله تعالى السابق في الأزل ، ولكن قد يبدو للبعض أن ظاهره يوحي بالجبر ، كما أخذ بذلك الجبرية ، ولكن الحديث في حقيقته يثبت علم الله تعالى السابق حيث إنّ «القدر سر من أسرار الله تعالى ، اختص العليم الخبير به ، وضرب دونه الأستار وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة ، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب»[3].

وأما ماذكره الحديث من كتابة الرزق والأجل والعمل والسعادة أو الشقاوة والذكورة والأنوثة ، فالله تعالى «يظهر ذلك للمَلَكِ ، ويأمره بإنفاذه وكتابته ، وإلا فقضاء الله تعالى سابق على ذلك ، وعلمه وإرادته لكل ذلك موجود في الأزل»[4] . لذلك من الملاحظ أن نصوصاً كثيرة من القرآن والسنة تثبت سبق علم الله تعالى بما سينتهي إليه حال الإنسان

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٠٤/١١ .

(٢) صحيح البخاي ٢١٠/٧ ، كتاب القدر ، باب في القدر ، صحيح مسلم ٢٠٣٦/٤ ، كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي حديث رقم ٤٦٤٣ ، جامع الأصول ١١٣/١٠ ، حديث رقم ٧٥٨٢ .

(٣) فتح الباري ٤٧٧/١١ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٢/١٦ .

سواء كان ذلك داخلاً في دائرة إرادة الإنسان وابتلائه وكسبه ، أو كان خارجاً عن ذلك ضمن المشيئة الكونية ، لأن كل مايجري للإنسان في هذه الحياة ، له أو عليه فهو بقدر الله سبحانه وتعالى ، لأن علمه سبحانه محيط بكل شيء ، بما كان ومالم يكن وماهو كائن وماسيكون ، وماسيختاره الإنسان بالإرادة التي منحه الله تعالى إياها .

إن الإيمان بالقدر هو الإيمان بتقدم علم الله تعالى بما يكون من كسوب الخلق وغيرها من المخلوقات ، وصدور جميعها عن تقدير منه ، وخلق خيرها وشرها ، ولذلك كان مذهب أهل الحق في إثبات القدر ومعناه هو «أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، على صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ماقدرها سبحانه وتعالى»(١) ، حيث قال الرسول ﷺ :**[كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . قال : وعرشه على الماء]**(٢) .

واعتبر الإمام ابن حجر هذه الكتابة محمولة على كتابة ذلك في اللوح المحفوظ على وفق مافي علم الله سبحانه وتعالى(٣) .

لقد علم الله سبحانه بعلمه الذي هو صفة له الشقي من عباده والسعيد ، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ ، وعندما يحين موعد ولادة طفل ما ، فإنه جل شأنه يأمر الملك أن يكتب حال كل مولود ، ويؤكد الإمام ابن تيمية أن من أنكر العلم القديم في ذلك فهو كافر(٤) .

إن معنى سبق الكتاب إشارة إلى سبق علم الله تعالى بخاتمة حياة كل إنسان ، فالذي يولد مؤمناً بين أبوين مؤمنين ، يحافظ على صلاته وصيامه وسائر واجباته ، ويجتنب المحرمات حيناً من الدهر ، ثم يطرأ عليه الإلحاد وفساد الإعتقاد ، فيكذب بالقرآن وبالرسول ﷺ ، فإنه إذا مات على هذا الحال ، يموت على سوء الخاتمة فيدخل النار بسبب كفره وإلحاده، ، وليس سبق الكتاب الذي هو عبارة عن سبق علم الله تعالى ، هو الذي حمله على الردة وسوء الخاتمة ، وإنما وقع الإرتداد بفعله واختياره. وفي ذلك يقول الإمام النووي :«وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ماقدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونه ، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه

---

(١) المصدر السابق ١/١٥٤ ، وانظر : الاعتقاد للبيهقي ص ١٠٥ .

(٢) صحيح مسلم ٤/٢٠٤٤ ، كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام حديث ٢٦٥٣ .

(٣) انظر : فتح الباري ١١/٤٨٩ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوي ٤/٢٤٨ .

وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه»(١) .

إن العبرة في حياة المسلم بخاتمته ، ويؤكد ذلك بطريقة عملية ماروااه البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه **[أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فأقتتلوا ، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ، ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل(٢) لا يدع لهم شاذة إلا إتبعها يضربها بسيفه . فقالوا : ما أجزأ منا اليوم كما أجزأ فلان . فقال رسول الله ﷺ [أما إنه من أهل النار] فقال رجل من القوم أنا صاحبه أبدا . قال فخرج معه . وإذا أسرع أسرع معه . قال : فجرح الرجل جرحاً شديداً . فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه . فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله . قال "وماذاك ؟" قال : الرجل الذي ذكرت آنفاً إنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك . فقلت : أنا لكم به فخرجت في طلبه حتى جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك :[إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار . وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدوا للناس وهو من أهل لجنة وإنما الأعمال بالخواتيم]**(٣) .

فهذا الحديث يشير بصورة واضحة إلى أن العبرة بخاتمة الإنسان ، وأما الذي يعمل بعمل أهل النار فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فهو رجل يولد كافراً ، ويعيش كافراً ، حتى إذا كان آخر عمره ، فإنه يتوب إلى ربه ويستغفره ويحسن إسلامه، ويحافظ على واجباته وعباداته حتى يموت على ذلك .

وهذا يؤكده قول رسول الله ﷺ **:[إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله،فقيل له كيف يستعمله يارسول الله ؟ قال يوفقه لعمل صالح قبل الموت]** (٤).

فمن كان من أهل السعادة يسره الله تعالى لعمل السعادة،ومن كان من أهل الشقاوة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١/١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) قيل إن الرجل يدعى قزمان الظفري ، وقيل إن ذلك في غزوة أحد وقيل خيبر . انظر : فتح الباري ٧/٧٢ .

(٣) صحيح مسلم ١/١٠٦ ، كتاب الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه حديث رقم ١٧٩ ، صحيح البخاري ٧/٢١٢ - ٢١٣ ، كتاب القدر باب العمل بالخواتيم .

(٤) سنن الترمذي ٤/٤٥٠ ، كتاب القدر باب ماجاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار حديث رقم ٢١٤٢ ، الجامع الصغير للسيوطي ١/١٧ ، جامع الأصول ١٠/١١٨ - ١١٩ رقم ٧٥٨٨ .

يسره الله تعالى لعملهم،حيث قال تعالى :﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(١) .

إن الإيمان بالقدر خيره وشره هو أحد أركان التوحيد ، كما أن الإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره ، وتحجز عنه شره مع الاستعانة بالله تعالى على ذلك هو نظام الشرع ، ولا ينتظم أمر هذا الدين ولا يستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل لشرع الله تعالى ، وقد قال الرسول ﷺ :**[مامنكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار] قالوا : يارسول الله فلم نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال :"لا . اعملوا فكل ميسر لما خلق له»**(٢) . **وقال أيضاً :[إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ،حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ،وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار»**(٣) .

فالقدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال ، بل يوجب الجد والاجتهاد والحرص على العمل الصالح ، وهذا ماأشار إليه الحديث الشريف ولذلك قال الإمام البيهقي(٤) :«فأعلمهم ﷺ أن العلم السابق في أمرهم واقع على معنى تدبير الربوبية ، وأن ذلك لايبطل تكليفهم العمل بحق العبودية ، إلا أنه أظهر أن كلاً من الخلق ميسر لما دبر له في الغيب ، فيسوقه العمل إلى ماكتب له من سعادة أو شقاء فيثاب ويعاقب على سبيل المجازاة» (٥).

وقال الإمام النووي معقباً على الحديث مبيناً تقلب الناس بين الإيمان والكفر وتغيرهم بقوله :«والمراد بهذا الحديث أن هذا قد يقع في نادر من الناس ، لا أنه غالب فيهم ، ثم إنه من لطف الله تعالى وسعة رحمته إنقلاب الناس من الشر إلى الخير في كثرة ، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر ففي غاية الندور ونهاية القلة . وهو نحو قوله تعالى إن رحمتي سبقت غضبي

---

(١) سورة الليل الآيت ٥ – ١٠ .

(٢) صحيح مسلم ٢٠٤٠/٤ كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمي حديث رقم ٢٦٤٧ .

(٣) موطأ الإمام مالك ٨٩٨/٢ – ٨٩٩ . كتاب القدر باب النهي عن القول بالقدر ، سنن الترمذي ٢٦٦/٥ ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة الأعراف رقم ٣٠٧٥ .

(٥) البيهقي : هو الحافظ العلامة الثبت الفقيه أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، صاحب التصانيف الكثيرة ، ولد سنة ٣٨٤ هـ وكان زاهداً في الدنيا كثير العبادة والورع توفى بنيسابور سنة ٤٥٨هـ . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٩٤/١٢ ، وانظر : وفيات الأعيان ٧٥/١ ، شذرات الذهب ٣٠٤/٣ .

(٥) الاعتقاد للبيهقي ص ١١٧ .

وغلبت غضبي»[1] . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :**[لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي]**[2] .

مما سبق يتضح أن تقدم علم الله تعالى وكتابته سعادة الإنسان أو شقاءه لا ينافي ذلك أن تكون سعادة السعيد بالأعمال الصالحة ، وشقاوة الشقي بأعماله السيئة ، فمن كان سعيداً يسره للأعمال الصالحة التي تقتضي السعادة ، ومن كان شقياً يسره للأعمال السيئة التي تقتضي الشقاوة ، وكلاهما ميسر لما خلق له .

ثانياً : خلق الأعمال :

قال رسول الله ﷺ :**[إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته]**[3]. وفي مستدرك الحاكم **[إن الله تعالى خالق كل صانع وصنعته]**[4] .

فهم السلف أن هذا الحديث دليل على أن الله تعالى هو الخالق لأفعال العباد ، ويؤكده قول الله تعالى :﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[5] . وعلى هذا الأساس تحدثوا عن هذه القضية ووضحوها فقال حذيفة رضي الله عنه :«إن الله خلق كل صانع وصنعته ، إن الله صانع الخَزَم[6] وصنعته»[7] . وقال ابن عباس رضي الله عنهما :«العجز والكيْسُ من القدر»[8] وقال أيضاً :«كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك»[9] وهذا بناءً على قول رسول الله ﷺ :**[كل شيء بقدر حتى العجز والكيس]**[10]. والمقصود بالعجز هو عدم القدرة أو ترك مايجب فعله ، وأما الكيس فهو ضد العجز ، وهو النشاط والحذق في الأمور[11] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٢/١٦ .

(٢) صحيح مسلم ٢١٠٧/٤ ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه حديث رقم ٢٧٥١ .

(٣) خلق أفعال العباد للبخاري ص ٢٥ ، الجامع الصغير للسيوطي ٧٠/١ .

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣١/١ ، كتاب الإيمان .

(٥) سورة الصافات الآية ٩٦ .

(٦) الخَزَم :وهي حلقة من شعر تجعل في أنف البعير يشد فيها الزمام . انظر : مختار الصحاح مادة خَزَم ص ١٧٤ .

(٧) خلق أفعال العباد ص ٢٥ .

(٨) المصدر السابق ص ٢٥ .

(٩) نفس المصدرق ص ٢٦ .

(١٠) صحيح مسلم ٢٠٤٥/٤ ، كتاب القدر باب كل شيء بقدر حديث ٢٦٥٥

(١١) صحيح مسلم ٢٠٤٥/٤ (الحاشية) .

لقد أسس السلف فهمهم لمسأله خلق أفعال العباد على كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وكلاهما يبينان - كما سبق القول - أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ولذلك عقب الإمام البيهقي على الحديث مؤكداً هذه الحقيقة ومبيناً أن المخلوق لا يخلق فقال:«إن الإنسان لو صح أن يُحدِث شيئاً مما يصح أن يُحدَث ، لم يكن بعض مايصح أن يحدث ، بأن يكون مُحدِثُهُ بأولى من بعض ، كما أن الله سبحانه وتعالى لما صح أن يحدث ، لم يكن بعض مايصح أن يحدث بأن يصح منه إحداثه بأولى من بعض ، ولأن الإنسان مُحدَث ، والمُحدَث لا يصح أن يُحدِث»[1] ثم يؤكد حقيقة قوله بالتأكيد على أن «الإنسان غير عالم بحقائق أفعاله كلها وكمياتها وعدد أجزائها ، ولايجوز أن يكون مخترعاً لها وهو لا يحيط بها علماً»[2] .

وأما الإمام البخاري فعقب على الحديث بقوله :«فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة»[3] . واستدل بقول النبي ﷺ لأشج عبد القيس : **[إن فيك خلقين يحبهما الله الحلم والتؤدة» . قال: يارسول الله أشيء جبلت عليه أم شيء حديث ؟ فقال النبي ﷺ :بل شيء جبلت عليه] . قال الحمد الله الذي جبلني على مايحب الله ورسوله]**[4] .

فهم السلف هذه الحقيقة بوضوح ، وأجابوا السائل عنها بما يوافق كتاب الله تعالى وسنة رسوله دون مخالفة أو تبديل وتأويل،حيث سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن أفعال العباد فقال :«هي من الله خلق ،ومن العباد فعل ولا تسأل عنها أحداً بعدي»[5] .

ثالثاً : تصريف القلوب :

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول إنه سمع رسول الله ﷺ يقول :**[إن قلوب بني آدم كلها بين أصبيعن من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء . ثم قال : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك]**[6] .

إن هذا الحديث ، قد يفهم منه أن العبد «ليس إليه شيء في أمر سعادته أو شقاوته ،

---

(١) القضاء والقدر للبيهقي ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ .

(٣) خلق أفعال العباد للبخاري ص ٢٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٠ .

(٥) ايثار الحق على الخلق لابن المرتضى ص ٣٠٩ .

(٦) صحيح مسلم ٢٠٤٥/٤ ، كتاب القدر ، باب تصريف الله القلوب كيف شاء حديث رقم ٢٦٥٤ .

بل إن اهتدى فبهدي الله إياه ، وإن ثبت على الإيمان فبتثبيته ، وإن ضل فبصرفه عن الهدى»[1] . ولكن هدى الله للعبد له أسباب ، من تمسك بها أفلح ، وقد أيقن السلف بهذه الحقيقة ، وأخذوا بالأسباب لتثبيت هداية الله على القلوب . فهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يقول :«كان ابن رواحة يأخذ بيدي ويقول : تعال نؤمن ساعة ، إن القلب أسرع تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً»[2] . وقوله هذا مأخوذ من قول الرسول ﷺ :**[لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا استجمعت غلياناً]**[3] .

وذكر الإمام الأشعري موقف أصحاب الحديث وأهل السنة من هذه القضية بقوله :«وقالوا إنه لا يكون في الأرض من خير ولا شر ، إلا ماشاء الله ، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله ، كا قال عز وجل :﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ...﴾[4] . وكما قال المسلمون : ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لا يكون ، وقالوا: إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله ، أو يكون أحد يقدر أن يخرج عن علم الله ، أو أن يفعل شيئاً علم الله أنه لا يفعله وأقروا أنه لاخالق إلا الله ، وأن سيئات العباد يخلقها الله ، وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل ، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا منها شيئاً»[5] . فالأمور كلها بيد الله تعالى ، وهو خالقها والإنسان لا يخلق شيئاً من أفعاله . فهو مخلوق لله تعالى ، وأن أعماله كسب له ، وهي تحدث وفق إرادة الله تعالى ومشيئته .

فهم السلف لأحاديث الجبر :

فهم السلف أحاديث الجبر فهماً سليماً من غير تكلف أو تعقيد ، ولم يرد عن أحد منهم أنه خالفهم في الفهم وذلك لرسوخ القاعدة الإيمانية الأساسية في أعماقهم التي تركهم عليها رسول الله ﷺ حيث آمنوا بآيات الله تعالى على مراد الله تعالى ، وآمنوا بما قاله رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ ، ولذلك كانوا هم القدوة لمن أراد أن ينجو . فقد قال الرسول

---

(١) شرح السنة للبغوي ١٦٧/١ . ط الثانية سنة ١٩٨٣م ، بيروت – لبنان .

(٢) المصدر السابق ١٦٧/١ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٦ ، الجامع الصغير ١٢٥/٢ .

(٤) سورة التكوير الآية ٢٩ .

(٥) مقالات الإسلاميين للأشعري ٤٤٥/١ – ٤٤٦ .

ﷺ عندما سئل عن الفرقة الناجية :[من كان على ما أنا عليه وأصحابي](1) ولكونهم أيضاً خير القرون حيث قال الرسول ﷺ [خير أمتي القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ...] (2) .

وفيما يلي نماذج من أعمال الصحابة التي تدل على رسوخ فهمهم في القدر :

١ - قال رجل لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه وددت أن أجد من أخاصم إليه ربي . فقال أبو موسى : أنا ، فقال الرجل يُقَدِّرُ الله عليّ شيئاً ويعذبني عليه ؟ فقال أبو موسى رضي الله عنه : نعم .قال : وَلِمَ ؟ قال : لأنه لايظلمك . فسكت الرجل ولم يجد جواباً ، وقيل أنه قال : صدقت (3).

هذا هو الفهم الصحيح لحقيقة القدر الذي يجب الإيمان به ، وهو ماقدره الله تعالى في سابق علمه عما سيكون وسيقع من مخلوقاته ، وجواب أبي موسى ، رضي الله عنه واضح حيث بين له أن الله تعالى يعلم بما سبق تقديره أزلاً أنك ستعصيه فتذنب ، فقدر عليك العقوبة المستحقة لذنبك ولذا فهو غير ظالم لك ، لأنه عاقبك على فعل فعلته .

٢ - وموقف آخر مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال له رجل : ما أرى لي من الأجر شيئاً إن كان ذلك بقضاء وقدر ، فقال علي رضي الله عنه :«لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والأمر والنهي ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء بالذم من المحسن» (4) .

إن هذا يبين فهم علي رضي الله عنه للقضاء والقدر عندما رد على عن ظن أنه الإكراه والجبر مبيناً أن ذلك يبطل الثواب والعقاب ، والأمر والنهي . وفي القرآن الكريم والسنة النبوية قد ورد مدح المحسن وذم المسيء ، وهذا يدل بوضوح على مسؤلية الإنسان وإرادته في مجال ماقدر له من اختيار .

٣ - وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما خرج من المدينة إلى الشام وكان طاعون عمواس قد انتشر ، فعلم بذلك فاستشار الصحابة من المهاجرين والأنصار ثم قرر

---

(١) سنن الترمذي ٢٦/٥ ، كتاب الإيمان باب ماجاء في افتراق هذه الأمة رقم ٣٦٤١ ، جامع الأصول ٣٤/١٠ فصل فيما ورد ذكره من الفتن حديث رقم ٧٤٩١ .

(٢) صحيح مسلم ١٩٦٤/٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم رقم ٢٥٣٤ .

(٣) انظر : الاعتقاد للبيهقي ص ١١٩ ، مسألة القضاء والقدر قبنس ص ١٥٧ .

(٤) المسايرة في علم الكلام الكمال بن الهمام ص ٧٤ ط الأولى المطبعة المحمودية القاهرة ، مسألة القضاء والقدر ص ١٥٨ ، المغنى للقاضي عبد الجبار ٣٢٩/٨ .

العودة إلى المدينة فقال له أبو عبيدة بن الجراح – وربما لم يكن مع القوم عندما شاورهم – «أفرار من قدر الله» فقال : عمر رضي الله عنه لو غيرك قالها يا أباعبيدة ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان احداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله»(١) .

لقد اجتهد عمر رضي الله عنه فرأى أولاً أن يدفع القدر الذي يتمثل بالطاعون ، بالقدر الذي يتمثل بالوقاية منه ، موقناً أن كل ذلك بقدر الله تعالي الذي قدره في علم الأزل ، حيث مثل على ذلك بالأرض الجدباء والأرض الخصبة ، فكل موقع ترعى فيه الإبل يكون بقدر الله تعالى ، لقد ذكر عمر رضي الله عنه تلك الحجة ، ولم يكن يعلم أن هناك حديثاً عن رسول الله ﷺ في ذلك ، فعندما جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان متغيباً في بعض حاجته فقال عندي في هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول :**[إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه]** وعندها حمد عمر رضي الله عنه الله جل شأنه على توفيقه ، ثم انصرف»(٢) .

٤ – وموقف آخر لعمر رضي الله عنه يبين مدى عمق فهمه للقدر .وقد أُتِيَ له بسارق فقال له عمر رضي الله عنه : ماحملك على السرقة ؟ فقال : قضاء الله وقدره يا أمير المؤمنين ، فأمر عمر بقطع يده ، ثم حسمت ، ثم جلده ثمانين جلدة ، وقال له : إنما قطعت يدك لسرقتك ، وإنما جلدتك لكذبك على الله تعالى»(٣) .

لقد نهى السلف عن الخوض في مسائل القدر لئلا يكون من ذلك مدخلاً للشيطان ، ولما لذلك من خطورة على عقيدة الإنسان ، جاء سائل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقال :«يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ؟ فقال :طريق دقيق فلا تمشي فيه ، فلم يقتنع السائل ، بل ردد : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ؟ فقال : بحر عميق لا تخض فيه ، فلم يقتنع الرجل وسأل مرة أخرى يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ؟ فقال : سر خفي لله فلا

(١) صحيح البخاري ٢١/٧ ، كتاب الطب ، باب مايذكر في الطاعون ، صحيح مسلم ١٧٤٠/٤ – ١٧٤١ . كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة حديث ٢٢١٩ .

(٢) صحيح البخاري ٢١/٧ ، كتاب الطب ، باب مايذكر في الطاعون .

(٣) موسوعة فقه عمر بن الخطاب د.محمد قلعة جي ص ١٦٨ – ١٦٩ .

تفشه . فعاد الرجل يقول يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ؟ فقال علي رضي الله عنه ياسائل : إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال كما شاء ، فقال إن الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ؟ فقال كما شاء . فقال لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته أو دون مشيئته ، فإن قلت مع مشيئته إدعيت الشركة معه ، وإن قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته . ثم قال تسأل الله العافية ؟ فقال : نعم.فقال عما ذا تسأله العافية ؟ أمن بلاء إبتلاك به ، أو من بلاء غيره ابتلاك به ؟ فقال : من بلاء ابتلاني به . فقال ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؟ فقال بلى . قال : تعرف تفسيرها ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . علمني مما علمك الله ، قال : تفسيره أن العبد لا قدرة له على طاعة الله تعالى ولا على معصيته إلا بالله عز وجل ، ياسائل إن الله يسقم ويداوي ، منه الداء ومنه الدواء ، أعقل عن الله ، فقال عقلت . فقال له : الآن صرت مسلماً ، قوموا إلى اخيكم المسلم وخذوا بيده . ثم قال علي رضي الله عنه : لو وجدت رجلاً من أهل القدر لأخذت بعنقه ، ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه فإنهم يهود هذه الأمة»[1] .

وهكذا يتبين فهم الصحابة رضوان الله عليهم للقضاء والقدر ، فهماً واضحاً صريحاً لاغموض فيه ولا تعقيد ، أدى بهم أن يحملوا دعوة الإسلام وينشروها في العالم ، ويتحملوا في سبيلها أشد العناء ، ويواجهوا أصعب العقبات ، لأن الإيمان السليم الراسخ بالقدر يبعث على الجرأة والإقدام ، فالذي يؤمن بأنه لن يصيبه إلا ماكتب الله له ، وبأن لكل أجل كتاب ، وأن كل شيء بقدر الله تعالى ، لا يهمه مايواجهه مادام قد أخذ بالأسباب ، فالقضية الأساسية أن يعمل بما أمر الله به ، ويجتنب مانهى الله عنه ، ومما أمر الله به الأخذ بالأسباب ، ومما نهى عنه التواكل والتكاسل .

ولقد سار على نهجهم من جاء بعدهم من التابعين وأتباعهم ففهموا أحاديث الجبر كما فهمها الصحابة رضوان الله عليهم ، ولم تكن قد انتشرت الأفكار المنحرفة والفلسفات

(١) التبصير في الدين للإسفراييني ص ٨٧ ص ٨٨ ، الشريعة الآجري ص ٢٠٢ ، تيسير العزيز الحميد ص ٦٢٠ ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للنشار ٢٤٩/١ ، القضاء والقدر في الإسلام ٢٣/٢ - ٢٤ .

الباطلة فهذا عمران بن حصين (١) رضي الله عنه اختبر أبا الأسود الدؤلي (٢) ، ليطمئن على صحة فهمه للقدر ، ذُكر عن أبي الأسود الدؤلي أنه قال ، قال لي عمران بن حصين رضي الله عنه أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر سبق،أو فيما يستقبلون به،مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم ، قال : فقال : أفلا يكن ظلماً ؟ !! قال : ففزعت من ذلك فزعاً شديداً وقلت كل شيء خلق الله وملك يده ، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون .قال : فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا حزر عقلك» (٣) .

وعرف الإمام النووي حقيقة القدر بقوله :«القدر معناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ماقدرها سبحانه وتعالى» (٤) .

وقال ابن الجوزيَ :«إن الإنسان لو ترك الطاعة وقال : لا أقدر بطاعتي أن أغير ماقضى الله عليّ ، فإن كنت من أهل الجنة فأنا إلى الجنة ، أو من أهل النار فأنا من أهل النار . قلنا له : هذا يرد الأوامر كلها ، ولو صح لأحد ذلك لم يخرج آدم من الجنة ، لأنه كان يقول مافعلت إلا ماقضى على ، معلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر» (٥) .

وهكذا فهم السلف من لدن الصحابة وَمَنْ بعدهم ، إلى يومنا هذا عقيدة القدر ، فهماً سليماً مطابقاً لما جاء في آيات الله تعالى وأحاديث نبيه ﷺ دون زيغ أو تحريف أو تأويل .

---

(١) عمران بن حصين بن عبيد صحابي جليل استقضاه عبد الله بن عامر علي البصرة ، وكان الحسن البصري يحلف ماقدمها راكب خير من عمران بن حصين توفي بالبصرة سنة ٥٢هـ . انظر : طبقات ابن سعد ٢٨٧/٤ . وانظر : تهذيب التهذيب ١٢٥/٨ .

(٢) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الكناني واضع علم النحو ، كان معدوداً من الفقهاء ، والأعيان وهو من التابعين ، سكن البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه ، وولى إمارتها أيام خلافة علي رضي الله عنه شهد صفين ، وهو أول من نقط المصحف وينسب إليه علم النحو ولد سنة ١ قبل الهجرة وتوفي سنة ٩٦هـ ، انظر البداية والنهاية لابن كثير ٣١٢/٨ .

(٣) شفاء العليل ص ٨ .

(٤) مسلم بشرح النووي ١٥٤/١ .

(٥) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٢٧٧ ، ص ٢٧٨ .

المطلب الثاني : أحاديث الاختيار وفهم السلف لها

من خلال النظر إلى أحاديث الاختيار يتبين أنها تتعلق بالحديث عن الفطرة أو النية في العمل ، أو الأخذ بالأسباب ، أو تحريم الله تعالى الظلم على نفسه . وسيتضح من خلال النظر في هذه المسائل حقيقة الجانب الاختياري فيها :

أولاً: أحاديث الفطرة :

وردت عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ تتحدث عن ولادة الإنسان على الفطرة ومن ذلك قول الرسول ﷺ :**[مامن مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه و ينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جماء هل تحسون فيها من جدعاء]** (1). وكذلك قوله ﷺ فيما رواه عن الله عز وجل :«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا »(2) في هذا الحديث القدسي يخبر الله تعالى أنه خلق عباده على الحنفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع والذل له ، وكمال طاعته وحده دون غيره ، كما أرسل وأنزل الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطرة وتكميله وتفصيله ، ومن فضل الله تعالى على الناس أنه هيأ النفوس وفطرها على قبول الحق ، ولكن نظراً لوجود مؤثرات طارئة من شياطين الإنس والجن ، على هذه النفوس ، فإن هذه الفطرة تتغير ، وهذا فيه دلالة واضحة على اختيار الإنسان وحرية إرادته ولذلك يقول الإمام القرطبي :«إن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ، ودين الإسلام هو الحق ، وقد دل على هذا المعنى بقية الحديث حيث قال :«كما تنتج البهيمة» يعني أن البهيمة تلد الولد كامل الخلقة ، فلو ترك كذلك كان بريئاً من العيب ، ولكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه مثلاً فخرج عن الأصل ، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح» (3).ومعنى ذلك أن الله تعالى قد مكن الناس من الهدى في

---

(1) صحيح مسلم ٢٠٤٧/٤ كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة حديث ٢٦٥٨ ، صحيح البخاري ١٠٤/٢ ، كتاب الجنائز ، باب ماقيل في أولاد المشركين .

(2) صحيح مسلم ٢١٩٧/٤ ، كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار حديث ٢٨٦٥ ، جامع الأصول ١٩٤/٩ في فضائل أهل العقبة حديث ٦٧٥٧ .

(3) فتح الباري ٢٤٩/٣ .

أصل الجبلة ، وهيأه لقبول الحق ، ولو ترك المرء على ذلك لاستمر على لزوم الفطرة ولم يفارقها إلى غيرها ، لأن حسن هذا الدين ثابت في نفس كل إنسان ، ولكن يعدل البعض عنه لآفه من الآفات البشريه كالتقليد الأعمى ، واتباع الهوى ، وغير ذلك .

وقد حصل خلاف بين العلماء حول القصد من لفظ الفطرة الوارد في الحديث . فالإمام أحمد بن حنبل عندما سئل عن تفسير الفطرة قال : «هي الفطرة التي فطر الله عز وجل الناس عليها شقي أوسعيد»(١) . فيلاحظ من قوله أنه يفسر الفطرة بما كُتِبَ على الإنسان ، وكأنه يفسرها بالقدر حيث إنه ورد عنه في رواية «كل مولود من أطفال المشركين على الفطرة ، فولد على الفطرة التي خلقه عليها من الشقاء والسعادة التي سبقت في الكتاب»(٢) .

وللإمام أحمد تفسير آخر للفطرة وهو هنا الدين ، حيث سأله سائل عندما قال : كل مولود يولد على الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها . قال : فما هي الفطرة الأولى ، هي الدين ؟ قال : الإمام أحمد نعم»(٣) .

وذكر الإمام ابن حجر اختلاف السلف حول المراد بالفطرة على أقوال كثيرة حيث قيل المقصود بها الإسلام ، وقيل العلم ، وقيل فطرة الله أي صبغة الله(٤) . ويوضح الإمام ابن القيم سبب هذا الاختلاف في معنى الفطرة بقوله :«وسبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث أن القدرية كانوا يحتجون به على أن الكفر والمعصية ليس بقضاء الله ، بل مما ابتدأ الناس أحداثه ، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام ، ولا حاجة لذلك ، لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام ، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة القدرية ، لأن قوله :«فأبواه يهودانه ... الخ» محمول على أن ذلك يقع بتقدير الله تعالى ، ومن ثم احتج عليهم مالك بقوله في آخر الحديث «الله اعلم بما كانوا عاملين»»(٥) . على أنه مهما يكن من خلاف حصل حول معنى الفطرة ، فلابد من ملاحظة أنه إذا قيل ولد على الفطرة،أو على الإسلام،أوخلق

(١) الرسائل والمسائل للأحمدي ١/١٨١ .

(٢) المرجع السابق ١/١٨١ .

(٣) نفس المرجع ١/١٨١ . (بتصرف) .

(٤) انظر : فتح الباري ٣/٢٤٨ – ٢٤٩ ، وانظر : شفاء العليل ص ٢٨٣ – ص ٢٣٤ .

(٥) فتح الباري ٣/٢٥٠ ، وانظر : شفاء العليل ص ٢٨٤ .

حنيفاً،فليس المراد من ذلك أنه حين خرج من بطن أمه كان يعلم هذا الدين . قال تعالى :﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً...﴾[1] . ولكن فطرته مقتضية لدين الإسلام ، لأنها تستلزم الإقرار بخالقها ومحبته وإخلاص الدين له ، وهذا يحصل بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المغيرات لها ، وهذه المغيرات متمثلة بتهويد الأبوين وتنصيرهما بحيث يخرجان الفطرة عن حقيقتها الأساسية ، ولذلك يقول الإمام ابن تيمية :«فالصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهي فطرة الإسلام ، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال :﴿... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ...﴾[2] وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة ... ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل ، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلماً»[3]. فحصول هذا التهويد والتنصير موقوف على أسباب خارجه عن الفطرة ، وحصول الحنفية والإخلاص ومعرفة الله تعالى لايتوقف أصله إلا على الفطرة ، وإن توقف كما له وتفصيله علي غيرها .

ونظراً لكثرة أحاديث الفطرة فقد اختلفت الأفهام حول مصير أطفال المشركين ، حيث ثبت أن كل مولود يولد على فطرة الإسلام ، فكيف سيكون حال أطفال المشركين إذا ماتوا وهم أطفال ، وهذا الخلاف نتج عنه أقوال :

١ - أنهم في مشيئة الله تعالى ، وقد ورد هذا عن الإمام الشافعي وأصحابه حيث صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة ، وأطفال الكفار خاصة في المشيئة ، وحجتهم في ذلك قول الرسول ﷺ عندما سئل عن ذراري المشركين فقال :«الله أعلم بما كانوا عاملين»[4] .[5]

---

(١) سورة النحل الآية ٧٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٣) مجموع الفتاوي ٢٤٥/٤ - ٢٤٧ ، وانظر : شفاء العليل ص ٢٨٨- ص ٢٨٩ ، ص ٣٠٣ .

(٤) صحيح البخاري ١٠٤/٢ ، كتاب الجنائز باب ماقيل في أولاد المشركين .

(٥) انظر : فتح الباري ٢٤٦/٣ .

٢ - أنهم تبع لآبائهم فأولاد المسلمين في الجنة ، وأولاد الكفار في النار ، وهذا القول ذكره ابن حزم عن الأزارقة من الخوارج واستدلوا بقوله تعالى :﴿... رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(١) . ولكن لعل المراد في الآية قوم نوح خاصة ، وقد دعا نوح عليه السلام بذلك عندما أوحى إليه :﴿... أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ...﴾(٢) وأما ماروواه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها :**[سألت رسول الله ، عن ولدان المسلمين قال في الجنة ، وعن أولاد المشركين قال : في النار ، فقلت يارسول الله لم يدركوا الأعمال ، قال : ربك أعلم بما كانوا عاملين لو شئت أسمعتك تضاغيهم في النار"]**(٣) . **قال عنه الإمام ابن حجر : "هو حديث ضعيف جداً"**(٤) .

٣ - أنهم يكونون في برزخ بين الجنة والنار ، لأنهم لم يعملوا حسنات يدخلون بها الجنة ولا سيئات يدخلون بها النار .

٤ - أنهم خدم أهل الجنة ، واستدل على ذلك بحديث :**[أولاد المشركين خدم أهل الجنة]** . وذكره ابن حجر العسقلاني وقال : اسناده ضعيف(٥) .

٥ - أنهم يصيرون تراباً .

٦ - أنهم يمتحنون في الآخرة بأن ترفع لهم نار ، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن أبى عذب ، وَعُقِبَ على هذا القول بأن الآخرة ليس دار تكليف فلا عمل فيها ولا إبتلاء ، وأجيب بأن ذلك بعد أن يقع الاستقرار في الجنة أو النار ، وأما في عرصات القيامة فلا مانع من ذلك وقد قال تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(٦) . وفي الصحيحين أن الناس يؤمرون بالسجود فيصير ظهر المنافق طبقاً فلا يستطيع أن يسجد(٧) . حيث قال رسول الله ﷺ :**[يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل**

---

(١) سورة نوح الآية ٢٦ .

(٢) سورة هود الآية ٣٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٠٨/٦ .

(٤) فتح الباري ٢٤٦/٣ ، وانظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١٢٨/٤ .

(٥) انظر : فتح الباري ٢٤٦/٣ ، مجمع الزوائد ٢١٩/٧ .

(٦) سورة القلم الآية ٤٢ .

(٧) انظر : فتح الباري ٢٤٦/٣ .

مؤمن ومؤمنه ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود وظهره طبقاً واحداً].(١)

وأما الإمام ابن تيمية فله رأيان أحدهما : مشابه لهذا الرأي حيث قال :«وأما أطفال المشركين فأصح الأجوبة فيهم جواب رسول الله ﷺ كما في الصحيحين **[مامن مولود إلا يولد علي الفطرة ...]**(٢) الحديث ، قيل :**[يارسول الله أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين]** (٣) .فلا يحكم على معين منهم لا بجنة ولا بنار ، ويروي أنهم يوم القيامة يمتحنون في عرصات القيامة ، فمن أطاع الله حينئذ دخل الجنة ومن عصى دخل النار»(٤) .

وأما الإمام ابن القيم فقد أيد شيخه ابن تيمية حيث قال :«إنهم يمتحنون في عرصات القيامة ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كل من لم تبلغه الدعوة ، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه أدخله النار، وعلى هذا يكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار ، وبهذا يأتلف شمل الأدلة كلها وتتوافق الأحاديث النبوية ، ويكون معلوم الله الذي أحال عليه النبي ﷺ حيث يقول :**[الله أعلم بما كانوا عاملين]** يظهر حينئذ ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلوماً علماً خارجاً لا علماً مجرداً ، ويكون النبي ﷺ قد رد جوابهم إلى علم الله فيهم ، والله يرد ثوابهم وعقابهم إلى معلومة فيهم ، فالخبر عنهم مردود إلى علمه ، ومصيرهم مردود إلى معلومه ، وقد جاءت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضاً»(٥) .

٧ - الإمساك عن الحديث في ذلك والإجابة بما قال به الرسول ﷺ ، وهذا مروي عن الإمام أحمد حيث أنه عندما سئل عن أولاد المشركين فقال :«اذهب إلى قول النبي ﷺ الله أعلم بما كانوا عاملين»(٦) .

---

(١) صحيح البخاري ٧٢/٦ ، كتاب التفسير ، تفسير سورة القلم ، صحيح مسلم ١٦٨/١، كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية حديث ٣٠٢ .

(٢) صحيح مسلم ٢٠٤٧/٤ كتاب القدر ،باب معنى كل مولود يولد على الفطرة حديث ٢٦٥٨ .

(٣) صحيح البخاري ١٠٤/٢ ، كتاب الجنائز باب ماقيل في أولاد المشركين .

(٤) مجموع الفتاوي ٤١٢/٤ ، ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٥) طريق الهجرتين لابن القيم ص ٣٩٦ ص ٣٩٧ ، مطابع الدوحة الحديثة - قطر .

(٦) الرسائل والمسائل للأحمدي ١٧٤/١ .

٨ - أنهم في الجنة . قال الامام النووي :«وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحققون لقوله تعالى : ﴿... وَمَاكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(١) . وإذا كان لايعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب أولى»(٢) . وقد ذهب إلى هذا الرأي الإمام البخاري والإمام ابن حجر العسقلاني (٣).

وقد وردت أدلة كثيرة تؤيد هذا الرأي وترجحه ،ومن ذلك أن رسول الله ﷺ قال :**[كل مولود يولد على الفطرة ...]**(٤) وكما فسر العلماء الفطرة بالإسلام فإن مات على ذلك فقد مات على الفطرة .

وقول الرسول ﷺ فيما روي عن ربه :**[إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم]** (٥) ومعلوم أن كل من مات قبل أن تجتاله الشياطين عن دينه مات على الحنفية السمحاء .

ومارواه أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال :**[سألت ربي فأعطاني أولاد المشركين خدماً لأهل الجنة ، وذلك أنهم لم يدركوا ما أدرك آباؤهم من الشرك ولأنهم في الميثاق الأول]** (٦).

وقد أخبر الرسول ﷺ أن الله قد رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ فقال :**[رفع القلم عن ثلاث عن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يعقل ، وفي رواية حتى يبلغ]** (٧) .

فهذه الأدلة تشير إلى أن أطفال الكفار إذا ماتوا حال طفولتهم يدخلون الجنة وذلك بفضل الله ورحمته لقول الرسول ﷺ :**[لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم]**(٨) . وقوله أيضاً :**[لما**

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٧/١٦ ، ٢٠٧ .

(٣) انظر : فتح الباري ٢٤٦/٣ .

(٤) صحيح البخاري ١٠٤/٢ ، كتاب الجنائز ، باب ماقيل في أولاد المشركين .

(٥) صحيح مسلم ٢١٩٧/٤ ، كتاب الجنة ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ، وأهل النار حديث ٢٨٦٥ .

(٦) الجامع الصغير للسيوطي ٢٩/٢ ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير ٢٩/٢ .

(٧) سنن أبي داود ١٤/٤ ، كتاب الحدود ، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً رقم ٤٣٩٩ ، الجامع الصغير ، ج٢ ص ٢٩ ، جامع الأصول لابن الأثير ٥٠٦/٣ حديث رقم ١٨٢٣ .

(٨) سنن أبي داود ٢٢٥/٤ ، كتاب السنة باب في القدر حديث رقم ٤٦٩٩ .

خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي][1] . والله تعالى أعلم .

ثانياً : النية في الأعمال :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :**[إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ،ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه]** [2] .

هذا الحديث له مكانة عظيمة عند علماء الإسلام ، فيذكر الإمام ابن حجر العسقلاني تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث حيث يذكر عن الإمام أحمد قوله :«ليس في أخبار النبي ﷺ أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث ... إنه ثلث الإسلام»[3] .

وكلام الإمام أحمد يدل على أنه أراد بكونه ثلث الإسلام أي أحد القواعد الثلاث التي ترد إليها جميع الأحكام عنده ، ولكن للإمام البيهقي له توجيه آخر وهو أن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه ، فالنية أحد أقسامها الثلاث وأرجحها لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها [4].

وقال الإمام الشافعي في حديث النية :«يدخل في سبعين باباً ، ويحتمل أن يريد بهذا العدد المبالغة»[5] . فالحديث له مكانة كبيرة عند علماء الإسلام لدرجة أن الإمام البخاري افتتح صحيحه به .

ولفظ النية في كلام العرب من جنس لفظ القصد والإرادة ، ويعبر بها عن نوع من الإرادة كقول العرب هذه نيتي يعني هذه البقعة هي التي نويت إتيانها ،ويعبر بها عن نفس المراد حيث يقال نيته قريبة أو بعيدة،أي البقعة التي نوى مقصدها ، ولكن هناك من يرى أن النية أخص من الإرادة لأن إرادة الإنسان تتعلق بعمله وعمل غيره ، والنية لا تكون إلا لعمله حيث يقال أردت من فلان كذا ولا يقال نويت من فلان كذا[6] .

---

(١) صحيح مسلم ٢١٠٧/٤ ، كتاب التوبة في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه حديث ٢٧٥١ .

(٢) صحيح البخاري ٢/١ كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي ، صحيح مسلم ١٥١٥/٣ – ١٥١٦ ، كتاب الإمارة ، باب إنما الأعمال بالنيات حديث ١٩٠٧ .

(٣) فتح الباري ١١/١ .

(٤) انظر : المصدر السابق ١١/١ .

(٥) المصدر السابق ١١/١ .

(٦) انظر : مجموع الفتاوي ٢٥١/١٨ – ٢٥٢ .

وسبب ورود هذا الحديث هو «أن رجلاً خطب إمرأة يقال لها أم قيس فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها فسمى مهاجر أم قيس»[(١)] .

إن هذا الحديث يدل بوضوح على أن للإنسان حرية وإرادة واختياراً ونية يترتب عليها الأعمال وقبولها أو رفضها ، حيث يشير الحديث إلى تنوع النية كما تتنوع الأعمال لأن النية «عبارة عن انبعاث القلب نحو مايراه موافقاً لغرض ، من جلب نفع أو دفع ضرر حالاً أو مآلاً»[(٢)] .

كما يشير الحديث إلى أن قبول العمل لا يكون إلا باخلاص النية لله تعالى ، وأن الأعمال لايعتد بها شرعاً إلا بالنية الموجودة لها ، فيكون جزاء العامل على عمله بحسب نيته من خير أو شر ، فمن كان قصده ونيته من عمله - الموافق لشرع الله - وجه الله تعالى أثيب ، وإن كان قصده الرياء للعباد والسمعة منع من الثواب «واختار الغزالي فيما يتعلق بالثواب أنه إن كان القصد الدنيوي هو الأغلب لم يكن فيه أجر ، أو الديني أجر بقدره ، وإن تساويا فتردد بين الشيئين فلا أجر»[(٣)] .

إن الإنسان في نيته مخير بين شيئين إما طاعة الله ورسوله ، وإما العصيان ، فمن أطاع نجا وفاز ، ومن عصى خسر وضل ، ويوضح هذه الحقيقة قول رسول الله ﷺ :**[كل امتي يدخلون الجنة إلا من أبى . فقالوا يارسول الله من يأبى ؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى]** [(٤)]. ومن أبى أن يخلص النية لله رب العالمين ، فقد فعل ذلك باختياره ، وإرادته ، وعليه فهو يتحمل وزر عصيانه ومخالفته .

---

(١) فتح الباري ١٠/١ (بتصرف) .

(٢) المصدر السابق ١٣/١ .

(٣) نفس المصدر ١٨/١ ، وانظر : دليل الفالحين ٤٢/١ - ٤٣ .

(٤) صحيح البخاري ١٣٩/٨ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، جامع الأصول ١٤٩/٩ ، في فضائل أهل العقبة حديث ٦٧٥٧ .

ثالثاً : الأخذ بالأسباب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **[المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل ، لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان]** (١).

هذا الحديث النبوي من الأحاديث التي تتضمن حرية العمل والحث عليه مع التسليم بأن كل شيء بقدر الله تعالى ومشيئته . فالإنسان يفعل مايريد ومايشاء . وهو يشعر في الوقت نفسه أنه مقيد تماماً بما يشاء خالقه وأنه يستحيل عليه الخروج عن المشيئة الإلهية ﴿وَمَا تَشَآؤُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ...﴾(٢) .

إن الثواب والعقاب مترتب على الشرع فعلاً وتركاً ، لا على القدر،ولذلك المؤمن يسلي نفسه بالقدر عند المصائب فيزداد إيمانه ويقوى ، ولكن لا يحتج بالقدر على المعاصي والمعايب ، لأن المطلوب من الإنسان أن يجتهد في الطاعة حيث «اتفقت جميع الكتب السماوية والسنن النبوية على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال ، بل يوجب الجد والاجتهاد والحرص على العمل الصالح»(٣) ، ولهذا لما أخبر الرسول ﷺ أصحابه بسبق القدر ، كان قولهم أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل :**[يارسول الله فلم نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال : لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له]** ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ إلى قوله فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾(٤)] (٥).

إن الرسول ﷺ أمر بالحرص على ماينفع المؤمن وهو طاعة الله ورسوله ، وأمره إذا أصابته مصيبة مقدرة أن لاينظر إليها بتحسر ويقول لو أني فعلت كذا وكذا ، لأن ذلك يورث حسرة وحزناً لا يفيد ، وعليه التسليم للقدر ، لأن ذلك هو الذي ينفعه ، حيث يقول الإمام ابن تيمية:«ومازال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ويترك

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢٠٥٢ ، كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز ٢٦٦٤ . جامع الأصول ١٠/١٢٠ ، حديث رقم ٧٥٩٣ .

(٢) سورة الإنسان الآية ٣٠ .

(٣) معارج القبول ٢/٣٦٣ .

(٤) سورة الليل الآيات ٥ - ١٠ .

(٥) صحيح مسلم ٤/٢٠٤٠ ، كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي حديث ٢٦٤٧ .

المحظور ، ويصبر على المقدور»[1] . فالله سبحانه وتعالى قدر المقادير ، وهيأ لها أسباباً سواء كان ذلك فيما يتعلق في المعاش أو في المعاد ، وقد يسر كلاً من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة ، والعبد المؤمن إذا علم أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها ،كان أشد اجتهاداً في فعلها والقيام بها ، لأنه من المعلوم أن الحرث سبب في وجود الزرع ، والنكاح سبب في وجود النسل ، كذلك العمل الصالح سبب في دخول الجنة ، والعمل السيء سبب في دخول النار ، ولذلك كان صحابة رسول الله ﷺ عندما كانوا يسمعون أحاديث القدر يجتهدون في العبادة ، وهذا يدل على مدى فهمهم وحرصهم ، حيث كان الواحد منهم يقول عند سماع أحاديث القدر «ماكنت بأشد اجتهاداً مني الآن»[2] . لأنهم علموا أن القدر السابق وجريانه على الخلق يكون بالأسباب ، وأن العبد ينال ماقدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكن منه وهيء له ، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له ، ومن عطل الأخذ بالأسباب إتكالاً على القدر السابق ، فهو كمن عطل الأكل والشرب في المعاش وسائر أسبابه اتكالاً على ماقدر له ، وقد فطر الله تعالى عباده على الحرص على الأخذ بالأسباب التي بها معاشهم ومصالحهم الدنيوية .

ومما يؤكد أهمية الأخذ بالأسباب أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال :**[أرأيت رقاة نسترقي بها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال :هو من قدر الله]**[3] ، يعني أن الله تبارك وتعالى قدر الخير والشر وأسباب كل منهما .وكذلك فقد أمر الرسول ﷺ بالتداوي حيث قال :**[تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد وهو الهرم]**[4] . وقال أيضاً :**[إن لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل]**[5]. وقال :**[ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء]**[6] .

---

(١) مجموع الفتاوي ٣٢٠/٨ .

(٢) شفاء العليل ص ٢٥ ، معارج القبول ٣٦٣/٢ .

(٣) سنن الترمذي ٣٩٩/٤ – ٤٠٠ كتاب الطب باب ماجاء في الرقي والأدوية رقم ٢٠٦٥ .

(٤) سنن أبي داود ٣/٤ ، كتاب الطب باب في الرجل يتداوى رقم ٣٨٥٥ ، سنن الترمذي ٣٨٣/٤ ، كتاب الطب باب ماجاء في الدواء والحث عليه رقم ٢٠٣٨ .

(٥) صحيح مسلم ١٧٢٩/٤ ، كتاب السلام ، باب لكل داء دواء حديث رقم ٢٢٠٤ .

(٦) صحيح البخاري ١٢/٧ ، كتاب الطب باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء .

إن هذه الأحاديث المتقدمة تعطي دلالة واضحة على أهمية الأخذ بالأسباب ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأشياء على ماهي عليه وكذلك يكتبها ، فإذا علم الله تعالى وقدر أن يكون زوال المرض بسبب العلاج ، فلايجوز أن يظن زوال هذا المرض بدون الأسباب التي جعلها الله أسباباً ، فالله تعالى خالق الأسباب والآمر بالأخذ بها .

ومما يلاحظ في مسألة الأخذ بالأسباب في مجال التداوي أن الرسول ﷺ نهى عن مخالطة المريض للأصحاء ، حيث قال فيه :**[لا يورد ممرض على مصح]**(١) . وهذا إثبات للعدوى ، وقال أيضاً :**[إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا منها فراراً]** (٢). فهذا التوجيه النبوي صريح وواضح في الأخذ بالأسباب .

ولكن توجد أحاديث ظاهرها يخالف ذلك حيث يقول الرسول ﷺ :**[لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد]**(٣) . أيضاً مارواه أبوهريرة رضي الله عنه حين قال رسول الله ﷺ :**[لا عدوى ولا صفر ولاهامة] فقال أعرابي يارسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء ، فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها ؟ قال : "فمن أعدى الأول ؟"**(٤) .

إنه لا مخالفة بين الأحاديث ، لأن الأحاديث التي تنفي العدوى إنما المقصود بها إبطال اعتقاد أن العدوى تنتقل بنفسها لا بقدر الله تعالى ، وهذا الإعتقاد كان موجوداً في الجاهلية ، فجاء الإسلام ليقرر أن كل شيء يتم بقدر الله تعالى ، يقول الإمام ابن حجر :«إن المراد بنفي العدوى أن شيئاً لا يعدي بطبعه،نفياً لِمَا كانت الجاهلية تعتقده ،أن الأمراض تعدي بطبعها من غير أضافة إلى الله،فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك ... ونهاهم عن الدنو منه ليبين لهم أن هذا من الأسباب التي أجرى الله العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها ، ففي نهية إثبات الأسباب ، وفي فعله اشارة إلى أنها لا تستقل ، بل الله هو الذي إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئاً ، وإن شاء أبقاها فأثرت»(٥) ، ولذلك كان موقف عمر بن الخطاب رضي

---

(١) صحيح مسلم ١٧٤٤/٤ ، كتاب السلام ،باب لا عدوى ولا طيرة حديث ٢٢٢١ .

(٢) صحيح البخاري ٢١/٧ ، كتاب الطب ، باب مايذكر في الطاعون ، صحيح مسلم ١٧٣٨/٤ ، باب الطاعون حديث ٢٢١٨ .

(٣) صحيح البخاري ١٧/٧ ، كتاب الطب ، باب الجذام .

(٤) صحيح مسلم ١٧٤٢/٤ - ١٧٤٣ ، كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة حديث رقم ٢٢٢٠ .

(٥) فتح الباري ١٦٠/١٠ - ١٦١ .

الله عنه في طاعون عمواس واضحاً من هذه المسألة ، حيث فهم معنى القدر على الحقيقة عندما قال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه:« أفراراً من قدر الله ؟ !! فقال عمر رضي الله عنه لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفرمن قدر الله إلى قدر الله»(١) .

فمن الواجب على المؤمن أن يأخذ بالأسباب ، دون الاعتقاد بأن الأسباب هي المؤثرة بنفسها ، بل يعتقد أنهامؤثرة بقدر الله تعالى . ولذلك يقول الإمام ابن تيمية:«فالإلتفات إلى الأسباب واعتبارها مؤثرة في المسببات ، شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع»(٢) .

إن الواجب على الإنسان أن يكون معتمداً على الله تعالى ، لا على سبب من الأسباب والله تعالى هو الذي ييسر له من الأسباب مايصلحه في أمور دنياه وآخرته ، وإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها ، فعليه أن يفعلها مع التوكل علي الله ، ولا يعني التوكل عدم الأخذ بالأسباب كما ظن البعض ، واعتبر أن الأمور إذا كانت مقدورة فلا حاجة إلى الأسباب ، فإن هذا مخالف للحق لأن الرسول ﷺ كان أفضل المتوكلين وكان يمشي في الأسواق ويلبس لامة الحرب ويأخذ بالأسباب ، وكذلك فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، ففهموا قوة العلاقة بين الإيمان بالقدر ، وأهمية الأخذ بالأسباب ، واعتبار أن الأخذ بالأسباب داخل في معنى القدر ولا منافاة بينهما.« فقد لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ناساً من أهل اليمن ، وكانوا لا يأخذون بالأسباب فيموتون من الجوع ، فقال : من أنتم ؟ قالوا نحن المتوكلون ، قال بل أنتم المتآكلون ، إنما المتوكل الذي يلقى حبة في الأرض ويتوكل على الله»(٣) .

إن حقيقة التوحيد لا تتم إلا بمباشرة الأسباب التي جعلها الله وأوجدها ، وأن تعطيلها قدح في لُب التوكل ، وأما تركها عجزاً فهو ينافي التوكل الذي حقيقته إعتماد القلب على الله تعالى في حصول ماينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع مايضره في دينه ودنياه ، مع مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع (٤).

---

(١) صحيح البخاري ٢١/٧ ، كتاب الطب ، باب مايذكر في الطاعون .

(٢) مجموع الفتاوي ٥٢٨/٨ .

(٣) جامع العلوم والحكم ٤٦٨ .

(٤) انظر : زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ٦٧/٣ ط الثانية ١٤٠٣ ، دار الفكر – بيروت ، وانظر : مجموع الفتاوي ٢٩٦/٨ .

رابعاً : تحريم الله تعالى الظلم على نفسه :

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما رواه عن الله تبارك وتعالى أنه قال : **[ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم .... ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه]**[(١)] .

ينزه هذا الحديث القدسي الله تعالى عن ظلم العباد ، ويؤكد ذلك قوله تعالى :﴿... وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّامٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾[(٢)] . وقوله :﴿... وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[(٣)] .

وفسر أهل السنة الظلم بأنه وضع الأشياء في غير موضعها ، فيذكر الإمام ابن القيم ذلك بقوله :«وقال أهل السنة والحديث ومن وافقهم ، الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهو سبحانه حكم عدل لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه ، ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة» [(٤)].

ووضح الإمام إبن تيمية الظلم الذي حرمه الله تعالى على نفسه بقوله :«إن الظلم الذي حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ، ويعاقب البرئ كما لم يفعل من السيئات ، ويعاقب هذا بذنب غيره ، أو يحكم بين الناس بغير القسط ، ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه عنها الرب لقسطة وعدله وهو قادر عليها ، وإنما استحق الحمد والثناء لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه»[(٥)] . ولهذا فعقاب العبد على فعله الاختياري ليس ظلماً لأنه عقاب على فعله الاختياري الذي فعله بإرادة حرة ، فما ظلمه الله ولكن هو ظلم نفسه ، فعقوبة العاصي عدل من الله تعالى ، وعفوه ومغفرته عن عبادة إحسان منه وفضل .

وهذا يدل على أنه تعالى لا يعاقب إلا من استحق العقوبة ،وذلك لكفره وفسقه وخروجه عن الحق ، وهذا من حكمة الله تعالى في خلقه ، كما أنه تعالى لا يعاقب أهل البر والتقوى

---

(١) صحيح مسلم ١٩٩٤/٤ – ١٩٩٥ كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم حديث ٢٥٧٧ ، جامع الأصول ٣/١ كتاب المواعظ والرقائق حديث ٨٤٦٦ .

(٢) سورة ق الآية ٢٩ .

(٣) سورة غافر الآية ٣١ .

(٤) مختصر الصواعق المرسلة ٣١٢/١ ، وانظر : جامع العلوم والحكم ٢٣٧ ، الفوائد لابن القيم ص ٢٥ .

(٥) مجموعة الرسائل المنيرية ٢١١/٣ ، وانظر : منهاج السنة النبوية ٢٧١/١ .

عدلاً منه ورحمة،حيث قال تعالى :﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾(١) أي أنهم لا يظلمون فلا يزاد في سيئاتهم،ولا يهضمون فلا ينقص من حسناتهم.وفسر إبن عباس رضي الله عنه ذلك بقوله :«إن الظلم أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسناته»(٢).ويؤكد ذلك قول الله تعالى :﴿... وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ...﴾(٣) .

ولكن كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قول الرسول ﷺ:**[لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ،ولو رحمهم كانت رحمه خيراً لهم من أعمالهم]**(٤) .

إن هذا الحديث لايتعارض مع ماسبقه حيث أن الله تعالى أنعم على خلقه بنعم كثيرة ،وأن الخلق مهما عملوا فلن يقوموا بحقوق هذه النعم عليهم إما عجزاً وإما جهلاً وإما تفريطاً وإما تقصيراً ، لأن حقه على أهل السموات والأرض «أن يطاع فلا يعصي ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وتكون قوة الحب والإنابة والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهة إليه ، ومتصلة به ، بحيث يكن القلب عاكفاً على محبته وتأليهه ، بل على إفراده بذلك ، واللسان محبوساً على ذكره ، والجوارح وقفاً على طاعته»(٥) .

فهذه الأفعال تدخل تحت قدرة الإنسان ، ولكن النفوس تعجز عن آداء هذه أحياناً بهذه الطاعات ، مع أن تلك الأفعال والعبادات لو فعلها الإنسان لن تقوم بحقوق نعم الله عليه ، فكيف إذا لم يفعلها أو قصر فيها ؟ !! ولهذا لو وضع الله تعالى عدله على أهل سماواته وأرضه لعذبهم بعدله ولم يكن بذلك ظالماً لهم ، كما أنه تعالى لو عذب عبده على جناية أو جريمة فعلها لم يكن ظالماً ، وإن تاب العبد منها ،ولكن الله تعالى قضى بمقتضى فضله ورحمته أنه لا يعذب من تاب ، حيث كتب على نفسه الرحمة .حيث قال النبي ﷺ :**[لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي]**(٦) . وقال

---

(١) سورة طه الآية ١١٢ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ٥٠٨ ، وانظر : تفسير القرآن العظيم ١٧١/٣ ، فتح القدير ٣٨٨/٣ .

(٣) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٤) سنن أبي داود ٢٢٥/٤ ، كتاب السنة ، باب في القدر حديث ٤٦٩٩ ، جامع الأصول ١٠٥/١٠ – ١٠٦ ، كتاب القدر ، فصل الإيمان بالقدر حديث ٧٥٧٦ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥١٠ .

(٦) صحيح مسلم ٢١٠٧/٤ ، كتاب التوبة باب في سعة رحمة الله تعالى حديث ٢٧٥١ .

أيضاً :**[كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون]** [1]. فهذا من رحمة الله تعالى أن يقبل توبة عبده ، وذلك يدل على اختيار الإنسان وعدم اكراهه ، لأن المكره لايعد مخطئاً بل يقال عنه مجبر ومكره ، كما بين الرسول ﷺ أن الناس لو لم يذنبوا لأتى الله بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم، حيث قال :«والذي نفسي بيده ، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم» [2] . فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه ، وبالتالي فلا يبلغ عمل أحد من عباده أن ينجيه من النار أو يدخله الجنة كما أخبر الرسول ﷺ عندما قال :**[إعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل]** [3] . فالرسول ﷺ وهو أتقى الناس لربه وأفضلهم عملاً وإخلاصاً ، وأشدهم له تعظيماً وإجلالاً يخبر أنه لن يدخل الجنة إلا برحمة من الله وفضل .

وهذا أبوبكر الصديق رضي الله عنه الذي هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين يطلب من الرسول ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته فقال له :**[قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فأغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم]**[4] .

فالعبد مهما عمل فهو مقصر في حق الله تعالى ، فالواجب عليه أن يطلب من الله تعالى باستمرار الرحمة والمغفرة لأنه بحاجة ماسة إلى ذلك ، ولا يستغنى طرفة عين عن رحمة ربه ومغفرته .

إن الإنسان إذا وازن بين النعم التي أنعم الله بها عليه ، ومايترتب عليها من حقوق عليه ، ثم وازن بين شكرها وكفرها ، لعلم يقيناً أن الله تعالى لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، وبهذا يتبين أن لاتعارض بين الحديثين .

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٩٨/٣ ، الجامع الصغير ٩٢/٢ ، جامع الأصول ٥١٥/٢ ، كتاب التوبة حديث رقم ٩٨٨ .

(٢) صحيح مسلم ٢١٠٦/٤ ، كتاب التوبة ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار حديث ٢٧٤٩ .

(٣) صحيح مسلم ٢١٧٠/٤ ، كتاب صفات المنافقين ، باب لن يدخل الجنة أحد بعلمه ، حديث ٢٨١٦ ، صحيح البخاري ١٨١/٧ ، كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل .

(٤) صحيح مسلم ٢٠٧٨/٤ ، كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت إلا بالذكر والدعاء حديث ٢٧٠٥ .

فهم السلف لأحاديث الاختيار :

فـهم السلف الأحـاديث الواردة في السـنة النبـوية ، والتي يظهـر من خـلالها حـرية إرادة الإنسان واختياره ، الفهم الذي يتفق مع مراد رسول الله ﷺ مع ربط هذه الأحـاديث بالآيات القرآنيـة ، فأخرجوا منهـجاً متكاملاً دون تحريف أو تبديل لكونهم أخذوا العلم من رسول الله ﷺ ، فلم يتأثروا بأفكار دخيلة ولا معتقدات باطالة .

فلم يقولوا بأن الإنسـان مجبر من كل وجه ، كما قال الجبرية ، ولاقالوا إنه مخير مطلقاً وخالقاً لأفعاله كما قال المعتزلة . بل أخذوا بالمنهج الوسط الموافق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :«إن الله أمر عباده تخييـراً ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً»[١] . وقال ابن تيمية :«قد ثبت أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها... وأن العباد لهم قدرة ومشيئة وأنهم فاعلون لأفعالهم»[٢] .

بل إن الإمام إبنَ تيمـية يثبت اتفاق السلف على أن للعبـد حرية واختيـاراً فقال :«فلم يكن من السلف والأئمة من يقول إن العبد ليس بفاعل ولا مختار ولا مريد ولاقادر»[٣] .

إن فـهم السلف ناتج عن فـهمـهم لكتـاب الله تعـالى وسنة رسوله ﷺ ، وقد سبق بيـان فـهم السلف للآيات القـرآنيـة التي تبين اختـيـار الإنسـان ، الفـهم الموافق للحق والمخـالف للباطل، وكذلك فهموا السنة النبوية .

(١) نهج البلاغة ج٤ ص ٥٧٨ .

(٢) مجموع الفتاوي ج٨ ص ٥٢١ .

(٣) المصدر السابق ج٨ ص ٤٥٩ ص ٤٦٠ .

المبحث الثاني
موقف الجبرية والمعتزلة
من أحاديث الأفعال والرد عليهم

مثلما تطرقنا في الفصل السابق لموقف الجبرية والمعتزلة الخاطيء من آيات أفعال العباد ، كذلك سنتطرق إلى موقف الجبرية والمعتزلة المتعلقة بأفعال العباد ، حيث حاول كل فريق توجيه الأحاديث وتأويلها حسب مايرى ويعتقد دون النظر إلى حقيقة النص ومدلوله ، فأدى بهم ذلك إلى الإضطراب والإنحراف عن فهم السلف للأحاديث النبوية .

المطلب الأول : موقف الجبرية من أحاديث الجبر والاختيار والرد عليهم :

اتضح مما سبق أن الأحاديث النبوية تشتمل على كثير من الأحاديث الموحية بالجبر ، وهذا دفع الجبرية إلىٰ القول بالجبر المطلق ، واعتبار الإنسان مسيراً في جميع أفعاله وحركاته ، وسكناته وأما الأحاديث التي تثبت حرية الإنسان فحولوها عن معناها الحقيقي وأولوها تأويلاً مخالفاً للغة والاعتقاد السليم،وكل ذلك من أجل إثبات أن الإنسان مجبر على فعله .

أولاً : موقف الجبرية من أحاديث الجبر والرد عليهم :

– أحاديث القدر :

ورد عدد من الأحاديث التي تتعلق بالقدر فاعتبرها الجبرية مؤيدة لمواقفهم ومن ذلك :

أ) حديث محاجة آدم وموسى عليهما السلام .

وورد فيه «... فقال له آدم : أنت موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فقال النبي ﷺ :«فحج آدم موسى . فحج آدم موسى»[(١)] .

اعتبر الجبرية أن هذا الحديث مؤيد لموقفهم من أفعال العباد ، وكونهم مجبرين عليها . وذكر الإمام ابن كثير استدلالهم بهذا الحديث فقال :«واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم باديَ الرأي حيث قال : فحج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه»[(٢)]. كما ذكر

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٤٢/٤ كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام حديث رقم ٢٦٥٢ ، صحيح البخاري ٢١٤/٧ ، كتاب القدر باب تحاج آدم وموسى عند الله .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٨٤/١، انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٣٣١/١ .

احتجاجهم الإمام ابن حجر العسقلاني بقوله :«وليس فيه حجة للجبرية ، وإن كان في بادئ الرأي يساعدهم»(١) ولذلك قال الإمام الخطابي في رده على القائلين بالجبر مع بيان بطلان موقفهم من هذا الحديث : «يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر يستلزم الجبر وقهر العبد ويتوهم أن غلبة آدم كانت من هذا الوجه ، وليس كذلك إنما معناه الإخبار عن إثبات علم الله بما يكون من أفعال العباد وصدورها عن تقدير سابق منه»(٢) .

ولذلك يتبين بطلان قول الجبرية في استدلالهم بهذا الحديث من وجوه :

١ - أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر تاب منه فاعله لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، فكيف بمن أخبر الله تعالى أنه تاب عليه وقبل توبته .

٢ - أن موسى عليه السلام قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها ، وسأل الله في ذلك المغفرة فغفر له حيث قال تعالى :﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ...﴾(٣) .

٣ - أنه لو كان الجواب عن اللوم بالقدر المتقدم كتابته على العبد ، لا نفتح هذا لكل من وجه له اللوم على أمر قد فعله ، فيحتج بالقدر السابق ، فيفسد باب القصاص والحدود ، ولو كان القدر حجة ، لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار ، وهذا يفضي إلى لوازم باطلة ، ولذلك فحقيقة احتجاج آدم عليه السلام بالقدر ، إنما كان على المصيبة لا على المعصية (٤).

٤ - إن الإحتجاج بالقدر لايقبله الشخص فيما يقع عليه أو على أهله وماله ، فلو تعدى رجل على آخر فضربه أو أخذ ماله ، وعند سؤاله عن أفعاله قال إنما حملني عليها قضاء الله وقدره ، فإنه لن يقبل منه ذلك ، فكيف بمن يحتج به على الله تعالى في ترك الطاعات وارتكاب المحرمات ؟ !! ولذلك يقول الإمام ابن تيمية :«فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ولايراه حجة لغيره ، يستند إليه في الذنوب والمعائب ، ولا يطمئن إليه في المصائب ، كما قال بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهب به»(٥) .

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥٠٩/١١ .

(٢) المصدر السابق ٥٠٩/١١ ، وانظر : مجموعة رسائل الشيخ عبد الله آل محمود ١٧٥/٢ .

(٣) سورة القصص الآية ١٦ .

(٤) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٨٥/١ .

(٥) مجموع الفتاوي لابن تيمية ١٠٧/٨ .

ب) الإيمان بقدر الله وعدله :

أخرج الإمام ابو داود في سننه عن أبي بن كعب أن الرسول ﷺ قال :**[لو أن الله عذب أهل سماوته وأهل أضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم]** (١).

يرى الجبرية أن هذا الحديث حجة لهم ويؤيد موقفهم من أفعال العباد واستدلوا به على أن العبد مجبر على عمله وأنه لا اختيار له (٢).

وهم قد «أنكروا أن تكون الأعمال سبباً في دخول الجنة من كل وجه»(٣) ، غير أن نهاية الحديث ترد عليهم :«ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم» . إلا أنهم سلكوا سبيل الجبر ، وطريق المشيئة المحضة من غير اعتبار علة ولا حكمة ، فاعتبروا كل ممكن عدل ، والظلم هو الممتنع لذاته ، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لكان متصرفاً في ملكه ، والظلم هو تصرف القادر في غير ملكه ، وذلك مستحيل على الله سبحانه وتعالى ، ولما كان الأمر رجعاً إلى محض المشيئة ، لم تكن الأعمال سبباً للنجاة ، بل كانت رحمته بالعباد هي أساس نجاتهم وبهذا كانت رحمته خيراً من أعمالهم ، وهؤلاء الجبرية راعو جانب الملك وعطلوا جانب الحمد ، والله سبحانه له الملك وله الحمد(٤) .

إن هذا الموقف من الجبرية راجع إلى عدم نظرتهم إلى الآيات القرآنية التي تبين وتوضح أن العمل له دور في دخول الجنة وسبباً للنجاة .حيث قال تعالى :﴿... سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٥) . ولذلك أرادوا استغلال ظاهر الحديث لاثبات معتقدهم ، ولكن الذي يظهر من الحديث الشريف الذي يثبت أن العمل لا يدخل الجنة ، والآيات القرآنية التي تثبت أن العمل يدخل الجنة ، هو أن أعمالنا إذا قيست بنعم الله تعالى التي لاتحصى لا تدخلنا الجنة ، ولو أراد الله تعالى أن يحاسبنا على أعمالنا مع مقابلة ما أنعم علينا لما دخل أحد الجنة بعمله ، ولكن من رحمة الله تعالى أن حاسبنا على أعمالنا دون النظر إلى النعم

---

(١) سنن أبي داود ٢٢٥/٤ ، كتاب السنة ، باب في القدر حديث رقم ٤٦٩٩ .

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٣٣١/١ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ٥٠٩ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٩٦/١١ .

(٤) انظر : شفاء العليل ص ١١٣ .

(٥) سورة النحل الآية ٣٢ .

التي أنعم بها علينا ، فلهذا كان دخول الجنة برحمة الله ، ونعمته وهكذا يتبين بطلان قول الجبرية لأن رحمة الله تعالى ثم عمل الإنسان هما السبب في دخول الجنة .

ج) الأعمال بخواتيمها :

روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :[... **إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النارفيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**](١) .

استدل الجبرية بهذا الحديث على سلب القدرة والاختيار عن العبد ، ولذلك قال الإمام ابن حجر في بيان موقفهم من الحديث :«وذهب الجبرية إلى أن الكل فعل الله وليس للمخلوق فيه تأثير أصلاً»(٢) .

هذا هو فهم الجبرية للحديث ، وقد ذكر شارح الطحاوية موقف الجبرية من النصوص الشرعية بقوله «فكل دليل صحيح يقيمه الجبري ، فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، ولايدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار»(٣) .

لقد جادل كثير من الناس في هذا الحديث النبوي ظانين أنهم مجبورون على أفعالهم مطلقاً وفهموا أن بعض الناس مكتوب لهم السعادة وهم في بطون أمهاتهم ، فمهما عملوا من شر فلن يضرهم ذلك ، وآخرون مكتوب لهم الشقاء فمهما عملوا من خير وآمنوا فلن ينفعهم ذلك ، فظنوا أن هذا القدر المكتوب هو عبارة عن الجبر وسلب الاختيار .

وحقيقة ذلك أن الكتابة نوعان : كتابة : وهي سبق علم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها ، وأن الله تعالى يعلم أحوال خلقه وماهم عاملون وهم في بطون أمهاتهم ، فهذه لا تتبدل ولا تتغير ، وهي كتابة الأزل . وعلم الله سبحانه لا يتعلق به إجبارهم على فعل الخير

---

(١) صحيح البخاري ٢١٠/٧ ، كتاب القدر ، باب في القدر ، صحيح مسلم ٢٠٣٦/٤ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي حديث رقم ٢٦٤٣ .

(٢) فتح الباري ٤٩٠/١١ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ٤٩٤ .

أو الشر بل هم عاملون لأنفسهم ، مختارون لأعمالهم الصالحة والسيئة ، فهي كسبهم ويترتب الجزاء على ذلك ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1] .

وأما الكتابة التي بيد الملك كما يفيده الحديث،فإنه يقع فيها التبديل والتغيير بإذن الله وبمقتضى سنة الله في الأسباب التي رتبها الله تعالى لدفع القدر والقضاء ورفعه، فإن الله تعالى يمحو مايشاء ويثبت،وأما علم الله تعالى فإنه لا يتبدل ولا يتغير، فإنه تعالى يعلم أنه سيقع كذا وكذا في وقت كذا،وهذا العلم لا تبديل فيه ولاتغير، بخلاف الكتابة التي بأيدي الملائكة، والتي في اللوح المحفوظ فإنها تتبدل وتتغير بحسب سنة الله تعالى في تقدير مايدفعها ويرفعها كما قال عمر رضي الله عنه :«نفر من قدر الله إلى قدر الله»[2] [3] .

إن الله تعالى بموجب ألوهيته يعلم بما سيفعله عباده في مختلف أحوالهم وأعمالهم وبما سيقع ويحصل في ملكه ، وهذا العلم صفة كاشفة فقط ، وكل شأنها أنها تكشف عن الأمور على ماهي عليه ، أو على ماستوجد عليه ، وهذا لا علاقة له بالجبر أو التخيير ، لأن الإنسان لا يعلم ماكتب الله تعالى عليه في الأزل شقي أو سعيد .

فاعتمد الجبرية على الحديث لترك الأخذ بالأسباب حيث قالوا : «سبق العلم والحكم بالسعادة والشقاء لا يتغير البتة ، فسواء علينا الفعل أو الترك ، فإن سبق العلم الحكم بالشقاوة فنحن أشقياء عملنا أو لم نعمل ، وإن سبق بالسعادة فنحن سعداء عملنا أو لم نعمل»[4] .

وهذا القول ظاهر البطلان ومخالف للحق ، ورد الإمام ابن القيم عليه بقوله :«إنه فاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين»[5] . فعندما سئل الرسول ﷺ عن اسقاط الأسباب وعدم العمل نظراً إلى القدر ، كان جوابه الأخذ بالأسباب والعمل حيث ورد في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال :[**مامنكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده**

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٦ .

(٢) صحيح البخاري ٢١/٧ ، كتاب الطب ، باب مايذكر في الطاعون .

(٣) انظر : مجموعة رسائل الشيخ عبد الله آل محمود ١٧٧/٢ - ١٨١ .

(٤) مدارج السالكين ٤٩٧/٣ .

(٥) المصدر السابق ٤٩٧/٣ .

من النار : قالوا يارسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له][1] .

وسبق بيان موقف الصحابة من الأخذ بالأسباب حيث أن عمر رضي الله عنه قال لأبي عبيدة رضي الله عنه عندما قال له أتفر من قدر الله - يعني الطاعون - «فقال عمر لو غيرك قالها يا أبا عبيدة نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله[2]» .

إن الأدلة الشرعية واضحة وصريحة في الأخذ بالأسباب ، ولذلك ذكر الإمام ابن القيم عن بعض العلماء القول :«الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً - تغيير في وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع»[3] . ووضح ابن القيم هذا القول وفصله مبيناً أن هذا القول يحتاج إلى شرح وتقييد ، فالالتفات إلى الأسباب ضربان أحدهما شرك : أن يعتمد على الأسباب ويطمئن إليها ، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود ، فهو معرض عن المسبب لهذه الأسباب وهو الله تعالى ، وجاعل نظره والتفاته مقصوراً عليها .

وأما الثاني : فهو عبودية وتوحيد ، وهو أن يتلفت إلى الأسباب التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها ، وانزالها منازلها[4] .

ثانياً : موقف الجبرية من أحاديث الإختيار والرد عليهم :

اتضح فيما سبق عند الحديث عن الجبرية وموقفهم من الآيات القرآنية التي تثبت للإنسان إرادة واختياراً وأفعالاً،أنهم يرون أن هذه الأفعال إنما تنسب إلى الناس على سبيل المجاز لا الحقيقة حيث قال جهم بن صفوان :«وإن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز»[5]، حتى قضية الكسب التي اثبتها القرآن الكريم للإنسان نفوها واعتبروا أنه لا معنى لها[6] .

ولكن عند مناقشة موقف الجبرية من أحاديث الاختيار والتي تخالف مواقفهم كأحاديث

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٤٠/٤ ، كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي حديث ٢٦٤٧ .

(٢) صحيح البخاري ٢١/٧ ، كتاب الطب ، باب مايذكر في الطاعون .

(٣) مادرج السالكين ٤٩٩/٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ٤٩٩/٣ .

(٥) مقالات الإسلاميين ٣٣٨/١ ، الفرق بين الفرق ٢١١ ، شفاء العليل ص ٤٩ .

(٦) انظر : شفاء العليل لابن القيم ص ١٢١ .

الفطرة أو النية ، فلم أعثر لهم - عموماً - على قول فيها ، وكأنهم أعرضوا عنها لمخالفتها لافكارهم ومعتقداتهم ، ولكنهم تناولوا أحاديث قليلة في ذلك ، وحاولوا أن يؤولوها للاستدلال على معقتداتهم المخالفة للفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن ذلك :

١ - ثمرة الأعمال الجنة أو النار :

قال رسول الله ﷺ :**[إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته ، فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذريته ، فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعملة بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار]** (١) .

رأى الجبرية أن هذا الحديث يساند مذهبهم ورأيهم القائل بأن الإنسان مجبر على أفعاله، فقالوا مستدلين بهذا الحديث :«إن الله تعالى خلق المؤمنين مؤمنين ،وخلق الكافرين كافرين، وإبليس لم يزل كافراً،وأبوبكر وعمر رضي الله عنهما كانا مؤمنين قبل الإسلام ، والأنبياء عليم السلام كانوا أنبياء قبل الوحي،وكذا إخوة يوسف كانوا أنبياء وقت الكبائر» (٢) .

إن قول الجبرية هذا ناتج عن التصور الذي يؤمنون به دون النظر إلى الأدلة الأخرى التي تثبت للإنسان حرية واختياراً،بل إن الحديث نفسه الذي استدلوا به يثبت الأعمال ومايترتب عليها من ثواب أو عقاب،وهذا يدل بوضوح على مخالفة قولهم وبطلانه ،ولذلك رد عليهم الإمام أبوحنيفة بالقول :«إنهم صاروا أنبياء بعد ذلك ،وإبليس صار كافراً،وهذا لاينافي كونه كافراً عند الله باعتبار تعلق علمه بأنه سيصير كافراً بعلمه،ولو كان جبراً محضاً لما صدر من إبليس طاعة،ولا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما معصية،فبطل قولهم إن الكفار مجبورون على الكفر والمعصية،والمؤمنون مجبورون على الإيمان والطاعة، بل نقول إن العبد مختار مستطيع على الطاعة والمعصية،وليس بمجبور، والتوفيق من الله تعالى» (٣) .

---

(١) موطأ الإمام مالك ٨٩٨/٢ - ٨٩٩ ، كتاب القدر ، باب النهي عن القول بالقدر ، سنن الترمذي ٢٦٦/٥ ، كتاب التفسير باب ومن سورة الأعراف ، حديث رقم ٢٠٧٥ .

(٢) شرح الفقه الأكبر ص ٧٥ .

(٣) المصدر السابق ٧٥ - ٧٦ .

كما أن الإمام ابن كثير بين حقيقة هذا الحديث وغيره من الأحاديث المماثلة بقوله :«فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، أما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ... قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد»[1] .

٢ - تحريم الله تعالى الظلم على نفسه :

عن أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :[**ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ...**][2] .

أنكر الجبرية الظلم مطلقاً واعتبروا أنه لا حقيقة ، له،بل لم يتصوروا وجوده حيث يقول الإمام ابن القيم عنهم :«فأما الجبرية فعندهم لا حقيقة للظلم الذي نزه الرب نفسه عنه البتة ، بل هو المحال لذاته الذي لايتصور وجوده»[3] ، ويرجع سبب انكارهم لحقيقة الظلم واعتباره من المحال الممتنع لذاته كالجمع بين الضدين «لأن الظلم إما التصرف في ملك الغير بغير إذنه، وإما مخالفة الأمر ، وكلاهما في حق الله تعالى محال، فإن الله مالك كل شيء وليس فوقه آمر تجب طاعته»[4] .

ولذلك اعتبر الجبرية أن الظلم إن وجد فهو عدل مهما كان ، حيث قالوا :«وأما تصور وجوده وقدر وجوده فهو عدل كائناً ماكان»[5] وعلى مبدئهم هذا ، قالوا إن الله تعالى :«لو عذب رسله وأنبياءه وأولياءه أبد الآبدين ،وأبطل جميع حسناتهم وحملهم أوزار غيرهم وعاقبهم عليها ، وأثاب أولئك على طاعات غيرهم وحرم ثوابها فاعلها ، لكان ذلك عدلاً محضاً ، فإن الظلم من الأمور الممتنعة لذاتها في حقه ، وهو غير مقدور له ، بل هو كقلب المحدث قديماً ، والقديم محدثاً»[6] .

وقول الجبرية هذا ناتج عن اعتقادهم «بأنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم ، بل

---

(١) تفسير القرآن لابن كثير ٢٧٠/٢ .

(٢) صحيح مسلم ١٩٩٤/٤ ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم حديث ٢٥٧٧ .

(٣) مختصر الصواعق المرسلة ٣١٣/١ .

(٤) المصدر السابق ٣١١/١ ، وانظر : الفوائد ص ٢٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٥١٧ .

(٥) مختصر الصواعق المرسلة ٣١١/١ .

(٦) المصدر السابق ٣١٣/١ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٧ .

كان ما كان ممكناً فهو منه - لو فعله - عدل ، إذا الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي والله ليس كذلك»[1] .

إن مايرد على رأي الجبرية هذا قول الله تعالى :﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَاْ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] . وقوله تعالى :﴿... وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[3] . وقوله تعالى :﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾[4] . وفسر علماء السلف الظلم :أن توضع عليه سيئات غيره،والهضم أن ينقص من حسناته [5]. ولكن خالف الجبرية السلف واعتبروا أن هذا لو وقع لم يكن ظلماً بل عدلاً .كما أن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لايدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك ، وإنما يأمن مما يمكن وقوعه، فلما آمنه من الظلم بقوله تعالى «فلا يخاف» علم أنه ممكن الوقوع مقدور عليه [6].

إن الحديث يدل بوضوح على شيئين يتضح من خلالهما بطلان قول الجبرية :

١ - أن الله تعالى حرم على نفسه الظلم ، والممتنع لا يوصف بذلك .

٢ - أن الله تعالى أخبر أنه حرمه على نفسه ، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا يدل على بطلان احتجاجهم ، بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي ، لأنه تعالى كتب على نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم ، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ماهو قادر عليه ، لا ماهو ممتنع عليه[7] .

والجبرية إنما نزهوا الله تعالى عن المستحيل لذاته ، الذي لا يتصور وجوده ، ومن المعلوم أن هذا التنزيه يشترك فيه كل أحد ، ولا يمدح به أحد أصلاً لأنه لا مدح في كون الممدوح منزه عن الجميع بين النقيضين ، في حين أن الله تعالى مدح نفسه بعدم الظلم ، وأنه لايريده ، ومحال أنه يمتدح بكونه لا يريد الجمع بين النقيضين ، وأنه لايريد قلب الحادث قديماً ، ولاقلب القديم حادثاً ، ولا جعل الشيء موجوداً معدوماً في آن واحد [8].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٧ .

(٢) سورة ق الآية ٢٩ .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٤) سورة طه الآية ١١٢ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٨ ، تفسير القرآن العظيم ٣/١٧١ ، فتح القدير ٣/٣٨٨ .

(٦) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٨ .

(٧) انظر : المصدر السابق ص ٥٠٨ .

(٨) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ١/٣١٤ - ٣١٥ .

وعليه ، يتبين أن الله تعالى إنما حرم على نفسه الظلم ونزه نفسه عنه مع القدرة عليه ، ولا يعني أن يوصف بذلك ، كما لايوصف بسائر القبائح التي يفعلها العباد مع أنها خلقه وتقديره ، فإنه تعالى لا يوصف إلا بما قام به من صفاته وأفعاله ، والله تعالى أعلم .

المطلب الثاني : موقف المعتزلة من أحاديث الجبر والاختيار والرد عليهم

للمعتزلة كذلك موقف من الأحاديث النبوية في الجبر أوالاختيار مخالف للمفهوم الحقيقي لها . وهذه المخالفة ناتجة عن تأويلها تأويلاً فاسداً يوافق معتقداتهم سواء فيما يتعلق بأحاديث الجبر أو الاختيار .

أولاً : موقف المعتزلة من أحاديث الجبر والرد عليهم :

١ - أحاديث القدر :

وردت جملة من الأحاديث النبوية التي تتعلق بالقدر ، فاعتبرها المعتزلة مخالفة لآرائهم فأنكروها وردوها ومن ذلك :

أ- حديث محاجة آدم وموسى عليهما السلام :

حيث ورد فيه :[... **فقال له آدم : أنت موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فقال النبي ﷺ :"فحج آدم موسى . فحج آدم موسى"**][(١)] .

إن موقف المعتزلة من هذا الحديث الشريف هو رده وإنكاره واعتباره احتجاج بالقدر على المعصية ، حيث خالفوا فهم السلف للحديث ورأوه مخالفاً لما جاءت به الرسل حيث يقول الإمام ابن القيم مبيناً موقفهم :«وقد رد هذا الحديث من لم يفهمه من المعتزلة كأبي علي الجبائي[(٢)] ، ومن وافقه على ذلك ، وقال لو صح لبطلت نبوات الأنبياء ، فإن القدر لو كان حجة للعاصي بطل الأمر والنهي ، فإن العاصي بترك الأمر أو فعل النهي إذا صحت له الحجة بالقدر السابق ارتفع اللوم عنه ، وهذا من ضلال فريق المعتزلة وجهلهم بالله ورسوله وسنته»[(٣)] .

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٤٢/٤ ، كتاب القدر ، باب حجاج آدم موسى عليهما السلام حديث رقم ٢٦٥٢ ، صحيح البخاري ٢١٤/٧ ، كتاب القدر باب تحاج آدم موسى عند الله .

(٢) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي من أئمة المعتزلة له تفسير ، ولد سنة ٢٣٥ وتوفي سنة ٣٠٣هـ ، انظر : البداية والنهاية ١٢٥/١١ .

(٣) شفاء العليل ص ١٣ ، وانظر : مجموع الفتاوي ٣٠٤/٨ .

لقد أنكر المعتزلة هذا الحديث وردوه لأنهم رأوا فيه اثباتاً صريحاً للقدر السابق . ولذلك طعنوا فيه من وجوه :

١ - أن هذا الخبر يقتضي أن يكون موسى عليه السلام قد ذم آدم على الصغيرة وذلك يقتضي الجهل في حق موسى عليه السلام ،وهذا غير جائز .

٢ - أن الولد كيف يشافه والده بالقول الغليظ .

٣ - أن موسى عليه السلام قال :«أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة» . وقد علم موسى أن شقاء الخلق وإخراجهم من الجنة لم يكن من جهة آدم ، بل الله أخرجه منها ، كما يزعم المعتزلة .

٤ - أن آدم عليه السلام احتج بما ليس بحجة ، إذا لو كان حجة لكان لفرعون وهامان وسائر الكفار أن يحتجوا بها ، ولما بطل ذلك تبين فساد هذه الحجة .

٥ - أن الرسول عليه السلام صوب آدم في ذلك ، مع أنه قد تبين أنه ليس بصواب ، وهذا يدل على أن الحديث لا أصل له[(١)] .

بناء على ذلك يظهر عدم قبول المعتزلة لهذا الحديث واعتباره غير صحيح عن رسول الله ﷺ ، وذلك لكونه لا يوافق مبادءهم ومعتقداتهم في أفعال العباد ، فما لهم من حجة إلا أن ينكروه ، وقد رد عليهم في ذلك علماء السلف ، فالإمام ابن كثير يقول :«ومن كذب بهذا الحديث فمعاند ، لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً ، ثم هو مروي عن غيره من الصحابة»[(٢)] .

وقال الإمام ابن القيم :«فإن هذا حديث صحيح متفق على صحته ، لم تزل الأمة تتلقاه بالقبول في عهد نبينا قرناً بعد قرن ، وتقابله بالتصديق والتسليم ، ورواه أهل الحديث في كتبهم ، وشهدوا به على رسول الله ﷺ أنه قاله وحكموا بصحته ... ولم يزل أهل الكلام الباطل المذموم موكلين برد أحاديث رسول الله ﷺ التي تخالف قواعدهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة كما ردوا أحاديث الرؤية وأحاديث علو الله على خلقه ، وأحاديث صفاته القائمة به ...»[(٣)] .

---

(١) انظر : التفسير الكبير للرازي ٤٤/٢ ، ط بيروت ، فتح الباري ٥١٠/١١ .

(٢) البداية والنهاية ٨٥/١ .

(٣) شفاء العليل ١٣ - ١٤ .

وقال ابن المرتضى عن الحديث نفسه :«وهو من أثبت الأحاديث ، وأصح ماقيل في معناه أن لوم موسى لآدم كان على الخروج من الجنة ، وإخراجه ذريته منها على جهة الأسف على فوات هذه النعمة ، وتلك في الحقيقة مصيبة ، ... الله قدرها بسبب ذنب آدم عليه السلام لحكمته في ذلك»[1] .

ويُرد على المعتزلة بما يلي :

١ - إن موسى عليه السلام أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله ، واجتباه ربه وهداه واصطفاه ، كما أن آدم عليه السلام أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته ، بل إنما لام موسى آدم عليهما السلام على المعصية التي نالت الذرة بخروجهم من الجنة إلى دار الإبتلاء والإمتحان بسبب خطيئة أبيهم ، فذكر الخطيئة تنبيهاً على سبب المصيبة والمحنة التي نالت الذرية ، ولهذا قال موسى لآدم علهما السلام «أخرجتنا ونفسك من الجنة» فكان رد آدم عليه السلام أن احتج بالقدر على المصيبة لا على المعصية ، حيث أجمع أهل الإسلام على أن أهل المصائب يمكن أن يحتجوا ويتعزوا بالقدر ، ولا يحتج أهل المعائب [2] .

٢ - إن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع آخر، ينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم عليه السلام ، وهذا يدل على التوحيد ومعرفة أسماء الله تعالى وصفاته،وأما مايضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل ، وذلك بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك واجباً،فيلومه عليه لائم فيحتج عليه بالقدر على إقامته عليه وإصراره، وهذا يؤدي إلى أن يبطل بهذا الاحتجاج حقاً ويرتكب باطلاً، وقد فعل ذلك المصرون على شركهم وعبادتهم لغير الله تعالى فقالوا :﴿... لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ...﴾[3]،﴿وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ...﴾[4] فاحتجوا هنا مصوبين لما هم فيه ،غير نادمين على فعله، وغير عازمين على تركه ولم يقروا بفساده، فاحتجوا بالقدر مع إصرارهم لما هم عليه،وهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه ، وندم ورجع وعزم كل

---

(١) إيثار الحق على الخلق لابن المرتضى ص ٣٠٦ .

(٢) انظر : شفاء العليل ١٧ - ١٨ ، وانظر : فتح الباري ١١/٥١٠ ، إيثار الحق على الخق ص ٣٠٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٢٠ .

العزم على أن لا يعود، فإن لامه أحد بعد ذلك قال : كان ماكان بقدر الله تعالى[1] .

ب- الإيمان بقدر الله وعدله :

أخرج أبو داود عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال :**[لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ...]** [2] .

لم يختلف موقف المعتزلة من هذا الحديث عن سابقه ، من حيث رده وتكذيبه لكونه يخالف اعتقادهم بأن الجنة عوض عن العمل وثمن له دون النظر إلى رحمة الله وفضله ، لأن دخولها - حسب اعتقادهم - بمحض الأعمال فقط ، وفي هذا يقول الإمام ابن حجر العسقلاني عنهم : «والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض العمل وأنها ثمنه ، وأن دخولها بمحض الأعمال»[3] . وموقف المعتزلة هذا يقابل موقف الجبرية الذين انكروا أن تكون الأعمال سبباً في دخول الجنة .

ولكن الحديث يثبت بطلان قول المعتزلة من أن الجنة عوض عن الأعمال ، ولذلك رد أكثرهم هذا الحديث ، كما ذكر ذلك إبن القيم ، فقابله :«كثير منهم بالتكذيب والرد له ، وأن الرسول لم يقل ذلك ، قالوا : وأي ظلم يكون أعظم من تعذيب من استنفد أوقات عمره كلها واستفرغ قواه في طاعته ، وفعل مايحبه ، ولم يعصه طرفة عين ، وكان يعمل بأمره دائماً ، فكيف يقول الرسول ﷺ إن تعذيب هذا يكون عدلاً لا ظلماً»[4] .

إن هذا الموقف من المعتزلة ليس بغريب ،لأنهم إذا خالف أي حديث رأيهم احتاروا أمامه ، فلا يجدون مهرباً إلا أن يكذبوه ويردوه ، ولكن أسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق وتلقوه بالقبول، وعلموا عظمة الله وجلاله وقدر نعمه على خلقه ، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمة عليهم ، إما عجزاً وإما جهلاً، وإما تفريطاً وإما إضاعة وإما تقصيراً في المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه،فإن حقه على أهل السموات والأرض أن يطاع فلا يعصي ، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، ولهذا فإن اثابة الله تعالى لمن اطاعه هو

---

(١) انظر : شفاء العليل لابن القيم ص ١٨ .

(٢) سنن أبي داود ٢٢٥/٤ ، كتاب السنة ، باب في القدر حديث رقم ٤٦٩٩ .

(٣) فتح الباري ٢٩٦/١١ ، وانظر : شرح الطحاوية ص ٤٩٥ .

(٤) شفاء العليل ص ١١٣ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٩ .

بفضل منه ،وانتقامه ممن عصاه بعدل منه،ولا يثبت واحد منهما إلا بالسمع ،وله سبحانه وتعالى أن يعذب الطائع وينعم العاصي ، ولكنه أخبر أنه لايفعل ذلك وخبره صدق لا خُلف فيه [1].

ج ـ الأعمال بخواتيمها :

جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال :[... **إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكن بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**] [2].

بالنظر إلى هذا الحديث ، أنكر المعتزلة أن يكون الله تعالى عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها ، بل يعتقدون أن الله تعالى يعلمها بعد وقوعها . ولذلك يقول الإمام النووي :«زعمت القدرية أن الله لم يقدر الأعمال ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها ، وأنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها »[3] .

ويقول الإمام ابن حجر العسقلاني :«وقد حكى المصنفون في المقالات عن طوائف من القدرية إنكار كون الباري عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم ، وإنما يعلمها بعد كونها »[4] وهذا يتضح من موقف واصل بن عطاء من هذا الحديث حيث يقول :«لو سمعت الأعمش يرويه لكذبه، ولو سمعته من زيد بن وهب لما أحببته ،ولو سمعته من ابن مسعود لماقبلته ، ولوسمعته من رسول الله ﷺ لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت ماعلى هذا أخذت علينا الميثاق»[5].وروى عنه أيضاً أنه قال :«إن كانت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ...﴾[6] . في اللوح المحفوظ فما تعد منه على ابن آدم حجة»[7] .

---

(١) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٣٣١/١ – ٣٣٢ ، وانظر : فتح الباري٢٩٧/١١ .

(٢) صحيح البخاري ٢١٠/٧ ، كتاب القدر ، باب في القدر ، صحيح مسلم ٢٠٣٦/٤، كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي رقم ٢٦٤٣ .

(٣) مسلم بشرح النووي ١٥٤/١ .

(٤) فتح الباري ١١٩/١ .

(٥) معارج القبول ٣٥٢/٢ .

(٦) سورة المسد الآية ١ .

(٧) معارج القبول ٣٥٢/٢ .

فهذا الموقف المنسوب لواصل بن عطاء - إن صح قوله - يعد من أقبح الكفر ، لما فيه من التعالي على الله تعالى ورسوله ﷺ ، ورد لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية .

وقد بين الإمام ابن حجر العسقلاني أن ماذكر هو مذهب القدرية القدامى ، وأما من جاء بعدهم فيعترفون بعلم الله بأفعال العباد قبل وقوعها فيقول :« والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها ، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال ... وأما المتأخرون منهم فأنكروا تعلق الإرادة بأفعال العباد فراراً من تعلق القديم بالمحدث »[1] .

وأفضل مايرد به على هؤلاء القدرية هو ماذكره الإمام الشافعي :« إن سلَّم القدري العلم خُصِم . يعني يقال له : أيجوز أن يقع في الوجود خلاف ماتضمنه العلم ؟ فإن منع وافق قول أهل السنة ، وإن أجاز لزمه نسبة الجهل تعالى الله عن ذلك »[2] .

وأما القائلون بعدم علم الله تعالى لأفعال العباد قبل وقوعها ،فَيَرُدُ عليهم صدر هذا الحديث [**ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات . يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح**][3] .وكذلك حديث محاجة آدم وموسى عليهما السلام،لأن الله تعالى إن كتب ذلك وأمر الملك بأن يكتب ، فلا يكتب شيئاً لا يعلمه، تعالى وتقدس عن ذلك، وإن شك المعتزلة في هذه الأحاديث فيكفيهم قول الله تعالى :﴿... وَيَعْلَمُ مَافِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَاتَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [4] في بيان فساد وبطلان معتقدهم المخالف لكتاب الله تعالى وسنة رسوله . ولذلك عندما سئل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن أناس يقرأون القرآن ويعرفون العلم ويزعمون أنه لاقدر، وإنما الأمر انف - مستأنف غير مسبوق فيه - فقال :« إذا لقيتم أولئك فأخبروهم أني بريئ منهم وهم مني براء،والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ماقبله الله عز وجل منه حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره »[5] .

واستدل بعض المعتزلة بالحديث على :« أن من عمل عمل أهل النار وجب أن يدخلها

---

(١) فتح الباري ١/١١٩ .

(٢) المصدر السابق ١/١١٩.

(٣) صحيح البخاري ٧/٢١٠ ، كتاب القدر ، باب في القدر .

(٤) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٥) الاعتقاد للبيهقي ص ١٠٦ .

لترتب دخولها في الخبر على العمل ، وترتب الحكم على الشيء يشعر بعليته»[1] .وقولهم هذا ناتج عن اعتقادهم بتخليد صاحب الكبيرة في النار والحكم عليه بأنه في منزلة بين المنزلتين أي منزلة الكفر ومنزلة الإيمان ، فأرادوا بهذا الحديث تأييد مذهبهم .

وأما فيما يتعلق بالكفر والكفار فيشعر بالعلية في دخول النار ، وأما العصاة فأمرهم إلى الله تعالى ولذلك يقول الإمام ابن حجر العسقلاني في جوابه على استدلال المعتزلة:«بأنه علامة لا علة ، والعلامة قد تتخلف ، سلمنا أنه علة لكنه في حق الكفار وأما العصاة فخرجوا بدليل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ...﴾[2] فمن لم يشرك فهو داخل في المشيئة»[3].

إن هذا الحديث فيه رد واضح وصريح على قولهم بأنه يجب على الله تعالى فعل الأصلح ،لأنه كما يتضح من الحديث أن بعض الناس يذهب جميع عمره في طاعة الله تعالى، ثم يختم عمره بالكفر ، فيموت على ذلك فيدخل النار ، فلو كان يجب عليه رعاية الأصلح لم يحبط جميع عمله الصالح بكلمة الكفر التي مات عليها ، ولا سيما إن طال عمره وقرب موته من كفره ، وهذا القول من المعتزلة ناتج عن قياس أفعال الخالق على أفعال المخلوقين ، وماضلت المعتزلة إلا من جهة هذا القياس الفاسد[4] ، كما نسى المعتزلة حقيقة عقدية لايصح تجاوزها ، وهي أنه تعالى لايسأل عما يفعل وهم يسألون ، فالله مالك الملك يفعل مايشاء ، وبهذا يظهر أن الذي أوقع المعتزلة في ضلالهم هو إنكارهم علم الله السابق للوقائع قبل وقوعها ، وادعاؤهم أن العبد هو الخالق لفعله ، دون أن يكون له تعالى تقدير ومشيئة .

٢ - خلق الأعمال :

موقف المعتزلة من قول الرسول ﷺ :«إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته»[5] . كذلك مخالف لفهم السلف ، حيث إنهم يعتبرونه مخالفاً لمعتقدهم من أن العبد هو خالق لأفعال نفسه ، وليس الله تعالى ولذلك يقول القاضي عبد الجبار :«فأماحمل الكلام على

(١) فتح الباري ١١/٤٩٠ .

(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٣) فتح الباري ١١/٤٩٠ .

(٤) انظر : فتح الباري ١١/٤٩٠ ، المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي ص ١٢٦ .

(٥) خلق أفعال العباد للبخاري ص ٢٥ ، الجامع الصغير للسيوطي ١/٧٠ .

الحقيقة فلا يصح ، وما رووه عن الرسول ﷺ فأخبار آحاد لا يجوز أن تقبل فيها طريقة العلم ، وقد دللنا على أنه ليس بخالق لأعمال العباد ، فلا يجوز أن يراد بالكلام مايقتضيه ظاهره»[1] .

إن فرار المعتزلة دائماً من الأحاديث الصريحة الواضحة يكون بإنكارها أو باعتبارها أحاديث آحاد لا يأخذون بها في هذا الجانب .

وهذه حجة مرفوضة لأن الأحاديث النبوية يؤيد بعضها بعضاً،إلى جانب أنها مؤيدة بأخبار قطعية الدلالة وهي الآيات القرآنية الدالة والمصرحة بخلق الله تعالى لكل شيء ، ومنها أفعال العباد ، وقد ذُكِرَ نماذج من ذلك فيما سبق ، ولذلك ذكر الإمام ابن تيمية موقف علماء السلف من قولهم هذا فقال : «قال بعض علماء السلف من قال إن كلام الآدميين أو أفعال العباد غير مخلوقة فهو بمنزلة من قال إن سماء الله وأرضه غير مخلوقة،والله تعالى يخلق مايخلق لحكمة ... »[2] .

ثانياً : موقف المعتزلة من أحاديث الاختيار والرد عليهم :

١ - حديث الفطرة :

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ :**[مامن مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ...]** [3] .

احتج المعتزلة :«بهذا الحديث على أن الكفر والمعاصي ليس بقضاء الله وقدره ، بل مما ابتدأ الناس احداثه»[4] ، وأن «كل مولود يولد على الإسلام والله سبحانه لا يضل أحداً إنما أبواه يضلاه»[5] .

لقد عمل المعتزل جاهدين لاثبات أن هذا الحديث يؤيد مذهبهم في أن الله سبحانه لا يخلق الكفر والمعاصي ولا الضلال ، ولذا اعتبر القاضي عبد الجبار هذا الحديث مدعماً لمذهبه حيث يقول :«هذا الخبر يدل على صحة مانذهب إليه ولا تعلق لكم بهذا الخبر ، ففيه أن كل

---

(١) المغنى في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار ٣٢١/٨ .

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٢٧١/١.

(٣) صحيح مسلم ٢٠٤٧/٤ ، كتاب القدر ، باب معني كل مولود يولد علي الفطرة حديث ٢٦٥٨ .

(٤) شفاء العليل ص ٢٨٤ .

(٥) شفاء العليل ص ٢٨٧ .

مـولود يولد على الفطرة ، ومن مـذهبكم أن بعض المولودين يولودون على الفطرة ، والبـعض الآخـرة يـولدون على الكفـر ، فـكيف يصح قـولكم ذلك؟ .وأيضـاً فـيـه أن أبويه يهـودانه وينصرانه ويمجسانه ، ومن مذهبكم أنه تعـالى المتولي كل ذلك ، وأنه علي الحقيـقة يهوده ويمجسه وينصره . ثم نقول : إن المراد بالخبر أن أبويه يلقنانه اليـهودية والنصراينة والتمجس لا أنه يصير ذلك» [1] .

وأما الزمخشري فبين حقيـقة الفطرة وخلق الناس علهيا فـيقول : «والمعنى أنه خلقهم قـابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نـائين عنه ولا منكرين له ، لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن ومنه قـولـه ﷺ «كل عـبـادي خلقت حنفـاء فـاجـتـالـتـهم الـشـيـاطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري» [2] » [3] .

يظهر من أقوال المعتزلة السابقة ، أنهم يحاولون استغلال النصوص وصرفها عن مدلولها الواضح ، لإثبات مايعقتدون ، وإن كان ذلك مخالفاً للحقيقة ،«ولذلك عندما قيل لمالك بن أنس إن القدرية يحتجون علينا بأول الحديث فقال : احتجوا عليهم بآخره وهو قوله «الله أعلم بما كانوا عاملين»» [4] حيث أن الرسول ﷺ بعد أن ذكر الحديث ، قال له رجل يارسول الله أرأيت لو مات قبل ذلك ؟ قال : [الله أعلم بما كانوا عاملين] [5] .

ويلاحظ من خلال كلام القاضي عبد الجبار في كتابه «شرح الأصول الخمسة» أو «المغنى في أبواب العدل والتوحيد» أنه لم يفرق بين موقف الجبرية وموقف أهل السنة لأنه يرى أن كل من يقول بخلق الأفعال من الجبرية.وهذا معلوم بطلانه ، لأن الجبرية جعلت الإنسان مجبراً من كل وجه لا إرادة له ولا اختيـار بخلاف أهل السنة الذين أثبتوا للإنسان الإرادة والقدرة والاختيار ، مع الإقرار بجانب الجبر لدى الإنسان .

ورد أهل السنة على موقف المعتزلة من الحديث ، ونورد هنا مـاذكره الإمام ابن القيم عنهم :«قال لهم أهل السنة انتم لا تقولون بأول الحديث ولا بآخره ، أما أوله فإنه لم يولد

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٤٨٢ – ٤٨٣ .

(٢) صحيح مسلم ٢١٩٧/٤ ، كتاب الجنة ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ، رقم ٢٨٦٥ .

(٣) الكشاف للزمخشري ٢٢٢/٣ .

(٤) شفاء العليل ص ٢٨٤ .

(٥) صحيح مسلم ٢٠٤٧/٤ ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة حديث رقم ٢٦٥٨ .

أحد عندكم على الإسلام أصلاً ولا جعل الله أحداً مسلماً ولا كافراً عندكم ، وهذا أحدث لنفسه الكفر ، وهذا أحدث لنفسه الإسلام ، والله لم يخلق واحداً منهما ... وأما كونكم لا تقولون بآخره فهو أنه ينسب فيه التهويد والتنصير إلى الأبوين ، وعندكم أن المولود هو الذي أحدث لنفسه التهويد والتنصير دون الأبوين ، والأبوان لا قدرة لهم على ذلك البتة»[1] .

وأما قول الرسول ﷺ [الله أعلم بما كانوا عاملين] فهو يرد على المعتزلة بصراحة حيث أن الله تعالى يعلم مايصيرون إليه بعد ولادتهم على الفطرة ، هل سيبقون مؤمنين أم أنهم سيغيرون ويبدلون ويتحولون إلى الكفر ، وهذا دليل واضح على تقدم علم الله تعالى الذي ينكره المعتزلة .

وأما فيما يتعلق بأطفال المشركين فيقول القاضي عبد الجبار :«إنه تعالى لا يجوز أن يعذب أطفال المشركين بذنوب آبائهم»[2] .واستدل على قوله بالكتاب والسنة فقال:«فما يدل على ماذكرناه من كتاب الله قوله تعالى :﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3] . ومعلوم أن الأطفال لم تبعث إليهم الرسل ، فيجب أن لايعذبهم الله تعالى على مانقوله ، وقوله :﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[4] . والطفل لم يكتسب إثماً حتى يعذب»[5] .

وأما استدلاله من السنة فاستدل بقول الرسول ﷺ «رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ»[6] ، ثم قال «فبين أن القلم مرفوع عنه ، ولن يكون كذلك إلا ولا يحسن تعذيبه ، فصح أن تعذيب أطفال المشركين ظلم وأنه تعالى لا يختاره»[7] .

فاعتبر القاضي عبد الجبار أن تعذيب أطفال المشركين ظلم «وإذا قبح - أي الظلم - فإنما يقبح لوقوعه على وجه ، متى وقع على ذلك الوجه قبح من أي فاعل كان ، سواء وقع من الله تعالى أو من غيره»[8] .

---

(١) شفاء العليل ص ٢٨٧ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٤٧٧ .

(٣) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٤) سورة المدثر الآية ٣٨ .

(٥) شرح الأصول الخمسة ص ٤٧٨ .

(٦) سنن أبي داود ٤/١٤ ، كتاب الحدود ، باب الحد في المجنون يسرق أو يصيب حداً حديث رقم ٤٣٩٩ ، جامع الأصول ٣/٥٠٧ ، كتاب الحدود ، باب حد الزنى حديث رقم ١٨٢٣ .

(٧) شرح الأصول الخمسة ٤٧٨ .

(٨) المصدر السابق ص ٤٧٨ .

إن المعتزلة في تعاملهم مع الألفاظ لا يتأدبون مع الله تعالى ويطلقون ألفاظاً لا تتناسب مع مقام الألوهية والربوبية ، والواجب على العبد أن يذكر خالقه بأدب عظيم فيثنى عليه سبحانه ويمدحه ويضيف إليه محاسن الأمور ، ولكن خالف المعتزلة في ذلك ، فقالوا بالوجوب على الله تعالى ، ونسبوا إليه الظلم إن فعل كذا وكذا ، مع العلم أن السلف - كما سبق - متفقون على أنه لايجب على الله شيء ، وأنه لا يظلم أحداً ، حتى لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، فكيف تنسب المعتزلة الظلم إلى الله ؟ !! تعالى الله جل ثناؤه عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

إن المعتزلة لا يؤخذ عليهم استدلالهم بالقرآن والسنة على عدم عذاب أطفال المشركين ، فإن هذا قال به كثير من السلف(١) بل حكموا أنهم في الجنة ، ولكن مايؤخذ عليهم في هذه المسألة هو ألفاظهم التي يطلقوها ، دون اعتبار لمن يطلقونها عليه وهو الله تعالى،مالك الملك ، فهو يتصرف في مُلكه كيف يشاء ومتى شاء . وقد ناظر في ذلك أبو اسحاق الاسفراييني - أحد أئمة أهل السنة - القاضي عبد الجبار فأسكته حيث قال القاضي : أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى أحسن إليّ أم أساء ؟ فقال الأستاذ أبو إسحاق : إن منعك ماهو لك فقد أساء ، وإن منعك ماهو له فهو يختص برحمته من يشاء،فبهت القاضي»(٢) .

٢ - تحريم الله تعالى الظلم على نفسه :

عن أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ فيما رواه عن الله تبارك وتعالى أنه قال :[**ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً . فلا تظالموا...**](٣).

حاول المعتزلة كعادتهم ، مع هذا الحديث قياس الغائب على الشاهد ، فعملوا على إثبات خلق العباد للأفعال وإنكار الإرادة والمشيئة الإلهية ، وقالوا عن حقيقة الظلم بأنه : «إضرار غير مستحق ، أو عقوبته العبد على ماليس من فعله ، أو عقوبته على ماهو مفعول منه ونحو ذلك» (٤).

وإلى هذا القدر في بيان حقيقة الظلم يتفق المعتزلة مع أهل الحق ، ولكن رتبوا على هذا

---

(١) ومنهم الأئمة البخاري والنووي وابن حجر العسقلاني . انظر : فتح الباري ج٣ ص ٢٤٦ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٨ (الحاشية) .

(٣) صحيح مسلم ١٩٩٤/٤ ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم حديث ٢٥٧٧ .

(٤) مختصر الصواعق المرسلة ٣١١/١ .

القول أموراً مخالفة للحق ، لاثبات مذهبهم حيث قالوا :«فلو كان سبحانه خالقاً لأفعال العبيد مريداً لها قد شاءها وقدرها عليهم ثم عاقبهم عليها كان ظالماً ، ولا يمكن إثبات كونه سبحانه عدلاً لايظلم إلا بالقول بأنه لم يرد وجود الكفر والفسوق والعصيان ، ولاشاءها بل العباد فعلوا ذلك بغير مشيئته وإرادته ، كما فعلوه بغير إذنه وأمره ، وهو سبحانه لم يخلق شيئاً من أفعال العباد لا خيرها ولا شرها ، بل هم أحدثوا أعمالهم بأنفسهم ، ولذلك استحقوا العقوبة عليها ، فإذا عاقبهم لم يكن ظالماً لهم ، وعندهم أنه يكون مالا يشاء ويشاء مالا يكون» (١).

نظر المعتزلة إلى هذه المسألة من ناحية تنزيه الله تعالى عن كل قبيح ، وقاسوا القبائح والظلم بما نعمله في حياتنا ومعاملاتنا حيث يقول القاضي عبد الجبار:«ونحن إذا وصفنا القديم تعالى بأنه عدل حكيم ، فالمراد به أنه لايفعل القبيح أو لا يختاره، ولا يَخِلّ بما هو واجب عليه . وأن أفعاله كلها حسنة ، وقد خالفنا في ذلك المجبرة،وإضافت إلى الله تعالى كل قبيح »(٢).وأما بالنسبة للأدلة القرآنية التي نفت الظلم عن الله تعالى، فقد حاول القاضي عبد الجبار أن ينفي أهمية الدليل السمعي في هذه المسألة،وأنه لابد من استخدام العقل حيث يقول «وفي كتاب الله تعالى مايمكن أن يستدل به على أنه تعالى ما لو فعله لكان قبيحاً ، وإن كان السمع على هذه المسألة يبعد »(٣)، ولذلك أول الآيات القرآنية لتوافق مايريد فقال «وتحرير الدلالة على ذلك ، أن الله تمدح بنفي الظلم عن نفسه، مدحاً يرجع إلى الفعل حيث قال :﴿... وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٤).وقال :﴿إِنَّ اللَّهَ لَايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾(٥) وقال :﴿... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(٦) .ولا يحسن أن يتمدح بنفي الظلم عن نفسه ، وهو غير قادر عليه ... وإذا لم يكن القديم تعالى قادراً على القبيح ، وجب أن لايحسن منه أن يتمدح بترك الظلم»(٧) .

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ١/٣١١ - ٣١٢ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٣٠١ .

(٣) المصدر السابق ص ٣١٥ .

(٤) سورة فصلت الآية ٤٦ .

(٥) سورة النساء الآية ٤٠ .

(٦) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٧) شرح الأصول الخمسة ٣١٥ - ٣١٦ ، ٤٥٩ .

إن عقدة مشابهة المخلوق للخالق - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - عند المعتزلة دفعتهم إلى نفي الصفات عند الله تعالى اطلاقاً لتنزيهه من مشابهة المخلوق ، وهذا الفرار من التشبيه أدى بهم إلى التعطيل ، كما أنهم نزهوا الله تعالى في العدل عن الظلم حتى لايشابه المخلوق في صدور الظلم عنه ، ونسى المعتزلة أو جهلوا أنه ليس ماكان من بني آدم ظلماً وقبيحاً أن يكون من الله تعالى ظلماً وقبيحاً .

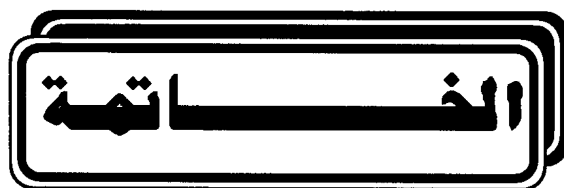
وأما قول القاضي عبد الجبار «لايحسن أن يتمدح بنفي الظلم عن نفسه وهو غير قادر عليه»[1] فهو قول مردود حيث إن الله تعالى أخبر بصورة واضحة وصريحة أنه حرم الظلم على نفسه ، والممتنع لايوصف بذلك ، وأيضاً أخبر سبحانه أنه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم ، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ماهو قادر عليه ، لا ماهو ممتنع عليه[2] .

وهكذا يتبين موقف المعتزلة من الأحاديث النبوية المتعلقة بأفعال العباد ، وإنه موقف متردد بين الأخذ بالحديث أو رده ، فإن وافق مباد ءهم وعقولهم أخذوا به ، وإن خالف ردوه ، ولذلك انحرفوا عن الطريق الصحيح .

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٦ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٨ .


الخاتمة

الخاتمة

لله الحمد والشكر على ماأنعم وامتن وسهل ويسر ، أحمده حمداً كثيراً كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأصلي واسلم على رسول الهدى محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد :

فقد ناقشت هذ الدراسة أفعال العباد على ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد احتوت على ثلاثة أبواب ، عالج الباب الأول منها الإرادة الإلهية وصلتها بالإنسان وعالج الباب الثاني الهدى والضلال من حيث المفهوم والأسباب ، وأما الباب الثالث فانصب الحديث فيه على بيان عرض القرآن الكريم والسنة النبوية لأفعال العباد والفهم الحق لها ، مع بيان موقف الجبرية والمعتزلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بذلك والرد عليهم .

وخلال هذا البحث توصلت إلى العديد من النتائج أجملها فيما يلي :

١ - اتفق سلف الأمة ، على أن الإيمان قول واعتقاد وعمل ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

٢ - واتفقوا كذلك ، على أن إضافة العمل لمسمى الإيمان ، لايعني أنه جزء من أصل الإيمان بحيث ينعدم الإيمان بانعدام العمل ، لإجماعهم على أن العاصي بترك بعض الواجبات مؤمن ، ولكن يقيد بمؤمن عاصٍ ، فإضافة العمل إلى الإيمان بناءً على هذا ، إضافة كمال .

٣ - أخرج الإمام أبو حنيفة العمل في مسمى الإيمان ، ورأى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص من جهة العمل ولكنه يزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق ،ومع ذلك فإن الخلاف بين الجمهور وقول الإمام أبي حنيفة غير كبير ، بل هو خلاف لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد ، ويؤكد هذا اتفاق الجمهور وأبي حنيفة على عدم تكفير مرتكب الكبيرة ، وعدم الحكم عليه بالخلود في النار خلافاً للخوارج والمعتزلة .

٤ - منع الإمام أبو حنيفة و الجمهور القول بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما تقول المرجئة ، بل هو في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه .

٥ - اتفق الإمام أبو حنيفة مع الجمهور على أن الإنسان لو صدق بقلبه ونطق بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عاص لله تعالى وللرسول ﷺ مستحق للوعيد .

٦ - إن منهج السلف في فهم أفعال العباد وغيرها من العقائد يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهو المنهج الحق السليم ، ولذلك كان فهمهم الأسلم والأحكم حيث إنه واضح وصريح في إثبات ماأثبته الله تعالى ورسوله ﷺ ونفى مانفاه الله ورسوله ﷺ .

٧ - إن الإنسان يعيش في هذه الحياة خاضعاً لمشيئة الله تعالى ضمن دائرتين ، الأولى تتمثل بالإرادة الكونية ، والقضاء الكوني ، والأمر الكوني ، وهذه الأمور لا إرادة للإنسان ولا اختيار في حدودها لأنه يسير ضمنها مجبراً ، ولذلك لايحاسب ولا يسأل عما تضمنته هذه الدائرة ، وأما الدائرة الثانية ، فهي الدائرة الشرعية والتي تتمثل بالإرادة والقضاء والأمر الشرعي ، وهذه الأمور تتمثل فيها حرية الإنسان واختياره وقدرته وإرادته ، فهو إن شاء فعل وإن شاء ترك ، ولكنه يحاسب ويعاقب على ماتضمنته هذه الدائرة لأنها تتعلق بالأوامر والنواهي والتشريعات الدينية .

٨ - إن من رحمة الله تعالى بالإنسان أنه لم يكلفه بما لا يطيق .

٩ - إن هداية الناس بمعنى الإرشاد والبيان ، هداية عامة للمؤمن والكافر والمطيع والعاصي ، وعليه فيصح إضافتها للرسل والأنبياء ، وإلى كل داع لدين الله عز وجل ، وأما هداية التوفيق فقد خص الله تعالى بهانفسه ونفاها عن غيره حتى عن رسوله محمد ﷺ .

١٠ - لايهب الله تعالى هداية التوفيق إلا لمن كان أهلاً لها وذلك بالإنابة إلى الله تعالى والإيمان به والالتزام بأمره والانتهاء بنهيه ، والأخذ بسائر أسباب الهداية .

١١ - إن الله تعالى لا يضل الإنسان إبتداءً كأن يجبره أو يقهره على الضلال ، بل يبدأ الإنسان بالضلال ثم يعاقبه الله تعالى بإضلاله .

١٢ - إن الله تعالى لا يضل إلا من أعرض عن ذكره ، وعمل الأسباب المفضية إلى الضلال ، كالكفر والنفاق وغير ذلك من الكبائر ، التي إذا تتابعت على القلب أغلقته .

١٣ - إن الله تعالى خالق كل شيء ومن ذلك أفعال العباد ، وأما العباد فهم كاسبون لأفعالهم ، وهذا هو الذي ذكره القرآن الكريم وأيدته السنة النبوية .

١٤ - إن من أبرز اسباب اختلاف المسلمين حول أفعال العباد ، عدم فهم البعض (الجبرية والمعتزلة) لها من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، مع تأثرهم بالأفكار الدخيلة والفلسفات القديمة .

١٥ - ظن الجبرية أن أفعال العباد ، هي - في الحقيقة - أفعال لله تعالى ، مما أوقعهم في عدم التفريق بين فعل العبد وفعل الرب سبحانه وتعالى ، وهذا دفعهم للاعتقاد بأن أفعال العباد كلها طاعات خيرها وشرها .

١٦ - إن القول بالجبر ينافي التوحيد ، وينافي الشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب ، ويلزم منه عدم التفريق بين أولياء الله وأعداء الله ، ولابين المؤمنين والكفار ، ولا أهل الجنة ولا أهل النار .

١٧ - ضلال المعتزلة عن معرفة الحق في مسائل العقيدة الإسلامية يرجع إلى :

- اتخاذهم الدليل العقلي معياراً للحقيقة الدينية وتقديمه على النص الشرعي .
- اعتمادهم قياس الغائب على الشاهد (أي قياس أفعال الله تعالى على أفعال الإنسان) ،وهذا أوقعهم في أخطاء جسام حيث نفوا صفات الله تعالى وأفعاله ، كما حكموا على أفعال العباد بأنها خلق منهم ، وأنكروا كونها خلقاً لله تعالى ، وكان الأولى بهم أن يبحثوا أفعال العباد ضمن دائرة الثواب والعقاب ، وليس من جانب الخلق والإرادة .
- تأويل الآيات القرآنة حسب أهوائهم وآرائهم ، فما خالفها حملوه على المجاز، فراراً من الحقيقة .

التوصيات :

إن كانت لابد من توصيات أوصي بها في نهاية هذا البحث ، فأوصي بما يلي :

أولاً : دعوة المسلمين إلى توحيد صفوفهم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

ثانياً : نبذ الخلافات التي بينهم ، ومواجهة أعداء الإسلام من يهود ونصارى ومنافقين.

ثالثاً : العمل على اظهار زيف أفكار ومعتقدات الفرق الضالة والمبادئ الفاسدة ، وذلك بدراسة ماتكتب أو تنشر للرد عليها وبيان زيفها ، وتحذير المسلمين منها .

وبعد : فهذا مايسره الله تعالى من كتابة هذا البحث ، فما كان فيه من صواب ، فهو من الله تعالى ، وماكان فيه من خطأ ، فهو من نفسي ومن الشيطان ، وأسأل الله المغفرة والتسديد ، ولا أزعم أني أوفيت البحث حقه ، وإنما حاولت بذل الجهد في الوصول إلى الحق ... والله أعلم ، ﴿... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (١) .

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

وآخر دعوانا

أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة يوسف الآية ٧٦ .

الفهارس

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

ثالثاً : فهرس الأعلام المترجم لهم

رابعاً : فهرس المصادر والمراجع

مرتبة حسب حروف الهجاء

١ - القرآن الكريم :

٢ - الإبانة عن أصول الديانة . للإمام أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م ، دار الكتاب العربي - بيروت .

٣ - إحياء علوم الدين . للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، طبعةسنة ١٤٠٢ه ، ١٩٨٢م . ، دار المعرفة - بيروت - لبنان .

٤ - الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة . للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ضمن كتاب عقائد السلف ، تحقيق د. على سامي النشار ، عمار جمعة الطالبي ، إلناشر منشأة المعارف - الاسكندرية .

٥ - الأذكار ، للإمام محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، سنة ١٣٩١ هـ سنة ١٩٧١م ، مطبعة الملاح ، دمشق .

٦ - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد . لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني ، تحقيق أسعد تميم ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٥م ، مؤسسة الكتب الثقافية - لبنان .

٧ - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري . لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني المتوفي سنة ٩٢٣هـ ، طبعة سنة ١٥٠٣هـ ، دار الفكر - القاهرة .

٨ - الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية . عبد العزيز محمد السلمان ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٠هـ سنة ١٩٧٠م ، بدون دار نشر .

٩ - الأساس في التفسير . سعيد حوي ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٩هـ سنة ١٩٨٩م ، دار السلام للطبعة والنشر - القاهرة .

١٠ - الإسلام وثقافة الإنسان . سميح عاطف الزين ، الطبعة السابعة ، سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م ، دار الكتاب اللبناني - بيروت .

١١ - الأسماء والصفات . للإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفي سنة ٧٢٨هـ ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت .

١٢ - الأسماء والصفات . للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، الناشر المركز الإسلامي للكتاب ، بدون طبعة أو سنة أو بلد .

١٣ - الإصابة في تمييز الصحابة . للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ ، دار صادر - بيروت .

١٤ - أصول الدعوة . عبد الكريم زيدان ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٦هـ سنة ١٩٧٦م ، دار البيان - بغداد .

١٥ - أصول الدين . أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، متوفي سنة ٤٢٩هـ ، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

١٦ - الأصول والفروع . لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ سنة ١٩٨٤م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

١٧ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، طبعة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

١٨ - الإعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد . للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق د. السيد الجميلي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .

١٩ - الأعلام . خير الدين الزركلي . الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٠م ، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان .

٢٠ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية متوفي سنة ٧٥١ هـ تحقيق د. السيد الجميلي ، دار ابن زيدون ، بيروت ، لبنان . بدون تاريخ .

٢١ - الاقتصاد في الإعتقاد .للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٢٢ - إملاء مامنّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقرآءات في جميع القرآن . لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٢٣ - الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي ، حاشية الكشاف ، دار الفكر للطبعة والنشر - بيروت - لبنان ، تاريخ .

٢٤ - إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق في أصول التوحيد لأبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

٢٥ - الإيمان . شيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ ، سنة ١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٢٦ - الإيمان أركانه ، حقيقته ، نواقضه ، د. محمد نعيم ياسين ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، المطابع التعاونية - عمان - الأردن .

٢٧ - بدائع الفوائد . لابن قيم الجوزية ، عني بتصحيحه والتعليق عليه إدارة الطباعة المنيرية ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

٢٨ - البداية والنهاية . للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، الطبعة الخامسة سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م ، مكتبة المعارف - بيروت - لبنان .

٢٩ - بذل المجهود في حل أبي داود . الشيخ أحمد السهار نفوري ، تعليق محمد زكريا الكاندهلوي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

٣٠ - بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والإتحاد . شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق ودراسة د. موسى بن سليمان الدويش ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م ، مكتبة العلوم والحكم .

٣١ - تأويل مشكل القرآن . أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري بن قتيبة ، طبعة سنة ١٣٧٣هـ سنة ١٩٥٤م ، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .

٣٢ - تاريخ الجدل . الإمام محمد أبو زهرة ، طبعة سنة ١٩٨٠م ، دار الفكر العربي .

٣٣ - تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين . علىَ مصطفى الغرابي ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة .

٣٤ - تاريخ المذاهب الإسلامية . للإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي - القاهرة ، بدون تاريخ .

٣٥ - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الهالكة . لأبي المظفر الإسفراييني تحقيق الشيخ محمد زاهر الكوثري ، طبعة سنة ١٣٥٩هـ سنة ١٩٤٠م - القاهرة
٣٦ - تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد . الشيخ إبراهيم بن محمد البيجوري ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية - بيروت .
٣٧ - التحف في مذاهب السلف . محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، مطبعة الإمام ، مصر ، دون ذكر طبعة أو تاريخ .
٣٨ - تحقيق المقام على كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام . للشيخ محمد البيجوري - وبهامشه كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام ، للشيخ محمد الفضالي الشافعي ، طبعة ١٣٦٨هـ سنة ١٩٤٩م ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ، بدون تاريخ .
٣٩ - تربيتنا الروحية . سعيد حوي ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م ، دار الكتب العلمية - بيروت .
٤٠ - التسهيل لعلوم التنزيل . محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٣هـ سنة ١٩٧٣م ، دار الكتاب العربي - بيروت .
٤١ - التشريع الجنائي في الإسلام . عبد القادر عودة ، دار الكتاب العربي - بيروت ، بدون تاريخ .
٤٢ - التعريفات . للشريف علي بن محمد الجرجاني ، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٨ سنة ١٩٨٨م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
٤٣ - تفسير غريب القرآن . لأبي محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت . بدون تاريخ .
٤٤ - تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل . محمد جمال الدين القاسمي ، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، دار الفكر - بيروت .
٤٥ - تفسير القرآن العظيم . للإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، الطبعة سنة ١٤٠٠ هـ سنة ١٩٨٠م ، دار المعرفة - بيروت - لبنان .
٤٦ - التفسير القيم . للإمام ابن قيم الجوزية ، جمعه محمد أويس الندوي ، حققه محمد حامد الفقي ، طبعة سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م ، دار الفكر - بيروت - لبنان .

٤٧ - التفسير الكبير . للإمام فخر الدين الرازي ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، طهران ، طبعة أخرى - الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ سنة ١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٤٨ - تفسير كلام المنان . عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق محمد زهري النجار ، الناشر المؤسسة السعدية بالرياض - السعودية ، دون طبعة أو تاريخ .

٤٩ - تفسير الماوردي المسمى النكت والعيون . لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية - بيروت .

٥٠ - تفسير المراغي . أحمد مصطفى المراغي ، دار الفكر - القاهرة ، دون ذكر طبعة أو تاريخ .

٥١ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج . د. وهبة الزحيلي ، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ سنة ١٩٩١م ، دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان ، دار الفكر - دمشق - سورية .

٥٢ - التفسير والمفسرون . د. محمد حسين الذهبي الطبعة الثانية سنة ١٣٩٦هـ سنة ١٩٧٦م ، دار الكتب الحديثة - القاهرة .

٥٣ - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين . للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني طبعة سنة ١٩٨٣م ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان .

٥٤ - التفكير الفلسفي في الإسلام . الإمام عبد الحليم محمود ، دار المعارف - القاهرة ، بدون طبعة أو تاريخ .

٥٥ - تقريب التهذيب . للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني توفي سنة ٨٥٢هـ ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥ هـ سنة ١٩٧٥م ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

٥٦ - تلبيس إبليس . جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ ،دار القلم - بيروت .

٥٧ - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس . لأبي طاهر بن يعقوب الفيروز أبادي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بدون طبعة أو تاريخ .

٥٨ - تهافت التهافت ، للقاضي أبي الوليد محمد بن رشد ، تحقيق د. سليمان دنيا ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ .

٥٩ - تهافت الفلاسفة . للإمام أبي حامد الغزالي تحقيق وتقديم د. سليمان دنيا ، الطبعة السابعة سنة ١٩٨٠م ، دار المعارف - القاهرة .

٦٠ - تهذيب التهذيب للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ، طبعة حيدر أباد سنة ١٣٢٧ ، طبعة دار صادر - بيروت .

٦١ - تهذيب مدارج السالكين . لابن القيم ، تهذيب عبد المنعم صالح العلي ، مطبعة كاظم - دبي - الإمارات العربية المتحدة ، بدون طبعة أو تاريخ .

٦٢ - جامع الأصول في أحاديث الرسول . مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، طبعة سنة ١٣٩٢هـ سنة ١٩٧٢م ، نشر وتوزيع مكتبة دار البيان .

٦٣ - جامع البيان في تفسير القرآن . لأبي جعفر بن جرير الطبري ، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٠ هـ سنة ١٩٨٠م ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

٦٤ - جامع الرسائل . للإمام أحمد بن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٤م ، مكتبة ابن تيمية - القاهرة .

٦٥ - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير . جلال الدين عبد الرحمن بن أبي أبكر السيوطي ، الطبعة الرابعة ، دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

٦٦ - جامع العلوم والحكم . لابي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي البغدادي ، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر - الاسكندرية - مصر ، بدون تاريخ .

٦٧ - الجامع لأحكام القرآن . أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، المتوفي سنة ٦٧١هـ ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م ، دار الكتب العلمية - بيروت .

٦٨ - جلاء العينين في محاكمة الأحمدين . أحمد بن تيمية وأحمد بن حجر الهيثمي ، للسيد نعمان خير الدين الشهير بابن الألوسي البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

٦٩ - أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه وفقهه . محمد أبو زهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥م ، دار الفكر العربي - القاهرة .
٧٠ - الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة سنة ١٩٤٥م - القاهرة .
٧١ - خاتم النبيين ﷺ .الشيخ محمد أبوزهرة ، طبعة المؤتمر العالمي للسيرة النبوية - عني بالطبع عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - الدوحة - قطر ، بدون طبعة أو تاريخ .
٧٢ - خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، الطبعة الثالثة سنة ١٤١١هـ سنة ١٩٩٠م ، مؤسسة الرسالة - بيروت .
٧٣ - درء تعارض العقل والنقل . للإمام ابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢هـ سنة ١٩٨٢م ، طبعة جامعة محمد بن سعود الإسلامية - الرياض .
٧٤ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جار الحق ، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٥هـ سنة ١٩٦٦م ، دار الكتب الحديثة - القاهرة .
٧٥ - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين . محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي ، الطبعة الثالثة ، إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة - الرياض - السعودية . بدون تاريخ .
٧٦ - الدين الخالص . السيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري تحقيق وتصحيح محمد زهير النجار ، مكتبة دار التراث - القاهرة ، بدون طبعة أو تاريخ .
٧٧ - الرد على الزنادقة والجهمية . للإمام أحمد بن حنبل ، ضمن كتاب عقائد السلف ، د. علي سامي النشار ، الناشر منشأة المعارف - الاسكندرية ، بدون طبعة أو تاريخ .
٧٨ - الرسالة . للإمام محمد بن إدريس الشافعي تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، بدون طبعة أو تاريخ .

٧٩ - الرسالة التدميرية . للإمام أحمد بن تيمية ضمن مجموع الفتاوي ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ، مطابع الدار العربية - بيروت - لبنان .
٨٠ - روح الدين الإسلامي . عفيف عبد الفتاح طبارة ، الطبعة الثامنة عشرة ١٩٧٩م ، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان .
٨١ - زاد المسير في علم التفسير . لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجزري ، تحقيق محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٧م ، دار الفكر - بيروت - لبنان .
٨٢ - زاد المعاد في هدى خير العباد . لابن القيم الجوزية ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢هـ سنة ١٩٧٢م ، در الفكر - بيروت .
٨٣ - سنن ابن ماجة . الحافظ أبي عبد الله بن يزيد القزويني ابن ماجة ، توفي سنة ٢٧٥ هـ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت ، بدون تاريخ .
٨٤ - سنن أبي داود . للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ، راجعه وضبطه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت ، بدون عنوان .
٨٥ - سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح . لأبي عيسى بن محمد بن عيسى بن سورة ، توفي سنة ٢٩٧هـ ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة .
٨٦ - سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ، وحاشية الإمام السندي ، اعتنى به ورقمه ووضع فهارسه عبد الفتاح أبو غدة ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٦م ، دار البشائر الإسلامية - بيروت ، لبنان .
٨٧ - السيرة النبوية . لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا ، دار احياء التراث العربي - بيروت ، بدون طبعة أو تاريخ .
٨٨ - السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنو المغازي والشمائل والسير . محمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس ، طبعة سنة ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٦م ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ، ودار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان .

٨٩ - السيرة النبوية . أبو الحسن على الحسني الندوي ، دار الشروق - جدة - السعودية . بدون تاريخ .
٩٠ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب . لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، توفي سنة ١٠٨٩هـ ، المطبعة التجارية للنشر والتوزيع - بيروت ، بدون تاريخ .
٩١ - شرح الأربعين النووية . للإمام يحيى بن شرف الدين النووي ، توفي سنة ٦٧٦هـ ، منشورات مكتبة دنديس - الخليل - فلسطين ، بدون تاريخ .
٩٢ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم . تأليف أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان - الناشر دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض ، بدون طبعة أو تاريخ .
٩٣ - شرح الأصول الخمسة . للقاضي عبد الجبار بن أحمد ، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م ، مكتبة وهبة - القاهرة .
٩٤ - الشرح الجديد لجوهرة التوحيد . الشيخ محمد أحمد العدوي . الطبعة الأولى سنة ١٣٦٦هـ سنة ١٩٤٧هـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة .
٩٥ - شرح السنة . للإمام المحدث الفقيه الحسين بن مسعود البغوي ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م - بيروت - لبنان .
٩٦ - شرح العقائد النسفية . سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ، تحقيق د. أحمد حجازي السقا ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٧م ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .
٩٧ - شرح العقيدة الطحاوية ، صدر الدين محمد بن علاء الدين بن أبي العز الحنفي ، حققها وراجعها جماعة من العلماء ، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة السادسة سنة ١٤٠٠هـ ، المكتب الإسلامي - بيروت .
٩٨ - شرح كتاب الفقه الأكبر . للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وشرحه للإمام الملا علي القاري الحنفي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ سنة ١٩٨٤م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٩٩ - شرح المقاصد للإمام مسعود بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني . تحقيق د. عبد الرحمن عميرة ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩هـ سنة ١٩٨٩م ، عالم الكتب - بيروت .

١٠٠ - شرح النسفية في العقيدة الإسلامية . د. عبد المالك عبد الرحمن السعدي ، الطبعة الأولي سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م ، دار الأنبار - بغداد .

١٠١ - الشريعة . للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

١٠٢ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل . للإمام شمس الدين أبي عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية ، طبعة سنة ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م ، دار الفكر للطباعة والنشر .

١٠٣ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩م ، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان .

١٠٤ - صحيح البخاري . أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، المكتب الإسلامي - استانبول - تركيا ، بدون تاريخ .

١٠٥ - صحيح البخاري بشرح الكرماني . شمس الدين محمد بن يوسف بن محمد سعيد الكرماني ، توفي سنة ٧٨٦هـ ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

١٠٦ - صحيح مسلم . لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، توفي سنة ٢٦١هـ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة سنة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ، نشر إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض .

١٠٧ - صحيح مسلم بشرح النووي . للإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي . المكتبة المصرية - القاهرة . بدون طبعة أو تاريخ .

١٠٨ - صفوة التفاسير . محمد علي الصابوني ، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٢هـ سنة ١٩٨١م ، دار القرآن الكريم - بيروت - لبنان .

١٠٩ - ضحى الإسلامي . أحمد أمين ، الطبعة العاشرة سنة ١٩٨٢م ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
١١٠ - طبقات الحفاظ . للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، توفي سنة ٩١١هـ ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
١١١ - طبقات الشافعية . للإمام السبكي ، الطبعة الأولى سنة ١٣١٣هـ ، مطبعة عيسى الحلبي - القاهرة .
١١٢ - الطبقات الكبرى . لأبن سعد بن منيع البصري الزهري ، طبعة سنة١٣٧٦هـ سنة ١٩٥٧م - بيروت - لبنان .
١١٣ - طريق الهجرتين وباب السعادتين . للإمام ابن قيم الجوزية ، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، مطابع الدوحة الحديثة - دولة قطر ، بدون تاريخ .
١١٤ - عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي للإمام ابن العربي المالكي . دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .
١١٥ - العقائد الإسلامية . السيد سابق ، طبعة سنة ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٥م ، دار الكتاب العربي .
١١٦ - العقيدة الإسلامية وأسسها . عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م ، دار القلم دمشق .
١١٧ - عقيدة السلف وأصحاب الحديث . للإمام أبي عثمان اسماعيل الصابوني ، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ، إدارة الطباعة المنيرية ، طبعة سنة ١٩٧٠م - بيروت .
١١٨ - عقيدة المسلم - محمد الغزالي ، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٤هـ سنة ١٩٨٤م ، دار الكتب الإسلامية - القاهرة .
١١٩ - عقيدة المسلم في ضوء القرآن والسنة . خالد عبد الرحمن العك ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م ، دار الإيمان - بيروت .
١٢٠ - عقيدة المؤمن . أبوبكر الجزائري سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٥م ، دار الكتب السلفية - القاهرة .

١٢١ - العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية . لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ، تحقيق د. أحمد حجازي السقا ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

١٢٢ - العقل والحرية . دراسة في فكر القاضي عبد الجبار المعتزلي ، د. عبد الستار الراوي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت .

١٢٣ - علاقة صفات الله تعالى بذاته . د.راجح عبد الحميد الكردي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م ، دار العدوي للتوزيع والنشر - عمان - الاردن .

١٢٤ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري . للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني متوفي سنة ٨٥٥هـ ، إدارة الطباعة المنيرية ، الناشر محمد أمين دمج - بيروت ، بدون طبعة أو تاريخ .

١٢٥ - عون المعبود ، شرح سنن أبي داود .لأبي الطيب شمس الحق آبادي ،ضبط وتحقيق محمد عثمان ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩م ، المكتبة السلفية .

١٢٦ - فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي ، واشرف على طبعه محب الدين الخطيب ، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض ، بدون طبعة أو تاريخ .

١٢٧ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير . محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

١٢٨ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد . الشيخ عبد الرحمن بن حمد آل الشيخ ، تحقيق محمد حامد الفقي . الطبعة السابعة سنة ١٣٧٧هـ سنة ١٩٥٧م ، دار الكتب العلمية - بيروت .

١٢٩ - فتح المنعم شرح صحيح مسلم . د. موسى شاهين لاشين ، الطبعة الثانية ، دار التراث العربي - القاهرة ..

١٣٠ - الفرقان بين الحق والباطل . لابن تيمية . الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، دار الطباعة المحمدية - القاهرة .

١٣١ - الفرق بين الفرق . عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرائيني ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،دار المعرفة -بيروت -لبنان، بدون تاريخ أو طبعة .

١٣٢ - الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة . د. علي عبد الفتاح المغربي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٦م ، دار التوفيق النموذجية - القاهرة .

١٣٣ - الفصل في الملل والأهواء والنحل . للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر ، و د. عبد الرحمن عميرة ، الطبعة سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٥م ، دار الجيل - بيروت .

١٣٤ - في علم الأخلاق قضايا ونصوص .د. محمد السيد الجليند، طبعة سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩م ، مطبعة التقدم - القاهرة .

١٣٥ - فقه السيرة . د. محمد سعيد رمضان البوطي ، الطبعة السابعة سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، دار الفكر - بيروت .

١٣٦ - فلسفة القدر في فكر المعتزلة . د. سميح دغيم ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م ، دار التنوير للطباعة والنشر - لبنان .

١٣٧ - الفوائد لابن قيم الجوزية ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث - القاهرة .

١٣٨ - فوات الوفيات . محمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق د. احسان عباس ، دار الثقافة - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

١٣٩ - في ظلال القرآن الكريم سيد قطب الطبعة السابعة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، دار الشروق - بيروت - لبنان .

١٤٠ - في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق . د. إبراهيم مدكور ، الجزء الثاني ، الطبعة سنة ١٩٧٦م ، دار المعارف - القاهرة .

١٤١ - قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة . جميل بن خميس السعدي ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م - سلطنة عمان .

١٤٢ - القاموس المحيط للشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي ، طبعة سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، دار الفكر - بيروت .

١٤٣ - القضاء والقدر في الإسلام . الدكتور فاروق دسوقي ، دار الدعوة للطباعة والنشر ، مكتبة ابن تيمية - الاسكندرية ، بدون تاريخ .

١٤٤ - القضاء والقدر والرد على من يحتج بالقدر . للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق أبي الفداء الأثري ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩ سنة ١٩٨٩م ، مكتبة السنة - القاهرة .

١٤٥ - كبرى اليقينيات الكونية . الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، الطبعة الثامنة سنة ١٤٠٢هـ ، دار الفكر .

١٤٦ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، توفي سنة ٥٣٨هـ ، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت ، بدون تاريخ .

١٤٧ - الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة . للإمام الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨هـ ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

١٤٨ - لسان العرب . جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور ، طبعة دار المعارف - القاهرة ، طبعة دار صادر - بيروت ، بدون تاريخ .

١٤٩ - لسان الميزان . للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ، طبعة سنة ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٧م ، دار الفكر - بيروت .

١٥٠ - اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع . للإمام أبي الحسن الأشعري ، تصحيح وتقديم د. حمودة غرابة ، طبعة سنة ١٩٥٥م ، مطبعة مصر .

١٥١ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية . للشيخ محمد السفاريني الحنبلي ، الطبعة الثالثة سنة ١٤١١هـ سنة ١٩٩١م ، المكتب الإسلامي - بيروت .

١٥٢ - متشابه القرآن . للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني . تحقيق د. عدنان محمد زرزور طبعة سنة ١٩٦٩م ، دار التراث - القاهرة .

١٥٣ - مجموعة التوحيد . لشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء - الرياض - السعودية ، بدون طبعة أو تاريخ .

١٥٤ - مجموعة الحديث ، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض - السعودية ، بدون طبعة أو تاريخ .

١٥٥ - مجموعة رسائل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود ، نشر المكتب الإسلامي - بيروت . بدون طبعة أو تاريخ .
١٥٦ - مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ، بدون طبعة أو تاريخ أو ناشر .
١٥٧ - مجموعة الرسائل المنيرية ، محمد منير الدمشقي ، إدارة الطباعة المنيرية ، الناشر محمد أمين وحج ، طبعة سنة ١٩٧٠م - بيروت .
١٥٨ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفي سنة ٨٠٧ هـ ، الطبعة سنة ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٦م ، مؤسسة المعارف - بيروت .
١٥٩ - مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد النجدي ،الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ،مطابع دار العربية - بيروت-لبنان .
١٦٠ - المجموع في المحيط بالتكليف . القاضي عبد الجبار ، تحقيق عمر عزمي - طبعة القاهرة ، بدون تاريخ .
١٦١ - مختار الصحاح .للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، تحقيق لجنة من علماء العربية ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
١٦٢ - مختصر تفسير الطبري . اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ود. صالح أحمد رضا ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م ، دار القرآن الكريم - بيروت .
١٦٣ - مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة . للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، اختصار الشيخ محمد بن الموصلي ، توزيع إدارات البحوث العلمية والإفتاء - الرياض - السعودية ، بدون تاريخ .
١٦٤ - المختصر في أصول الدين . للقاضي عبد الجبار ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد ، الجزء الأول تحقيق محمد عمارة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧١م - مصر
١٦٥ - مختصر منهاج القاصدين . للإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي ، مكتبة الهدى الإسلامي - الحدائق - كفر الدوار . بدون طبعة أو تاريخ .
١٦٦ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . لابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٣هـ سنة ١٩٧٣م ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .

١٦٧ - مدخل إلى ظلال القرآن . د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٦م ، دار المنارة - جدة - السعودية .
١٦٨ - مسألة القضاء والقدر . عبد الحليم محمد قبنس ، وخالد عبد الرحمن العلك ، دار الكتاب العربي - دمشق ، بدون طبعة أو تاريخ .
١٦٩ - المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة . جمع وتحقيق ودراسة عبد الإله بن سلمان بن سالم الأحمدي ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩١م ، دار طيبة - الرياض - السعودية .
١٧٠ - المسايرة في علم الكلام . الكمال بن الهمام الحنفي ، الطبعة الأولى ، المطبعة المحمودية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
١٧١ - المستدرك على الصحيحين . للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .
١٧٢ - المستصفى في علم الأصول .لحجة الإسلام أبي حامد حمد بن محمد الغزالي ، دار الفكر - بيروت ، بدون تاريخ .
١٧٣ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ، دار الفكر - بيروت - لبنان .
١٧٤ - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد . الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ، مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء - السعودية ، بدون تاريخ أو طبعة .
١٧٥ - معالم أصول الدين . فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي ، مراجعة وتعليق عبد الرؤوف سعد ، طبعة سنة ١٤٠٤هـ سنة ١٩٨٤م ، دار الكتاب العربي - بيروت .
١٧٦ - المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية . د. محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت . بدون تاريخ .
١٧٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .
١٧٨ - المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية . الطبعة الثالثة - القاهرة ، بدون تاريخ .

١٧٩ - كتاب المغازي . للواقدي . محمد بن عمر بن واقد ، المتوفي سن ٢٠٧هـ ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت لبنان ، بدون تاريخ .

١٨٠ - المغنى في أبواب التوحيد والعدل للقاضي أبي الحسن عبد الجبار ، الجزء ٨ ، ٩، تحقيق د. أحمد فؤاد الأهواني ، والدكتور إبراهيم مدكور ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٢هـ سنة ١٩٦٢م ، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر ، وإما الجزء السادس القسم الثاني «الإرادة» ، تحقيق الأب قنواتي باشراف طه حسين ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٢هـ سنة ١٩٦٢م ، الشركة العربية للطباعة والنشر - مصر .

١٨١ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . لابن بكر عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

١٨٢ - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، طبعة دار المعرفة - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

١٨٣ - مفهوم العدل في تفسير المعتزلة للقرآن الكريم . د.كتور محمود كامل أحمد طبعة سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت .

١٨٤ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين . لأبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩م ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .

١٨٥ - الملل والنحل . لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق محمد سعيد كيلاني ، طبعة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م ، دار المعرفة - بيروت - لبنان .

١٨٦ - المنافقون في القرآن الكريم . د. محمد يوسف عبد بن حسن . طبعة سنة ١٩٩١م ، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة .

١٨٧ - مناهج الإسلاميين في إثبات وجود الله . دراسة ونقداً إعداد صالح حسين سليمان الرقب رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة من جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ، كلية أصول الدين ، إشراف الدكتور سالم الدخيل مخطوط بالجامعة الإسلامية بغزة - فلسطين ، برقم ٢٤١ .

١٨٨ - المنتقى في منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال . للحافظ أبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق محب الدين الخطيب ، بدون طبعة أو تاريخ أو دار نشر .
١٨٩ - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية . للإمام أحمد بن تيمية ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
١٩٠ - من وصايا الرسول . شرح طه عبد الله العفيفي ، دار الإعتصام - القاهرة ، بدون تاريخ .
١٩١ - موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول . للإمام ابن تيمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٥م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
١٩٢ - المواقف في علم الكلام . للقاضي عبد الرحمن بن أحمد الإيجي ، مكتبة المتنبي - القاهرة ، بدون طبعة أو تاريخ .
١٩٣ - موسوعة أخلاق القرآن . د. أحمد الشرباصي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م ، دار الرائد العربي ، بيروت - لبنان .
١٩٤ - موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف . أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م ، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت .
١٩٥م - موسوعة فقه عمر بن الخطاب . د.محمد رواس قعلة جي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م ، مكتبة الفلاح الكويت .
١٩٦ - الموطأ . لأبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي رضي الله عنه ، دراسة وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، بدون طبعة أو تاريخ .
١٩٧ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال . أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي توفي سنة ٧٤٨ هـ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر للطباعة والنشر، بدون تاريخ .
١٩٨ - النبوات شيخ الإسلام ابن تيمية ، طبعة سنة ١٣٤٦هـ ، دار الفكر - بيروت - لبنان .
١٩٩ - نزهة المتقين شرح رياض الصالحين . دكتور مصطفى سعيد الخن وآخرين ، الطبعة السادسة سنة ١٤٠٤هـ سنة ١٩٨٤م ، مؤسسة الرسالة - بيروت .

٢٠٠ - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . د.علي سامي النشار ، الجزء الأول ، الطبعة السابعة ، سنة ١٩٧٧م دار المعارف القاهرة ، الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٥هـ سنة ١٩٦٥م ، دار المعارف - القاهرة .

٢٠١ - نظام الإسلام - العقيدة والعبادة . محمد المبارك ، الطبعة السابعة سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م ، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

٢٠٢ - النفاق والمنافقون . إبراهيم علي سالم ، دار الشعب - القاهرة ، بدون طبعة .

٢٠٣ - نهج البلاغة ، الجامع لخطب ورسائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . جمع الشريف أبو الحسن محمد بن الحسن الموسوي ، شرح الإمام محمد عبده ، تحقيق عبد العزيز سيد أهل ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٨م ، دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

٢٠٤ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . لأبي العباس شمس الدين أحمد بن خلكان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبعة سنة ١٩٤٨م ، مكتبة نهضة مصر.

خامساً : فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
- اللطف عند المعتزلة :	١١٩
- موقف السلف من اللطف :	١٢١
- الصلاح والأصلح عند المعتزلة :	١٢٣
- الحسن والقبح عند المعتزلة :	١٢٦
- الرد على موقف المعتزلة من التحسين والتقبيح :	١٢٧
ثالثاً : المفهوم الحق للهدى :	١٣١
المبحث الثاني : مراتب الهدى وأسبابه :	١٣٦
المطلب الأول : مراتب الهدى :	١٣٦
المرتبة الأولى : الهدى العام :	١٣٦
المرتبة الثانية : هداية الإرشاد والبيان :	١٣٧
المرتبة الثالثة : هداية التوفيق والإلهام :	١٣٨
المرتبة الرابعة : الهدى إلى الجنة أو إلى النار يوم القيامة :	١٤١
المطلب الثاني : أسباب الهدى :	١٤٢
(أ) أسباب الهداية العامة :	١٤٢
أولاً : سلامة الفطرة :	١٤٣
ثانياً : الإيمان :	١٤٤
ثالثاً : التأمل والتفكر :	١٤٧
رابعاً : صدق النية والإرادة :	١٥٠
خامساً : الخلق من الموانع العائقة :	١٥٥
سادساً : عدم الإستجابة لأعداء هدى الله :	١٥٦
سابعاً : الرغبة الجادة في معرفة الحق والتزامه :	١٦٢
(ب) أسباب الهداية الخاصة :	١٦٥
أولاً : الاستقامة :	١٦٥
ثانياً : التقوى :	١٦٧
ثالثاً : المجاهدة :	١٧١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
٦ - الإغفال :	٢٢١
٧ - تضييق الصدر وجعله حرجاً لا يقبل الإيمان :	٢٢٣
المطلب الثاني : أسباب الضلال :	٢٢٤
أولاً : الكفر :	٢٢٤
ثانياً : الشرك :	٢٢٧
ثالثاً : النفاق :	٢٢٩
رابعاً : اتباع الهوى :	٢٣٢
خامساً : الظلم :	٢٣٤
سادساً : الكبر :	٢٣٧
سابعاً : الفسق :	٢٤٠
الباب الثالث : أفعال العباد في القرآن والسنة :	٢٤٤
الفصل الأول : أفعال العباد في القرآن الكريم :	٢٤٦
المبحث الأول : مناقشة أفعال العباد على ضوء القرآن الكريم :	٢٤٧
المطلب الأول : آيات الجبر وفهم السلف لها :	٢٤٧
أولاً : آيات المشيئة :	٢٤٧
ثانياً : آيات القدر :	٢٥١
ثالثاً : آيات الخلق :	٢٥٦
رابعاً : آيات الثواب والعقاب :	٢٥٩
- موقف السلف من الجبر :	٢٦٦
المطلب الثاني : آيات الاختيار :	٢٦٩
أولاً : الإرادة الإنسانية الحرة بين الثواب والعقاب :	٢٦٩
ثانياً : وجود نازعي الخير والشر في النفس «التقوى والهوى» :	٢٧٢
ثالثاً : وجود هاتفين خارج النفس «لمة الملك ولمة الشيطان» :	٢٧٥
رابعاً : وجود النجدين :	٢٧٨

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة